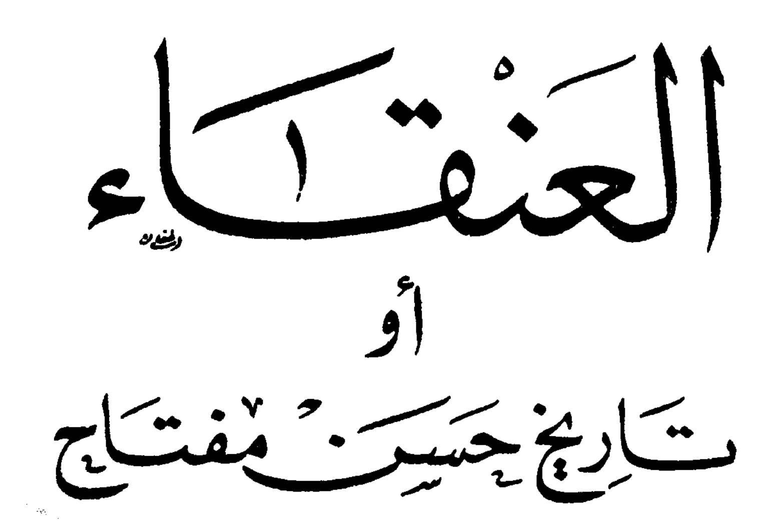
العنقاء

أو

تاريخ حسن مفتاح

الطبعة الأولى : دار الطليعة : بيروت
ايار (مايو) ١٩٦٦
الطبعة الثانية : مكتبة مدبولى
القاهرة ١٩٨٧

الدكتور لويس عوض





الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠



الإهداء

إلى سر بكر حمدي سيف النصر ؛
سقط بين برج القوس وبرج الجدي .

في عام ١٩٥٧ .
وكان يكره أن يخرج هذا الكتاب إلى النور
مادت بي الأرض يوم وفاته .

لويس عوض



مقدمة

في مايو ١٩٦٥ عثرت على مؤلف ضائع من مؤلفاتي القديمة هو « مذكرات طالب بعثة » (١٩٤٢) بعد ان حفظه الصحفي الاسكندري كناري (حسنين محمود حسنين) في ادراجه على غير علم مني نحو عشرين عاماً . وقد نشرت لي هذا الكتاب في نوفمبر ١٩٦٥ دار روز اليوسف في سلسلة « الكتاب الذهبي ».

واليوم تنشر لي « دار الطليعة » البيروتية رواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » التي كتبتها بين القاهرة وباريس من اكتوبر ١٩٤٦ الى سبتمبر ١٩٤٧ . وعلى العكس من « مذكرات بعثة » لم تكن رواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » ضائعة مني ، بل اكاد اقول انها لم تغب عن بصري أو خاطري الا نادراً طوال العشرين سنة الفائتة ، أي منذ كتبتها وانا في الثانية والثلاثين من عمري . فقد كنت لسبب غير واضح في ذهني أعتز بهذه الرواية . لا انتقل من مكان الى مكان إلا وهي معي . وأبدي الحرص الشديد على المحافظة على مخطوطها فأضعه دائماً في مكان أمين كدولاب ملابس أو في درج لا تصل إليه أيدي من يترددون على بيتي من الاصدقاء والضيوف والفضوليين . فإن أعرتها لصديق لقراءتها ، وقد قرأها نحو عشرة اشخاص على امتداد عشرين عاماً . كنت أهتم دائماً باستردادها منه خشية ان تضيع . ولعل السبب في ذلك أني كنت احس بالخطأ

أو بالصواب ان لهذا الكتاب قيمة فنية ايجابية. ولكن لا شك ايضاً في ان هناك علاقة سرية كانت تربطني بهذا العمل الفني ، ولا استبعد ان يكون منشأ هذه العلاقة اني كنت في دخيلة نفسي أعدّها بمثابة « شاهد » على ضريح مرحلة كاملة من مراحل حياتي ، هي المرحلة التي انتهت عام ١٩٤٧ ؛ وهو عام زواجي أولاً وانصرافي انصرافاً يشبه ان يكون تاماً من التفكير في الحياة العامة وانقطاعي الى البحث العلمي وحده . والذي اذكره الآن ان خمسة اشخاص قرءوا « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » في السنة الأولى من كتابتها ، وهؤلاء هم المرحوم أبو بكر حمدي سيف النصر ، ومصطفى صفوان الاستاذ بجامعة ستراسبورج بفرنسا، وقد كانا شاهدي زواجي امام عمدة الحي اللاتيني بباريس في ٩ أغسطس ١٩٤٧ ، ثم ابراهيم شكرالله المستشار بالجامعة العربية والمستشرق الانجليزي دنيس جونسون ديفيز ولطف الله سليمان الناشر اليساري المعروف الذي اشتغل فيما بعد معاوناً بين معاوني الرئيس بن بيللا بعد اعلان استقلال الجزائر ، وربما كان هناك آخرون . أما في السنة الاخيرة (١٩٦٥) فقد قرأها توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزي والدكتور جمال المطيفي المستشار القانوني لمؤسسة الاهرام والدكتور السعيد مصطفى السعيد مستشار دار المعارف ، كما قرأها احمد حمروش والهمام سيف النصر توطئة لاصدارها في الكتاب الذهبي وربما فئة اخرى من الكتاب الشباب .

وما دامت لهذه القصة قصة ، فلعل من الافضل ان اعود القهقرى الى تاريخ ميلاد رواية « العنقاء او تاريخ حسن مفتاح » (١٩٤٦ — ١٩٤٧) لا بين الظروف التي ولدت فيها فربما القى هذا اضواء كشافة على بعض محتوياتها وعلى السراديب الغامضة التي اكتنفتها عشرين عاماً ، فلم تخرج الى النور إلا الآن .

كل من عاصرني صديقاً او زميلاً او طالباً في تلك الفترة البعيدة من حياتي بين ١٩٤٠ عام عودتي من كامبردج و ١٩٤٧ عام صدور ديواني « بلوتو لاند »

وكتابة رواية « العنقاء او تاريخ حسن مفتـــاح » كان يعرف أني لم اكن مجرد « مدرس » جامعي بالمعنى المألوف . وانما « معلماً » من ذلـــك الطراز الذي لا يوجد عادة إلا في عصور الانتقال حيث تسقط الحواجز بين المعرفة والحياة ، وكانت تلهبني « شهوه لاصلاح العالم » اذا جاز لي ان استعير لغة شلي في التعبير عن حاله هو في عصر الثورة الفرنسية ، وكنت دائم التفكير في عوامل التآكل التي استشرت في المجتمع المصري ، لا اقصد التآكل الخلقي وانمـــا اقصد التآكل الاجتماعي الذي تجلى في تصدع الفلسفـة الديمقراطية الليبرالية التي تبلورت في دستور ١٩٢٣ . كان واضحاً عند الكثيرين ان تطور مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي خلال العشرين عاماً الفاصلة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية قد جعل من نظام الحكم المتمثـــل « نظرياً » في دستور ١٩٢٣ هيكلاً بالياً ينبغي تجديده أو ترميمه على أقل تقدير .. ومنهم من ذهب الى ان الدستور ثوب فضفـــاض (الدستوريون والسعديون) ومنهم من ذهب إلى ان الدستور ثوب ضيق (الوفديون) ومنهم من ذهب الى أن الدستور خرقة مهلهلة ملفقة ، وان المجتمع المصري بحاجة الى اسس جديدة أو الى عقد اجتماعي جديد (الاخوان والشيوعيون). وعلى الجملة فقد كان المجتمع المصري يسير بوضوح نحو الاستقطاب فاليمين غدا اكثر يمينية واليسار غـــدا اكثر يسارية . وقد ظهرت بدايات التشكك - على مستوى القواعد الشعبية — في سلامة نظـــام الحكم الديمقراطي الليبرالي في مصر منذ أوائل الثلاثينات حين انعكست الازمـــة العالمية المشهورة (١٩٣٠) في الاقتصاد المصري وفي السياسة المصرية وولى الحكم اسماعيل صدقي لينقذ الرأسمالية المصرية والرأسمالية الاجنبية من اثارة الازمة في مصر . فأخذت جماعات من الشباب بين المثقفـين والعمال تبحث عن حل وسط ينقذ مصر من الشيوعية فيما يسمى بالاشتراكية الوطنية (النازية والفاشية) ولكن النازية أو الفاشية المصرية عجزت عن التغلغل حقـــاً في الشعب المصري لسبب بسيط ، وهو ان الشيوعية أو نقيض الموضوع بلغة أهل الجدلية ، وهو ما ظهرت الفاشية لتحول دون انتشاره او لاجهاضه لم يكن له أي وجود اجتماعي

ملموس ، ولأن البروليتاريا المصرية ، بسبب وحدة الكفاح ضد الاستعمار البريطاني وركيزته الاولى في البلاد (الارستقراطية بقيادة الملك) ، لم تكن تحس بنفسها يومئذ كطبقة واضحة المعالم ذات مصالح اساسية متميزة عن مصالح غيرها من طبقات الامة ، فبقيت في صميمها تساند العقيدة الديمقراطية الليبرالية ممثلة في الوفد ، رغم جهود النبيل عباس حليم لتجميعها في اطار فاشي مستقل سماه حزب العمال . ولكن تجميد الحركة الوطنية والدستورية معاً بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ثم بنشوب الحرب ، عمق التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع المصري وكشفها على السطح فعجّل بهذا الاستقطاب الذي جعل اليمين اشد يمينية واليسار اشد يسارية على حساب الوسط الوفدي . وكانت أوضح صورة من صور اليمين متمثلة في جماعة الاخوان المسلمين المتماسكة،وكانت أوضح صورة من صور اليسار متمثلة في الجماعات الشيوعية المتعددة . وكان تعدد هذه الجماعات وتناحرها ظاهرة ملفتة للنظر . فهما يعبران في ظاهر الأمر عن خلافات ايديولوجية ، وهو أمر طبيعي في محيط المثقفين الذين يرفضون القولبة ، بحكم استقلالهم الفكري، ولكن يبدو ان تعدد مصادر تمويل هذه الجماعات كان ايضاً من اسباب هذا التعدد التنظيمي والايدويولوجي . كذلك كانت نشأة هذه هذه الجماعات خافية من الناحية التاريخية . فقد سافرت الى انجلترا في ١٩٣٧ قبل ان اسمع بوجود أي تنظيم شيوعي في مصر غير التنظيمات التي كانت مأثورة من أوائل العشرينات ثم ذبلت . ثم عدت الى مصر في سبتمبر ١٩٤٠ فإذ ابي اسمع عن جماعة تسمى نفسها « الفن والحرية » وجماعة اخرى تسمى نفسها « الخبز والحرية » وتصدر مجلة شهرية اسمها « التطور » وجماعة ثالثة تسمى نفسها « الاتحاد الديمقراطي » .وفي سنوات الحرب نشأت جماعة رابعة تسمى نفسها « جمعية نشر الثقافة الحديثة » وجماعة خامسة تسمى نفسها « دار الابحاث العلمية » وجماعة سادسة تسمى نفسها « الثقافة والفراغ » .

ان هذه الجمعيات الثقافية لم تكن سوى نوادٍ سياسية أو واجهات تخفي

وراءها تنظيمات شيوعية احدها يسمى نفسه ح. ت.ش (حركة تحرير الشعب) والآخر يسمي نفسه (الشرارة) والثالث يسمى نفسه ش.و.ن. (شعب وادي النيل) ورابع يسمى نفسه (الفجر الجديد) وخامس يسمى نفسه ح.د.ت.و . الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) وربما كان هناك سواها . وقد جاءني فيما بعد ان كل هذه الجماعات انبثقت من جماعة تكونت في مصر عام ١٩٣٧ باسم « اتحاد انصار السلام » كان اكثر اعضائهـــا من الاجانب المحليين والاجانب المتمصرين . وأياً كان الأمر فقد لاحظت بعد عودتي الى مصر عام ١٩٤٠ ، ان كثيراً من اعضاء هــذه الجماعات أو النوادي الثقافيــة من الاجانب المحليـين والاجانب المتمصرين ، وان اليهود ممثلون فيها بنسبة عالية ، وانها كانت نوادي مختلطة يختلف الى محاضراتها وندواتها الشبان والفتيات على السواء ، وهو شيء لم يكن مألوفاً في الحياة الثقافية المصرية ، وان أكثر هؤلاء الاعضاء المختلطين من الاجانب والاجنبيات والمتمصرين والمتمصرات ، وأن هـــذه النوادي اخذت تجتذب اليها لفيفاً من المثقفين المصريين لحماً ودماً ، ثم لفيفاً من المثقفات المصريات لحماً ودماً ، وان اللغـــة السائرة في الحديث والمحاضرات والندوات كانت اللغـــة الفرنسية . آناً الفرنسية الفصيحة وآناً الفرنسية البزرميط التي تجري على السنة اجانب الشرق الأوسط ومتمصريه. وكنت اسمع من اعضاء هذه النوادي انفسهم ان تمويل نواديهم وربما جماعاتهم الباطنية يأتيهم بدرجات متفاوتة من بعض المليونيرات اليهـــود لا ادري ان كانوا من الاجانب المحليين ام من الاجانب المتمصرين ، وكانت تتردد أمامي اسماء بعض هؤلاء المليونيرات اليهـــود كاسم هنري كوريبل واخيه راؤول كوريبل ويهودي ثالث اسمه ريمون اجيون ويهودي رابع اسمه شفارتز ويهودي خامس اسمه جاكودي كومب . وربما كان هناك ممولون آخرون لم اسمع باسمائهم . وانا طبعاً احل لنفسي ذكر هذه الاسماء لان هذه الحقبة من حياتنا قد دخلت في ذمة التاريخ . ولعل أهم ظاهرتين لاحظتهما في هذه النوادي الثقافية أو السياسية ان نسبة المثقفين المصريـــين او المثقفات المصريات كانت في ازدياد مطرد سنة بعد سنة ، حتى ان بعضها كجمعية نشر الثقافة

الحديثة ودار الابحاث العلمية وجمعية الخبز والحرية كان عمودها الفقري من المصريين قبلما تنقضي الحرب ، ورغم هذا فقد ظل التمويل اليهودي ساقطاً على الحركة الشيوعية المصرية بدرجات متفاوتة ، اسمع به لماماً من اصدقائي المصريين المشتغلين بهذه الحركات التي تحرر بعضها من سيطرة اليهود بعد تجربة مريرة لهم اثناء حرب فلسطين . اما الظاهرة الثانية الهامـة التي لاحظتها في أوساط الشيوعيين يومئذ فهي ان نواديهم الثقافية ، وربما تنظيماتهم ايضاً ، كانت خلواً من ابناء البروليتاريا التي يدافع الشيوعيون عن كيانها ومصالحها ، وان أكثرهم كانوا خليطاً من ابناء الذوات المثقفين بثقافات أوربية ، وبعضهم كانوا مليونيرات ومن ابناء الطبقة المتوسطة المثقفين ثقافة جامعية . ولم يتح لي ان اعرف الى أي مدى استطاعت هذه الحركات والمعتقدات ان تتغلغل في البروليتاريا ، ولكن احساسي العام انها كانت ولا تزال في صميمها تياراً من تيارات البورجوازية المهنية في مصر . ولا يفوتني ان اذكر ان الخلاف الايديولوجي الوحيد الذي استطاعت مداركي ان تعيه بين هذه الشيع المتناحرة كان الخلاف القائم بين جماعة من المثقفين المتهمين بالتروتسكية وبقية الشيع التي كانت متهمة بالستالينية . أما فيم كان يتناحر الستالينيون فهذا ما كان يحيرني من ناحية وما كان من ناحية اخرى عسيراً تلمس جذوره الا لمن أوتي الرغبة في التغلغل بين صفوفهم وأوتي القدرة على ذلك في آن واحد .

هذه صورة عامة للنوادي الثقافية وللجماعات السياسية اليسارية المتطرفة التي ملأت القاهرة لغطاً بين ١٩٤٠ و ١٩٤٧ وهو العام الذي اصدرتُ فيه «بلوتو لاند» وكتبت فيه «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» ، ووقفت في مفترق طريقين رهيبين لا يلتقيان ، من مضى في احدهما فلا رجعة ولا اياب فيه . فاما ان اشتغل بالسياسة فأنتمي الى جماعة من هذه الجماعات أو أسس جماعة جديدة على شاكلتي ، واما ان ادير ظهري للسياسة تماماً وانصرف كلية الى ابحاثي الاكاديمية . وبعد ازمة روحية عنيفة دامت طوال صيف ١٩٤٧ اتخذت قراراً في باريس .

تزوجت وعدت الى كلية الآداب بجامعة القاهرة لادفن نفسي بين اساطير اليونان ورمزيات العصور الوسطى وشعر الانجليز والأدب المقارن . واعتقد اني لا زالت نى اليوم ، بعد عشرين عاماً ، وفياً لهذا القرار الذي اتخذته في صيف ١٩٤٧ . لأدب نعم ، أما السياسة فلا، ولكن ربما كان المركب الذي خرجت به من هذه التجربة العصبية هو دعوتي للأدب في سبيل الحياة . وبعد عودتي من باريس الى لقاهرة في أواخر سبتمبر ١٩٤٧ فقدت كل رغبة في تتبع ما يجري في محيط الشيوعيين، وقد عرفت فيما بعد ان امورهم تعقدت بعد ذلك بمزيد من التجمعات والانقسامات فظهرت بينهم اشياء تدعى م. ش. م. او مشمش على سبيل الدعابة (المنظمة الشيوعية المصرية) و ط. ش. (الطليعة الشيوعية) ون . ح. ش. م. (نحو حزب شيوعي مصري) الى جانب حد تو أو الحركة الديمقراطية للتحرر لوطني وغيرها من المنظمات التي كانت قائمة ايام الحرب العالمية الثانية ، وهي كلها تحتاج الى خريطة بها رسوم بيانية واعلام تنقل من موقع إلى موقع مثلما يفعلون في غرفة العمليات الحربية وربما انتفع المؤرخ المصري لو ظهر واحد من اهلها ليدون لنا في صراحة ووضوح وموضوعية طبيعة هذه الانقسامات، ومتى كانت ولمَ تمت وعلى أي شيء يختصمون دون ذكر للاسماء طبعاً اعفاءً لنفسه ولغيره من الحرج .

أما انا فقد أتيح لي ان ارى بصيصاً مما كانت عليه الحال إبان الحرب العالمية الثانية ، وكنت حقاً أحار لما أرى. أذكر اني كنت ذات يوم قبيل انتهاء الحرب في مكتب صديق من اصدقائي كان يشرف على تحرير « المجلة الجديدة » التي نزل له سلامة موسى عنها في ظروف لم أطلع عليها ، او اطلعت عليها يومئذ ولكني لم أعد أذكرها . وكان صديقي هذا متهماً بالتروتسكية واذا برفيق من «الرفاق» مرموق المكانة في صفوف الشيوعيين يقتحم عليه المكتب في غضب بارد معنفاً مطالباً بتخليه عن منصبه في الاشراف على تحرير « المجلة الجديدة » ومتهماً اياه بالانحراف. ومن المناقشة ادركت ان هذا « الرفيق » غاضب لان صديقي كتب

إفتتاحية العدد عن « الفانستارتيا » أي مذهب اللورد فانستارت الذي كان يومئذ وزيراً لخارجية بريطانيا وأدلى بتصريح خطير يقول فيه ان الحلفاء يعتبرون أو ينبغي ان يعتبروا الشعب الالماني كله مسئولاً عن جريمة الحرب التي اشعلها هتلر والحزب النازي وبالتالي ينبغي ان يتحمل نصيبه في العقوبة . واشتد الجدل بين الرجلين الى حد اوشك ان يبلغ مبلغ العدوان البدني . وتدخلت انا بينهما مهدئاً دون ان اقحم نفسي في موضوع الخلاف ، فالحق يقال اني قرأت تصريح فانستارت مع القارئين في تلك الفترة ، ولم يستوقف نظري فيه شيء غير مألوف . اما افتتاحية صديقي فقد كانت تتضمن حملة شعواء على فانستارت والفانستارتية واعلاناً بأن الشعوب طبقاً للنظرية الماركسية لا ينبغي ان تؤخذ بجريرة زعمائها من تجار الحرب وتجار السياسة الخ ... وبالتالي فالشعب الالماني بريء من جرائم هتلر والنازيين ودعوة فانستارت الى التنكيل بالشعب الالماني مؤامرة استعمارية يبيتها الحلفاء لاسترقاق الشعوب . أما الرفيق او « الزميل » الآخر ، كما يسمى بلغة هذه الايام ، فكان يرى عكس ما يراه صديقي وقد ذهب يندد بمذابح ستالنجراد وسمولنسك ... إلى آخر القائمة الواردة في سجل الحرب العالمية الثانية ويطالب بالقصاص من الالمان زعامة وشعباً طبقاً للنظرية الماركسية ايضاً . وكانت هذه المناقشة في نظري اما مناقشة بيزنطية او فوق مستوى ادراكي رغم اني كنت اعرف عن الماركسية وعن اصولها شيئاً كثيراً ، ولكني رأيت ان مهمتي هي الحيلولة دون استفحال الشجار . وقد زاد من التهاب الموقف ما ادركته من مجرى المناقشة ان الزميل المقتحم لم يكن يعبر عن رأيه الخاص في موضوع اللورد فانستارت وانما كان يتكلم باسم جماعة لا اذكرها على وجه التحقيق . وتخفيفاً للتوتر دعوت كليهما الى فنجان من القهوة في امريكين سليمان باشا ليتجادلا في هدوء ويسويا ما بينهما من خلاف على طريقة القوم المتحضرين . وفي الاميريكين اقترحت ان يحل الموقف بأن تخصص افتتاحية العدد القادم من « المجلة الجديدة » لمقال يكتبه الزميل المقتحم دفاعاً عن الفانستارتية وبهذا ينتهي الاشكال. وبدأ الاقتناع على الطرفين وانصرفا على ما يشبه التراضي ،

مـ نا فقد مضيت تملؤني السعادة بنجاح منهج « الحل الوسط » على الطريقة لانجليزية وتملؤني الحيرة ايضاً من هؤلاء الفتية الذين رأيتهم يتجادلون في شئون حرب والسلام في غرفة بسيطة في ١٠ شارع علوي ليس بها من الاثاث سوى مائدة كموائد المطبخ واربعة كراسي من الخيزران ، وكأنهما يتجادلان حول مائدة الصلح في فرساي او في هوايت هول ، او كأنهما يترافعان امام محكمة نورمبرج. وفي اليوم التالي عرفت من مقاهي القاهرة فقد كان الخبر على كل لسان – ان الزميل المقتحم ما ان تركنا حتى توجه فوراً الى مقر المجلة في ١٠ شارع علوي وكسر قفل الباب بآلات حادة واستولى على كل ما كان في الغرفة من كليشيهات واصول مقالات .

هذه صورة من صور الحياة اليومية بين الشيوعيين المصريين ابان الحرب العالمية الثانية . صورة تبدو غريبة وكئيبة ومضيئة في وقت واحد . هي غريبة لأن الرجل العادي حين يستعرض آراء الشيوعيين المصريين وفعالهم يعجب لانفصالهم عن بيئتهم كل هذا الانفصال الذي يجعلهم يعرفون عن حكاية ساكو وفتريتي أو ما قاله لاسال في جنيف لحزب العمال البريطاني في الدولية الثالثة اكثر مما يعرفون عن علاقات العمل في مصانع شبرا الخيمة على قيد خطوات منهم . وهي صورة كئيبة لان سيطرة اليهود على التنظيمات الشيوعية أو على الأقل على كوادرها الداخلية في سنوات التكوين بحكم التمويل ، أدت الى عزل هذه التنظيمات عن جماهير الشعب، والى تعدد الانحرافات الخطيرة فيها والى استشراء الانتهازية بين صفوف الشيوعيين مما قضى على مستقبلها في مصر لجيل كامل على الأقل ، ولا سيما بعد ان مرت بمحنة الاختيار الرهيب ابان حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بين الولاء للوطن والانسانية وبين الولاء لشعارات مدسوسة عليها باسم الماركسية تنادي بأن حرب فلسطين حرب استعمارية ، وان اسرائيل يمكن ان تكون قاعدة اشتراكية تشع التقدم وكافة حقوق الانسان على الوطن العربي المحيط بها . وهي اخيراً صورة مضيئة لأني كنت ارى وسط كل هذه البلبلة الفكرية شرائح من

شباب مصر ومثقفيها تحاول في اخلاص ان تعيد النظر في بناء المجتمع المصري على اسس جديدة قد يختلف عليها الناس وقد يتفقون، ولكنها كانت على كل حال أقرب الى التفكير العلمي من الشعارات الساذجة التي ألفها المصريون منذ تجربتهم الديمقراطية الليبرالية التي تمخضت عنها ثورة ١٩١٩ . وقد كانت أوضح نتائج هذا الاجتهاد السياسي الوعي العلمي بعلاقات القوى الاقتصادية داخل المجتمع المصري واليقظة الى ما نسميه اليوم بلغة الميثاق تحالف الرجعية بقيادة الملك مع الاستعمار ، وأخيراً وليس آخراً الحيلولة دون تغلغل العقائد الشمولية الغيبية كالنازية والفاشية في نفوس الجماهير .

هذه هي الوجوه السلبية والوجوه الايجابية في الحركات الشيوعية التي خبرتها ابان الحرب العالمية الثانية . والحق اني لم ادرس هذه الحركات من الداخل ولكن درستها من الخارج ، فقد كانت علاقتي بها علاقة من نوع غريب . فحين عدت من انجلترا عام ١٩٤٠ كان وجداني السياسي قد تطور بحيث امكنني ان ان اقف موقف المتفهم للفلسفة الماركسية في مجموعها والمتعاطف مع بعض وجوهها فقد كنت في يفاعتي ، أي الى ١٩٢٩ عام حصولي على شهادة الكفاءة شديد الحماسة للديمقراطية الليبرالية وكانت حماستي متمثلة في الايمان ايماناً اعمى بدستور ١٩٢٣ الذي كنت اعتقد ان الحفاظ عليه هو وسيلة مصر الوحيدة لتقييد الملكية وكسر شوكة بطانتها التركية من ناحية ولطرد الانجليز من ناحية اخرى بقيام حكومة صلبة تعبر عن ارادة « الأمة » . وكانت هذه بوجه عام وجهة نظر الوفد. ولم تكن « الأمة » يومئذ قد تفتت في نظري الى عناصر أو مكونات او طبقات او مصالح . ودرجة درجة ، بتأثير سلامة موسى على وجه القطع وربما بتأثير الأزمة المالية وتفشي البطالة وتعاقب دكتاتوريات محمد محمود واسماعيل صدقي ، بدأت اجنح الى الفكر الاشتراكي بطريقة هلامية ، فلم تعد الحرية عندي شيئاً مجرداً من غيبيات الحياه بل ارتبطت في ذهني بالاستقلال الاقتصادي سواء بالنسبة للامم أو للطبقات او للافراد . وقد مكنتني هذه اليقظة الباكرة

مراجعة فكرة الحرية ومبادىء الديمقراطية الليبرالية من ان اكون من اسبق شباب جيلي الى مقاومة التيارات الفاشية والنازية الوافدة علينا من الغرب في أوائل الثلاثينات وفي أواسطها. وحين نشبت الحرب الاهلية الاسبانية كنت بوجداني اكابد مع الجمهوريين الاسبان. وقد اتيح لي ايام الطلب في جامعة القاهرة ان ادرس الماركسية ومختلف النظم والمذاهب دراسة منهجية كمادة من المواد المقررة في قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب، وقد احسست يومئذ بالصدع العميق الذي تجلى في صفوف اساتذتي الانجليز بسبب الرياح العقائدية التي كانت تجتاح أوروبا كلها في تلك الايام، فقد كان بينهم المحافظون من امثال الاستاذ ر. أ. فيرنس والاحرار الليبراليون من امثال كريستوفر سكيف والاشتراكيون من امثال برين ديفيز وأوين هولواي وجون كراير. وكان اساتذتي لا يخفون هنا انقسامهم في الرأي ومنهم من كان يسخر من معارضيه امام التلاميذ وكان اوين هولواي يدفع اليّ بكتب ماركس وانجلز وسوريل، اما ديفيز فكان يدفع الي بكتب الفابيين. وذات يوم اختفى من بيننا جون كراير ثم اتضح بعد اسابيع انه تطوع في الحرب الاهلية الاسبانية ليقاتل في صفوف الجمهوريين، وكان سلوكه هذا بمثابة « سكاندال » اصابت الجالية الانجليزية في مصر. كل هذا ألهب عقلي ووجداني بالظمأ لمعرفة ذلك الصراع الرهيب الذي اجتاح اوروبا وبدأت نذره تظهر في مصر ولكن تكويني الليبرالي الأول جعلني حتى هذه السن اعتنق نوعاً من الفكر السياسي اجتمعت فيه الحرية والعدالة الاجتماعية ووجدت هذا المركب في الفلسفة الاشتراكية الديمقراطية.

وحين سافرت الى انجلترا دخلت في مأزق فكري جديد أكد في نفس الشك في سلامة الديمقراطية الليبرالية، واكد لي انها لم تعد الا واجهة للنظام الرأسمالي. فقد اتضح في اوروبا يومئذ ان الرأسمالية الانجليزية والفرنسية والاميركية ساهمت سراً في بناء الحزب النازي بملايين الجنيهات لتقيم من المانيا « حاجزاً صحياً » يقي غرب اوروبا من الشيوعية. ووجدت اكثر المثقفين من ابناء جيلي سواء في

جامعة كمبردج أو في جامعة لندن او في السوربون يتظاهرون تأييداً للجمهوريين الاسبان ويجمعون لهم المال واللبن ومنهم من لبس بدلة القتال . وكانت خيانات الاحزاب الديمقراطية الاشتراكية في اوروبا هي التي ألقت بي في هـــذا المأرق الفكري أثناء اقامتي في الخارج ، فقد كان الديمقراطيـين الاشتراكيون في اوروبا اكثر تفاهماً مع المانيا النازية منهم مع روسيا الشيوعية . وهنا قالت نفسي كلا . أي شيء إلا النازية والفاشية. حتى الديمقراطية الاشتراكية لا تملك دواء" لاوجاع الانسانية .

هذا هو الدواء الذي تنفسته في اوروبا مدى ثلاث سنوات ، فلما عدت الى القاهرة عام ١٩٤٠ قادني استاذي هولواي ذات مساء الى نادي « الاتحـــاد الديمقراطي » بالقرب من ميدان سليمان باشا لاستمع الى محاضرة لا اذكر الآن موضوعها ولألتقي بالاخوين كورييل. وكان لقاء" فاتراً ادركت منه للوهلة الأولى ان ذلك غير ما أريد. كليشهات. كليشهات . كليشهات. شعارات . شعارات. شعارات. ولكنني مع ذلك التقيت هناك ببعض المثقفين المصريين الذين اكتسبوا احترامي . وكانوا يتكلمون لغة الماركسيين ولكن لغتهم كانت ممزوجة بالفن وكان للانسان فيها مكان . ولم اعـد الى « الاتحاد الديمقراطي » ولكني انشأت صداقات حميمة مع بعض من عرفتهم هناك من المثقفين المصريين . ثم ترددت على الجماعات الاخرى أو على اكثرها مرة أو مرتين فكنت اصطفي من اصطفي واحتقر من احتقر وأهمل من اهمل. وهكذا شهراً بعد شهر تعرفت الى عشرات من المثقفين المرتبطين بالماركسية ومنهم من توثقت بيني وبينهم اواصر الصداقة ودمنا على وفاء حتى هذه اللحظة . وكنا نلتقي كثيراً في بيوتنـا أو في قهاوي القاهرة أو في استوديوهات الفنانين منهم بدرب اللبانة المتاخم للقلعة نتجادل ونتجادل الساعات الطوال ، وربما امتد بنا النقاش من العشاء حتى مطلع الفجر. وكان اكثر من خالطتهم من مثقفي اليسار ، حتى من لم ارتبط بهم بغير المعرفة الرسمية يثقون بي لأني ما كنت اتحدث عن الماركسية الا باحترام تام فإن خالفتهم

خ نفتهم على أسس فلسفية لا مخالفة الزراية والتجريح . وقــد كان هذا النهج جـديـدا في مصر يومئذ فقد كانت الصحافة الصفراء في مصر وغيرها لا تتحدث عن الشيوعية إلا بلغة التشهير، وتلقن النـــاس ان الرفاق والرفيقات في الاتحاد السوفييتي يعيشون بغير دين ويتباضعون على قارعة الطريق شأن القطط والكلاب. وقد نجحت فعلاً في غرس هذه الافكار في اذهان الكثيرين . أما انا فقد كنت اعامل الماركسية معاملتي للهيجيلية أو للافلاطونية ، أو للاكوينية، أي اعاملها معاملتي لمذهب فلسفي ونظام اجتماعي نابع من فكر راق ، ولا يجوز مناقشته إلا على مستوى الفكر الراقي . بل اكثر من هذا فقد كانت في الماركسية جوانب عديدة وجدتها مقنعة بعد تشذيبها مثل نظريتها القائلة بإن الاقتصـــاد محرك التاريخ ومثل اصرارها على اهمية المادة في تكوين الفكر ، وقد أنقذتني هــذه من الخرافة المثالية التي تزعم ان الفكر هو محرك التاريخ، وان المادة ليست إلا ظلا من ظلال الروح المطلق المستتر وراء الأشياء. كذلك قبلت من الماركسيـــة بعض اقوالها في فائض القيمة والتفاتها الى نظرية الحركة عن طريق النقائض . ولكنني رغم هذا كنت شديد التحفظ بالنسبة لبعض اركان الماركسية الهامة ، وكنت اجدها لا تجيب اجابة كافية على نواميس الوجود والحيـاة والمجتمـــع والسلوك الانساني . بل كنت اجد فيها ما يستوجب الرفض بوصفه خرافة مادية لا تفضل الخرافة المثالية في قليل أو كثير . من هـــذه التحفظات مثلا (١) أن الدورة الجدلية الهيجيلية – الماركسية بحاجـــة الى مراجعة على ضوء المنطق الصوري الارسطاطاليسي (٢) ان « اسبقية » المادة على الفكرة لا تقل تبسيطاً للأمور عن « اسبقية » الفكرة على المادة في أي تفسير كوزمولوجي (٣) ان « الجبرية » مادية كانت أو تاريخيـــة تتعارض مع معارفنا الفيزيقية عن تجلي الارادة الحرة في سلوك الذرة وعن معارفنا الاجتماعية عن تجلي الارادة الحرة في سلوك المجتمعات وعن معارفنا النفسية عن تجلي الارادة الحرة في سلوك الانسان ، فهي اذن بحاجة الى قانون مكمل . (٤) ان الاسراف في ابراز دور الاقتصاد في حركة التاريخ رغم اهمية التنبيه اليه قد يعود بنا القهقهرى الى المادية الميكانيكية

التي رفضتها الماركسية نفسها (٥) ولعل هذا هو اهم التحفظات من الناحيـــة العملية والانسانية ، أنه نظرية صراع الطبقات ونظرية صراع الاضداد اذا لم تستكمل داخل اطار اخلاقي اشمل كفيلة بأن تنشر على الكون والحيـاة رداء مأساويا قانياً كذلك الذي صبغ منذ الأزل بدم هابيل وانه لا فرق في النهاية بين فكرة الصراع البروليتاري في ماركس وفكرة الصراع البورجوازي في داروين حيث بلغة الشاعر تنيسون « الطبيعة حمراء الناب والمخلب » وهذا الاعتراض هو موضوع رواية « العنقاء او تاريخ حسن مفتاح » (٦) أن الماركسية علم ومنهج ولكن العلم والمنهج لا « نهائية » فيه ، فهي اذن كغيرها من العلوم والمناهج مجرد ضوء جديد من الاضواء الكشافة التي يلقيها العقل البشري على مجاهل الحقيقـــة فيزيل عنها الظلال أو الظلام ، فاذا اصرت الماركسية على نهائيتها علماً أو منهجاً تحولت تلقائياً الى « دين » يقوم على المطلقات والغيبيـــات (٧) ان « رؤيا » ماركس للانسانية الشيوعية بعد ذبول الدولة لا تختلف عن رؤيا يوحنا اللاهوتي أو رؤيا فرجيل للعصر الذهبي وغيرها من المدن الفاضلة التي تخيلتها احلام الفلاسفة والحكماء ، هي حلم ذهبي جميل لا « حتمية » في تحققه جملة أو تفصيلا مهما تمنينا ان تتحقق الاحلام (٨) ان دكتاتورية الطبقة العاملة كأية دكتاتورية مرفوضة شكلا وموضوعاً . هي تقوم على حلم « لا طبقات » ، والدكتاتورية لا وجود لها الا في نظام طبقي . تقول : وماذا بقي في الماركسية بعد هذا؟ اقول : الكثير. ولكن هذه الاعتراضات وحدها كفيلة بأن تشغـل المفكرين والمثقفين بالبحث الطويل وبالجدل الذي ليس له نهاية . وهذا ما كنا نفعله . كنا نبحث طويـلا ونتجادل بلا نهاية في اركان المادية الجدلية والجبر التاريخي والطوبى الشيوعية... الخ ، وأهم من هذا وذاك كنا نتجادل في نظرية « الصراع » صراع الاضـداد الذي نبعت منه نظرية حرب الطبقات . وكنت في الجامعة اعـلم طلابي كيف يفكرون في الماركسية باحترام وكيف يرفضونها باحترام . ولم يكن لدي مـــن بديل اعطيه لهم الا الاشتراكية الديمقراطية ، لا الديمقراطية الاشتراكية ولكن الاشتراكية الديمقراطية . ومن اجل هذا الاحترام الذي اشعته بين المثقفين في

تـ وهم للماركسية » ، ومن اجل دعوتي للفكرة الاشتراكية الديمقراطية ، بل ومن اجل بغضي الذي لا يلين للنازية والفاشية وكل الوان الغيبيات السياسية ، صبح لي ملف عند البوليس السياسي بوصفي شيوعياً . وربما كان هـــذا امراً ضبيعياً ، ففي تلك الايام ، لم يكن هناك اي فارق بين الاشتراكية والشيوعية ، بل وبين الراديكالية والشيوعية . أي مذهب فيه دعوة الى اعادة تنظيم الملكية نفردية أو تقييدها أو المساس بها ، كان في عهد فاروق تشتم فيه رائحة الشيوعية ، فقد كان هذا هو العهد الذي طرد فيه محمد خطاب من مجلس الشيوخ لمجرد انه اقترح تحديد الملكية الزراعية بمئتي فدان .

قلت ان مثقفي الشيوعيين من المصريين كانوا يثقون بي . كنا نتجادل في ود وصراحة واحترام متبادل . وكنت لا استفسر منهم عن شيء يتصل بنشاطهم لحزبي أو التنظيمي ، ولا اسمح لنفسي بذلك . ومن اراد منهم ان يفضي الي من تلقاء نفسه بشيء من هذا القبيل أو بأية مشكلة تعرض له أصغيت له بأدب وبغير فضول ، وربما ساعدته على حل مشكلته في حدود العلاقات الانسانيـــة لطيبة . وكانوا احياناً يحتكمون الي في مشاكلهم العامة أو مشاكلهم الخاصة أو مشاكلهم العاطفية . وعلى امتداد سنوات عرفت عنهم الشيء الكثير . عرفتهم كبشر من لحم ودم لا كمجرد اشباح تتحرك في دنيـــا السياسة . عرفتهم في ساعات قوتهم وفي ساعات ضعفهم وفي ساعات سعادتهم وفي ساعـات شقائهم . واعجبت ببعضهم اعجاباً عظيماً وازدريت بعضهم ازدراء عظـــيماً . وعرفت لانسان بنقائضه العظيمة وراء كل هذه المجردات .

وكنت أنا في الوقت نفسه أربي تلاميذي في الجـــامعة على الهيومانيزم أو المذهب الانساني لا على اساس فردية الرينسانس أو طوبوية توماس مور ، ولكن على اساس اشتراكية القرن العشرين . كنت الهب فيهم الظمأ الى المعرفة والهب فيهم حب الحرية ، ولا سيما حرية الفكر ، واحطم امامهم المقدسات المزيفـــة القائمة على الغيبيات أو وليدة الخوف أو التقليد . وكنت افجر فيهـم ملكـة

الابتكار . كان الخوف من التفكير والشعور هو أول العوائق التي كان علي ان انسفها في عقولهم وقلوبهم لكي ينطلق من ورائها طوفان الفكر والعاطفة ، وكانوا يخافون من الاحلام خوفهم من الاشباح فعلمتهم كيف يحلمون وكيف يأملون وكيف يجرؤن على التخيل . لم يكن بد من هذه الثقة في النفس ان كان هناك أمل في تغيير الاوضاع . وجعلتهم يبغضون الدمامة ويحبون الجمال . ومن خلال تعريفهم بالموسيقى الكلاسيكية فتحت امامهم فراديس تعانقت فيها عرائس الفكر وعرائس الفن وعرائس الشعر تحت جناحي الحرية العظيمين . استغفر الله . أنا لم افعل من هذا شيئاً وانما كنت مجرد وسيط . شيئاً شبيهاً بمفتاح الكونتاكيت . نصف دورة وكل شيء في مكانه . الموتور سليم . البوجيهات نظيفة . البطارية مشحونة . نصف دورة وكل شيء يدور . عيونهم البريئة منطفئة كانت ام مضيئة ، كنت أرى فيها وجه مصر الجديدة . والهمني الله ان هذه كانت مسئوليتي .

ثم حدث شيء لم احسب له حساباً . اكتشفت بعد عامين أو ثلاثة أن تلاميذي ما أن يتحرك فيهم الشوق الى المعرفة الحرة حتى يستدرجوا الى تلك النوادي الثقافية التي كانت تجري فيها السياسة وراء واجهة الثقافة . الى جمعية نشر الثقافة الحديثة ، الى دار الابحاث العلمية ، الى جماعة الخبز والحرية ، لا اعرف من كان يستدرجهم ولا كيف يستدرجون . اكتشفت هذا مصادفة حين جاء الي ان بعض تلاميذي قبض عليهم في خلايا كذا أو في اجتماعات كيت ووقعت في حيرة كبرى . ماذا افعل ؟ اذن فأنا اعد ابنائي طعاماً سائغاً لهذه الغيلان الجائعة لتزدردهم ، لتغلق عقولهم من جديد قبل ان يكتمل تكوينهم بتعاليم قطعية جديدة قد تكون خيراً من تعاليمهم القطعية البالية ولكنها تباعد بالحلول الجاهزة ما بين الانسان وانسانيته . عندئذ ادركت طبيعة الاشكال الاكبر الذي وقعت فيه . انا لا املك فلسفة جاهزة اعطيها للجيل الجديد . كل ما أملكه هو بلطة احطم بها اغلال الفكر واصفاد الشعور ، وحين يخرج الاسير الى الرحاب يجد

نفسه في العراء حراً حقاً ولكن بغير مأوى ولا انتماء . بغير خيمة تظله . ومن ذا الذي يستطيع ان يعيش بلا انتماء ؟ الميت وحده لا منتم . كل انسان يبحث عن اصفاد . المهم ان « يختار » الانسان اصفاده . المهم ان تكون الاصفاد الجديدة أخف من الاصفاد القديمة . ويثرت على نفسي . لقد ادركت ان مهمتي هي ان اعلم ابنائي كيف يختارون اصفادهم ، كيف يميزون بين سلاسل الحديد وسلاسل الذهب ، بين الاغلال الثقيلة والاغلال الخفيفة . وكنت طبعاً شديد الاستياء من قيام المنظمات الشيوعية بتجنيد بعض تلاميذي في الخفاء أو على الأقل استدراجهم الى نواديهم الثقافية حيث تكثر الكلشيهات والشعارات وتصلب الامخاخ والقلوب والاكباد ، ولكني وقفت موقف الحائر لأن السباق على تجنيد الشباب كان ابان الحرب العالمية الثانية اشد ما يكون بين الشيع الجديدة ذات المستقبل السياسي وهي الاخوان المسلمون ، والشيوعيون ، والنازيون من دعاة « تقدم يا روميل » واخوان الحرية ، لا من انصار الانجليز ، ولكن من خدم الاستعمار البريطاني في صراحة وبلا حياء . ومن افلت من حبائل الشيوعيين وقع بين براثن الاخوان أو النازيين أو الانجلو أمريكيين . ديمقراطية ليبرالية تفلس منذ ١٩٣٦ فلا هي قادرة على مقاومة طغيان الملك وتعميق الحريات العامة والخاصة ، ولا هي قادرة على تجديد فلسفتها الاجتماعية وبرامجها الاقتصادية بحيث تعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات وتعزيز العدالة الاجتماعية والاقتصادية . وكل يريد ان يرث هذه المؤسسة التي تسير الى الافلاس التام والخراب التام اللذين تبلورا في محنة ٤ فبراير ١٩٤٢ . هذه كانت ورطتي التي لم اعرف يومئذ بسبب ارتباطي الرسمي والفعلي بالجامعة كيف اخرج منها بأكثر من تحذير هادىء لكل من اشتبه من تلاميذي انه بدأ يتردد على المنظمات الشيوعية من التردد عليها كنت اقول لكل منهم : كن ماركسياً اذا اردت ولكن كن جامعياً أولاً وقبل كل شيء ما دمت في الجامعة ، وحين تتخرج تصرف في نفسك كما تشاء فلا سلطان عندئذ لأحد على فكرك أو ضميرك .

أما انا فموقفي الشخصي كان يتلخص على الوجه الآتي : في الموقف الخارجي كنت بعواطفي وفكري مع الحلفاء املا في ان يسحقوا المحور ، فقد كان واضحاً في ذهني ان مقاومة الاستعمار القديم ايسر مـن مقاومـة الاستعمار الفتي و كنت بعواطفي وفكري مع العالم الشيوعي املاً في ان يخلص الشعوب من الاستعـمار القديم لا مع الاتحاد السوفييتي ولكن مع الضمير الشيوعي الانساني ، فقد كنت من الملايين التي اهتزت ثقتها من الاتحاد السوفييتي بعد توقيعه ميثاق عدم الاعتداء مع المانيا النازية . أما في الموقف الداخلي فقد كان الأمل الوحيد في رأيي هو أن يتطور الوفد نفسه الى حزب اشتراكي أو راديكالي على اقل تقـدير كما تطورت الاحزاب الديمقراطية في الغرب عبر القرن التاسع عشر من الليبرالية الى الراديكالية بل والى الاشتراكية المخففة ، أو كما تطورت الديمقراطية الامريكية من الرأسمالية المعربدة الى النيوديل في الثلاثينات من القرن العشرين . ولكن هذا الأمل انطفأ في ٤ فبراير ١٩٤٢ حين اصبح من العته السياسي انتظار شيء من الوفـد أو الدفاع عنه ، رغم اني كنت من القلة التي استيقظت يومئذ الى اشتراك الملك والفاشست المصريين مع الوفد في المسئولية عن كارثة ٤ فبراير بسبب رغبتهم في التوطئة لدخول الالمان وربما تواصلهم سراً مع النازي لطعن الانجليز من الخلف كما كان يقال يومئذ .

ولكن الأمل في الوفد تجدد بعد الحرب مبـاشرة وهو في المعارضـة لفترة قصيرة ، فقد ظهر فيه جناح تقدمي من الشباب المثقف بقيادة الدكتور محمـد مندور والدكتور عزيز فهمي يجنـح بصورة واضحة الى النظـام الجمهوري والراديكالية ويدعو لهما جهاراً بل ويؤلب القاعدة الوفدية على العناصر الرجعية السافرة في قيادات الوفد . وكلما ازداد إرهاب النقراشي ثم اسماعيل صدقي ثم النقراشي ثم ابراهيم عبد الهادي ازداد جنوح الشباب الوفدي الى اليسار وازداد التقارب بينهم وبين الشيوعيين ، بل والتعاون احياناً . هـذه الفترة هي فترة جريدتي « الوفد المصري » و « صوت الأمة » ثم «مجلة البعث» ومجلة « رابطة

الشباب » التي كنت اغديها وحدها ببعض المقالات الثقافية . وهي ايضاً فترة تكوين اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦ التي كانت التعبير السياسي عن التعاون العملي بين الطليعة الراديكالية من شباب الوفد مع الشيوعيين ، وقد كان لتكوين هذه اللجنة دوي عظيم أولاً لأنها كانت بمثابة اشهار رسمي لزواج المثقفين والعمال وثانياً لأنها كانت ذات سيطرة حقيقية على القاعدة الشعبية القادرة على العمل السياسي بين شباب الجامعات وبين البروليتاريا في المصانع . وكنت ادعو لتعميق هذا التعاون بين الشيوعيين والطليعة الوفدية بأمل « تمصير » الشيوعية المصرية وردها الى الواقع المصري والتخفيف من غلوائها من ناحية ، وبأمل اشاعة الوعي الاشتراكي بين الشباب الوفدي حتى تتحول راديكاليته الهلامية الى اشتراكية واضحة المعالم . وكنت في كل ذلك آمل ان تمتص الشيوعية في الطليعة الوفدية بالاوسموز السياسي على اعتبار ان الاقوى يبتلع الأضعف ، وبهذا يخرج في مصر تنظيم جديد اشتراكي الفكر الاجتماعي ، ديمقراطي في الفكر السياسي ، تنظيم يعمل على تحقيق « الاشتراكية الديمقراطية » التي كنت احلم بها . وقد كان استقلالي عن الفريقين بحالتهما القائمة مصدر ضعف وقوة معاً . فقد كنت في عرف الشيوعيين مفكراً بورجوازياً وكنت في عرف البورجوازيين بما فيهم الطليعة الوفدية مفكراً شيوعياً مما جعل الفريقين يرفضان الحلول الفكرية التي اقدمها ومع ذلك فقد مكنني استقلالي من ان ارى مواطن الضعف في الفريقين .

ولكن الايام والحوادث اثبتت خطأ تقديري . اثبتت ان ميسرة الوفد كانت اضعف من ميمنته ، وقد كان التعبير العملي عن قوة اليمين الوفدي أيلولة سكرتارية الوفد من عبد السلام فهمي جمعة الى فؤاد سراج الدين الذي فعل كل ما في استطاعته لتجميد الطليعة الوفدية ولفض التعاون بينها وبين الشيوعيين . كذلك خسرت الطليعة الوفدية بوفاة الدكتور عزيز فهمي قائداً باسلاً يتأجج

بحب الحرية وتقديس حقوق الانسان . وكان عزيز فهمي متخلفاً سياسياً عن محمد مندور اذا قيس بالفلسفات الاجتماعية الشائعة في القرن العشرين ، فقد وقف عند حدود الراديكالية الرومانتيكية كأنه خرج لفوره من عصر الثورة الفرنسية من جيل دانتون وروبسبيير ومارا .. وكان اعصاراً مكتسحاً . ولكن بغضه الاعمى السافر للملكية ، مطلقة كانت أو مقيدة ، جعل منه قوة طليعية ضخمة وسط شباب الوفد في تلك السنوات الحرجة من تاريخ مصر ، سنوات الغليان العظيم بين نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام الثورة في ١٩٥٢ . كذلك جمدت حرب فلسطين الحركات الاجتماعية سنوات وامام الخطر الوطني انكمشت الدعوات الى اعادة تنظيم المجتمع المصري . ولكن النكبة عمقت من جديد الاحساس بان هناك شيئاً عفناً في دولة مصر واشاعت هذا الاحساس على مستوى رجل الشارع ، ولم يعد الامر امر جماعات سياسية تخطط الاصلاح الاجتماعي على الورق أو تتجادل في حدود الدستور أو حقوق البروليتاريا بل غدا الأمر انقاذ الوطن كله من الغرغرينه التي دبت في اوصاله . وبدا واضحاً لرجل الشارع ان أم القيح مصدر العفن هي الملك وكبار الملاك والرأسماليين . هم الذين خسروا حرب فلسطين وهم الذين في جزعهم من زحف الجماهير جمدوا غضب الشعب المقدس ضد الانجليز ست سنوات وأجلوا الثورة التحريرية من ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ وكان لا بد من البتر وتقدم الجراح العظيم جمال عبد الناصر واجرى العملية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، اجراها دون ان يريق قطرة من الدماء .

ولنعد الآن من العام الى الخاص ، عندما انجلت الحرب العالمية الثانية تجمع الغليان السياسي والاجتماعي حول نقطتين : الغاء معاهدة ١٩٣٦ واجلاء الانجليز من ناحية واعادة تنظيم هيكل المجتمع المصري من ناحية اخرى . وكانت القوى السياسية والاجتماعية الجديدة قد بدأت تصفي نفسها أما انصار المحور فقد خسروا المعركة بانتصار الحلفاء فتواروا ليعيدوا تشكيل صفوفهم وصياغة شعاراتهم بما يلائم المرحلة الجديدة ، ولما كان اكثرهم من فلول مصر الفتاة

والحزب الوطني القديم ، فقد استأنفوا عملهم السيـــاسي من وراء واجهتين ، احداهما تسمى «الحزب الاشتراكي» والاخرى تسمى «الحزب الوطني الجديد». اما « الحزب الاشتراكي » فكان اسماً مهذباً « للحزب الاشتراكي الوطني » ولما كانت الاشتراكية الوطنية هي المرادف للنازية (ناتسيونال سوسيا ليسموس)، فقد كان الاسم الجديد المختصر أنسب لروح العصر . ونادى هذا الحزب بنوع من الاشتراكية الوطنية هي في حقيقتها نازية مهذبة أو رأسمالية الدولة . وأما الحزب الوطني الجديد الذي لم ينسَ ابداً مصر الخديوية ومحور عبـــاس حلمي استانبول فقد جدد نفسه ايضاً بلون من الاشتراكية هو في النهاية اشتراكية وطنية أو نازية مهذبة لا سبيل الى تحقيقها الا عن طريق رأسماليـــة الدولة . والحق ان من المهم لدارس تاريخنا القومي ان يحلل هاتين الشعبتين المتشابهتين ليدلنا على سبب انشقاقهما بعد ان التقتا في تيار واحد في الثلاثينات ، فلعلهما كانتا تمثلان قوى اقتصادية واجتماعية متشابهة في الظاهر مختلفة في الواقع . وايا كان الأمر فقد لوحظ ان « اشتراكية » الحزب الاشتراكي كـــانت اكثر اشتراكية من اشتراكية الحزب الوطني الجديد . أما « اخوان الحرية » فقــد اصبحوا غير ذوي موضوع بعد انتصار « العالم الحر » فقد كان هؤلاء الخدم بمجرد ركيزة من ركائز الحلفاء حين كانت الحرب دائرة ، ولم يعد لوجودهم الرسمي مبرر أو حق امكانية بعد الحرب عندما اشتد الشعور الوطني ضد الانجليز الى درجة الغليان . والواقع أنه عندما وضعت الحرب اوزارها لم يعد لانصار النازي ولا لاخوان الحرية أية قوة حقيقية ، وذاب اكثر اتباع الاولين في الاخوان المسلمين وذاب اكثر اتباع الآخرين في احزاب الاقليات التقليدية . ولم يكن هناك من القوى السياسية والاجتماعية الفتية ما يحسب له حساب بين نهاية الحرب وقيام الثورة الا الاخوان المسلمون والشيوعيون ، تماماً كما كان الأمر في حقيقته في سنوات الحرب . وازاء كل تمدد شيوعي منذ بداية الحرب كان هناك تمدد معاد للشيوعية في زي الاخوان المسلمين ، وبدت الأحزاب التقليدية (الوفد والسعديون والدستوريون والكتلة) اثناء الحرب وبعدها ، رغم ما بينها من

اختلافات وتناقضات ، وكأنها احزاب الوسط في مجتمع يستقطب بسرعة نحو اقصى اليمين وأقصى اليسار ، ولكنه كان وسطاً متآكلا آيلا الى الانهيار بزوال سلطته وهيبته بقوة القصور الذاتي لاشكال ومؤسسات اجتماعية وسياسية تمخضت عنها ثورة ١٩١٩ ، ولكنها بعد ربع قرن غدت خالية من المضمون وتعيش بغير عقد اجتماعي ولعل آخر عمل انتحاري قامت به النازية المصرية كان اغتيال احمد ماهر باشا رئيس الوزراء في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ غداة اعلان الهدنة في ٧ مايو ١٩٤٥ ، واغتيال امين عثمان باشا صديق الانجليز « السافر » رقم ١ في مصر في ٥ يناير ١٩٤٦ ، لتخلد الى السكون سنوات حتى حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

في نهاية الحرب اذن احس الاخوان المسلمون والشيوعيون بقوتهم الذاتية وأحس النازيون بسكرة الموت فجرفت البلاد موجة من الارهاب والدعوة الى الارهاب . فكانت هذه هي الشرارة التي ولدت «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح». اخذنا من ناحية نسمع بمعسكرات سرية في الصحراء يتدرب فيها شباب الاخوان المسلمين على السلاح وبمخابىء سرية يكدسون فيها الاسلحة ، واخذنا نسمع من ناحية اخرى عن صولات في الطيران وغيرهم من افراد القوات المسلحة يضبطون بمنشورات شيوعية . وكانت الرصاصات التي اردت احمد ماهر وأمين عثمان ذات دوي عظيم زاد من قعقعته ان القاهرة كانت تعيش على لغم مكظوم .

تولى النقراشي الحكم في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ بعد مصرع احمد ماهر نحو سنة كاملة تأجج فيها الشعور العام لان النقراشي حاول حل المسألة المصرية على الطريقة التقليدية ، فاعتبرها قضية يكفي فيها تبادل المذكرات وطالب فيها بفتح باب المفاوضات ، فهاجت البلاد وعمت المظاهرات . وسقطت وزارته في ١٥ فبراير ١٩٤٦ بعد مذبحة كوبري عباس المشهورة في ٩ فبراير ١٩٤٦ ، وفي ١١ فبراير ، عيد ميلاد الملك ، حطم طلاب الجامعة الزينة الملكية وكان هتافهم صريحاً « لا

ملك الا الله » . وفي ٣٦ فبراير ١٩٤٦ تولى بعد النقراشي اسماعيل صدقي الذي اعلن للبلاد وبراءة الاطفال في عينيه انه لم يعد اسماعيل صدقي دكتاتور ١٩٣٠، ومد الى الناس كفاً من حديد داخل قفاز من حرير ، ووعد بتحقيق الجلاء العاجل الناجز ، فصدقه بعض الناس . أوتظاهروابتصديقه ، حتى ان زعيما من زعماء الطلبة من الاخوان المسلمين خطب في حرم الجامعة يقول : « ان اسماعيل كان صادق الوعد نبياً » . ثم لم يلبث اسماعيل صدقي ان اخرج مخالبه في مذبحة ٢١ فبراير ١٩٤٦ ثم اعتقل المئات في ١١ يوليو ١٩٤٦ ومن بينهم عشرات من كبار الكتاب وقادة الفكر زاعماً أمام البرلمان انهم كانوا اطرافاً في مؤامرة لقلب نظام الحكم . وكان في مقدمة من اعتقلهم صدقي باشا: سلامه موسى ومحمد مندور ومحمد زكي عبد القادر ورمسيس يونان وانور كامل وحسني العرابي وأحمد رشدي صالح ولطف الله سليمان الى جانب نفر من المدرسين في الجامعة . وقد علمت عند عودتي من باريس في نهاية صيف ١٩٤٦ أنه كان هناك أمر باعتقالي في هذه الحملة ثم صرف النظر عنه بسبب الافراج عن كل من اعتقلوا قبل عودتي من فرنسا . عرفت ذلك من وكيل النيابة الذي كان يحمل أمر القبض علي . وحين عاد صدقي باشا من لندن يلوح للمصريين بمشروع معاهدة صدقي بيفن جاءني صحفي من « دار الهلال » في حديث يسألني رأيي في هذه المعاهدة ، ونشر على لساني قولي « لقد اعتزلت التفكير الى أن يعتزل صدقي باشا الحكم » كانت التهمة الموجهة الينا أننا كنا اعضاء في جماعة شيوعية دولية مزعومة تسمي نفسها « الرابطة المناهضة للاستعمار». وكانت التهمة مضحكة ومزرية بموجهها في وقت واحد . أما الجماعة المزعومة فلم يكن لأحد علم بها الا ما كانت ترسله من نشرات بالانجليزية الى مئات من المثقفين المصريين والله وحده يعلم ان كانت هذه الرابطة جماعة فعلية أم جماعة ملفقة تصدر منشوراتها عن المخابرات البريطانية . حتى المحققين وجدوا غرابة وحرجاً في توجيه تهمة « مناهضة الاستعمار » الى اخوة لهم في وطن محتل يرسف في أغلال الاستعمار ، فأفرجوا عن المعتقلين جماعة

وحفظوا هذه القضية الوهمية « لقلب نظام الحكم » .

انما كان المراد من كل هذا ارهاب الكافة بارهاب الخاصة حتى يتاح لاسماعيل صدقي اقرار نظامه والاتفاق مع الانجليز بما يرعى مصالح الطبقة المالكة لوسائل الانتاج ولا سيما الرأسمالية الوطنية والرأسمالية الاجنبية المحلية التي كان صدقي باشا يمثلها بوصفه رئيساً للاتحاد المصري للصناعات حتى غدا رمزاً لزواج المصلحة القائم بينهما . وحين فشل اسماعيل صدقي انصرف ليليه النقراشي في الحكم من جديد في ٩ ديسمبر ١٩٤٦ فيجددحكم الاقلية السياسية . وفي عهد النقراشي كانت كارثة فلسطين وقد دفع النقراشي حياته ثمناً للكارثة ثم دفع حسن البنا حياته ثمناً لحياة النقراشي .

كان هذا جو العنف وعدم الاستقرار الذي عاشته مصر بين نهاية الحرب وقيام ثورة ١٩٥٢ ، قنبلة في نادي الاتحاد المصري الانجليزي ، قنبلة في نادي محمد علي ، قنبلة في بيت النحاس باشا ، قنبلة في مركز الاخوان المسلمين بالحلمية الجديدة ، قنابل مبثوثة في السينمات تحت المقاعد فتودي بحياة الابرياء من المواطنين . مخازن ذخيرة تابعة للجيش المصري تنفجر في جبل المقطم فتوقظ القاهرة المذعورة في الهزيع الاخير من الليل . حتى القضاة كالمستشار الخازندار يصرعهم رصاص القتلةالسياسيين لأنهم يطبقون قانون العقوبات على القتلةالسياسيين. رئيس وزراء يقتل في البهو الفرعوني بعد القاء بيانه في البرلمان . رئيس وزراء يقتل في قلعته بوزارة الداخلية . وزير خطير يلقى مصرعه وهو خارج من ناديه في قلب العاصمة . زعيم يلقى مصرعه بتدبير الحكومة وهو خارج من جمعية الشبان المسلمين . قائد البوليس يلقى مصرعه في قلب كلية الطب (القصرالعيني) الملك ينظم الحرس الحديدي ويغتال معارضيه . انقلبت السياسة المصرية الى سلسلة متصلة الحلقات من أعمال الفنديتا وتفكك العقد الاجتماعي .

وفي ١٩٤٥ أحسست احساساً عميقاً بان انتهاء الحرب العالمية الثانية ينبغي

ان يقترن بتعبئة شاملة لطرد الانجليز ولو بالدماء . واعتقد ان شعوري يومئذ لم يكن يختلف كثيراً عن شعور المصري بين انتهاء الحرب العالمية الأولى وقيام ثورة ١٩١٩ . البارود لطخ الأرض سنوات وملايين البشر سيقت للمجزرة البشرية باسم المبادىء الديمقراطية . العالم الحر ، الحريات الأربع ، حقوق الانسان ، الكل مثخن بالجراح . المنتصر ذاته قد نزف حتى اعماه النزيف . وفي الضمائر في كل مكان لا تزال هناك اصداء ذكريات لما كان يلقى من نبيل العبارات لتبرير الحرب ، فالرأي العام العالمي مهيأ . هذه اذن فرصة الشعوب المهضومة لتطالب بحقوقها وتنادي بسيادة قانون دولي لا يستند الى شريعة الغاب . فان ضاعت هذه الفرصة فلن تعوض . هذا وقت الضغط على الاستعمار فان استجاب تحررت البلاد وان مضى في عناده افتضح كذبه وحق عليه الجهاد .

ولكن كيف يكون الضغط على الاستعمار ؟ كنت أكره العنف واعتقد أنه يخلق من المشاكل اكثر مما يحل . ولكني انتهيت الى فلسفة اخلاقية بسيطة : ان جنحوا للسلم فاجنح له ، أما ان كان من قدر الانسان الا يستخلص حقه وكرامته الا بالعنف ، فليحمل الانسان قدره في شجاعة ، واذا كان العنف لعنة على بني الانسان فقبول الذل ألعن وألعن وألعن .

هذا المنطق البسيط يبدو بسيطاً في الظاهر فقط ، ولكنه في ضميري كان مصدر معاناة عظيمة . فماذا كان مبعث المعاناة ؟ ربما مبعثها اني كنت احمل بعض رواسب المسيحية التي ربيت عليها ، فقد لقنت منذ طفولتي « من لطمك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر » . ولكن لا أظن ان هذا كان الباعث الحقيقي لأن طبيعتي ليست من الوداعة ولا من الدموية بحيث تقتل دون مناقشة هذا القانون الاخلاقي أساساً للعلاقات الانسانية . وانما كان باعث معاناتي شيئاً آخر : كان ادراكي ان قوانين الاخلاق ليست قومية بل انسانية : فليست هناك اخلاق مصرية واخلاق انجليزية واخلاق المانية واخلاق امريكية . وانما قوانين الاخلاق

لجميع البشر . فلو اننا سلمنا بالعنف جوازاً لحكم بين الانسان والانسان (والانجليز طبعاً من بني الانسان) وجب ان نسلم ايضاً بالعنف جوازاً كحكم بين الحاكم والمحكوم في أي وطن من الأوطان ، أقول جوازاً أي اذا اختفى حكم القانون : لا القانون الجهنمي المتمثل في عقود الاذعان السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يفرضها شعب على شعب أو طبقة على طبقة أو شيعة على شيعة أو دين على دين أو مذهب على مذهب أو فرد على أُمة ، ولكن عقود الاتفاق والتراضي المبنية على الأهلية والاقتناع . ومعنى هذا التسليم جوازاً بشرعية الثورة ، لا الثورة بمعنى التغيير الجذري لأسس الحياة وهو قد يتم بطريقة سليمة ، ولكن الثورة بمعنى الصدام المسلح أو استعمال العنف أو رفع السلاح على مصدر السلطة لاستخلاص الحقوق والحريات . ولا شك أن القضية تبدو واضحة لا اشكال فيها عند ٩٩ بالمئة من البشر اذا كان الكلام عن المستعمرين والمستعمرين – ذلك لأن الاستعمار حاله من الاغتصاب واضحة حيث يكسر شعب قوي واسع الحيلة ، ارادة شعب آخر عادة بالسلاح أو بالضغط المادي ليتسلط في ابنائه ولينهب خيراته . وحيث الاغتصاب واضح تسقط شرعية السلطة بصورة واضحة ، وتجوز بل ربما تجب الثورة عليها قانوناً واخلاقاً . وهذا هو العرف المستتر في ضمير الانسان المتحضر منذ أقدم العصور : أن يسقط أي سلطة تفرض عليه لا تستند الى سند شرعي . ولولا ذلك لجاز لأي عصابة من الأشرار أو قطاع الطرق ان تفرض سلطتها على أية جماعة متمدنة آمنة بشوكة السلاح وحدها . ولولا ذلك لجاز لأي مرابٍ أو مستغل أن يكسر بالضغط المادي ارادة انسان محتاج فيتصرف في شخصه أو في متاعه بما يحب . والتاريخ البشري والمجتمع البشري يعرفان فعلاً وجود هذه الظواهر وتكررها من حين لآخر ، ولكن الضمير الديني والضمير الاخلاقي والعرف القانوني كلها تستنكر قيام هذه الظواهر وتحضّ على مقاومتها وابطالها بمختلف الطرق . فالسلطة لكي تقبل وتطاع ينبغي أولاً وقبل كل شيء ان تكون شرعية . وهنا يبدأ الاشكال .

ما الذي يسبغ على أي سلطة صفة الشرعية ؟ اذا كان الاغتصاب واضحاً في

حالة استعمار أمة لأمة ، فما الحكم في حالة اغتصاب فرد لأمة أو طبقة لطبقة أو فئة لشعب داخل اطار الأمة الواحدة ؟ لقد كان هذا جوهر الفكر السياسي منذ أقدم العصور ، وقد حاول فلاسفة السياسة أن يحلوا هذا الاشكال بنظريتين معروفتين هما نظرية الحق الالهي ونظرية الحق الطبيعي . ففي الحضارات الاستاتيكية القائمة على استقرار العلاقات لحضارة مصر القديمة والحضارة البابوية في العصور الوسطى كان الملك هو « معبد الله المقدس » بلغة شكسبير ولذا فقد كان الاجتراء عليه درجة من درجات التحدي للارادة الالهية . وفي الحضارات الديناميكية كالحضارة اليونانية والحضارة الاسلامية قبل ظهور نظام توارث الخلافة والحضارة الحديثة منذ الرينسانس عامة ومنذ الثورة الفرنسية بصفة خاصة رفض أكثر فلاسفة السياسة ، وأيدتهم في ذلك الشعوب ، مبدأ الحق الالهي واخذوا بمبدأ الحق الطبيعي . واذا كان هنري بولنجبروك (هنري الرابع ١٣٦٧ — ١٤١٣) في انتزاعه العرش من ريتشارد الثاني ، وهو آخر ملك في انجلترا جلله حق الملوك الالهي ، بحسب ما ورد في شكسبير ، قد وضع يده على مقبض سيفه يقدس حقه في عرش انجلترا ، واذا كان المعز لدين الله الفاطمي (٩٣١ - ٩٧٥) بحسب ما تقول كتب العرب ، قد جمع علماء مصر في بلاطه حين استفسروا عن حقه في الخلافة وأشار الى ذهبه قائلاً « هذا حسبي » والى سيفه قائلاً « وهذا نسبي » ، فان هذا السند الوضعي لسلطة الحاكم ليس الا مظهراً من مظاهر التمسك بنظرية الحق الطبيعي ، وهو بمثابة قولنا بلغة العصر ان شرعية السلطة التي تقلدها هنري الرابع وشرعية السلطة التي تقلدها المعز كانت على الأقل في تاريخ الأدب - مستمدة من قدرة كل منهما على حفظ الأمن في بلد اختل فيه الأمن ، ومن قدرة كل منهما على نشر الرخاء في بلد استشرت فيه الفاقة : وما نظام البيعة ، وهو لون من ألوان الاستفتاء أو الانتخاب بلغة العصر الحديث ، الا مظهراً من مظاهر اسناد السلطة الى الحق الطبيعي لا الى الحق الالهي ، وما القول المأثور : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وما قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « اني قد وليت عليكم

ولست بخيركم ، فان رأيتموني على حق فأعينوني ، وان رأيتموني على باطـــل فسددوني ، أطيعوني ما اطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم» الاتقنيناً لثورة المحكوم على الحاكم واسباغاً لصفة الشرعية على الثورات العادلة . ومـــا أعمال فلاسفة الفكر السياسي في القرون الخمسة الاخيرة من فورتسكيو وجان بودان وجروتيوس وكلاوندن الىسوريل واللورد التون ولاسكي وجان ماريتان ، عبر هوبز ولوك وروسو وهولباخ وكوندورسيه وكوندياك وبيرك ووليم جودوين وبنتام وجيمس ميل وستيوارت ميل وبرودون وهيجل ومـــاركس وانجاز ونيتشه وتريتشكي الخ ... الا محاولات لدراسة مشكلة « شرعيـــة » السلطة والطابع العام للفكر السياسي الديموقراطي والراديكالي الحديث فهو أنه يبني نظرية الحق الطبيعي على نظرية العقد الاجتماعي ، أمـــا الفكر السياسي الارستقراطي الحديث والفكر السياسي الشمولي (الشيوعي والفاشي) فهما بمثابة امتداد طبيعي لنظرية الحق الالهي (تأليه البروليتاريا وتأليه الدولة) .

ولكن بالرغم من كل ذلك يبقى السؤال الجوهري فيمشكلة السلطة والثورة علىالسلطة بغير اجابة واضحة . فأياً كانت غاية هذا العقد الاجتماعي سواء كانت حفظ الأمن (هوبز) ، أو حفظ الحرية والمساواة والاخاء (اعـلان حقوق الانسان) ، أو تحقيق أكبر خير لأكبر عدد (بنتام) ... الخ فان قيام الدولة كتجسيد للسلطة التي يمكن بها تنفيذ العقد الاجتماعي ، مع الاعتراف التام بضرورته ، يحمل في احشائه نقيضه وهو مبدأ هدم الدولة كتعبـــير عن الثورة على السلطـــة اذا استحال عليها تنفيذ العقد الاجتماعي أو اذا اصبح المجتمع بحاجة الى عقد اجتماعي جديد ، اللهم الا اذا سلمنا بأبدية العقد الاجتماعي أو على الأقل بأبدية شروطه وبنوده ، وهوأمر مستحيل لأنه يعود بنا الى الغيبيات المتضمنة في نظرية الحق الإلهي . وما دمنا نسلم بشرعية السلطة اذا كانت مبنية على الحق الطبيعي أو على نظرية العقد الاجتماعي ، وما دمنا نسلم بشرعية الثورة على السلطة اذا كانت مجرد اداة من

دوات القمع والاغتصاب تبقى المشكلة بغير حل فلسفي : فمن ذا الذي يحق له أن يقرر ان السلطة شرعية أو ان الثورة على السلطة شرعية ما دمنا قد تخلينا عن نظرية الحق الالهي ؟ ان نظرية الحق الالهي تحل مشكلتها بنفسها لانها تستند الى افتراض ميتافيزيقي ازلي ابدي غير قابل للمناقشة وانما يقبل بالايمان والتسليم . أما نظرية الحق الطبيعي التي تجعل من الانسان وغاياته ومصالحه الخ أساساً للوجود الاجتماعي ولفكرة الدولة التي لا كينونة لها بغير السلطة ، هذه النظرية ليس فيها أي مقياس موضوعي مطلق نستطيع ان نحكم به على سلطة ما انها شرعية أو مغتصبة ، وانما المقياس دائماً منسوب الى طبقة (مجموعة من المصالح المتجانسة) أو الى فئة (مجموعة من الظروف المتجانسة) أو الى جماعة (مجموعة من الغايات المتجانسة) أو الى حزب (مجموعة من المعتقدات المتجانسة) ، والتبرير الأوحد لشرعية الثورة على السلطة هو ان السلطة تعمل على احباط هذه المصالح أو الظروف أو الغايات أو المعتقدات .

والنظرية الماركسية تقولها في صراحة لتبرير الثورة على السلطة في أي مجتمع طبقي أن السلطة بكل ما تملك من قوانين وتشريعات وفقه دستوري وتقاليد وفلسفات وأجهزة تعليم وأجهزة دعاية واجهزة قمع (الجيش ، الشرطة ، المحاكم ، السجون ليست فى نهاية الأمر الا التعبير عن مصالح الطبقة أو الطبقات المالكة لوسائل الانتاج . وكل ما هناك موجود لحماية المالكين من غير المالكين أو لحماية القلة التي تملك كل شيء من الشعب الذي لا يملك الا قدرته على التناسل . فالبروليتاريا كلمة لا معنى لها الا انها الطبقة الغزيرة النسل ، أو بلغة أهل مصر من لا يملك « قوته ودس قرموطه » .

فالماركسية اذن تسبغ صفة الشرعية على ثورة البروليتاريا على أساس انها ثورة الكادحين على نظام اغتصاب فائض القيمة المتجمع من عمل العاملين (العمال ، الفلاحون الخ . .) . والمجتمعات التي تقدس الملكية ، كالمجتمع

البرجوازي ، ترى ان أي مساس بنظام الملكية الخاصة يعتبر مساساً بمقدسات الانسان ويدخل في باب السرقة أو السطو الاجتماعي ، وبالتالي فهو اغتصاب خالٍ من الشرعية ، ولذا وجب قمعه بقوة القانون وتداركه بقوة التربية والتعليم والدعاية . وقد كانت البرجوازية نفسها ايام ثورتها على الاقطاع والارستقراطية (الثورة الفرنسية) تعد الملكية الخاصة الوراثية وكافة الامتيازات الموروثة اغتصاباً سافراً خالياً من أي سند شرعي لان البرجوازية الثائرة لم تكن تعترف بأساس للملكية الخاصة غير العمل ، فطالبت بما يسميه الفرنسيون « المساواة » وما يسميه الانجليز « تكافؤ الفرص » وطالبت بالحرية كشرط اساسي لممارسة المساواة أو تكافؤ الفرص. وحين بلغ المجتمع الارستقراطي والمجتمع البرجوازي درجة اللاتفاهم اندلعت ثورة كرومويل في انجلترا عام ١٦٤٠ واندلعت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ . والنظم الثيوقراطية القائمة على نظرية حكومة الله تعد الشرائع السماوية القوة الحافظة للمجتمعات ، وتعد أي انتقاض للارادة الالهية المتمثلة في الشرائع اغتصاباً يتحتم ردعه بالقوة. والنظم الفاشية تؤله الدولة متمثلة لا في افراد ولا في طبقات ولا في فلسفات أو عقائد أو مؤسسات مدنية ولكن ممثلة في «الجنس» كله أو القوم أي العصبية القومية بلغة ابن خلدون الجامعة لكل العصائب ، وتعد أي انتقاض لارادة الدولة القومية اغتصاباً وعصياناً يستحق الردع ولو بغرف الغاز ومعسكرات السخرة .

في هذا العالم المضطرب بالمصالح المتعارضة وبالمتناقضات الفكرية هناك منهجان لا ثالث لهما لاجراء أي تغيير اجتماعي : اما العنف (الثورة على الاستبداد) ، وإما الاقناع (الوسائل الديموقراطية) . ومن حين لحين يظهر منهج ثالث هو منهج الثورة البيضاء ، وهو منهج لا نعرف له امثلة في التاريخ إلا ثورة ١٦٨٨ التي وضعت حداً لحق الملوك الإلهي في نجلترا ، وثورة ١٨٣٢ التي نقلت السلطة في انجلترا من يد الارستقراطية الى يد البرجوازية بقانون الاصلاح الاعظم ، والثورة المصرية في ١٩٥٢ التي صفت الاستعمار والاوليجاركية المصرية دون اراقة قطرة من دماء. ولكن الثورة البيضاء هي الاستثناء لا القاعدة

في تاريخ البشرية . وفي ١٩٤٥ لم يبدُ في أفق السياسة المصرية مايوحي بان تغيير أسس الحياة فيها يمكن ان يتم بغير اراقة دماء ، لان اللاتفاهم بين المصريين والانجليز من جهة وبين المصريين والمصريين من جهة اخرى بلغ ذروته وكان كل شيء يشير الى ان الاحتكام الى السلاح كان المخرج الوحيد من هذا المأزق الوطني ومن هذا المأزق الاجتماعي .

وفي هذه الفترة أقدمت على أول عمل سياسي قمت به في حياتي ، وكان هذا العمل يتنافى مع واجباتي الجامعية كمدرس لا يفترض فيه انه يتدخل في السياسة العملية مهما كان من حقه ان يشتغل بالفكر الساسي . فقد اعادت حكومة النقراشي اتحاد جامعة القاهرة (فؤاد الأول يومئذ) ، بعد ان عطل سنوات بسبب ظروف الحرب . وأعد الطلبة انفسهم لاجراء انتخابات الاتحاد في أوائل ١٩٤٦ وحشدت الاحزاب كل ما تملك من عدة لتسيطر على الجامعة من خلال مجلس اتحاد الجامعة : ووضع الاخوان المسلمون والشيوعيون كل ثقلهم في الميدان ، حتى ان الفريقين استقطبا كل ما حولهما من نشاط سياسي ، فاليمين وفلول الفاشية المصرية تجمهرت حول الاخوان واليسار والعناصر الديمقراطية تجمهرت حول الشيوعيين . وترسب في يقيني يومئذ ان الوطن في خطر بسبب تعنت الانجليز في الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وترسب يومئذ في يقيني ان الشعب في خطر بسبب تحجر الاوليجاركية المصرية بقيادة الملك وازدياد الهوة بينها وبين الشعب واعتدال لهجتها نحو الانجليز . ورغم تحفظاتي الكثيرة بالنسبة للافكار السياسية المتداولة يومئذ وجدت ان من واجبي ان أقوم بعمل ايجابي يعبر عن ايماني بان الجامعة ينبغي أن تكون كما كانت دائماً عقل المجتمع وطليعة الشعب . وكان معروفاً ان الاخوان المسلمين قد حشدوا قوتهم للسيطرة على اتحاد الجامعة عن طريق الانتخابات . وهنا جمعت بين عشرة وعشرين طالباً من طلابي الذين كنت اشتبه انهم من قيادات الشيوعية في الجامعة أو التقدمية بصفة عامة ، جمعتهم في داري ، وكنت يومئذ لا ازال أعزب أسكن في بنسيون بشارع

بستان ابن قريش خلف ميدان الاسماعيلية (التحرير حالياً) وطرحت عليهم القضية على الوجه الآتي : بعد أيام يفتح باب الترشيح لانتخابات اتحاد الجامعة. خصومكم في الرأي قيادتهم موحدة أما انتم فموزعون . ان اردتم ان تفوزوا في الانتخابات فيجب ان توحدوا صفوفكم وتتفقوا فيما بينكم على اثنين أو ثلاثة ترشحونهم وتؤازرونهم . أما ان يتقدم عشرة منكم للترشيح فلن تصيبوا منه الا تفتيت أصواتكم بينما خصومكم ملتفون حول قيادات موحدة . سأترك لكم الغرفة ساعة كاملة تسوون فيها خلافاتكم، وتتفقون فيها على مرشحيكم، اذا كنتم مقتنعين بوجاهة رأيي . ووجدتهم بالفعل مقتنعين ، وتركتهم ساعة أو بعضها وحين عدت اليهم وجدتهم قد اجمعوا رأيهم على طالب وطالبة : ع . أ . و . ل . ز. وبعد اسابيع كانت الانتخابات وكان انتصارهما ساحقاً. ويبدو ان ماتم في كلية الآداب تم في اكثر كليات الجامعة : سيطر الشيوعيون الديمقراطيون على اتحاد الجامعة . وفوجئنا بعد ايام في ١٧ فبراير ١٩٤٦ بظهور منظمة سياسية جديدة خطيرة اسمها اللجنة التنفذية للطبلة والعمال مكونة من ممثلين عن اتحاد الجامعة وممثلين عن نقابات العمال . وقد سيطر على هذه المنظمة الشيوعيون والطليعة الوفدية . أقول خطيرة لانها كانت بمثابة وثيقة زواج رسمي بين المثقفين والبروليتاريا . ويبدو ان فكرة انشاء هذه المنظمة نبتت في النوادي السياسية الشيوعية العديدة كرد فعل لاختيار صدقي باشا رئيس الاتحاد المصري للصناعات رئيساً للوزارة. وكانت مهمة هذه اللجنة قيادة الجماهير في النضال ضد الانكليز والملكية . كيف خرجت ومن اخرجها الى الوجود ، هذا ما كنت اجهله فقد كنت لا اعرف ما يدور في كواليس الشيوعيين والاحزاب السياسية . المهم انها خرجت الى الوجود فكانت شيئاً خطيراً وقف بالبلاد بين يوم وليلة على حافة الثورة . قبل ذلك بأيام ، في ١١ فبراير ١٩٤٦ ، يوم عيد ميلاد الملك ، كنت اتطلع الى الحرم الجامعي من شرفة كلية الآداب فرأيت ع . أ . يتسلق جدران ادارة الجامعة ويحطم الزينة الملكية : مئات اللمبات الكهربائية المعلقة في شكل تاج واعلام . ورأيت الفتاة الخجول ل . ز . تقف على درج ادارة الجامعة

وتخطب في نحو ثلاثة آلاف طالب وتحضهم على الثورة . وخرجت المظاهرات من الجامعة ومن كل مكان تنادي بطرد الانكليز وسقوط عملاء الانجليز : هذا كان رد طلاب الجامعة على مذبحة كوبري عباس في ٩ فبراير ، يوم فتح النقراشي كوبري عباس على آلاف المتظاهرين من الطلاب ليحول دون تغلغلهم من الجيزة الى القاهرة فسقط في النيل عشرات وقتل من قتل . وسقطت وزارة النقراشي في ١٥ فبراير ١٩٤٦ وتولى اسماعيل صدقي في ١٦ فبراير . ولم يضع صدقي وقتاً ، فبعد معسول الكلام لم يلبث ان كشر عن انيابه . وتجددت المظاهرات في ٢١ فبراير ١٩٤٦ وتجمعت في ميدان الاسماعيلية (التحرير) وكانت ثكنات الانجليز لا تزال في قصر النيل مكان فندق الهيلتون ومبنى الجامعة العربية . وأصيب الانجليز بالذعر فأرادوا ان يسدوا بسيارات الجيب واللوريات مداخل الميدان ، ولكن المتظاهرين اقتحموا واحرقوا سيارة أو سيارتين . وفتح الانكليز النار من نوافذ القشلاق وابلاً على الميدان فسقط من سقط . كل ذلك بعد ان ثبت عجز البوليس المصري عن السيطرة على الموقف . وتنبه صدقي باشا بعد الأوان الى تدهور الموقف فأمر بنزول الجيش المصري لحفظ النظام، ولكن بعد ان سمح جنود « الحليفة » لأنفسهم ان يتدخلوا برصاصهم للمحافظة على « الأمن » . وكان الموقف ينطوي على خدش صريح لسيادة البلاد حتى على شئونها الداخلية، مما احرج رجال الجيش المصري وجعلهم ينقمون على الحاكم الذي ادت حماقته الى قيام قوات دولة اجنبية بحفظ الأمن في مصر، ولم يخفوا عطفهم على المتظاهرين . وقد خرج الكل من هذا بدرس خطير وهو ان قوات البوليس لم تعد كافية منذ ١٩٤٠ لقمع الشعور الوطني، وان نزول قوات الجيش لم يعد منه مناص لمواجهة هذا الغليان . وكنت ارقب كل ما يجري بقلب واجف من رصيف الميدان امام قهوة استرا ورأيت الدماء تسيل . ولم أكن قد رأيتها رؤية العين إلا يوم حوصرنا في مذبحة كوبري عباس الاولى عام ١٩٣٥ ايام ان كنت طالباً بالجامعة ووجدت نفسي وجهاً لوجه امام البكباشي ليز ومسدسات الانجليز عند مدخل الروضة ورفاقي من حولي مضرجين بدمائهم في ساحة الشهداء وفي شارع المقياس

عبد الحكم الجراحي وعبد المجيد وغيرهم كثيرون . كل هذا حدث في فبراير ١٩٤٦ . ونندد صدقي باشا في بيانه « بالدهماء » (يقصد الشعب) ، وعرفت البلاد ان صدقي هو صدقي رغم مرور ربع قرن على ديكتاتوريته الأولى .

وأراد صدقي ان يخدع البلاد بمفاوضة الانجليز وعاد من انجلترا بورقة اسماها مشروع معاهدة صدقي بيفن . وعند نزوله من الطائرة بالورقة قائلاً « لقد جئتكم بالسيادة على السودان » وكذب ارنست بيفن رئيس وزراء انجلترا انه اعطى صدقي باشا شيئاً من هذا القبيل . وسقط صدقي وعاد النقراشي في ديسمبر ١٩٤٦ وبدأ من جديد يعد العدة لمناوأة الانجليز بالطرق «القانونية» : بشكواهم في هيئة الامم المتحدة . وهنا أقدمت للمرة الثانية والاخيرة في حياتي على العمل السياسي دعتني سكرتارية مجلس الوزراء لترجمة الخطاب الذي كان مزمعاً ان يلقيه النقراشي في هيئة الأمم المتحدة مطالباً بجلاء الانجليز وتعديل المعاهدة ومعه بعض الوثائق المتصلة بالموضوع . وكنت اعتقد ان النقراشي كان في صميمه رجلاً وطنياً ، ولكن كان معروفاً للخاص والعام انه لم يكن يمثل الشعب وانما كان يمثل فئة قليلة العدد من اوساط الرأسماليين . وهنا تأكد في نفسي هذا المعنى : في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد حين كانت جموع الشعب تنادي بالعودة الى الجهاد الوطني كيف يبيح زعيم اقلية لنفسه ، وهو لا يستند الى اية سلطة شرعية إلا ارادة العرش ، ان يخرج بمفرده لمواجهة الانجليز مواجهة دولية ؟ ان أي اتفاق أو وعد يعود به زعيم لا تظاهره البلاد كلها سوف يكون اتفاقاً أو وعداً مشوباً ينتقص من حقوق البلاد ، أو حلاً وسطاً نرضي به الاقليات السياسية لتأمين ظهرها من خناجر الانجليز حتى تطلق يدها في البلاد وتستمر في دست السلطة . وهنا وجدت نفسي اترجم اثناء النهار بيان النقراشي باشا في رياسة مجلس الوزراء ، وأضع اثناء الليل في بيتي مذكرة بالانجليزية للرأي العام العالمي أوضح فيها مطالب مصر من وجهة النظر الشعبية ، كان المفروض ان تطبع على الاستنسيل ويقوم بتهريبها للخارج الطليعة الوفدية مع بعض الشيوعيين . وقد كان جوهر هذه المذكرة ان الجلاء وحده لا يكفي وانما ينبغي رفض أية

احلاف أو أي التزام دولي يقحم بمصر في النزاعات الدولية القائمة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي .

وقد سلمت المذكرتين في الموعد المحدد لكل ما يخصه . لست اعرف ماذا كان مصير مذكرتي ، ولكني اعرف ماذا كان مصير مذكرة النقراشي باشا . قال له الانجليز في هيئة الامم المتحدة في أغسطس من عام ١٩٤٧ : عد الى بلادك فأنت لا تمثل شعبك عد الي بلادك لتستجدي ببيانك تصفيق الجماهير فأنت بحاجة الى الجماهيرية . يا للعار .

(٢)

والذي يتأمل تاريخ كتابة « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » يجد انها كتبت في الفترة ما بين اكتوبر ١٩٤٦ وسبتمبر ١٩٤٧ ، اي من صميم الفترة الحرجة التي هزت وجداني هزاً عميقاً ، ووقفت فيها في مفترق طريقين . كنت بتكويني العقلي والنفسي ومعتقداتي الثقافية أومن ايماناً عميقاً بأن من حق استاذ الجامعة ان يشتغل بالفكر السياسي ما شاء ان يشتغل ولكن ليس من حقه ان يشتغل بالعمل السياسي بتاتاً « وكنت من جهة أخرى بحكم شعوري الوطني والاجتماعي وبحكم معتقداتي السياسة أومن ايماناً عميقاً بأن من واجبي كمواطن ان اعمل ما يمليه عليّ ضميري للمشاركة في تحرير البلاد واشاعة الوعي الاشتراكي الديمقراطي . وفي هذه الفترة فكرت جدياً في ان انهج النهج الذي انتهجه محمد مندور فأترك الجامعة واتفرغ للعمل السياسي . ولما اشتد ارهاب وزارات صدقي والنقراشي الثانية فكرت في خدمة القضية الوطنية في باريس، وبحثت فعلاً في صيف ١٩٤٧ عن عمل في العاصمة الفرنسية فلم اهتدِ الا الى وظيفة صغيرة هي وظيفة مدرس

لغة انجليزية بمدرسة خاصة . ثم تخوفت من التجربة أي من تغيير مجرى حياتي جملة ، لأني بدأت ادرك ان العمل السياسي سيقتضي مني التعاون الوثيق مع الماركسية التي كانت وحدها تعطف بلا تحفظ على الحركات التحررية في البلاد المستعمرة ونصف المستعمرة ، وأدركت انه لا مجال في السياسة لرجل مثلي يريد ان يحافظ على استقلاله الفكري . ثم ان زواجي في ٩ أغسطس ١٩٤٧ من آنسة فرنسية لا تفهم شيئاً في السياسة ولا تكترث لها فتّ في عضدي وجعلني أرى الأمر على حقيقته ، وهو أني لم أخلق للعمل السياسي لأنه يتطلب مواهب لا املكها . فعدلت عن خطتي وعدت الى عملي في الجامعة وقد عقدت العزم على الانصراف عن السياسة تماماً والتفرغ للعلم تماماً، وفي يقيني ان انصاف الاعمال هنا أو هناك تضر اكثر مما تنفع .

هذه هي الفترة العصيبة التي كتبت فيها مقدمة ديواني « بلوتولاند » وكتبت فيها « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » وكتبت فيها كتابين لا يزالان مخطوطين في ادراجي احدهما كتاب صغير اسمه « محاكمة ايزيس » وهو كوميديا رمزية من فصل واحد ، تصور في قالب اسطوري نهاية الفرعون فاروق والآخر كبير وهو رسالة في « الرد على انجلز » والماركسية بصفة عامة ، لا من وجهة نظر اقتصادية ولكن من وجهة نظر فلسفية ، وهي تشتمل اساساً على نقد للمنطق الجدلي ولنظرية الجبرية . كما ترجمت رواية رجعية كتبها صمويل جونسون اسمها (الرأس ايلاس) . وهي ايضاً الفترة التي كتبت فيها مقدمة « بروميثيوس طليقا » وكتابي « في الادب الانجليزي الحديث » وهما دراستان في علاقة الادب بالمجتمع . ويلاحظ اني اهملت نشر « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » و محاكمة ايزيس » لسببين : أولهما ان نشرهما في عهد الملكية كان امراً بعيد الاحتمال في زمن صودرت فيه « المعذبون في الأرض » وهي فيما أرى أقل استفزازاً للعهد البائد من هذين الكتابين ، وثانيهما اني بقدر اطمئناني الى عملي كمعلم وناقد ، كنت اخجل دائماً من عملي كفنان . ولولا ان الخلق الفني يأتيني عادة في الأزمات الروحية مرة كل عشر سنوات أو نحوها في صورة

انفجارات لا قبل لي بكبتها لخنقت هذا الجانب الابداعي في شخصيتي خنقاً تماً . ويبدو ان الخلق الفني عندي – وربما عند آخرين غيري – وظيفة حيوية سيكوثرابية ، وأنه من الوسائل التي تتوسل بها النفس للمحافظة على توازنهـا ومقاومة الانهيار . كذلك من مخطوطات هذه الفترة التي لم تنشر بعد ترجمتي لرواية « استر ووترز » لجورج هور .

فالى جانب هذهالأزمة الاجتماعية العامةالتي مررت بها سنتي ١٩٤٦و١٩٤٧ كما مر غيري من مثقفي ذلك الجيل ، مررت بأزمة نفسية خاصة اثناء سنوات الحرب . فقد كان لي صديق عزيز اسمه حلمي رفاعي انتحر ذات صيف في ليلة قمراء لاسباب مجهولة وهو على بعد ايام معدودة من زفافه . وكانت لحلمي رفاعي في نفس مكانة خاصة ، فقد كنا ثلاثة ربينا سوياً في مدرسة المنيا الثانوية ثم في الثانوية ثم في الجامعة ، حلمي رفاعي وعبد الحميد عبد الغني مستشارنا الآن في الأمم المتحدة وأنا ، وكانت بيننا أخوة عميقة من ذلك النوع الذي يقيم بين ذوي الاصلاب المختلفة قربى دونها قربى الاشقاء . وما زاد من عمق الصدمة عندي ان حلمي رفاعي كان قبل انتحاره يقيم معي ويشاركني سريري نحو شهر كامل وهو يتأهب للانتقال من حياة الاعزب الى حياة الزوجية ، واني كنت احفظ له في داري بالمسدس الذي انتحر به . فلما انتحر حلمي رفاعي عاش شبحه معي في اليقظة والمنام عدة سنين ، وكان يزعجني بزيارتـه في ليالي الصيف ، ولا سيما في الليالي القمراء ، بين الواحدة والثالثة صباحاً فأنهض من فراشي مذعوراً مشدوهاً كأنما القيت على رقية بغيضة وحبيبة في وقت واحد . وقد زودني انتحار حلمي رفاعي بالاطار الخارجي لرواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » فحلمي رفاعي في هذه الرواية يظهر في زي فؤاد منقريوس ، محرف الشخصية والاسطـورة بطبيعة الحال . والغريب اني ما ان فرغت من كتابة رواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » حتى عاد الى نفسي سكون عجيب وانقطع شبح صاحبي عن زيارتي في ليالي الصيف القمراء كلما تجددت ذكرى مصرعه ، وعرفت السبات العميق كأنما ارتفع عني طلسمه الفظيع .

الدم والبارود هذا كل ما ارقني في تلك السنوات الرهيبة . دم صديقي العالق بمسدسه الصدىء الصغير . دم الملايين من قتلى الحرب معجوناً في طين الوديان ورمال الصحراء وثلوج الشتاء . ثم هذه الشيع العجيبة التي ظهرت في مصر منذ الحرب العالمية الثانية من نازيين واخوان مسلمين وشيوعيين ، لا تكتفي بالدعوة الى تغيير الاوضاع ولكن تحتكم الى السلاح او تدعو الى الاحتكام الى السلاح . واطلق مصرع احمد ماهر فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ الشرارة الأولى فى نفسي . وحين سقط أمين عثمان مضرجاً بدمائه فى ٥ يناير ١٩٤٦ تجدد اللغز الحائر فى وجداني . ودم الشهداء يلطخ الارض من حولي فى كوبري عباس وفى ميدان الاسماعيلية برصاص المصريين أو الانجليز . ثم قنابل الأخوان المسلمين واسلحتهم المكدسة ، ثم وعيد الشيوعيين بحرب الطبقات . ما كل هذا ؟ عنف . عنف . عنف . لا بد من حل لمشكلة العنف لا بد من اجابة على هذا اللغز المحير . هل هى لعنة قديمة كتبت على بني الانسان منذ قابيل ؟ لا بد من تغيير الاوضاع . هذا امر لا يختلف عليه عاقلان ولكن كيف السبيل ؟ الحاكم يلجأ الى العنف . المحكوم يلجأ الى العنف . المستعمر يلجأ الى العنف ، الثوار يلجأون الى العنف . الانجليز . الامريكان . الالمان الطليان . اليابانيون . الروس . هيروشيما ونجازاكي . من لا يعرف كالفرنسيين كيف يقاتل يداس بالاقدام . ما كل هذا ؟ محال ان يكون العنف هو الحكم بين الانسان والانسان . ومع ذلك من لا يعرف كالفرنسيين كيف يقاتل يداس بالاقدام . قضايا مقدسة وقضايا اثيمة . فليكن ولكن محال ان يكون العنف هو الحكم بين الانسان والانسان . ومع ذلك فكيف يقتنع اصحاب اوشفتز وبوخنفالد وكاتين والكعب الحديدي بغير لغة السونكي والبارود . لا بد من حل لهذا الاشكال . أين الخطأ وأين الصواب . اين الشر واين الخير .. سؤال يمكن الاجابة عليه . ولكن لا بد من حل لمشكلة العنف . طريق غاندي ؟ المقاومة السلبية ؟ كلمات شلي في ختام « بروميثيوس طليقاً » :

« انما الوداعة ، والعفة ، والحكمة ، واحتمال الخطوب .

هي الاختام التي يبرم بها ذلك الميثاق الاكيد .

ذلك العهد الذي يوصد ابواب القبر على قوة الدمار .

ولئن اطلقت الابدية ، ام الاحداث والايام ، بيد ترتجف .

سراح الثعبان الذي سيلتف حولها ويهصرها هصراً .

كانت هذه الفضائل الطلاسم التي يتم بها النصر .

على الموت الذي فك من اساريره .

فاحتمال الآلام التي يخالها الأمل ابدية ،

وغفران الخطايا وان تكن اسود من الليل وابشع من الموت ،

وتحدي القوة مهما بدت مطلقة في العالمين ،

والتضحية في سبيل الحب ، والتعلق بأهداب الأمل .

حتى يخلق الأمل المأمول من حطامه .

والثبات الذي لا يعرف الندم ولا يلين امام صروف الدهر :

هذه هي معاني الخير والمجد والسعادة والحرية ،

وهي جميعاً من سجاياك ايها المارد العظيم

هذه وحدها هي الحياة وبهجتها ، وهي النصر والسلطان .

ربما، ربما ولكن أي ضمان؟ هذه هي الدراما الانسانية الحقيقية التي تجسدت امام عيني بين ١٩٤٥ و ١٩٤٧ . قالت نفس : كفى دماء . أي شيء إلا العنف. فلنخرج من الحلقة اللعينة . القاتل يقتل ولو بعد حـــين . ويوم ان ازهق حسن

مفتاح روح سيد قنديل لف حول عنقه حبل مشنقته بيده . وكتبت «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» رسالة رمزية ضد فلسفة العنف. ولكن الفن لا يعرف الدعوة المباشرة. من خلال المأساة وحدها يحدث التطهير الذي حدثنا به ارسطو، والمأساة لا تكون مأساة إلا اذا تناولت سيرة بطل. فالبطل وحده هو الذي يتوحد فيه كل انسان ويتقمص شخصه كل انسان فيذوق عذاباته ويصرع بمصرعه ويبرأ من ذنوبه ويلقى الغفران. البطل الخاطىء هو الرمز الحي لكل انسان ومأساته هي مأساة كل انسان .

كانت الامثلة الحية امامي كثيرة. كان هناك محمود العيسوي قاتل احمد ماهر الذي اقام من نفسه قانوناً وقاضياً وجلاداً . وكان هناك حسين توفيق قاتل أمين عثمان الذي اقام من نفسه قانوناً وقاضياً وجلاداً . وكان هناك الاخوان المسلمون الذين نشروا الذعر في الوادي بقنابلهم المبثوثة في كل مكان ودعوا جهاراً الى « الجهاد » بالسلاح . وكان هناك الشيوعيون الذين علمتهم الماركسية ان العنف جائز في سبيل الانسان ، مع انهم كانوا في صميمهم من المثقفين الوادعين الذين لا يستطيعون قتل بعوضة رغم دعاواهم المريضة . فكرت ان اختار لروايتي بطلاً من الاخوان المسلمين . لم تكن مشكلتي ان اسأل : اين الحقيقة ؟ هل هي مع احمد ماهر ؟ هل هي مع محمود العيسوي ؟ هل هي مع أمين عثمان ! هل هي مع حسين توفيق ؟ هل هي مع حسن البنا ؟ هل هي مع النقراشي ؟ هل هي مع الباشوات ؟ هل هي مع البروليتاريا ؟ ماذا يهم ؟ فلنقل ان الحقيقة مع القاتل والقتيل معاً أو شيء منها على الأقل ، وإلا لما تجاورا معاً في الحياة أم النقائض . وليس معنى هذا الاستسلام لفوضى النسبية في القيم والمعتقدات والاحكام . فالحقيقة عندي لها مقاييس موضوعية تقاس بها ولو على سبيل التراجيح . ولكن مأساة الانسان هي في اعتقاد المخطىء انه مصيب مهما بدا خطوءه واضحاً للغير . فلنقل : كلهم على خطأ أو كلهم على صواب أو بين بين ، ولكنهم بالقطع ليسوا من رسل الشيطان مهما كانت اخطاؤهم . هم على الاقل بالنوايا يؤمنون انهم

يفكرون بمنطق الحقيقة ويعملون في سبيل الخـير . هذا ليس موضوع البحث .
د موضوع البحث هو : كيف تحل نقائض الحياة . موضوع البحث على احسن
مفروض هو : كيف يزيل الخير الشر . والجواب عندي : العنف ليس المعادلة
لصحية .

لم يكن ممكناً ان اكتب روايتي عن الاخوان المسلمين لسبب بسيط هو اني
رغم معرفتي بفلسفتهم ودعوتهم لم أكن اعرفهم معرفة الحي للاحياء . لم اخالط
احداً منهم مخالطة شخصية حتى استطيع ان اعرف كيف يفكرون وكيف
يشعرون وكيف يتجادلون وكيف يفرحون وكيف يتألمون وما هونسيج حياتهم
اليومية وما هي مشاكلهم التنظيمية . وفي كل عمل فني لا بد من خامة تستمد من
الحياة وترسم على الطبيعة بأدوات الفن المعروفـة . وكانت الموديلات أو النماذج
امامي بغزارة بين صفوف الماركسيين الذين كنت اعرف منهم عشرات وعشرات
واخالطهم مخالطة يومية واصطفي الاصدقاء واتابع اولاً بأول مشاكلهم العامة
والخاصة . وكان الشيوعيون خامة ممتازة لأن جرثومة العنف لها وجود في الفكرة
الماركسية ، لا أقول بالضرورة ولكن بالامكان على اقـــل تقدير . ثم انهم كانوا
يتحركون داخل تنظيمات .

وهناحدث حادث حدد اتجاهي ورسم امامي الطريق . ففي ١١ يوليو١٩٤٦
قبض صدقي باشا على عشرات من الاحرار ، قيل يومئذ مائتين ، واتهمهم بأنهم
كانوا مشتركين في مؤامرة شيوعية لقلب نظام الحكم . وكنت اعرف ان هذه
كانت اكذوبة كبرى فقـد كنت واحداً ممن صــدر الأمر بالقبض عليهم ولولا
وجودي في فرنسا اثناء عطلة الصيف لقضيت معهم شهراً في سجن الاجانب .
فقياساً على حالتي لم يكن هنـاك اي رابط فكري صميم يربطني بمحمد زكي
عبد القادر الذي كان مجرد ليبرالي متفتح أو بمحمد مندور الذي كان وفدياً
راديكالياً أو بحسني العرابي الذي كنت اشتبه في أنه يحمـــل رواسب فاشية أو

بعصام الدين حفني ناصف الذي كان مجرد مثقف يحب الكـــلام . أو برمسيس يونان الذي كان يجنح الى التروتسكية ثم الوجودية ثم هجر السياسة نهائياً ، أو بأنور كامل رئيس جماعة الخبز والحرية أو بأحمــــد كامل قطب رئيس حزب الفلاح .. الخ . ولو ان صدقي باشا قـــال ان كلا من هؤلاء كان يعمل على انفراد لقلب وزارة صدقي باشا لاقترب من الحقيقة درجات . ولكن هذه الحملة الارهابية زودتني بخامة ثمينة لروايتي. قالت نفسي: فلنتصور فعلاً كما زعم صدقي باشا ان الحزب الشيوعي المصري قد دبر مؤامرة لقلب نظام الحكم. وهنا طرحت هذا السؤال : هل صدقي باشا هو الذي اجهض هذه المؤامرة ؟ وجاء الجواب من اعماقي : كلا انما اجهضها مدبرها نفسه حسن مفتاح سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري .

(٣)

وبعد ان فرغت من كتابة « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » كتبت عليها الاهداء الآتي : « الى اسماعيل صدقي باشا بطـــل ١١ يوليو ١٩٤٦ مع لعنات الاحرار » ثم سلمت مخطوطها الى استاذي طه حسين ليقرأه ويشير علي بملاحظاته ان وجد في روايتي قيمة فنية . وتركت الرواية عند طه حسين ثلاث سنوات من ١٩٤٨ الى ١٩٥١ ، ولم اشأ ان ازعجه لأن نشرها في ذلك الحين لم يكن موضع نظر على الأقل بسبب ما اشتملت عليه من عبارات مناهضة للملكية . فلما منحتني مؤسسة روكفلر زمالة في جامعة برنستون عام ١٩٥١ رأيت ألا اغادر البلاد إلا ومعي مخطوط روايتي فزرت طه حسين لأسترد كتابي - وكان يومئذ وزيراً للمعارف ، وعرفت منه انـــه لم يجد الفراغ الكافي لقراءتهـــا . وكان

معظمة الى ذلك ، فأزلت الاهـــداء الاصلي لان الموتى لا يلعنون في اهداءات الكتب . وبعد ان قضيت عامين في امريكا عدت الى مصر وكانت ثورة ٢٣ يوليو قد قامت والغت النظام الملكي والغت الالقاب وحطمت الأوليجاركية المصرية، في حكومة الاغنياء ، بسلسلة من القوانــين كان في مقدمتها قانون الاصلاح الزراعي وقانون حل الاحزاب السياسية واقامت محاكم للمستغلين والمتاجرين في قوات الشعب عمادها العدل والرحمة معـاً على نقيض المحاكم التي تصورها حسن مفتاح حين كانت تنتابه نوبات الصرع . وكنت يومئذ اشرف على صفحة الأدب في جريدة «الجمهورية» فأخذت اعد العدة لنشر « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» ليرى الناس ما كان يمكن ان يحدث للبلاد لو ان جماعة مؤمنة بالعنف كالشيوعيين أو الاخوان استولت على مقاليد السلطة في مصر ، وقد اثبت فيما بعد حادث المنشية ومـا جاوره من احداث ثم مؤامرة صيف ١٩٦٥ ، كما اثبت عهــد عبد الكريم قاسم في العراق ان الأمر كان يدخل في حدود الاحتمال . ثم لم البث ان تركت الجامعة وعدت برواياتي الى امريكا حيث اشتغلت موظفـــاً بادارة المؤتمرات في الأمم المتحدة من أغسطس ١٩٥٥ الى ديسمبر ١٩٥٦. ثم استقلت عند العدوان على مصر وعدت لأعمل في جريدة « الشعب » . وهنا تجددت بي الرغبة في نشر هذا الكتاب ، فدفعت به الى من نسخه على الآلة الكاتبـــة وجرت مفاوضات بيني وبين دار النديم في نشره وسلمتها نسخة للاطلاع عليه. ثم عينت استاذاً للادب الانكليزي بجامعة دمشق فانقطعت الصلة بيني وبين دار النديم . وفي فترة اقامتي الوجيزة في دمشق تجددت المفاوضات بيني وبين الدكتور سهيل ادريس صاحب دار الآداب البيروتية لنشر الكتـاب وارسلت اليه نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة عن طريق مكتبة اطلس بدمشق ولكني عرفت منه بعدئذ انها لم تصل اليه . وعدت من دمشق الى القاهرة في ١٠ ديسمبر ١٩٥٨ لأعمل مديراً عاماً للثقافة بوزارة الثقافة نحو اربعة أشهر ثم تغيبت عن القاهرة بين ٢٨ مارس ١٩٥٩ ويوليو ١٩٦٠، وبعد عودتي جاءني الصديق ابراهيم عامر من

دار النديم يحمل الى النسخة التي كانت الدار قد استعارتها مني لنشرها ، وكانت دار النديم قد صفت اعمالها .

وفي ١٩٦٥ قرأ احمد حمروش رئيس تحرير روز اليوسف « العنقاء او تاريخ حسن مفتاح » وتحمس لنشرها في مجلته وتحمس الهام سيف النصر المشرف على سلسلة الكتاب الذهبي لنشرها في سلسلته ثم عرضت علي دار المعارف نشر الكتاب فسلمته للجنة القراءة التابعة لها .

وهنا جاء الاستاذ عبد الحميد ناصر مدير دار الطليعة البيروتية ليفاوضني على نشر كتابي. قلت خذه واقرأه . انه الآن بين دار المعارف ودار الطليعة وسلسلة الكتاب الذهبي وليكن الكتاب من نصيب من يتعاقد عليه قبل الآخر.

(٤)

هذه قصة هذه القصة التي يتاح لها الآن انتصل الى ايدي القراء بعد ان ظلت مطوية زهاء عشرين عاماً . اما عن قيمتها الفنية فلست أنا الذي افتى في ذلك وانما يفتى فيه قرائي ونقادي . وانما يجدر بي ان اذكر ان المستشرق دنيس جونسون ديفيز ما ان قرأها حتى قرر ان يترجمها الى الانجليزية ، ولكني رجوته ان يتريث في ذلك حتى يصدر النص العربي ، اذ ليس من المعقول ان تصدر لكتاب ترجمته في لغة اخرى قبل ان يصدر في لغته الاصلية . اما توفيق الحكيم فقد قال عندما قرأ هذه الرواية في اوائل ١٩٦٥ « لو ان هذه الرواية صدرت حين كتبت لغيرت مجرى الرواية العربية » . وعندما قرأها

الدكتور حسين فوزي قال: « هذه ليست رواية بل روايتين اختلطتا ، احداهما تحفة فنية كبرى والأخرى وثيقة اجتماعية من طراز خطير » . والحق اننا في الشرق ينبغي ان نحذر من اطراء اصدقائنا ، فنحن لا نعرف اين يبدأ فيه النقد واين تنتهي المجاملة . بالضبط كما ينبغي ان نصغي لكلام اعدائنا فنحن لا نعرف أين تنتهي فيه البغضاء واين يبدأ النقد الموضوعي . وبعد ان استمعت نحو ساعة لآراء هذين الاديبين الكبيرين شاعت في نفسي الطمأنينة ولكني أصبت بانزعاج شديد . اطمأنت نفسي لأني تحققت ان لعملي الحد الادنى من القيمة الفنية الذي يبرر نشره في الناس ، وهذا ما كنت اريد ان استوثق منه لعجزي التام عن الحكم على أي عمل من اعمالي يقوم على الخلق ، ولا سيما بعد ان انقضت عشرون عاماً تغيرت فيها الاساليب وتجددت مدارس الأدب . امامصدر انزعاجي فهو ان هذين الأديبين الكبيرين قرءا في روايتي معاني لم أقصد اليها حين اقدمت على انشاء هذه الرواية . فقد كنت اعتقد وانا اكتبها اني انما كنت انشىء رواية « فلسفية » تعالج مشكلة « العنف » في المجتمع الانساني لا اكثر ولا اقل ، فإذا بتوفيق الحكيم وحسين فوزي يجمعان على ان روايتي سجل دقيق لمجتمع الشيوعيين المصريين في الفترة التاريخية التي تصورها الرواية ، فترة الحرب العالمية الثانية واعقابها مباشرة ، سجل ما كان لأحد ان يدونه الا اذا كان قد خبر الشيوعيين في مصر عن كثب وتغلغل في نفوسهم وعقولهم وتنظيماتهم .

قال توفيق الحكيم : « لو نشرت « العنقاء » اثرت عليك ثائرة الشيوعيين لأنك تصورهم في صورة جماعة السفاحين المنحلين شيعة وافراداً» . وقال حسين فوزي : «لو نشرت « العنقاء » اثرت عليك ثائرة اليمين واليسار في وقت واحد لأنهم سيعتقدون ان مثل هذا التصوير لا يمكن ان يوفق اليه إلا عضو سابق في الحزب الشيوعي المصري ، ولأنك في وصفك للحركة الشيوعية اسبغت عليها نوعاً

من العطف الانساني يحبب الناس فيها وفي اصحابها» . وحرت بين الرجلين لأني كنت في دخيلة نفسي اعلم اني لم قصد الى الاساءة الى الشيوعية أو الى العطف عليها، وانما كلما قصدت اليه هو ان اتناول مشكلة العنف في ابعادها الانسانية. وزاد من حيرتي ان اخاً لي كنت احبه ويحبني من اعماق الاعماق هو المرحوم ابو بكر حمدي سيف النصر كان قد قرأ الرواية قبل ان يسجن في قضية من قضايا الشيوعية عام ١٩٥٣ بسنوات ، فعاتبني عتاباً شديداً على كتابتها واوصاني بألا ادفع بها الى المطبعة لأنها تسيء الى الحركة الشيوعية . كذلك كانت لي سكرتيرة مثقفة تكرر اعتقالها بتهمة الشيوعية واعتقد انها قضت في السجون والمعتقلات ما يقرب من ثماني سنوات . وكانت هذه السيدة تجد صعوبة في العثور على عمل ، فاتفقنا على ان تعاونني ريثما تستقر احوالها وتجد المكان المناسب لكفاءتها . وقد رجوتها ان تنسخ الرواية على الآلة الكاتبة مرتين لاطمئن الى انها استوعبت كل ما فيها وهي تنسخها وقد رأيت الجزع يرتسم في عيني هذه السيدة ، وابلغتني ان روايتي تحمل حملة ظالمة على الشيوعيين المصريين . أما زوجها الطبيب ، وهو ايضاً من خريجي السجون من الشيوعيين ، فقد عبر لي عن اشمئزازه مما سماه الصورة المنحلة لشيوعيي الجيل الماضي وأكد لي ان شيوعيي اليوم خالون تماماً من هذا الانحلال .

كل هذا التضارب في الآراء ناجم في ظني من قياس العمل الفني بمقاييس ليست مستمدة من العمل الفني ذاته . فأنا لم اقصد ان اندد بالشيوعية ولا ان انوه بانحلال الشيوعية وانما كنت احاول ان ارسم نماذج بشرية على الطبيعة . فحسن مفتاح وزملاؤه كان لهم وجود حقيقي ، وقد عرفتهم واحداً واحداً ، وربما وضعت رأس هذا على جسد ذاك أو قلب هذا مع عقل ذاك ، ولكن الخامة التي استخدمتها كان لها وجود حقيقي . اعدت صياغتها في الحدود المباحة للفنان وبالادوات المتيسرة له. كذلك لم اقصد ان ازين الشيوعية ولا ان امجد الشيوعيين.

وانما نظرت اليها لا كفكرة شريفة ولكن كفكرة شريفة الغاية ونظرت اليهم لا كبشر شرفاء ولكن كبشر شرفاء الغايات، فأنا لست ممن يصمون كل مخالف في الرأي أو العقيدة أو المنهج بأنه خائن . ولو كنت اكتب عن حسن البنا بدلاً من حسن مفتاح لما تغيرت نظرتي الى الاشياء. انما المأساة الانسانية عندي في الوسائل قبل ان تكون في الغـايات . فكلنا يؤمن بالحرية وبالمساواة وبالاخـاء وبالتقدم وبالسلام وبالعدالة الخ ... وكلنا يقتل في سبيل هذه الغايات . وما دمت اكتب عن « مأساة » الانسان فأوليات الفن تقتضي بأن اجعل ارتفاعه وسقوطه يدعو الى الاسى ، والاسى مستحيل بغير تعاطف ، والتعاطف مستحيل في عالم من الانذال .

هذا هو الاحساس الدرامي الذي يجعلنا نرقى لمصرع سفاح مثل ما كبث ومجنون مثل عطيل واحمق مثل الملك لير و فاجر مثل انطونيوس وبغي مثل كليوبترا وخائن مثل كريو لانوس وسفيه مثـــل تيمون الاوثيني وضعيف مثل ريتشارد الثاني بل ولص مثل روسكو لينكوف أو جان فالجان وموس مثل غادة الكاميليا وجبار صواني الفؤاد مثل هيتكليف. نحن في الفن لا ندين الانسان ولكن ناسى لسقوطه لان فينـــا من البطل الخاطىء شيئاً كبـــيراً :.

وكل ما قاله ارسطو عن اخلاقية الفن لا يخرج عن هذا المعنى : كلنا بطل شامخ مثل حسن مفتاح بالفعل أو بالقوة وكلنا تنهشه الزبانية بعد السقوط ومن خلال القصاص يتم التطهير . هذه هي الدورة الابدية في مأساة الانسان البطل : الجريمة ثم العقاب ثم الغفران . نعم لابد للجريمة من العقاب . والا لاختل ميزان العدالة الذي يحفـــظ الكون من الفساد ، في الارض وفي السماء . نعم لا بد من الغفران . وإلا لكان العقاب آلة جهنمية تحكم الكون بالنطع والسيف الى ابد الآبدين باسم العدالة العمياء. مهما رفع القدر أو فساد المادة مسئولية السقوط عن الاحياء فلا بد من العقاب . ومهما وضعت الحرية أو الاختيار مسئولية السقوط

على كاهل الاحياء فلا بد من الغفران بعد العقاب . هذه مأساة الانسان البطل : انه يحيا بالاختيار الاصغر داخل اطار من الجبر الأكبر . أما الانسان الوغـــد فليست له مأساة .

لويس عوض

القاهرة ١١ مارس ١٩٦٦

١

بلغ حسن مفتاح كوبري الانجليز ، قادماً من الجيزة ، نحو الساعة الخامسة والنصف . وبدا له ان يتلكأ قليلاً بحكم عادته كلما مر على كوبري، ولكنه عدل عن رغبته وتابع السير ، فقد كان بحاجـــة الى السير . ورفع بصره الى اشجار الجزيرة العالية والى ابراج المعرض الزراعي ثم غضـــه فرأى ماء النيل وشكر لكثرة ما به من الطمي ، ورأى بائع الغـازوزة الثرثار وبائع السجائر الكسلان والشرطي الاسمر النعسان والسائل الاعور القذر. ثم رفعه مرة اخرى الى اشجار الجزيرة العاليـة ، فلم يبصر بينها الزينة الملكيـة ولا الغربان السود التي سكنت الاغصان وحطت على بعض الاعلام ، لأن شوارع الجيزة الضيقة المتعرجة كانت تملأ خياله ، وترابها الموبوء يملأ انفـــه ، وعفن مهملاتها يعشي نفسه ، وضوضاء الباعة والعربات الكارو فيها تملأ اذنيه ، وذكرى اوحالهـا تثقل خطوه . حتى الذبابة التي جاءت معه من الجيزة وظلت تنتقـل بين كتفه وخده لم يلتفت اليها حسن مفتاح . كذلك فاته ان السماء قد خلت من شمس السابع عشر من اكتوبر ومن قمره معاً ، وان جمرة الصيل اتقدت ثم انطفأت وهو بعد في شارع مراد بك يركل بقدمه الاحجار على شريط الترام . ولكن حسن مفتـاح احس بشيء هو ركود الهواء وسخونته رغم الماءوالخضرة واقبال المساء. وثقلت انفاسه حتى تحرج صدره، وتحرج صدره حتى بدأ ينتبه الى الوجود فيدرك موضعه من الاشياء ويسمع جلجلة الترام رقم ١٥ تمزق الهواء ويتبين على البعد هاتفاً يهتف في الشارع المهجور : « تاكسي ... تاكسي » ، واخذ يطرد الذبابة الوحيدة ، ويتمعن في

الزينة الملكية وفي الغربان وفي الاشجـــار والابراج ، ويبصر قافلة من لوريات الجيش البريطاني تنعطف حول تمثال سعد زغلول: ولكن الذبابة الوحيدة عادت الى خده فعادت معها الى خياله شوارع الجيزة الضيقة المتعرجة وملأ انفه ترابها وعفن مهملاتها وانتشر في اذنيه صراخ باعتها وقعقعت فيها عرباتها واثقلت خطوه ذكرى اوحالها .

فقد حدث في الجيزة كل شيء . حدث كل شيء في الغرفة البسيطة بالطابق العلوي من ٢٣ شارع ذي اليدين . وكان رأس حسن مفتاح دوامة من الافكار المضطربة ، ووسط هذه تجلت صورة الغرفة . تجلت صورة منقريوس ، قبل ان مات وعندما مات وبعد ان مات . وتسلسلت الخواطر في ذهن حسن مفتاح في غير ترابط كأنها شريط السينما ، ولكن الحجرة البسيطة وما فيها كانت تبرز بصورة رتيبة منتظمة ، وكلما تركز رسم فؤاد منقريوس في خاطر حسن مفتاح جملة ثوان اقشعر بدنه ثم تهدلت عضلاتـــه وشرد باله من جديد الى دنيـــا الذكريات ، فرأى الفناء الخلفي في مدرسة المنيا الثانوية ، والغلمان فؤاد منقريوس الجميل المحيا الازرق العينين الكثير المزاح ، وحسن مفتاح الخجول حاد الملامح ، ومحمود مسلم صاحب العينين الضيقتين والاسنان البـــارزة والصوت الرخيم ، وابراهيم نور الدين ، وسرهنك ، وغطـاس كابتن الكرة الذي كان يضرب الصبيان ويفسدهم بالارهاب ، والملواني الحشاش ، وتوفيق احمد ، والثلاثـــة الريفيين فلتس وملتس وعجـوه ، وشوشة الذي كان يلعب الورق في الفصل ، وعبد الرحمن قزعه وهو صاحب صحيفة يومية اسمها « النذير » كانت تطلع كل صباح مكتوبة بالطباشير على سبورة السنة الثالثـــة ب وفيها اخبار التلاميذ الفاسدين وما تيسر من بذيء النكات ، وحمودة الشيوعي الوحيد في المدرسة ، وتادرس الملحد الوحيد فيها ، والفتى سعيداً ذا العجز الغليظ والبنطلون الوحيد الممزق ، الفتى سعيد ابن الجاويش يس الذي كانت هوايتـــه تمزيق بنطلونات الغير وشبك الورق بالدبابيس في جاكتات المدرسين من الخلف ، وقـــد

سكب محبرتـه ذات مرة في جيب مستر تشابترن فأتلف سترتـه البيضاء ، وكان من ذلك ان جمع الناظر من تلامذة الثالثة ب ثمن السترة .

وابتسم حسن مفتاح بين خواطره المحمومة حين ذكر الفتى سعيداً والاعيبه الكثيرة ، ولكنه تجهم حين ذكر موسى افندي ضابط المدرسة الشديد الوطنية الذي كان يدعو الغلمان ذوي الوجوه الجميلة الى منزله فان ابوا ترصد لهم وارهقهم بالعيش الحاف . وذكر ان فؤاد منقريوس امسك مرة بخناق موسى افندي لان موسى افندي داعب خده ، ولكن غطاس كابتن الكرة تدخل في الامر وأبعده وهدّأ ثائرته . ترى اين موسى افندي الآن ؟ لقد مات فؤاد منقريوس هذا الصباح وهو بعد في الثامنة والعشرين ، وبقي له جماله بعد موته رغم الشحوب الاخضر العجيب الذي انتشر في محياه وعجب حسن مفتـــاح لنفسه كيف لم تنفطر أسى على فؤاد منقريوس وهو أقدم الخلان واشدهم وفاء . أهو بارد النفس ؟ أهو شاذ التركيب ؟ انه لا يزال يركل طوب الشارع بقدمه كلما وجـــد في الشارع طوبة . لعل صباه في مدرسة المنيا الثانوية قد تجدد فرد اليه بعض خصاله الصبيانية الأولى . انه يفكر في حاجتـه الى شيء من الجيلاتي ، وفي الاجتماع السياسي الصاخب الذي قرر فيه ان يحلق شاربه او يطلق لحيته ، وفي الاجتماع السياسي الصاخب الذي كان ينتظره في المساء ، وفي لون الهواء السنجابي الذي اكتنف التمثال السنجابي واكتنف الرسوم المنقوشة على البازلت عند قدمي سعد زغلول ، وفي بعض نظريات فؤاد منقريوس . ترى اين نظريات فؤاد منقريوس الآن ؟ اين اين سطور الجبرتي التي كان فؤاد منقريوس يحفظها عن ظهر قلب ويتلوهـــا على اصدقائه ليسليهم بسذاجة تعبيرها . لقد كان فؤاد منقريوس يقول دائماً ان الاغتيال السياسي مقياس وطنية الامم المستعبدة ، وكان حسن مفتاح يعجب له كيف اهتدى الى هذه الفكرة فجأة وهما يمصان القصب على كورنيش النيل بعد خروجهما من الحصة السادسة في مدرسة المنيا الثانوية . ولكن فؤاد منقريوس ثبت على رأيه دائماً ، وكان ايام الطلب في الجامعة يقول جاداً ان من دواعي حزنه

انه لم يدرك ثورة ١٩١٩ ، ويقول هازلاً انه سيموت مشنوقاً لاغتيال رئيس وزارة ، أي رئيس وزارة ، لأن رؤساء الوزارات يبيعون البلاد للانجليز . ولكن فؤاد منقريوس لم يمت مشنوقاً كما كان يتمنى بل مات منتحراً . ترى اين نظريات فؤاد منقريوس الآن ؟ لقد كان فؤاد منقريوس يمجد موسى افندي رغم ما كان بينهما ، لان موسى افندي كان يحض الطلبة على الاضراب . وحين اتسعت مدارك فؤاد منقريوس كان لا يذكر زلات موسى افندي الا بالدعابة ويعلق ضاحكاً : « كلنا رهبان في دير المحرق ».

مات فؤاد منقريوس في الصباح. ولولا ان حسن مفتاح كان يعلم انه لا يدرس ايام السبت فعاده مصادفة في شارع ذي اليدين ليقترض منه جنيهاً لما علم بانتحاره. فقد كان يعيش بمفرده لا يخدمه خادم ، وكان الطابق الاوسط خاوياً ومختوماً بالشمع الاحمر منذ شهور لأن البوليس وجد فيه بعض طرب الحشيش . وقد بلغ حسن مفتاح عتبة الدار حين سمع الدوى المكتوم فلم يلق بالاً لما سمع. وصعد السلم على مهل يعد ما في جيبه من قروش فاحصى منها عشرين وعلبة سجائر كاملة وشيكاً قيمته عشرون جنيهاً ، وعدداً من طوابع البريد . وحين بلغ باب الطابق وجده شبه مفتوح ، فدخل منادياً : « واد يا فؤاد ، واد يا فؤاد » ، فلم يجبه مجيب ولكن بلغته انه غامضة . فاجتاز المدخل العادي عاجباً ، ودخل حجرة النوم فرأى فؤاد منقريوس مستلقياً على جانبه الأيمن بعرض السرير وقد تدلت قدماه والغطاء الابيض فيه بركة صغيرة من الدم . وارتاح حسن مفتاح لما رأى ، ولكنه لم يفهم الموقف الا حين وقع بصره على المسدس الملقى على الفراش. وثبت في مكانه لحظة وقد سقط فكه وجف حلقه ، وحين انتقل بصره من الوجه المتقلص الجميل الى بركة الدم اوشك ان يصيبه دوار . وبلغه الانين المكظوم ثانية فتقدم وحاول الكلام فخانه صوته . ثم خرج من الغرفة يعدو ويهبط السلم درجات درجات حتى بلغ عتبة الدار وهناك اصطدم بصبي الكواء فامسكه من ذراعه وقال بصوت مضطرب بعضه غليظ وبعضه حاد :

– دكتور . دكتور .

فأجاب الغلام :

– انت اعمى يا افندي .

فقال حسن مفتاح بسرعة :

– ما فيش دكتور ؟ ما فيش دكتور ؟

قال الغلام :

– حلمك علينا يا أفندي . اديك وقعت المكوة . والله العظيم ... دلوقت فؤاد افندي ...

وادرك حسن مفتاح فوراً ان حديثه مع صبي الكواء مضيعة للوقت ، فتركه واندفع الى حانوت البدال المقابل زائغ البصر . ولكن الغلام عدا وراءه صائحاً: « استنى يا افندي . استنى يا افندي » ، ثم ادركه وتعلق بسترته وهو يصرخ : « يا شاويش . يا هوه .» وقال حسن مفتاح للبدال :

– من فضلك ، فيه واحد بيموت . ما فيش دكتور قريب ؟

فأجاب البدال بهدوء :

– لا حول ولا قوة إلا بالله . هومين اللي بيموت يا بيه .

– فؤاد افندي منقريوس ، اللي ساكن قبالك .

- فؤاد افندي ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله . سي فؤاد ؟ لا حول ولا قوة الا بالله. دا فات عليّ امبارح بالليل بعد العشا واشترى بنص فرنك جبنة رومي وكانت صحته زي البمب ، ايه اللي جرى له يا سيدنا الافندي ؟ لا حول ...

– فؤاد افندي انتحر . بقى اسمع . ما فيش وقت . تعرفش دكتور قريب .

– اصله لا مؤاخذة ...

– تعرف ولا ما تعرفش ؟

– اصل ما فيش في الحتة غير الدكتور البيطري اللي فوقنا ، وكان الدكتور سليم حكيم الاسنان اللي فوق اللي فوقنا . لا حول ولا قوة إلا بالله .

– طيب اِضرب تليفون للاسعاف على طول .

وبعد دقائق كان حسن مفتاح يسبق طبيب الاسنان الى طابق فؤاد منقريوس، فقد كبر في نفسه ان يدعو بيطاراً لفحص صاحبه . ثم عاد الى حانوت البدال ليطلب الاسعاف بشخصه ، فقد كان قليل الثقة في الغير ، ووجد البدال في وسط الشارع يترحم على الميت قبل ان يموت ، ومن حوله بدالان آخران من اهل الجيرة وحلاق الشارع وصبيه والفوال . ورأى الذباب المتجمهر ، ورأى صبي الكواء جالساً على رصيف الشارع يمسح دموعه فلم يدر أبكاؤه حزن على فؤاد منقريوس الذي كان يجزل له العطاء ام خوف من الاسطى الكواء لسقوط الثياب في وحل الشارع . والى جوار صبي الكواء وقع نظر حسن مفتاح على طفلين قد قعدا القرفصاء في صف واحد بحذاء رصيف الشارع وقد رفع كل منهما جلبابه القذر فكشف عن مؤخرته وذهب يقضي حاجته بين الذباب المتجمهر تحت اعين المارة . وفيما هو يسعى الى البدال ليطلب فتح التليفون رأى رجلاً يلبس ملابس السعاة الصفراء يقتحم الجماعة ويمسك بخناق قروي قذر اشقر الشعر وقف بين الجماعة يقول : « يلا بينا ع البندر » والآخر يجيبه : « انا مش فاضيلك دلوقت » وسمع اللغط يرتفع وابصر الشرطي يدنو ويتدخل لحسم النزاع ، والرجل في ملابس السعاة يستشهد بالبدال ويصيح :

– اصله يا شاويش انا كنت مجوز اخت الراجل دا، وكان جارر مني سجاير بواحد وسبعين قرش ما دفعش منها غير خمسة صاغ .

فقال القروي معترضاً :

– سبعين بس .

ومضى الرجل في ملابس السعادة يصيح :

– وبعدين رميت يمين على اخته وادى له شهرين مش عاوز يجيب الفلوس .

وعلت اصوات المتدخلين ، فمن قائل : « عيب الجرايب يعملوا كـــدا في بعض » ، ومن قائـــل : « انا شاهد يا شاويش » ومن قائل : « سيب الراجل يسترزق دلوقت وابقى خده البندر بعدين » . ولكن القروي الاشقر استطاع رغم ذلك ان يسمع صوته للحاضرين :

ـ انا كنت عطيت اختي ٤٥ قرش ومالوش عندي غير ريال .

وبدا للشرطي ان يلعب دور القاضي فسأله قائلاً :

– انت عطيتها الفلوس قبل الطلاق والا بعد الطلاق ؟

– قبل الطلاق يا شاويش .

– يبقى خلاص ما عليكش الا ريال .

ولكن الرجل في ملابس السعادة ظـــل ممسكاً بخناق القروي واصر على الاحتكام الى البندر ، فسار الشرطي بالرجلين الى البندر ومن ورائهم صبية كثيرون وبعض الرجال لابسي الشباشب والقباقيب . كل ذلـــك وحسن مفتاح يرجو البدال ان يفتح له التليفون ، ففتح له البدال التليفون . ولما فرغ من طلب الاسعاف خاطب البندر وعاد الى الدار ، ومن حوله تجمهر الناس وفي اذياله ارتقوا السلم ، ولكن حسن مفتاح اوصد دونهم باب الطابق . ولاحظ ان الغرفة مضاءة ووجد النافذة المغلقة لا تزال مغلقة ووجد طبيب الاسنان جالساً على حافة السرير بعد ان ضمد جرح المنتحر تضميداً مؤقتاً . وقرأ حسن مفتاح في وجه الطبيب أمارات اليأس ، وانتقل بصره الى وجه منقريوس فرأى فيه خضرة باهتة ورأى فيـــه

شحوباً تحت نور الكهرباء . ولكنه رأى فيه هدوءاً غريباً لا يضيء الا في وجوه القديسين ، والتقت عيناه الزائغتان بعيني فؤاد منقريوس فوجدهما جامدتين ثقيلتين . وأوشك ان يجهش بالبكاء ولكنه لم يبكِ ، وطال التقاء النظرات ولم يدرِ حسن مفتاح انه يبتسم فقال معاتباً :

— لم فعلت ذلك يا فؤاد ؟

لم يجب فؤاد منقريوس وابتسم حسن مفتاح وقال يائساً :

لقد جئتك اقترض منك جنيهاً !

ثم تحول بصره الى طبيب الاسنان ، فقال الطبيب هامساً :

— الرصاصة طاشت ونفذت في الرئة ، ولكن النزيف غزير ولا أمل في حياته .

— حتى ولو وصل الاسعاف الان ؟

— حتى ولو وصل الاسعاف الآن .

— كم بقي في حياته ؟

— انا اقدر ساعة .

— اهو في غيبوبة ؟

— لا اعتقد ذلك .

وانصرف طبيب الاسنان الى المكتب البني البالي وذهب يعبث بما فيه من الكتب ، يقرأ اسماءها ثم يضعها في سكون ، ودفع بعض الاوراق كأنه يبحث عن شيء ولكنه لم يجد شيئاً . وفتح درج المكتب كأنه يبحث عن شيء فلم يجد شيئاً ، او لم يجد ما كان يبحث عنه ، فقد وجد علبة سجائر وصورة يوزباشي

في البوليس وبعض الاقلام الحمراء التي كان فؤاد منقريوس يصحح بها موضوعات اللغة الانجليزية التي كان ينشئها له تلاميذه في مدرسة الفنون التطبيقيــــة ، ثم بعض ازرار القمصان بعضها صدىء وبعضها مكسور . وبدا له ان يسعى الى الدولاب ويفتحه ويفتش ثيـــاب فؤاد منقريوس، ولكنه احس بأن في ذلك تجاوزاً لحدوده فلم يفعل - وادرك حسن مفتاح ان طبيب الاسنان انما يبحث عن مظروف به وصية أو تفسير . وخرج طبيب الاسنان الى المدخل وانشأ يدخن، وينصت الى لغط القوم خارج الباب . ثم خطر له ان الاسعاف قد يتأخر ففتح الباب برفق وطلب الى الفوال ان يقصد الى عيادة الدكتور نظيف ويستدعيه لعل وعسى . ثم اغلق الباب برفق وجلس يدخن على المائدة الصغيرة المستديرة التي تمثل كل ما في المدخل من اثاث ، فوجد عليها رغيفاً من الخبز الافرنجي وشيئاً من الجبن الرومي ملفوفاً في ورقة من ملف قضية مطبوعة بالفالوذج . اما حسن مفتاح فقد احتل مكان طبيب الاسنان وامسك بأنامل فؤاد منقريوس فإذا هي رطبة . ورغبت نفسه في البكاء ولكن دمعه عصية. قال :

- لم فعلت هذا يا فؤاد ؟

وتململ رأس فؤاد منقريوس وفتح فمه وقال شيئاً لا يفهم . قال حسن مفتاح :

- هل اختلفت مع زكية ؟

قال فؤاد منقريوس ، وكان صوته ضعيفاً الى درجة جعلت حسن مفتاح يميل اليه ليتبين كلماته :

- اسمع .

- نعم يا فؤاد .

- تحية تسلم عليك .

وبهت حسن مفتاح لأنه لم يعرف بنتاً اسمها تحية . وزاد من عجبه انه كان يعلم ان خطيبة فؤاد منقريوس كانت تدعى زكية ، واستعرض جميع البنات اللاتي عرفهن فؤاد منقريوس عن قرب او عن بعد فلم يتعرف بينهن على تحية ، وحسن مفتاح هو العليم بذلك ، فقد كان موضع سر فؤاد منقريوس لا تخفي عليه خافية ، فظن انه يهذي وقال مصححاً :

ـ تقصد زكية .

قال فؤاد منقريوس :

ـ اسمع يا حسن .

فسأله حسن مفتاح :

ـ لم فعلت هذا يا فؤاد ؟

ـ اسمع يا حسن .

ـ نعم يا فؤاد .

ـ سأزورك الليلة .

فأيقن حسن مفتاح انه يهذي ، ولكنه ابتسم على كره منه وأجابه :

ـ انا سأقوم بالواجب . البراندي موجود .

ـ انت صديقي يا حسن .

ـ طبعاً يا فؤاد .

ـ لا بد ان احيا من جديد .

ـ طبعاً يا فؤاد .

ـ اتساعدني على ذلك .

ـ طبعاً يا فؤاد .

ـ لا بد ان انتقم .

ـ ممن يا فؤاد .

ـ من زكية .

وبهت حسن مفتاح فقد كان يحسب ان فؤاد منقريوس يخلط هذيانه بين الاسماء ، وخيل اليه ان فؤاد منقريوس كان يخفي عليه جوانب من حياته لعله لا يعلمها . قال مصححاً :

ـ تقصد من تحية ؟

ولم يجب فؤاد منقريوس بل تحركت شفتاه بكلام كثير متداخل خفيض لم يسمع منه حسن مفتاح كلمة واحدة ولكنه عاد يقول :

ـ اترى هذا الخفاش الاحمر الكبير ؟

فاجاب حسن مفتاح مسايراً اياه :

ـ نعم اراه .

ـ وهذا الوادي بعضه زرع وبعضه رمال ؟

ـ نعم اراه .

ـ والشمس الغاربة اتراها ؟

ـ نعم اراها .

ـ ان قلب الخفاش كالجمرة العظيمة الحمراء . اتراه ؟ ان جلد الخفاس شفاف يمر فيه نور الغروب . أتراه ؟ انه وردي جميل . اتراه ؟ اترى الجمرة العظيمة الحمراء ؟ هذه هي الروح . انها تنفذ في القلب . عند الغروب . الغروب الاخير .

اترى النور الوردي ؟ هذا نور الحب الإلهي . وحين يقترب الموت يشف الجسد وتسطع فيه الجمرة الحمراء ، وينفذ فيه نور الغروب الاخير . انت تسمع عن الغروب الاخير . الم تسمع عن الغروب الاخير . الم تسمع عن الغروب الاخير ؟ هذا هو الغروب الغروب الاخير . وبالموت ينطفىء القلب وتخرج الروح من الجسد وتطير الشرارة في الهواء وتظل حائرة اربعين يوماً تبحث عن مكان تسكن او تختبىء فيه ، فان لم تجده انطفأت واستراحت الى ابـــد الآبدين . اتذكر علي عبدالله ؟

ـ نعم يا فؤاد .

ـ لا بد ان تقتله .

ـ ولمَ اقتله ؟

ـ لتحل في جسده روحي . لا بد من رجل يشبهني تماماً . اقتله فـوراً يا حسن .

ـ ألا تصبر حتى ينتهي اجله ثم تحل فيه ؟

ـ كلا . كلا . كلا . لا بد ان يموت قبل الاربعين . امامي أربعون يوماً يا حسن .

وارتجفت أوصال حسن مفتاح واكتفى بهذا القدر من الحديث مـع فؤاد منقريوس ، وانشأ يحك جفنيه لعله يسحق الصور المرعبة التي اجتمعت أمـــام عينيه . ان فؤاد منقريوس يهذي ما في ذلك شك . وقد بدا حسن مفتاح يجاريه في هذيانه رفقاً به ، ولكنه ألفى اخيراً انه يدخل به في عالم مرعب مادتـــه اشباح ويحدثه عن امور لا وجود لها الا في خيال المجانين ، بل ويحضه كذلك على الاجرام . وتأمل حسن مفتاح وجه فؤاد منقريوس فوجده أهدأ مما كان وأجمل ، ولكن الشحوب الاخضر المنتشر في محياه قد اشتد تحت نور الكهرباء. واجتمعت الالوان في رأس حسن مفتاح فرأى الاحمر والاسود والازرق . ولم

تحتمل اعصابه هذا الجو العصيب وبدا له ان يفر من الغرفة ، فترك اليد الرطيبة التي كانت مسترخية داخل يده وتحول بصره الى البـاب فرأى طبيب الاسنان واقفاً به ينصت لكل ما يجري . واستحى من خوفه قليلاً ، وأنّب نفسه على تركه اليد الرطيبة تسقط على الفخذ المتصلب . ان هذه خيانة بسيطة . ان لكل انسان الحق في ان يهذي مرة في حياته ، فكيف يضن على فؤاد منقريوس بهـذا الحق ؟ الا يكفيه انه يعيش بين اشباح الجحيم؟ الا يكفيه العذاب الذي سيلقى؟ ان الدكتور سليم يقول انه ليس في غيبوبة ، ولكن الدكتور سليم حمار كبير . انه في غيبوبة ، وهو لا يتعذب . ولكن اهو حقاً في غيبوبة ؟ ان هذيانه لا يخلو من الانسجام . اليس جائزاً ان هذه صحوة الموت التي يتحدثون عنها ؟ اذا كان الامر كذلك فهو يقف على تخوم العالمين ، وهو يرى ما لا تراه العيون . اذا كان الامر كذلك فالويل ثم الويل. ولكن الدكتور سليم حمار كبير، وفؤاد منقريوس يهذي ما في ذلك شك ، فهو يتحدث عن اناس لا وجود لهم ، يتحدث عن تحية ، وهو يطلب اغتيال علي عبدالله دون ان تصله به صلة غير ذكرى الزمالة الاولى. بأي حق يطلب اغتيال علي عبد الله؟ انه شديد الشبه به حقاً، ولكن من قال ان للانسان ان يزيل اشباهه من الوجود ؟ ان جرس الاسعاف يدق من بعيد ، لعـل معه الفرج ، من قال ان الرصاص لا يستخرج من الرئة ؟ ان الرجل الواقف بالباب طبيب اسنان وعلمه بالجراحة الباطنية محدود ، وسوف يشفى فؤاد منقريوس ويعود الى التدريس بمدرسة الفنون التطبيقية والى الجلوس في قهوة البول نور ، واذا اراد ان يتزوج بنتاً غير زكية فليتزوج بنتـاً غير زكية . ان بين الكتب الملقاة على المكتب البني البالي كتب مستعارة من مكتبة الجامعة. ترى هل يتولى هو ارجاعها ؟ ان هذا اجتراء على حرمة الموت ، فلتصبر مكتبة الجامعة على كتبها. والنافذة الخضراء عليها غبار كثير ، ومرآة الدولاب قذرة ، وبقايا قصب قديم ملقاة في ركن المدخل . ان فؤاد منقريوس المدرس هو فؤاد منقريوس الطالب ، لم يصبه ادنى تغير ، وقد كان خليقاً به ان يفر من ذباب الجيزة . والنور متوهج على النافذة الموصدة الخضراء ، والخضرة في النافذة وفي وجـه فؤاد منقريوس

تملأ الغرفة بالاشباح . ان اللغط يكثر خارج البيت فلا بد ان الفرج قد جاء . واليوزباشي شحاته منقريوس وذووه ، كيف يكون حالهم عندما يعلمون بالحقيقة ؟ ترى لمَ انتحر فؤاد منقريوس ؟ لا بد ان لزكية حنين دخلاً في ذلك . لا بد انه ترك رسالة في مكان ما . ان زكية لا بد تساعد في المطبخ الآن ، أو لعلها تحيك ثوب الزفاف، او لعلها تتسكع في شارع فؤاد الاول بين الفترينات طول الصباح لتشتري بعض المناديل والجوارب كما تفعل قريناتها من البنات ، او لعلها مختلية في حجرتها ان كانت لها حجرة خاصة بها، تبكي ندماً على ما كان في الليلة الفائتة . نعم ، لا بد انها تبكي الآن على ما حدث في الليلة الفائتة ، فقد حدث شيء ما في الليلة الفائتة لا شك في ذلك . ان الناس لا ينتحرون بلا مسوّغ ، ولا بد ان حنين افندي قال لفؤاد منقريوس شيئاً اوجعه . ولا بد انه طرده من بيته . لا بد انه هدده بإبطال الزواج . لا بد ان شيئاً ما حدث في الليلة الفائتة . ان زكية حنين لا تعلم شيئاً عما آلت إليه حال فؤاد منقريوس ، ولو قد علمت لمزقت عليه الثياب ، وكل ما يبكيها هو رفقها باحساسه المجروح او خوفها ألا يعود . فإن لم يكن حنين افندي هو الجاني فلا بد ان زكية هي الجانية . لا بد انه رآها في السينما مع رجل آخر او رآها في عربة شاب من اولئك الشبان الاثرياء الذين يبدأون كل مساء رحلاتهم فرادى على فيض الكريم من شارع عماد الدين وينتهون في مشارف الهرم مع بنت من بنات البورجوازية الصغيرة .

ولكن محال ان تكون زكية من هذا الطراز ، فلا بد ان لها عشيقاً واحداً ثابتاً ، ابن عم لها مثلا يسهل دخوله في بيتها وخروجه منه بحكم القرابة ، ولا بد ان فؤاد منقريوس قد اكتشف هذه الحقيقة . بل ان هذا ذاته بعيد الاحتمال وحسن مفتاح يذكر انه رأى زكية حنين مرة واحدة في صحبة فؤاد منقريوس وخيل اليه من مظهرها انها بنت وديعة اقرب الى البلاهة منها الى الذكاء حتى كاد ان يشير على فؤاد منقريوس بالعدول عن الزواج، ولولا علمه بما بينهما من حب

شديد لفعل . فلا بد ان حنين افندي هو الجاني . فان لم يكن حنين افندي هو الجاني فلم يبقَ إلا ان يكون فؤاد منقريوس قد اكتشف فجأة ان له ولداً من حدى خليلاته السابقات كما يحدث عادة في القصص ويحدث احياناً في حياة . زوجة ساعي البريد المطلقة التي كان يحج الى بيتها كل خميس منذ ان نقلته وزارة المعارف من الزقازيق الى القاهرة ، أو الغسالة الحسناء التي كان يعاشرها منذ ان كان طالباً في الجامعة ولم تنقطع صلته بها حتى بعد خطبته الى زكية حنين ، وكلما كان حسن مفتاح يلومه على سلوكه هذا كان يجيب مبتئساً ان المجتمع ممثلاً في شخص حنين افندي هو المسؤول عن هذا الوضع الشاذ ، فهو لم ينفرد بزكية حنين منذ ان عرفها الا مرة واحده مدتها خمس دقائق ، يوم قبلها تحت السلم والاسرة في طريقها الى السينما . ولكن هذا محال. ألم يقل فؤاد منقريوس فيهذيانه أنه يرغبفيالانتقام منزكية ؟لا بد أن زكية هي علة انتحاره. ثم من تكون تحية هذه ؟ ان اسمها لم يرد قط على لسان فؤاد منقريوس ، وهو في هذيانه يتحدث عنها حديثه عن صديقة قديمة . ولكن كل هذا هذيان لا يقام له وزن وخليق بحسن مفتاح ان ينتظر نتيجة التحقيق .

ولكن حسن مفتاح خطر له خاطر جعله يضطرب ايما اضطراب . ان الناس الذين يدبون الان على السلم ويتصايحون سوف يفتشون بعد قليل ثياب فؤاد منقريوس وسائر مخلفاته ، وقد لا يكون في مخلفاته رسالة او في ثيابه مالاً فما اكثر ما كان ينفذ ماله ، وعندئذ سوف تذيع النيابة انه انتحر لضيق ذات يده لتبرر جهلها بالدوافع الحقيقية . ولكن محال ان ينتحر فؤاد منقريوس لضيق ذات اليد مهما ضاقت ذات يده . ولقد ينتحر لأن نكبة نزلت به او لانه انزل بغيره نكبة او هرباً من تبعـــة جسيمة او يأساً من غرام امرأة أو صوناً لشرفه من خدش يصيبه ، ولكنـه لا ينتحر لضيق ذات اليد . ثم ما العمل لو لطخت النيابة اسمه ؟ اذن في جيب حسن مفتاح شيكاً لحامله ، فليخرجه في صمت وليتركه خلسة بين اوراق فؤاد منقريوس حتى لا يقال انه انتحر لضيق ذات اليد . ولكن حسن مفتاح كان يعلم ان النيابـــة سوف ترسل الشيك الى

اليوزباشي شحاته سنقريوس مع بقية المخلفات في الوقت المناسب . وفكر في حاجته الى الجنيهات العشرين ، فقد كان يعلم ان اللياقة سوف تمنعه من مفاتحة الاب في هذا الموضوع فتردد ثم انصرف عن التفكير في هذا الأمر .

وحين قرع القارعون الباب خرج اليهم طبيب الاسنان . وانتقل بصر حسن مفتاح الى وجه فؤاد منقريوس فرأى فكه قد سقط وعينيه قد جحظتا والزبد قد اجتمع في ركني فمه المفتوح ، وشاهد العرق القديم يلمع تحت نور الكهرباء فأيقن ان فؤاد منقريوس قد اجتاز الباب العظيم ، ورأى حسن مفتاح فراشة بيضاء ذات نقط سوداء تحوم حول الوجه ثم تنطلق الى الخارج وتختفي في غبش المدخل . ونظر الى ساعته فإذا بها الظهر تماماً . ودخل لغط عالٍ . ودخلت وراءه محفة حولها حشد من الناس بعضهم في ازياء صفراء نحاسية الازرار وقبعات مألوفة حمراء وبعضهم في ازياء مدنية بعضها انيق وبعضها رث زري . وارتفع صوت مأمور الجيزة يسكت اللا غطين بقاسي الكلام وأقفل الباب بعنف . كل ذلك وحسن مفتاح يقرأ الفاتحة ويصلي مستنداً الى الجدار خشية ان يتهافت . وحين اعلن الطبيب الجديد ان النبض قد توقف لم يكن حسن مفتاح بحاجة الى هذا الاعلان وقال مستعطفاً :

– ارجوك ان تغمض عينيه .

وكان حسن مفتاح يحب ان يغمض عيني فؤاد منقريوس بيده ولكن الشجاعة خانته . وكان حسن مفتاح يحب ان يقبل فؤاد منقريوس ولكن الشجاعة خانته . وتذكر أمه القوية الفؤاد التي تغمض عيون الموتى من الاقرباء وتسوي على السرر اجسادهم وكأنها تعد للنوم اطفالها . ومرت به لحظة رهيبة استعرض فيها صور الموتى الذين رآهم ، وتذكر صديقه الشيوعي على النشرتي الذي مات منذ عام في قهوة بور فؤاد بالسكتة القلبية ، وتذكر عمه الاستاذ رسلان عبد المجيد المحامي الريفي الرقيق الحال الذي مات منذ أشهر لأن ثمن البنسلين تجاوز قدرته المالية وتذكر صاحبه سرهنك الذي فجعه يومئذ على غير قصد منه حين روى له ان

كلبه ركس قد مات بالالتهاب الرئوي رغم ان البنسلين جاءه بالطائرة من لندن. ان وجه عمه لم يكن عند موته صافياً كوجه فؤاد منقريوس في هذه اللحظة بل كان خليطاً من صفرة وخضرة وزرقة . وقد خيل الى حسن مفتاح يومها ان وجوه الاموات جميعاً ينبغي ان تكون كوجه عمه حين مات ، فلقد تجاوز الموت جسده ودب في شعره الاشيب كذلك . وارتجف حسن مفتاح لذكرى عمه ، فقد كانت تلك اول مرة يلمس فيها جثة اذ طلب منه ابن من ابناء عمه ان يعينه على تسوية الجثة على الفراش ، فاضطربت نفسه وخشي ان يرفض حتى لا يقال انه خائف من الموت او انه يضن على عمه بهذا القليل، ودخل الغرفة متكلفاً الشجاعة وحمل عمه بين يديه وأراحه في مرقده ، ثم اراد ان ينصرف هارباً ، ولكنه تكلف الشجاعة مرة أخرى وانصرف في تؤده . ولكنها لم تكن اول مرة يرى فيها جثة ، فقد كان يسكن قبل عامين مع سيدة ايطالية قرب ميدان الاسماعيلية مع نزيل آخر من تريستا عجوز ضخم البنية ضخم الملامح له ساق خشبية ، وكان ذلك العجوز يسعى كلما انتصف الليل الى غرفة السيدة الايطالية ليعاشرها معاشرة الأزواج ، فلا يسمع حسن مفتاح الا وقع الساق الخشبية وهي تدق في الظلام على أرض الدهليز الطويل دقاً قوياً بطيئاً رتيباً ، فيخيل الى حسن مفتاح ان بالبنت شبحاً يطوف بأرجائه في موعد منتظم . وذات ليلة قبيل الفجر استيقظ حسن مفتاح على طرقات سريعة متواصلة بباب غرفته وسمع السيدة الايطالية تنادي : « سنيور مفتاح . سنيور مفتاح . برستو ، برستو . » فقفز من فراشه وخرج اليها فاقتادته في الدهليز « الطويل حتى دخلت به غرفتها . وهناك رأى الاعرج العجوز جالساً على مقعد وثير وقد امتدت ساقه الخشبية امامه على الارض وتعرى بعضها وتهدلت ذراعاه وتجمع الزبد حول فمه ثم شهق وتدلى رأسه فوق صدره وكاد ان يسقط لولا ضخامة المقعد . وبادرت اليه السيدة الايطالية تجس نبضه فعلمت انه قد انتهى ، وأبعدها حسن مفتاح الى غرفته وانتظر هو امام الجثة حتى الصباح. ثم اختلطت فيخياله صور الموتى والمذبوحين ممن رآهم وممن لم يرَهم الا بعين الوَهم او في احلامه المضطربة ، فاصابه دوار

وأغمض جفنيه وافاق على الحقيقة فأدرك انه لا يزال بجوار فؤاد منقريوس ذي الوجه الابيض المخضوضر الجميل .

ولم يجد ما يفعله فعاد الى صلواته الصامتة وهو لا يعلم ان كان فيها غناء ، فقد كان شكاكاً اصيلاً . ونظر الى سقف الغرفة واستغنى به عن السماء ، فلم يسمع في السماء رعداً يقعقع ولم يرَ فيها ملائكة يبكون بل رأى العوارض الخشبية الصفراء متفسخة تطل عليه في بلاهة ورأى بقايا من نسيج العنكبوت. ونظر الى الأرض فوجدها ثابتة لا تنشق ولا تميد وتطفح دماً ووجد السجادة الآسيوطية الخشنة الكئيبة ذات الصلبان المتداخلة المتكررة كما كانت منذ عام كئيبة ممزقة الشراريب : ولكن فؤاد منقريوس لم يكن بطلاً من الابطال حتى تعول عليه النسور ويهيج النوء الغضوب او تذبل من اجله الازهار أو يفيض النيل الحزين ، فكيف يطمع حسن مفتاح في آلام الطبيعة ؟

وبلبل لغط اللاغطين افكار حسن مفتاح وقطع عليه صلاته، فأخذ يتساءل: « انه يتلو الفاتحة وبعض آي الذكر فهل تقبل شفاعة محمد لروح مسيحية ؟ وود لو انه تعلم كيف يتلو : « أبانا الذي في السموات » اكراماً لفؤاد منقريوس ، فلعل السماء تقبل لغة النصارى عن ارواح النصارى ولغة المسلمين عن ارواح المسلمين . ولكنه لم يتعلم كيف يتلوها ، فمضى فيما كان فيه . وكان توجهه زائفاً رغم اخلاصه وكانت صلاته باردة رغم اجتهاده . وامتلكه شعور قوي بأنه يمثل دوراً لم يكتب له فكف عن التمثيل والأسف ينهش فؤاده نهشاً ، فهو يعرف كيف يخاطب القمر المكتمل الخجول حين يطل على حقول الحنطه الشاحبة، وهو يعرف كيف يتوجه الى العباب وينادي الامواج الزرق أن خذيه الى صدرك الحنون ، وهو يعرف كيف يناشد الرياح ان تحمل على اجنحتها روحه التائهة وتطير بها الى بلاد الجليد الدائم حيث الصفاء من ادران الحياة ، وهو يعرف كيف يتحدث الى النجوم ويستودعها اسراره وامانيه . ولكنه الآن بين متطوعي الاسعاف ورجال البوليس والنيابة وبين ذباب الجيزة وضوضاء

عربت الكارو ، فلا سبيل الى التفكير في الطبيعة . اما الملائكة فهو لم يألف صحبتهم ، واما السماء المفتوحة البيضاء التي لا افلاك فيها ولا تخوم لها فهو لا يعرف كيف يلجأ لها في سعادته او في برحانه .

وسمع حسن مفتاح حديثاً عن المسدس وعن المشرحة فتنبه ليرى المحفة تخرج فاستوقف حامليها لحظـــة وذهب يرجو وكيل النيابة والمأمور والطبيب الشرعي وكل من بالغرفة ان يعدلوا عن ارسال الجثة الى التشريح فأفهموه ان هذا اجراء لا يقبل المناقشة فسكت . ولما خرج رجــال الاسعاف علا لغط اللاغطين فخرج المأمور اليهم ولقبهم بالغجر والبهائم وابناء الكلاب فسكتوا . وأغلق المأمور باب الطابـق وعاد الى الغرفـة فوجد وكيل النيابة يستجوب طبيب الاسنان الذي روى روايته وانصرف ، ثم تحـول وكيل النيابة الى استجواب حسن مفتاح ، فأدلى حسن مفتاح بكل ما يعرفه عن الحادث وذكر انه لا يعرف لفؤاد منقريوس اعداء ولا يعرف لانتحاره سبباً ، واوشك ان يذكر لوكيل النيابة ما عرفه عن رغبة فؤاد في ان يغتال علي عبدالله ولكنه رأى من العبث ان يقص على وكيل النيابة ما سمعه من هذيان عن الارواح . فلما سأله وكيل النيابة ان يوقع بإمضائه على صحة اقواله تردد بعض الشيء ، فعجب وكيل النيابة لذلك وداخله الشك في امره واستوضحه سر تردده فاعترف له حسن مفتاح خجلاً بأنه قد اخفى عنه بعض الوقائع التي يعلمها معتذراً بانها لا شك خارجة عن اختصاص النيابة . وسرد حسن مفتاح على وكيل النيابة كل ما قاله فؤاد منقريوس عن فتاة لا وجود لها تدعى تحية . وعن رغبته في الثأر من عدو لم يفض باسمه ، وعن توصيته بتدمير على عبدالله بحجة التشابه بينهما في الصورة ، وعن نظريتـه في تناسخ الارواح ، فهز وكيل النيابة كتفيه واشار بإقفال المحضر . ولكن حسن مفتاح رفض التوقيع إلا ان يدون كل ما قال في التحقيق .

كذلك دل حسن مفتاح وكيل النيابة على ان الخمسين جنيهاً التي استخرجها

التفتيش من جيب السترة الكحلية المعلقة بالدولاب كان ينبغي ان تكون مثة ٠
وان هذا القدر كله كان ينبغي ان يؤدي لصانع اثاث بالسيدة زينب يجهل حسن
مفتاح اسمه وعنوانه ، لقاء صفقة تمت بين فؤاد منقريوس وبين صاحب الاثاث ،
فقد كان فؤاد منقريوس على اهبة الزواج ولم يبقَ بينه وبين زفافه إلا اسبوع
واحد ، اما بقية الاثاث فقد اشتراه فؤاد منقريوس من مدرسته على ان يخصم
ثمنه من مرتبه مقسطاً على عام واحد ، وقد اودع كل ما اشتري من اثاث في شقة
بمنيل الروضة استأجرها منذ شهر ليتأهل فيها،وحسن مفتاح لا يعرف موضعها على
وجه التحديد . كذلك قص حسن مفتاح على وكيل النيابـــة كيف ان فؤاد
منقريوس قد اضطلع منذ عامين بتدريس آنسة من أهالي السيدة زينب تدعى
زكية حنين اللغة الانجليزية فأولع بها وبعد ان نالت اجازة البكالوريا خطبها الى
ابيها وهو كاتب بالمساحة التفصيلية ، ولكن اليوزباشي شحاته منقريوس كان لا
يقر هذا الزواج بالذات لأنه زواج حب لا زواج مصلحة، ولا يقر مبدأ الزواج
جملة لكنه سيقطع عنه الاعانـــة الشهرية التي يتسلمها الآباء ولأنـــه سيرغمه على
الانفاق من جيبه الخـــاص على تربيـــة ولده الثاني جورجي . ثم ان اليوزباشي
شحاته منقريوس شحاته كان يساهم بعشرات الجنيهات في تأثيث بيت الزوجة على
كره منه ، ولولا خوفه من كلام الناس لرفض ان يعـــاون ولده على الزواج
اطلاقاً . وكان يقول دائماً ان المدنية قـــد عصفت بالزواج الصالح ، فرأس مال
الفتاة الحديثة لنها تتكلم الفرنسية وتعزف « افراح القبة » على البيانو ، وهو لا
يكفي ، لان الفتاة التي لا تملك عشرة فـــدادين لا ينبغي ان تتزوج ولو كانت
ابنته . اما منقريوس فقد كان ينظر الى الأمر من زاوية اخرى ، فزكية حنين
عنده واحة في صحراء الحياة ، وهذا كل ما يبغيه . واما حنين افندي فقد كان
يقيم العراقيل المالية امام فواد منقريوس ويبهظه بالمطالب ، وكثيراً ما ذكره في
خشونة واضحة ان موظفاً يتقاضى عشرين جنيها وليس له دخل خاص ينبغي ان
يتردد كثيراً قبل الاقدام على الزواج ابان سنوات التضخم ، وقد انذره مرة ان
يتخلى عن اخيه جورجي ان كان جاداً في رغبتـــه في الزواج ، فخرج فؤاد

منقريوس عن طوره وأجاب قائلاً ان الحياة الزوجية اذا اتسعت لكاتب مثله يتقاضى في نهاية عمره اثني عشر جنيهاً شهرياً تدخل فيها علاوة الغلاء فهي ولا شك تتسع لشاب يتقاضى في مستهل حياته عشرين جنيهاً. وكانت هذه آخر مشادة بينهما وقد وقعت منذ ثلاثة أشهر ولزمت البنت فيها الحياد الدقيق فلا يمكن ان تكون لها صلة بالانتحار .

ولكن الطبيب الشرعي اثبت في تقريره ان موت فؤاد منقريوس قد لا يكون انتحاراً، فمن الجائز انه كان يعبث بمسدسه فانطلقت منه رصاصة أردته، واستدل على ذلك بوجود الرغيف الافرنجي والجبن الرومي على مائدة المدخل مما يثبت ان فكرة الانتحار لم تنبت إلا في الصباح ، بعد راحة الليل ، وهو امر بعيد الاحتمال فلو قد صادف فؤاد منقريوس ما عكر صفوه لقتل نفسه ليلاً . ثم ان من يعزم على الانتحار لا يضيره ان يموت عارياً او في البيجاما ، فلماذا ارتدى فؤاد منقريوس بدلته . ويؤيد ذلك أن فؤاد منقريوس لم يترك كلمة واحدة يدلي فيها بوصية او اعتراف . وحين فرغ الطبيب الشرعي من سرد خواطره ابتسمت عينا وكيل النيابة امتناناً ، أما حسن مفتاح فقد تهيجت اعصابه واستوقف الطبيب الشرعي قائلاً ان فؤاد منقريوس لم يكن طفلاً حتى يعبث بمسدسه هذا العبث القاتل وان واقعة الانتحار لاشك فيها وان اثبات الاصابة الخاطئة مؤامرة دنيئة تلجأ اليها السلطات لاختصار الطريق والاستراحة من عناء التحقيق وان دم القتيل على رأس كل من يتواطأ لاهداره على هذا النحو، وان الطبيب الشرعي لا يستطيع ان يفسر كيف ان فؤاد منقريوس لم يفتح الغرفة حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً ولا يستطيع ان يفسر كيف ترك باب الغرفة شبه مفتوح ولا يستطيع ان يثبت ان فؤاد منقريوس قد نام اطلاقاً في الليلة السابقة لان فراش فؤاد منقريوس كان على فوضى دائمة في صحوه والمنام .

ونشبت مشادة عنيفة بين حسن مفتاح والطبيب الشرعي فتدخل وكيل

النيابة وحسم الجدال ، وانصرفت خواطر حسن مفتاح الى اليوزباشي شحاتـه منقريوس : ترى ماذا يفعل الآن ، انه في الفيوم قريباً من بلدته الاصلية اطسا وهو لا يعلم شيئاً عما حدث ، ولعله في هذه اللحظة بالذات يضرب المقبوض عليهم بعصاه الغليظة دون ما رحمة كما دون يفعل أيام ان كان معاون بوليس بندر المنيا ، حين كان البندر بشارع الانشاء ، فيعـــول بعضهم عويل النساء ويئن بعضهم كالكلاب المجروحة . او لعله الآن يصفع الشرطة كما كان يصفعهم في بندر المنيا حين يبلغه انهم ارتشوا بالطماطم او بالخيار او بزهيد المال ليتجاوزوا عن مخالفات الباعة او ليتستروا على بيوت الدعارة، ويذكرهم بأن اليوزباشي شحاته منقريوس لم يرق من تحت السلاح الا لأمانته وحبه للنظام . ان اليوزباشي شحاته منقريوس لا يعلم شيئاً عما جرى لولده، ولو قد عرف فماذا تراه فاعل ؟ ان عصاه لن تسقط من يده وشاربه الكث الذي نبتت فيه شعرة بيضاء بجوار كل شعرة صفراء لن يهتز لهول الخبر ، فلا شك انه سيتم ضرب المتهمين او صفع الشرطة ثم يعود الى غرفتة ويغلق بابه ويجلس وراء مكتبه كالمعتاد ثم يطأطىء رأسه حتى ترتاح على مكتبه ويجهش بالبكاء الحار . ولكنه لا يعلم شيئاً عما حدث . ولمَ لا يعلم ؟ ولم لا تعلم زكية حنين ؟ لم لا تبدو في السماء علامة كلما انطفأت روح او انطلق سر كأن تنكشف الشمس مثلاً أو يهيج اعصار او تقتتل امواج البحر حتى يعرف الناس ان بشراً قد مات . ولكن هذا محال لان البشر يموتون كل دقيقة ولا يحمل ان تنكف الشمس بصورة متصلة او تعصف الرياح على الدوام او تتحطم سفائن الدنيا . ولكن لا تبدو علامــة صغرى كالنذير تعلن للناس موت احبائهم وان كانوا في نهاية الارض كأن تذبل زهرة او ينكسر اناء او تضيق الصدور بالانفاس. ومن يدري ؟ لعل هذه العلامة تتجلى فعلاً فلا يلحظها الا اصحاب العهود .

واجتمعت في رأس حسن مفتاح الالوان من جديد: الاحمر والاسود والازرق، وتجسمت في خياله حتى كاد ان يراها امام عينيه ، واوشك ان يصيح : «ابعدوا

عني الألوان .» ولكنه راجع افكاره وكظم مشاعره ولام نفسه على هجسها . والفى حسن مفتاح ذاته مستسلماً لهذه الخواطر الغريبة فثاب الى صوابه وادرك نها لا تقدم ولا تؤخر .

واراد ان ينصرف الى عمل مجد ، فرأى ان يبرق لليوزباشي شحاته منقريوس وان يبلغ الاصحاب ولكن وكيل النيابة رجاه ان يتريث حتى يحضر مندوب تحقيق الشخصية ليصور البصمات ، وذكر له في ادب جم أن فكرة القتل لم تستبعد نهائياً رغم أنهم وجدوا كل شيء في الغرفة على حاله ، فباب الطابق قد وجد مفتوحاً ، وهذا امر غير مألوف . ولبث ثلاثتهم يدخنون في صمت لحظات ثم ارتجفت أوصال حسن مفتاح قليلاً فقد خيل اليه ان وكيل النيابة يشتبه فيه ، واوشك ان يجادله في أمر بقائه ولكنه عدل عن ذلك حتى لا يثير حوله الشكوك . ثم عاد اليه اطمئنانه وامتلكه اعجاب قوي لوكيل النيابة الذي يفعل ما يفعل صوناً لدم فؤاد منقريوس . ولم يطل انتظارهم ، فقد وصل رجلان من تحقيق الشخصية بعد دقائق وفرغا من الاجراءات اللازمة في نصف ساعة او نحوها ، وخرج الجميع من الطابق واغلق كاتب التحقيق الباب وختمه بالشمع الاحمر .

وفي شارع ذي اليدين طار الذباب الى وجه حسن مفتاح وطارت اصوات الباعة والعربات الكارو الى اذنيه وطار الغبار الى حلقه وطارت رائحة الطعمية والكبات الى انفه ، ولكنه كان في شغل عن هذه الاشياء جميعاً بتأملاته . ووقع بصره على الساعة القائمة في ميدان الجيزة فوجدها تقول الرابعة . ولم يصدق ما تقوله ساعة من ساعات الحكومة فعهده بها ان تكون خربة اكثر العام . واستوقف رجلاً من السابلة فأكد له الرجل ان الساعة الرابعة . ومضى حسن مفتاح يرتب افكاره ليواجه تبعات الموقف فقصد الى مكتب التلغراف وابرق الى اطسا والفيوم وهليوبولس ثم اتصل تليفونياً بابراهيم نور الدين في الصحيفة

التي يعمل بها ، وبمحمود الصواف ليعتذر عن اجتماع الليلة ولينيبه عنه في ادارة الاجتماع بنادي البعث بدلاً عنه ، وكتب كلمة عاجلة لسكرتير مدرسة الفنون التطبيقية وتركها في صندوقه بجوار مكتب التلغراف . ولم يدرِ كيف السبيل الى الاتصال بعايدة علم ، صديقته الممتلئة الهادئة الخاملة ذات الملامح العادية والاسنان الجميلة ، صديقته التي لا يدري ان كان يحبها او لا يحبها ولا تدري ان كانت تحبه او لا تحبه ، ولا يدري ايطلب إليها الزواج او لا يطلبه ولا تدري اتقبل الزواج منه او لا تقبله . انها في الصباح تعلم التلميذات في مدرستها ، وفي الصباح وحده يستطيع حسن مفتاح ان يطلبها في التليفون ، اما الآن فهي لا شك نائمة فهي من النوّامين بعد الظهر ، وقد نامت بعد الظهر كل يوم من ايام حياتها وهي تقدر بخمسة وعشرين عاماً . ثم خرج حسن مفتاح من جديد الى ميدان الجيزة وابتاع بعض اقراص الاسبيرين واختفى في قهوة المثلث حيث شرب القهوة مراراً ودخن طويلاً والقى على الصحيفة نظرة واحس بالاعياء الشديد وبحمّى آتية فمسح وجهه بقليل من الماء واصلح من هندامه فتجددت قوته فعلاً .

وبعد ان فعل كل ذلك الفى نفسه عاطلاً ، ولم يبقَ ما يربطه بالجيزة فعزم على العودة الى القاهرة ، وآثر ان يقطع الطريق سيراً فخرج الى شارع مراد بك . واحس بالحاجة الى صديق يصرفه عن خواطره ، وتعزى عن ذلك بركل الاحجار التي صادفها في الشارع النقي المرتب وبقراءة الاعلانات وبعدّ الواقفين في محطات الترام . واستعرض ما كان بين القروي الاشقر والرجل في ملابس السعاة ، وتأفف لما آلت اليه حال الشعب من فقر مسخ كل العواطف الانسانية . وحين بلغ حدائق الحيوان ورأى باعة الكازوزة والخادمات السمراوات الناضجات يحملن اطفال ساداتهن الموسرين قرب الباب الكبير احس انه بمنجاة من مدينة الموت والذبات والروائح المختلطة .

واطردت افكاره على نسق هادىء جديد . وطفق يستعرض محصوله من ذكريات النهار وقد تملكه خليط من العواطف الهادئة المتضاربة ، منها الحزن

الهادىء والعجب الهادىء والاشمئزاز الهادىء من الحياة جملة والخوف من الموت ومن عالم الارواح والاشباح الذي حدثه عنه فؤاد منقريوس ، ولكن هـــذه العواطف الهادئة وسواها التفت في غلاف فلسفي كوني النطاق وكانت مختلطة بكثير من الذكريات التي طواها الماضي القريب أو الماضي السحيق . فهو لم يحزن على فؤاد منقريوس حزناً عميقاً ناهشاً لان الاسراف في الحزن على الموتى كان في نظره انفعالاً صبيانياً أو انفعالاً أنانياً لا يجوز للراشدين الذين يعلمون ان بأساء الحياة أكبر من نعمائها . وأن الموت يلغي حادث الميلاد فالحزن على الموتى اشبه بالحزن على من لا يولدون . ثم انه كان يرى ان الحزن على الموتى سفاهة لان البلاغات الحربية تنعى كل يوم آلافاً مؤلفة من الشباب نصفهم أقــــدر من فؤاد منقريوس على الحياة وكلهم أحق بها منه ، فهم يموتون ليحققوا شيئاً من الاشياء أما هو فقد مات حتى لا يحقق شيئــــاً . بل ان العواطف الشخصية المحدودة في مجموعها لم يعد لها مجال في نفس حسن مفتاح منذ ان إخذ على عاتقه مهمة الكفاح الاجتماعي . ولولا بقية من حب الشعر فيه ومختلف من العادات الانسانيـــة في الانفعال لاستقبل حسن مفتاح موت فؤاد منقريوس ببرود شيطاني . ولم يجـــد حسن مفتاح في الموت ما يخيف الا الدقائق المعدودات التي يتداخل فيها الوجود مع العدم أما ما تجاوز ذلك فقد رأى ان قهره ممكن وواجب . كذلـــك لام حسن مفتاح فؤاد منقريوس على انتحاره فقد كان يجب على مـــن استغنى عن حياته ان يبذلها بذل مكافح شديد ، ولكنه ترفق في لومه اياه لأنه كان يعلم ان من هانت عليه حياته هانت عليه حياة الآخرين وهانت عنده اسباب الجهاد . وكان حسن مفتاح يعلم ان فؤاد منقريوس لا يعول أبــاً أو أمــاً ولا يتوقف على وجوده شيء في الحياة ذو بال فلم يجد في انتحاره مأخــذاً بل وجـــد ان فؤاد منقريوس أعرف الناس بمصلحة فؤاد منقريوس ، فاذا كان فؤاد منقريوس قد خرق قوانين الطبيعة وآثر الموت على الحياة فلا بد أن لديه من الاسباب ما يبرر ذلك . فلئن كان قد أخطأ في حسابه فقد دفع ثمن خطئه بدمه وليس لأحد أن يناقشه في مسلكه الشخصي .

وحين دقت ساعة الجامعة تذكر حسن مفتاح مـــا كان ينبغي ان يحدث لفؤاد منقريوس وتخيل الكنيسة وأجراسها وصور القديسين والقساوسة والمباخر والصلبان والناس وقوفاً ثم قعوداً وألغاز اللغة المجهولة التي يتغنى بها الشمامسة العمي والعور فأحس بالراحة لأن فؤاد منقريوس سوف يعفى من كل هذه العلانية . ثم أي أمل بقي لفؤاد منقريوس ، وماذا يملكه القساوسة لانقـــاذ روحه ؟ ان فؤاد منقريوس قد فقد الايمان منذ سنوات حين دخل الكنيسة مصادفة يوم احد الزعف ليشبع بصره بجمال المصليات وهن يخطرن الى باب الحريم أو يتفحصن المصلين بعيون براقة من وراء المشربيات الخشبية ذات الخروق الكثيرة . فسمع الكاهن يقول أن من صور النعيم التي سيحظى بها الابرار في الجنة مرأى العذاب الذي يتعذبه الخطأة في الجحيم ، فخرج ساخطـــاً قبل تمام المراسم ، وفي اليوم التالي أذاع بين أصدقائه انه كفر لاسباب أخلاقية . ولولا خوفه من اليوزباشي ومن حنين افندي لجهر بهذا الرأي في كل مناسبة . ثم ان فؤاد منقريوس كان يقول إن القساوسة بحاجة إلى من ينقذ لهم ارواحهم فكيف ينقـــذون أرواح الناس ؟ كل ذلك والأورمان الخضراء إلى يسار حسن مفتاح قد جففها الحـــر القديم وخنقها ركود الهواء ، وقد جلس بجوارها على افريز الشارع قرب محطة الاوتوبيس قروي كهل مهلهل الثياب ، جلس القرفصاء وقد تعرى اسفـــله أو أوشك وذهب يقضي حاجته قبالة المفوضية التركية أمام الملأ تحت الهواء الثقيل الذي يحمل شذى الخضرة ولا يحمل عطر الازهار . ورآه حسن مفتاح فلم يلقِ بالاً إلى هذا المنظر المألوف . ولما رأى الاورمان تذكر الطالبة سنية المنصوري التي كان المراهق فؤاد منقريوس يقدسها أيام دراستها في الجامعة ويود ان يعتنق الاسلام ليتزوج منها ،وذكر كيف كان المراهق فؤاد منقريوس يقتفي أثرها من بعيد بطول الاورمان إلى محطة الترام واجف القلب لا يرجو إلا ان يشبع منهـا النظر ، فإذا ما ركبت سنية المنصوري ترامها دخل هو الاورمان وراح يشكو غرامه الى أزهارها النضرة . كذلك تذكر كيف المراهق فؤاد منقريوس اهتدى يومها الى نظرية سياسية كبرى تضمن لمصر وحدة دائمة أساسها أن يدخـــل

الاقباط جميعاً في دين الاسلام فوجاً واحداً فيحلوا بذلك مشكلة الاقلية . وكان يقول ان المسلمين لو نزلوا عن رأيهم في صلب المسيح ، نزل الاقباط عن رأيهم في رسالة محمد . وظل يروّج لهذه النظرية بين زملائه من طلبة كليـة الآداب حتى فقد عطف الاكثرين من الجانبين .

ثم تذكر حسن مفتاح أن هذه لم تكن أول مرة ينتحر فيها فؤاد منقريوس ، فقد حاول الانتحار من قبل ،من أجل سنية المنصوري ، فعلم حسن مفتاح أن ما حدث كان جبراً مادياً في طبيعة فؤاد منقريوس . ثم ان فؤاد منقريوس كان آية من آيات الجمال ، وقد رأى حسن مفتاح ان من كان في جماله وجب أن يموت في عزة الشباب قبل أن تسطو عليه يد الزمن فتحفر بخنجرها الاخاديـد في صفحة وجهه . فحسن مفتاح سوف يذكر فؤاد منقريوس بعد عشرين عاماً على حاله ، كما تركه منذ ساعة .

كذلك سنية وزكية وتحية ان كانت هناك تحية سوف يذكرنـه على حاله ، وهو أكرم له من الذبول والضمور .

وعاد حسن مفتاح يفكر في الكنيسة وطقوسها ، وذكرته الكنيسة بالمقابر ، وذكرته المقابر بالارواح ، وذكرته الارواح بالاشباح ، فاستعرض كل ما سمعه من فؤاد منقريوس وأراد أن يهز كتفيه استخفافاً ولكنه عجز عن ذلك ، بـل زدادت خواطره التهاباً ، واتضح له أخيراً أنه لا يستطيـع أن يتجاهل مـا جرى ، فقرر أن يناقش اعـتراف فؤاد منقريوس على ضوء العقل وحده حتى يتخلص من أطيافه المزعجة . وأحس بالاختناق وهو يعـبر كوبري الانجليز ، فأنشأ يتأمل الماء الرمادي وأشجار الجزيرة العاليـة وأبراج المعرض الزراعي والزينة الملكية والغربان السود الرابضة على الاعلام . ورأى في الغربان نـذير شؤم ولكنه لم يتطير طويلاً ، وقرأ على السور الرمادي الطويل الى يساره اقوالاً كتبت بالطباشير بعضها يحضّ على الثورة وبعضها يحض على اخراج الانجلـيز

بالدماء وبعضها من بذاءات الجنس باللفظ وبالرسوم، كما رأى صلباناً كثيرة معقوفة وعدداً من المناجل والمطارق، فعاد بخياله إلى الفنـاء الخلفي في مدرسة المنيـا الثانوية وتذكر الصبيان، وتذكر موسى افندي الوطني الذي كان يحض الطلبة على الاضراب، وموسى أفندي المستهتر الذي كان يدعو التلاميذ ذوي الوجوه الجميلة الى داره بأرض السراي، وتذكر اليوزباشي شحاته منقريوس الذي لم تـترك ثورة ١٩١٩ في أسرته من اثر الا أسماء ولديه سعد ومكرم وبنته صفية، وقـد ماتوا جميعاً ولم يبقَ له الا فؤاد الذي حمل هذا الاسم تيمناً بولاية السلطان فؤاد ثم جورجي وهو من مواليد الحكومة الائتلافية الاولى وقد حمل هـذا الاسم تخليداً لعمه الذي ربى أباه. أما بقية عواطف اليوزباشي الوطنية فقد نزل عنها حرصاً على وظيفته، فاشترك في تزوير الانتخابات وفي قمع المظاهرات الشعبية وفي مطاردة الجواسيس السياسيين أي المكافحين - بنشاط وقسوة قل نظيرهما. كذلك تذكر حسن مفتاح ابراهيم نور الدين ذا العقل الراجح بين التلاميذ ومحمد مسلم ذا العينين الضيقتين والاسنان البارزة والصوت الرخيم، وتذكر فناء المدرسة الامامي ذا الحشيش الاصفر العطشان الذي كان الغلمان يضربون عليـه دائرة في فسحة الظهر بعد الغداء ويجلسون وسطهم محمد مسلم ليغنيهم «انا انطونيو» ويجوّد لهم «يا جارة الوادي» فيجنوا طرباً، وترتفع أصواتهم في كوراس واحد طويل بعد كل مقطع قائلة : «آآآآه» وتمنى حسن مفتاح لصباه أن يعود رغم أن صباه كان مريراً، فقد كان في صبـاه فؤاد منقريوس وابراهيم نور الدين ويحيى هاشم وفناء مدرسة المنيا الثانوية وحشيشها الاصفر العطشان.

ونعق غراب من علٍ فظنه حسن مفتاح يقول : «هيهـات، هيهـات» ولم يحزن غير ان النعيق ادخله من جديد في عالم الارواح والاشبـاح. فاسرع في سيره لعله يخرج من هذا العالم، ولكنه لم يخرج منه بل تصبب وجهه عرقاً حين أشرف على تمثال سعد زغلول. وأخفى الليل التمثال، فبدا له كالخفاش الحجري الأسمر الجسيم فتذكر خفاش فوءاد منقريوس الذي اشتعل قلبه كالجمرة ونفذ في جسده نور الغروب الوردي. وتذكر نظرية فوءاد منقريوس في تجسيد الأرواح

فخيّل اليه أن روح سعد زغلول قد تحجرت الى أبد الآبـــدين كما تحجرت روح أطلس . ولعبت المردة بين الأشجار على يمينه وحول خيام المعسكر الهنـــدي المضروبة داخل الحديقة . وكانت أنوار كوبري قصر النيل لا تزال زرقاء رغم تخفيف قيود الاضاءة فلم تهدىء من روعه الا قليـــلاً ، وظلت صورة فوءاد منقريوس ثابتة في رأسه فأحس بالضجر وقالت نفسه متأففة : « ماذا تريد مني يا فوءاد ؟ لقد اخترت الموت فدع الاحياء يحيون . ثم لام حسن مفتاح نفسه على هذا الضجر حين تذكر ان فوءاد منقريوس في رأسه ولم يأته من الخارج ،وقالت نفسه معتذرة : « تريث يا فوءاد حتى نبلغ ايزافتش لنصفي الأمر معـــاً ، فأنا متعب وحران حديث الأشباح في هذا الضوء الخافت بين الماء والقصور والظلال المديدة حديث يزعج النفوس . »

وبلغ ايزافتش ، وجلس في ركن من أركانه ذات الضياء ، واستهلك شيئــاً من الجيلاتي ساغ له طعمه ، وأحس لأول مرة بمقدمات الجوع ولكنه لم يكترث وأجال نظره في أركان المكان فرأى نفراً من الانكليز المجنـدين والمجنـدات ، ورأى من الرواد الدائمين أنور وجدي وهو محامٍ شاب من شرباص يقرض الشعر تزوج من أرملة تملك مائة فدان عليها ديون قليلة، وتولى هو إدارتها ولكنه كان يعرض قضاياه على الشعراء ويعرض شعره على المحامين فضاعت الأفدنة المائــة وبقي مغموراً في دنيا الناظمين . كذلك رأى محمود أبو سحـــلى وهو مهندس مبتدىء أحب عذراء من عذارى الجيرة حباً لا نظير له، ثم دعاه صديقان من اصدقائه الى سهرة حمراء في دار أحدهما ، فلما دخل الدار وجد عذراءه عارية في السرير تشرب الويسكي بلاحساب فأودت الصدمة بعقله ،وجافى الناس جميعاً واستغرق في ذهول مقيم . ورأى الفتى الوسيم عصمت وهو صحفي ثانوي القيمـة يتفجر الذكاء من عينيه وتتفجر الحيوية من أعضائه عشقته زوجة لواء في الجيش تجاوزت الخمسين فعلمته كل موبقة يتخيلها الخيال الشرقي حتى أصابه روماتزم القلب وهو بعد في العشرين .

رأى حسن مفتــاح كلا منهم يجلس في ركنه المفضل . وتـكاثر مـن حوله

الزملاء واكتملت في أزافتش « جماعة البعث » أو مجلس إدارتهم : صفوان ونور الدين والسكرتيرة عنايات ممدوح والصواف والجيار وسعدية الطويل والسيد علي وبطرس قلادة وفتح الله ونعيم ، فاصطنع حسن مفتاح خلو البال ، وساهم معهم في أحاديث السياسة والنساء،وهزل معهم على رجالات الدولة وعلى الانجليز ولكن وجومه كان ملحوظاً ، فسألوه عما به فأجاب باختصار أنه فقد صديقا وعاد إلى بيان رئيس الوزراء عن معتقل الطور يناقشه في خفة وعبث . وتوارى فوءاد منقريوس بارواحه وأشباحه تحت الأنوار الكثيرة الزرقاء وبين أكواب الجيلاتي وأحاديث السياسة والنساء ولكن وجوم حسن مفتاح سرى درجة درجة في نفوس الحاضرين .

وتحول بصر حسن مفتاح إلى الركن الأيمن فرأى كهلاً وقوراً أنيق الملبس بابيونه جميل الألوان ومنظاره ذهبي الإطار ، وقد رفع الكهل صحيفة «المقطم» وانصرف إلى قراءتها فعرفه حسن مفتاح ، وأشار برأسه مبتسماً في صمت ،وبعد ثوانٍ كان كل الحاضرين يتغامزون ويتهامسون : « أطلنطي . أطلنطي . » فقد كانوا يلقبون كل جاسوس لبريطانيا أو لأميركا بهذا اللفظ نسبة الى ميثاق الاطلنطي . وكان حسن مفتاح يعلم أن الكهل الأنيق الوقور لا يقرأ الصحيفة وانما يتظاهر بقراءتها ، وأراد أن يكسر هذا الهدوء المؤقت واستبدت به شهوة قوية للعبث والعدوان لم تكن في طباعه فرفع صوته الى طبقة يسمعها أكثر الجالسين وقال : « لا انا اعتقد ان رئيس الوزراء اكبر حمار في تاريخ مصر الحديث» . وضحكت «جماعة البعث» وكانوا عشرة ضحكة زلزلت المكان حتى تحولت اليهم أبصار الجالسين جميعاً . أما الكهل الأنيق الوقور فلم تنصرف عيناه عن صحيفته .

وقرأ حسن مفتاح في ساعة ميدان الاسماعيلية أن الساعة أشرفت على السابعة ، فنهض واستأذن بالانصراف ولكنه لم ينصرف . وانصرفت الجماعة لتشهد الاجتماع فتسلل حسن مفتاح وراءها ، فقد أخافته الوحدة . ولام نفسه لوماً قاسياً على عبثه وخفته : انه يضحك وجسد فوءاد منقريوس الآن عارٍ على المشرحة برونزي يفوح بالفورمالين ، وقد مزق صدره وأحشاءه مبضع

الطبيب ، فكيف يغفر له فؤاد منقريوس هذه الاساءة ؟ انه متعب حقاً ولكن عودته الى البنسيون حماقة كبرى ،فكيف يواجه فوءاد منقريوس والليل لا يزال وليداً ؟ ألا تكفي وحشية الليل وظلمة الأحلام ؟ ثم انه جائع أو سيجوع حقاً بعد ساعات فليتحامل على نفسه. فليشهد اذن الاجتماع مع الشاهدين لعل ضوضاء الحضور تملأ وعيه وتصرفه عن أحاديث نفسه .

وبلغ حسن مفتاح الجماعة وأبلغها أنه عدل عن تغيبه ، ثم بلغ مع الجماعة الدار رقم ١٣ بشارع سليمان باشا حيث « نادى البعث » فوجد نفراً من المستمعين يبلغ المائة قد تجمهر خارج نطاق ضربه رجال البوليس حول البناء ، وقد اندس بينهم بعض البوابين وباعة اليانصيب ورجال البوليس السياسي والبكباشي الأشقر الجميل الرهيب الشركسي الأصل مرعي بك ذو التاريخ الحافل بالقسوة والتلفيق على رأس ضباطه ينهرون الأفندية بالغلظة والامرة والشرطة يهشونهم بالعصي هشاً خفيفاً . ورأى وكيلاً من وكلاء النيابة يتعاون مع آخرين على ختم باب النادي بالشمع الأحمر . فعلم حسن مفتاح أن يومه ينبغي أن ينتهي عند هذا الحد ، وانصرف متسللاً لا يلوي على شيء ، وتوغل في الشارع الفخم ، شارع سليمان باشا ، حتى بلغ ناصية شارع الملكة فريدة ، وهم بدخول بار صغير ولكنه تذكر أن نقوده لا تكفي لشراء شيء ورده ذلك من عالم المحسوسات ، فتذكر أنه لا بد أن يتغذى وأن يتعشى وأن يدخن اليوم التالي ، وتنبأ بأن وفاة فؤاد منقريوس سوف تعرضه لبعض النفقات ، والمصرف لا يفتح أبوابه الا صباح يوم الاثنين . فعد قروشه من جديد ووجدها سبعاً ، فقرر أن يفاتح مدام ماريكا صاحبة البنسيون في قرض صغير . واستوقف بائعاً من باعة السميد واشترى منه ثلاث بيضات ، ثم انطلق في شارع الملكة فريدة حتى بلغ رقم ٢٢ فحيّا البواب ودخل .

٢

كان حسن مفتاح يجلس في مدخل البنسيون يدخن بلا انقطاع ،وقد انهكه السهر في الليلة الماضية ، وانهكته كثرة الحركة في الصباح ، فلما أن فرغ إلى نفسه نحو السادسة أحس بأنه كتلة من اللحم المتهدل ، فقد ارتخت أعصابه المشدودة طول النهار وصعد الانهاك إلى رأسه حمىّ ودواراً . كذلك ارتخت عضلاته المشدودة طول النهار ،وأخذت أشواك داخلية دفينة تخزه في أكثر مواضع جسده ، وخاصة في فخذيه ، وهي أوجاع لم يحس بها إلا بعد أن استراح .

انه لا يرغب في لقاء عايدة علم ، ولكنها سعت الى هذا اللقاء سعياً . ان حاله تلزمه بالاعتكاف أسبوعاً كاملاً لو أمكن ذلك ، ولكنه غير ممكن. إن ورق الحائط مزعج كله أزهار ألوانها فاقعة تلهب الحمى في رأسه والكراسي الأسيوطية الثلاثة التي وضعتها مدام ماريكا في المدخل ليستقبل نزلاؤها اضيافهم فيه جوزية اللون لا تتفق مع البساط الفستقي أو المائدة الفستقية ، وكانت تتفاوت حجماً وكان الكرسي المجاور للحمام على أيمن المدخل أضخم من سواه . فأثاث المدخل قد ابتيع في مزاد ، في أكثر من مزاد . ثم إن رأس القديس نيقولا في موضعها كانت مصبوبة في المصيص البارز معلقة على الجدار قبالته ، وهو لم يعترض على وجودها وانما اعترض على رداءة الصنعة. واذا كانت مدام ماريكا قد أخلفت وعدها وأبقت رأس القديس نيقولا في موضعها فليخفها بنفسه . وهذا أيضاً أمر لم يفهمه حسن مفتاح. ان مدام ماريكا وأخاها جورج كانا يعطفان على جماعة أيام ، فكيف يزينان البيت بالصلبان وبرسوم العذراء في

أوضاع مختلفة . ثم كيف تقبل عايدة علم أن تزوره في البنسيون ؟ ان هذه أول مرة تقدم فيها على هذا الأمر الخطير ، وهو لم يحتج الى مجادلتها طويلاً ، بل لم يحتج الى مجادلتها أصلاً ، وقد تمت الدعوة والتفاصيل والقبول في دقيقة. فقد كان في المشرحة بصحبة اليوزباشي شحاته منقريوس الذي جاء مع ولده جورجي بقطار الفجر ، وقبل أن يدخل الحانوتي بالصندوق الفارغ ليملأه وجد حسن مفتاح دقائق يتصل فيها بعايدة علم ليعتذر عن موعد الامس ، فسعى الى حانوت بدال قريب ، وطلب بالتليفون مدرسة النجاح الثانوية للبنات بهليوبوليس ،وشرح الأمر لعايدة علم باقتضاب فسألته لقاء قريباً . ودعاها الى زيارته بـداره نحو الخامسة مساء فلم تثر اعتراضاً . ولم يعجب هو لذلك لحظتها فقد كان في شغل عن العجب بما كان سيكون من أمر فؤاد منقريوس .

ولكنه الآن عاجب . ان هذه أول مرة تطلب فيها عايدة علم لقاءه . وقد كانت في الماضي تنتظر دعوته دائماً . فماذا جدّ يا ترى ؟ ثم كيف تعرض عايدة علم سمعتها للقيل والقال بزيارته في البنسيون ؟ لا بد أن في الأمر شيئاً. لقد تعود منها الاحتياط الشديد،فكانت ترفض لقاءه في لوك لأن زجاجه المكشوف يطل على الشارع المزدحم ويعرضها لأنظار المارة ، وكانت ترفض لقاءه في جروبي أو صولت أو نوادي القاهرة لأنها مطروقة تكثر فيها العيون . كانت تؤثر من الأماكن مستورها ، فتحتمي بصالونات المتروبوليتان وشبرد ومينا هاوس حيث لا يحتمل أن يراها من يعرفها .

نعم، لا بد أن في الأمر شيئاً . أو لعل عايدة علم قد سئمت كل هذا التستر واعتزمت أن تتحدى التقاليد . ولو قد حدث ذلك لتمت في قلب حسن مفتاح الثورة الكبرى، واندفع الى حبها اندفاع المجنون ، فما حال بينه وبين ذلك الا شكه في صلابتها .وهو ليس في حاجة الى شريكة في الحياة رخوة النفس تتهيب من ظلها ، فهو مكافح لا يحب الا المكافحين ، وهو مشرد يواجه المشاكل في صبحه والمساء ، فكيف يأنس الى انسان قد يثبط عزمه أو يكدس عليه أثقال الحياة . وقد كان حسن مفتاح يعلم أنه لو تورط في حب عايدة علم لخرج زمامه

من يده ،ولجاز أن تفتت طبيعتها الرخوة طبيعته الصلبة ، وهو مقدم على نضال العمالقة ، فلسوف يهرب من الميدان أو يتحطم تماماً ان هو تزوجها . وقد كانت عايدة علم في نظره نموذجاً أليماً للتوسط المرذول كما كانت في نظره نموذجاً جميلاً للتوسط المحبوب ، فهي نموذج في الانسانية كما هي في الواقع بكل ما فيها من قوة وصعف : هي جميلة ولكن بمقدار ، سمرتها من الفلاحين وعيناهـــا الضيقتان من الترك القدامى . ولم يكن لاسنانها نظير في الوادي ، ولكن بقية ملامحها كانت مألوفة يرى حسن مفتاح نسخاً تشابهها في كل مكان ، وخاصة أمام مدارس البنات الكبار في ساعات الانصراف وأمام دور السيـنما وفي مجتمع الممرضات بالقصر العيني ، وهو يوءثر الجمال الوحشي الذي لا يتكرر كثيراً .

ولكن حسن مفتاح كان راضياً بنصيبه مكتفياً به ، فقد كان يعلم ان مقامه بين الرجال لا يزيد كثيراً عن مقام عايدة علم بين النساء : فهو قصير أو أقرب الى القصر ، وهو نحيل ما في ذلك شك وهو خشن الملامح فأسنانه بها بروز قليل وعيناه الحادتان متعبتان بلا انقطاع رغم ما يخرج منهما من بريق نفاذ،ولا يزينه الا شعر ناعم مرسل جميل بلون الزيتون الاسود ، وصوت صــافٍ مرسل جميل ورثها عن جدة له كردية . وقد كان على كل حال مرغماً على الاكتفاء بهــا بحكم قانون العرض والطلب . فقد كان يقول إن نصف البرجوازية المصرية ، نصفهــا الحلو ، سجين البيوت يطهي الطعام للنصف الآخر سجين القهــاوي أو يرتق له جواربه أو يقرأ المجلات المصورة مستلقيـــاً على السرير أو يسترسل في أحلام يائسة محورها رجال لا سبيل الى الوصول اليهــم . وما شذ عن ذلك فقليــل ، الزمتهن ظروف الحياة أو سنن التقدم بالخروج الى الشوارع والنوادي والدواوين. وقد كان لذلك يعد نفسه موفقاً بين الرجــال وان كان شقيــاً بين المحبين . وهو شقي بين المحبين لانه لا يعلم ان كان يحب عايدة علم أو لا يحبها . فهو شديد الولع بها حقاً بحكم الألفة وحدها على اقل تقدير. بل هو شديد الولع بها لاتزانها الكامل الموجع وانسانيتها القوية الضعيفة فهي تستطيع ان تبكي لمصاب صديق .وهي تستطيع ان تجود بقرش لسائل جوعان . وهي تستطيع ان تزور حديقة

الحيوان لتتنزه فيها . وهي تتحمس كلما رأت فيلماً أعجبها . وهي تخاف كلام الناس خوفاً صبيانياً. وهي تصدع بأوامر ابيها مهما كانت مجحفة ولا تفهم كيف يثور الأبناء على الآباء . وهي لا تتأخر عن الساعة الثامنة ان كانت بمفردها . وهي لا تفهم السياسة ولا تحب ان تفهمها . وهي تتمنى ان تتعلم الرقص ولكنها لا تجسر ان تفعل ذلك ، ولقد تكذب احياناً ، فان اطال حسن مفتاح اليها النظر ارتبكت واحمرّ خداها واعترفت له بالحقيقة. وهي تشتهي ان تُقبل ولكن تجزع مما وراء القبلات . وهي تقدر حسن مفتاح تقديراً لا مزيد عليه منذ ان اكتسحتها عبقريته ، ولكنها لا تفهمه ولا تفهم مراميه في الحياة ، بل هيَ تخافه في سريرتها لا كما تخاف المرأة الرجل ولكن كما يخاف الطفل شيطاناً دمثاً عجوزاً يود ان يستدرجه الى مواقع النخيل ليفتك به بين الأحراش . وهي تتوجع كلما رأت الصبية نائمين عند اركان الشوارع في ليالي يناير المتلفة ولكنها لا تفهم كيف يحيط حسن مفتاح نفسه اختياراً بكوكبة من الجواسيس اينما توجه لأنه يريد انقاذ هوءلاء الصبية من برد يناير الموجع ، وهي تثور حين تمنح حضرة الناظرة بنات كرم حمدي وشريفة وحكمت المانسترلي المجانية الكاملة وهن من صاحبات الـ كار ثم تطرد صفوة تلميذاتها سنية عوض وانجيل ابراهيم من الثانية اول وزكية المليجي وخديجة سطوحي ومريم سدراك ونبوية محروس من بقية السنوات لعدم سداد الرسوم ، وهي تثور حين تختلي بها حضرة الناظرة ابان الامتحانات لتدافع عن تلميذة شرسة بليدة وتطلب رفع درجاتها ، وهي تثور حين تدعو حضرة الناظرة التلميذات الناضجات الى جناحها في المدرسة وتسبغ عليهن من حنانها شيئاً كثيراً وتقبلهن قبلة العانس التي لا زوج لها ولا ولد ، بل لقد ثارت عايدة علم ذات يوم ثورة كبرى حين تخطاها معالي الوزير في الترقية واختص بها سميرة حسن مدرسة الجغرافيا الفاسدة الخلق التي تدير صالوناً يتردد عليه مراقب التعليم ، ثم ثارت مرة أخرى حين تخطاها معالي الوزير في الترقية مرة أخرى واختص بها عنايات مبروك مدرسة الرياضة لأن مبروك أفندي موظف بوزارة التموين قد موّن سعادة وكيل الوزارة بستة اطارات لسيارته

الجميلة ، واخيراً أظلمت الدنيا في عينيها حين تخطاها معالي الوزير في الترقية للمرة الثالثة واختص بها نازك سلطـــان بنت صديقه العزيز وابن بلدته ورفيق صبواته وجليسه الدائم حول موائد البوكر عبد المجيد بك سلطان . ولم تـــدر عايدة علم ايهما أربح لها ، أن تبصق في وجه الناظرة فتفقد عملها أو ان تسلم الى الله امرها وتقنع بما كتب لها ، وقد تخيرت اسلم السبيلين ، وهي الآن سعيدة في عملها لأنها لم تعد تضطرب لفصل البنات الفقيرات المجدات أو لمحامـــاة البنات المجدودات الكسالى أو لتقبيل البنات الناضجات العزولاوات أو لترقية المعلمات الفاسدات الراشيات المقربات . فهي لا تفهم اذن كيف يضحي حسن مفتـــاح وظيفته في مصلحة العمل لقاء كتاب عنيف يفضح فيه « الاداة الحكومية » .

ولقد كان يمكنها ان تحبه حقاً لو انه كان اطول قليلاً مما هو في الواقع . ولقد كان يمكنها ان تأمن اليه وتسلم له مستقبلها ومستقبل اطفالها لو انه كان من اوساط الناس يرضى بحاله ويطمئن الى عمل ثابت ، ويتنكب عن كل ما يهدده في عيشه وامنه . ولكنه لا يفعل ذلك . انه الآن يحرر صحيفة «المساء» ولكن الى متى ؟ انه الآن حر طليق ، ولكن الى متى ؟ ثم انها لا تفهم بعض عواطفه ويخيل اليها احياناً انه ابليس صغير . وكيف تنسى يوم قص عليها نبـــأ وفاة صاحبه علي النشرتي بالسكتة القلبية في قهوة بور فؤاد منذ عام او يزيد . لقد حمل النبأ في مرح شديد تصاحبه عبارات السخرية بصاحبه المتوفى ، وعندئذ بدت اسنانه البارزة اشد بروزاً مما هي كعادته كلما ضحك ساخراً . وخيل الى عايدة علم انها تجالس الشيطان ذاته ، ولم تكن تدري ان حسن مفتاح قد فجع في علي النشرتي فجيعة قصوى جعلته يتكلف الهزل حتى يتجنب البكاء . ثم ان حسن مفتاح لم ينسَ نفسه مرة واحدة ويقول . « انا احبك يا عائدة ، احبك من اعماق قلبي ولا ارى السعادة الا بجوارك » . انه لم يقل من ذلك شيئاً حتى ليلة ان عرض عليها الزواج . لقد عرض عليها الزواج بعد خروجه من المعتقل فوراً ، منذ ستة اشهر عرضه عليها في جو عابث ، بكلمات عابثة كأنه يعرض عليها الخروج الى نزهة خلوية او قبول هدية تافهة . نعم ، انها لا تذكر انه اهداها شيئاً في يوم مـــن

الأيام كما يفعل المحبون للمحبات ، وما كانت لتنتظر منه أمراً عظيماً ، فالوردة تكفي ، والكتاب يكفي ، والصورة تكفي ولو كانت صورته . ترى ما خطبه انها لا تفهم من طبيعته شيئاً. انها لا تنسى يوم ان لقيته بعد أن خرج من المعتقل مباشرة، فلم يشر بشيء الى ما لقيه من كبت وحرمان في محبسه ولم يبدأ حديث الأشواق ، بل ذهب يلغو عابثاً يهزأ بنفسه وبها وبأهله وبأهلها وبكل ما عنّ له ان يتحدث فيه كأنه كان في زيارة بعض أقربائه . أتراه بارد العواطف ؟هذا لا يمكن أن يكون لانه شديد الحيوية . ومع ذلك فهو لا يشكو كما يشكو الناس ولا يتهلهل كما يتهلهل الناس ولا يغضب كما يغضب الناس ، ولعله يتألم ويفرح ويضطرب ويفعل كل ما يفعله الناس ولكنه لا يطلع أحداً على دخيلة نفسه .فهو أبداً في حال سوية.ولولا حيويته الفياضة التي تظهر في دعابته المتصلة وفي نشاطه المتواصل لما شكت قط في برود عواطفه . ثم انها لا تنسى يوم أن اختلى بها وسط الظلمة في شارع السباق بهليوبوليس وقبلها قبلة قوية صعدت الى رأسه والى رأسها فأصابهما دوار . انها لم تره قط جاداً الا ليلة القبلة ، فقد تهدج صوته وتقطعت كلماته وخرج عن طوره فأرسل نفسه على سجيتها ، فما ان خرجا الى النور حتى زال عنه وجومه ومضى يثرثر في كل موضوع باسلوبه الساخر . ولكنها رغم ذلك كانت تثق فيه،وتعلم ان وراء هزله وفاء نادراً وشهامة عظيمة وصدقاً لا تشوبه شائبة ، وربما سذاجة اقرب الى سذاجة الأطفال الأبرياء.وكلما فرغ اليها ومضى يحدثها عن آرائه في الحياة كان صوته المخلص القوي ينفذ الى قلبها ويملأ وجدانها ، فتنسى بقربه مدرسة البنات وتفاصيل الحياة الجزئية واكدار الحياة الخاصة ، وكانت تحس بضآلتها الى جواره ، وتندمج في وجود كلي يستغرقها جملة ، فتقرر انها سوف تتزوجه مهما كانت العقبات ، ومهما تكن النتائج ، وتقرر انها سوف تقف حياتها على فهمه ثم اسعاده . ان عايدة علم لم تكن تطلب من الحياة شيئاً كثيراً فلم لا تقنع بحسن مفتاح ؟

كذلك لم يكن حسن مفتاح يطلب من الحياة شيئاً كثيراً ، فلم لا يقنع بعايدة علم؟ان الحب قد فاته يوم التقى في معرض من معارض الرسم بمونا ربيع

فوجدها دوامة تضطرب بالعواطف الصاخبة ، ووجدها متزوجة . وحين تجادلا نصف ساعة على تراس الكونتننتال في اصول المذهب التعكيبي ادرك كل منهما ان السهم قد نقذ ، فشهقت مونا ربيع واطرق حسن مفتاح وجاء عبد السلام بك ربيع يقتادزوجته الى الكريسلر السوداء التي كانت تلمع بين التاكسيهات الزرقاء في ميدان الاوبرا . وقد كان ميسراً لحسن مفتاح ان يتواعد معها في حضرة الزوج وفي غيبة الزوج ولكنه تكهن بمستقبل عاصف فلم يشيعها حتى بنظراته . ان عايدة علم رقيقة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة ، تافهه كازواج العظماء ، ولكنها رغم ذلك قد احتلت من قلبه الفارغ ركناً عظيماً . انه لا يحبها ولا يستطيع ان يحبها ذلك الحب الهمجي الجبار الذي يصرع الملوك ويهلك الأبطال ويتلف الشعراء ويلوث صحائف التاريخ باللطخ الحمراء ويجعل من عامة النساء اماء ذاهلات، ولكنه ليس بحاجة الى هذا الحب الهمجي الجبار، وكفاه من نار الغرام دفء المودة ، فلقد كان يهيىء نفسه لاعمال جسام .

وهو الآن ينتظرها ، ينتظر عايدة علم في المدخل بين الكراسي الاسيوطية الثلاثة تحت رأس القديس نيقولا ، ومن حوله أرخص الأزهار تترى على ورق الحائط ولقد كان يحب أن يأوي إلى فراشه ليستريح من وعثاء النهار لولا خوفه من أن يستيقظ بعد منتصف الليل فيواجه الظلام بمفرده ، وتستبد به هواجس الوحدة . انه بحاجة الى انيس غير مدام ماريكا فهي لا تؤنس احداً ، انيس غير عايدة علم ، فعايدة علم تطلب انتباهه على أقل تقدير ، انيس غير شبح فؤاد منقريوس فهو ينشر العفن والجماجم والبرودة اللاذعة اينما دبّ . وحسن مفتاح المحطم الأعصاب يستعرض ما كان له في أمسه الحافل وفي ليله الحافل وفي نهاره الحافل .

ان فؤاد منقريوس لم يزره في الليلة السابقة كما كان قد وعد . فكيف كان ذلك ؟ لم يزره فؤاد منقريوس وانما زاره شخص آخر ، زاره الصاغ ممدوح الشربيني الضابط بالقلم السياسي ، وفتش غرفته وفتش غرف النزلاء الآخرين في غيبتهم رغم احتجاجات مدام ماريكا . وقد الف حسن مفتاح هذه الزيارات

من الصاغ ممدوح الشربيني فأنس اليه في غير اسراف ، كما الف الصاغ ممدوح الشربيني تفتيش حسن مفتاح حتى لقد كف عن اقتحام مسكنه في حماية الشرطة، وامسى يكتفي بوضع شرطي مسلح عند الباب الخارجي .

وفي الليلة السابقة بالذات ارتاح حسن مفتاح لهذه الزيارة ايما ارتياح . فقد تملكته الهواجس والذكريات حين اختلى بنفسه في حجرته ، واغلق من ورائه بابها ،وحاول ان يقرأ صحف المساء فلم تعنه قراءتها بشيء، ثم اطفأ النور وعالج النوم ساعة أو بعضها فازدحمت تحت جفنيه الصور المزعجة والصور المقبضة والصور المضطربة ، فأدرك أنه بحاجة الى رفيق ، واانار الغرفة وارتدى قميصه وبنطلونه وحذاءه وأوشك أن يخرج طلباً للرفيق في القهاوي أو يهيم على وجهه في الطرقات ولكنه عدل عن ذلك . وقرر أن يقضي سواد الليل جالساً على الكرسي الاسيوطي الضخم قرأ أو لم يقرأ ، نام أو لم ينم ، لأن الظلمة كانت توحي اليه بكل مكروه . فلما زاره الصاغ ممدوح الشربيني نحو منتصف الليل لم يتململ كما كان يفعل في أكثر الأحيان ، بل رحب به وانزله أحسن منزلة ، بل وأعطاه شيئاً من القهوة كان معداً له من قبل ، فقد أحس بان زيارة ممدوح الشربيني اروح على فؤاده من زيارة فؤاد منقريوس .

وحين انتهى الصاغ ممدوح الشربيني من مهمته هم بالانصراف فاستبقاه حسن مفتاح ليجادله في امر التفتيش ، واستكبر ان يطلعه على حاله ، واستحى ان يشكو اليه موت صاحبه وخوفه من الوحدة، فذهب يناقشه في دواعي التفتيش وفي مصير اصدقائه المعتقلين وفي سلطات الحاكم العسكري . وادرك الصاغ ممدوح الشربيني بفطنته ان حسن مفتاح يتعذب فسأله عما به فروى له ما كان باقتضاب. وعلم حسن مفتاح من الصاغ ممدوح الشربيني انه يبحث عن منشورات . او اصول منشورات ضد الملكية ، تم توزيعها بين رجال الطيران وبعض فصائل الجيش ، فاوضح له حسن مفتاح مبتسماً انها لا بد مدسوسة على الشيوعيين، دسها على الشيوعيين الاخوان المسلمون حتى يستضيفهم البوليس اسابيع قليلة الى ان تنتهي معركة الاجور في مصانع العنابر والترسانة ، او دسها حزب الوفد الذي

يضمر للملكية العداء ولا يجسر على المجاهرة به ، فاغمض الصاغ ممدوح الشربيني عينيه شيئاً ما وقال بتهكم : « كل جماعة تتهم غيرها. وماذا يمنع ان يكون لكل نصيب ؟ »

ولكن الحديث بينهما لم يقف عند هذا الحد، لأن الصاغ ممدوح الشربيني كان يتعذب كذلك . وقد بدا له ان ينهض اكثر من مرة لينصرف ولكنه لم يفعل ، فقد خشي الا يستبقيه حسن مفتاح ، وهو ليس بأقل منه حاجة الى رفيق . فحياته في الايام الأخيرة جحيم لا يطاق زوجته الطيبة البدينة ذات الفم الواسع والكفل العريض تنام الآن في فيلا الشربيني بشارع الهرم ، تنام منذ الساعة التاسعة فهذا دأبها ، ولو عاد اليها الان لاستيقظت ، فهي تستيقظ كلما عاد اليها ، ولو استيقظت اتمت ما قد بدأته من جدل في الصباح وفي كل صباح حول صلته المريبة بالسيدة اليهودية البدينة استر منشة زوج الخواجة منشة ، وهما من اهل الجيرة ، ولو اتمت ما قد بدأته من جدل في الصباح ايقظت حماته ، وهنا الويل ثم الويل : فحماته سوف تسأله عما فعل باسورة ابنتها وكيف استبدل ارض الهرم بمثلها في المعصرة دون ان يستشيرها وهي تملك منها نصفها .والصاغ ممدوح الشربيني يحب ان يهنأ ساعات قليلة من النوم القرير قبل ان يسافر غداً الى طنطا ليتحرى بنفسه عن حوادث الشغب التي استجدت فيها ابان زيارة النحاس باشا زعيم المعارضة ورئيس حزب الأكثرية ، حزب الوفد ، فلقد رأى الشربيني في نهاره ما كفاه من بذاءة رئيسه الجديد ودس زملائه الذين ينفسون عليه مكانته الحصينة وثقة مدير الأمن العام به . فإذا لم يتأت النوم الهنيء فلا اقل من ان يتجنب مواقع الشجار. وفوق هذا وذاك كان الصاغ ممدوح الشربيني معذباً لأن عمله يجشمه ما لا يتحمله ضميره. فقد صدر اليه الأمر في الصباح بان الممول البير روزنشتاين والطبيبة سميرة خلوصي والميكانيكي زعيتر في قهوة وستمنستر ، ويقسم امام النيابة حانثاً بأنهم كانوا يحملون منشوراً يحض الناس على قلب نظام الحكم ، وهو يعلم ان هذا المنشور من فبركة القلم السياسي . لقد فعل كل ذلك لا خوفاً من رئيسه الجديد ولكن معالي وزير الداخلية قد وعده

برياسة البعثة المنتدبة الى الحجاز لتنظيم قلم المخابرات السرية على غرار القلم السياسي المصري ، وقد بدا في حديثه القليل المنتقى انه يعلق الشيء بالشيء .
لقد فعل ممدوح الشربيني كل ذلك وهو الرجل المسلم الصادق الاسلام ، المسلم الذي قاوم اغراء استر منشة رغم حاجته اليها ، وان كان قد استعاض عنها بالحشيش لان الحشيش لم يرد في كلام السماء ما يحرمه . ثم ان الحشيش لم يكن يكلفه شيئاً لانه كان يتسرب اليه والى زملائه مما تصادره الحكومة . وقد كان وازعه الاوحد عن منكرات الحياة وهي جميلة ايمانه بالله وبالرسول . انه يقبل ان يتجسس على الوطنيين والأحرار فهذا جزء من عمله . انه يقبل ان يزعج الناس بزياراته في الهزيع الثالث من الليل ، فيدخل مخادع النساء وهن نصف عرايا ويمزق بالسونكي المراتب والوسائد كلما أمر بالتفتيش فهذا جزء من عمله . انه يقبل ان يكتب التقارير المزيفة وهو يعلم انها مزيفة فهذا جزء من عمله . انه يقبل ان يزوّر في الانتخابات وان يختطف الناخبين الموالين لاعداء الحكومة ويقصيهم في السجون أو نائي البقاع حتى يتم الانتخاب أو يحرمهم تذاكرهم الانتخابية أو يعذب المشاكسين منهم او يوزع الرشى بين العامة ، فهذا كله جزء من عمله . انه يقبل أن يقتل الوطنيين والاحرار اذا لزم الأمر وقد فعل ذلك بيده ، لا بجنوده يوم ملحمة كبري عباس ، فهذا جزء من عمله . انه يقبل أن يشتري ضمائر الطلبة في الجامعات وفي غير الجامعات ليتجسسوا على زملائهم ويفسد الجيل بعد الجيل .
كل هذا يقبل الصاغ ممدوح الشربيني أن يفعله لقاء اثنين وثلاثين جنيهاً في الشهر وتاج نحاسي على منكبيه . اما ان يطلب اليه ان يحلف زوراً فهذا ما يضطرب له ضميره . لكم ندم على فعلته اشد الندم حتى لقد زهد في غذائه حين جاء وقت الغداء . ان ركناً من اركان اسلامه قد هوى ، ولن ينقذه من عذاب الضمير الا ان تدركه رحمة الله ، فليصل وليستغفر وليصم وليحسن الى الفقراء كذلك اذا لزم الأمر . ولكن ما حيلته وقد اغراه معالي الوزير بإيفاده الى الحجاز ، وبعثة الحجاز عنده مفتاح الخلاص الابدي . فهي سوف تباعد بينه وبين حماته اولاً ، وهي سوف تباعد بينه وبين رئيسه الجديد ثانياً ، وهي سوف تنقذه من

محيط الدسائس الذي غرق فيه منذ ان انتقل من قسم الوايلي حتى اشرف على الأربعين، وتريحه من اقتحام بيوت الناس بعد منتصف الليل، ومن التلفيق بل ومن شهادة الزور . واهم من هذا وذلك فهي سوف تحل له مـــا يشتهي من أجساد النساء وان كان قد شبع من جسد المرأة. لقد قاوم إغراء استر منشة عاماً كاملاً أي منذ أقامت مع الخواجة منشة في الفيلا المجاورة ، ولم ينهه عنها الا مخافة الله وخفير المنطقة فهو من أقرباء زوجته الفقراء . كذلك قد صان نفسه عن بائعـة اللبن الحسناء الناضجة الشديدة السمرة وعن زوجة صديقه الصاغ احمد سيد احمد الذي اتلفه الميسر ومن عدد لا يحصى من البغايا وانصاف البغايا اللائي كان الشرطة يجيئونه بهن كل ليلة ايام ان كان ضابطاً بقسم الوايلي . كل ذلـــك فعله صابراً ، ولكنه الان لم يعد يصبر . لسوف يمضي الى الحجـاز ، سوف يخلص في عمله حتى ينال رضى العاهل ، وحين ينال رضا العاهل سوف يشـــد العاهل على يده ويقول : شكراً يا شربيني شكراً ، لقـــد وهبتك هذه الجارية الحبشية ، فاتقِ الله فيها . ولسوف يقطع دابر اللصوص ويعلم البدو النظـام ، ويحسن الى فقراء المدينة ، ويصلح ما بين العشائر ، فيصطفيه العاهل ويطلق يده فيمن نبذ من الحريم، ويطلق يده فيمن كره من الرجال ، ويعمره بالقلادة بعـد القلادة ، ويستشيره في كل كبيرة وصغيرة . وعندئذ يتاح له ان يلعب الدور الخطـير ، فيحمى العاهل من وكلاء الانجليز والامريكيين وسائر الكفار ، ويوطد لمصر بين الاعراب ، ولقد يتوسط في معاهدات تأتيه بشريف الأوسمة . وعندئذ يبيـع ارضه في المعصرة ويشتري بعض آبار البترول ، فلا يعود الى مصر من هــــذا الانتداب الا وقد استحق تقدير الوطن . فان لم ينل تقدير الوطن فكفاه مـا نال من جوارٍ، فان لم ينل الجواري فكفاه ما ناله متعة وما اكتسب من اختبار، فإن لم ينل متعة، ولم يكتسب اختباراً فكفاه انه استراح من حماته ومن الحكومة المصرية .

هذه كانت احلام الصاغ ممدوح الشربيني ، وقد كانت شبيهة باحلام الاطفال الكبار ، كان آخر كتـــاب قرأه في حياته « الف ليلة وليلة » . ولم يكن في طبيعته العملية وفي حياته المضنية أثر للخيال الا هذا الحلم الرشيدي المزركش ،

ولقد أمسى دائم التفكير فيه في الايام الأخيرة . حتى وهو يجالس حسن مفتاح بين أزهار الحائط الفاقعة المؤذية والكراسي الاسيوطية والسجائر المتصلة كان يعلل نفسه بهذا الحلم الذي يوشك ان يتحقق ، لعله ينسى ما كان في الصباح من شهادة الزور . ومدام ماريكا تجيئهما بالقهوة بعد القهوة ، وهي تعجب لهذا الرجل كيف لا ينصرف . والاونباشي العجوز المنتظر بالباب الخارجي قرب عربة البوليس يشتد قلقه على سعادة البيه فيصعد للاطمئنان ثم ينزل مطمئناً . والصاغ ممدوح الشربيني يروي لحسن مفتاح تفاصيل مغامرته السعيدة في قابل الايام ، ويحدثه في اكتئاب عن سروره العظيم بهذا التحول العظيم ، ولكنه يكتم عنه شوقه الى الاماء حتى لا يزدريه . ويكتم عنه قصة اليمين الحانثة خشية ان تمشي بنبئها بين الناس صحيفة « المساء » ، فيضيع منه غده الذهبي وحاضره الشقي جميعاً . وسقطت رأس القديس نيقولا فجأة من مكانها على الحائط وتحطم المصيص على البساط الفستقي ، فانقطع الحديث . وتبادل حسن مفتاح والصاغ ممدوح الشربيني نظرة طويلة ذات مغزى : فعزاها ان هنا يحسن السكوت . وهكذا صرف الصاغ ممدوح الشربيني وهو يفكر فيما تقدم من أمره وما تأخر .

وادرك حسن مفتاح بفطنته ان الصاغ ممدوح الشربيني يتعـــذب ، كما ادرك الصاغ ممدوح الشربيني بفطنته ان حسن مفتاح يتعذب . وادرك ان عذابه ليس عذاب الخفيف المألوف الذي ينسحب على سنوات بل العذاب العنيف المجتمع في أزمة قائمة تهصر النفس وتطيش الحلم . فثيابه مهملة وهو ما رآه الا آية في الاناقة ، وأظافره متسخة بعض الشيء وهو نموذج النظافة ، وقامته الفارغة متهدلة على كتفيه العريضين اللذين لم ينسيا قط تعاليم مدرسة البوليس ، وعيناه البراقتان قد انطفأتا وانكسرتا وتورمتا في وجهه الاحمر الطويل الحليق . ولكن كيف يتعذب مثل هذا الرجل ؟ انما يتعذب صاحب الضمير . ولقد ظن حسن مفتاح ان الصاغ ممدوح الشربيني ذا الجسد الصلد والكبد الصلد رجل بـــلا ضمير . كيف يتعذب الصاغ ممدوح الشربيني وهو الذي فتح في باب الغش فتحاً مبينا وقت ان انتدبته الحكومة للاشراف على انتخابات دائرة الخليفة حين خـــلا

مقعدها في الشيوخ بوفاة الالفي بك . لقد جرت العادة ان يخط البوليس على ثياب الناخبين الموالين للوفد علامات بالطباشير لتمييزهم ثم اقصائهم ، ولكن اليوزباشي ممدوح الشربيني تولى بشخصه طبع تذاكر الانتخاب ، وبعد ان طبع ما يكفي لانجاح مرشح الحكومة زعم ان عدته من الورق الابيض قد نفذت وطبع البقية الباقية على ورق احمر . ولم يفطن الناخبون الى هذه الحيلة فقصدوا الى الصناديق غافلين . وكلما تقدم صاحب ورقة حمراء ابعده البوليس بالمكروه أو ساقه الى صف البوكسفورد المنتظر في منعطف قريب ، ولولا هذه الحيلة لما غدا اليوزباشي ممدوح الشربيني الصاغ ممدوح الشربيني. فكيف يتعذب مثل هذا الرجل ؟

لقد شكا الصاغ ممدوح الشربيني الى حسن مفتاح ضآلة مرتبه، كما شكا له عمله المرهق .ولكن غيظه الأكبر كان من اليوزباشي حسان الذي كلفه سعادة المدير بتدبير المظاهرة العدائية في طنطا يوم زيارة النحاس باشا لهذه المدينة ، فقد تقاضى اليوزباشي حسان عنها من الأموال السرية الف جنيه عداً ونقداً ، وقد كان في مقدوره هو أن يدبرها بمائتين . ان الهتافين لم يزيدوا عن العشرين ، وأجرهم معروف ، فهو جنيهان عن كل رأس ، وان المتظاهرين لم يزيدوا عن خمسمائة ، وأجرهم معروف ، فهو عشرين قرشاً عن كل رأس ، فالمجموع الكلي اذن مائة واربعون جنيهاً تضاف اليها ستون اخرى للمواصلات وللاعلام وللمنشورات وغير ذلك من المصروفات النثرية ، فالعملية كلها لا تزيد بحال عن مائتي جنيه . ولكن قوائم اليوزباشي حسان كانت كالآتي : ٤٣ هاتفاً × ٥ جنيهات حاصلها ٢١٥ جنيهاً + ١١٢٠ متظاهراً × ٥٠ قرشاً حاصلها ٥٦٠ جنيهاً + ٨٣ جنيهاً ٧٤ قرشاً عن المواصلات (السكة الحديدية ولوريات وتاكسيات) + ١٨ جنيهاً و٤٠ قرشاً للمطبوعات (رقاع دعوة ومنشورات) + ٥٠ جنيهاً هي تعويض لأهل الشهيد عبد العزيز محمد الذي قتله المشاغبون من أنصار الوفد (لما كان الشهيد المذكور من أبناء الشعب الحقيقيين فهو بغير عنوان) + ١٠ جنيهات ، نفقات الجناز (أما ثمن الكفن فقد دفعه اليوزباشي

من ماله الخاص صدقة على روح الفقيد) فيكون المجموع الكلي بذلك ٩٣٧ جنيهاً و ١٤ قرشاً بالتمام والكمال تقاضاها اليوزباشي حسان لقاء مظاهرة لم تكلفه أكثر من مائتي جنيه . اهكذا تبعثر أموال الشعب يا أستاذ مفتاح ؟ ان لدافع ضرائب حقوقاً يا أستاذ مفتاح . ان البلاد سائرة الى الخراب يا أستاذ مفتاح . ثم ماذا يبرر أن تطلق يد الأبله حسان في أموال الدولة ؟ لا شيء . لا شيء الا أنه صهر اخي الرئيس الجديد . لقد كان تدبير المظاهرات يوكل اليّ في الماضي ، وكنت اتقى الله في اموال المسلمين (بعد استثناء فيلا الشربيني وثمنها نحو ثلاثة آلاف جنيه واراضي البناء في غمره والمعصرة وثمنها سبعة اخرى) حتى جاءهذا الرئيس الجديد فنشر في المكتب الفوضى والدسائس والمحسوبية . لقد كدت اؤمن بمذهبكم جماعة الشيوعيين . وهمّ حسن مفتاح ان يعترض كما كان يفعل دائماً امام البوليس بان جماعتهم جماعة اشتراكية لا جماعة شيوعية ، ولكن احزانه غلبته فابتسم مظهراً العطف مضمراً السخرية وسكت . وكان يعلم ان الصاغ ممدوح الشربيني صادق فيما يقول ، فهو لم يختلس من اموال المسلمين شيئاً ، وكل ما اختلسه في الماضي كان من حصة الأجانب والأقباط في ميزانية الدولة . كذلك حدثه الصاغ ممدوح الشربيني عن مرض ولده سليم وعن سيره في الدراسة كما حدثه عن أرض المعصرة وما ينتظره من ورائها بعد كهربة خط حلوان . كل هذا تحدث فيه الصاغ ممدوح الشربيني قبل أن يترك سجائره لحسن مفتاح وينصرف حوالي الساعة الثالثة صباحاً من ٢٢ شارع الملكة فريدة .

فقد دقت ساعة البريد الثالثة بعد انصرافه مباشرة . وكان في وسع حسن مفتاح ان ينام بعد انصرافه ولكنه خشى الا يستيقظ الا بعد الظهيرة فامتنع عن النوم وانشأ يفكر فيما كان . ولم يدرِ ايبغض الصاغ ممدوح الشربيني ام يرثي لحاله ، فهو لم يره قط ابأس منه الليلة ، فلا شك ان شيئاً ما قد حدث فزلزل كيانه ، ولعله شيء يتعلق برئيسه الجديد . ولكن ما قاله الصاغ ممدوح الشربيني لم يكن فيه ما يدعو الى كل هذا اليأس الذي برح به فبدا كالكلب المزجور واطفأ بصره القوي المتحدي وجعله كالذاهل المصدوم . ان المسكين يمزقه صراع داخلي

لا عهد له به . أتراه عذاب الضمير ؟ اتراه يندم ندم يهوذا ؟ انه يتحدث عن الحجاز حديثه عن ارض الميعاد. ولا شك انه رجل متدين صادق الاسلام ولكن من كان في مثل فطنته لا يذهب احلامه بيده ، ولا يهذي بهذه الترهات كأنه ارتد الى طفولته من جديد . ومنها يكن من شيء فقد استعان حسن مفتاح بممدوح الشربيني على الليل واشباحه ، وحين شقشق الفجر وبدأت موتوسيكلات الجيش البريطاني تقعقع في شارع سليمان باشا كان حسن مفتاح تحت الدوش يتأهب لغبار اليوم ، فقد كان يعلم انه سيخرج الى رحلة طويلة في عالم الاموات . في الثامنة يخرج الى المشرحة. في التاسعة يصل اليوزباشي شحاته منقريوس وولده جورجي وابراهيم نور الدين وربما جاء آخرون كذلك . ربما جاءت زكية حنين لتشق الثياب وتعفر وجهها بالتراب . وربما جاء حنين افندي وزملاؤه الاقربون في المكتب . ثم ينطلق نفر منهم الى وزارة التموين ليحصل على اذن بكفن ويخرجوا الى قمّاش ليبتاعوا الكفن وينطلق نفر آخر الى الحانوتي ليبتاعوا الصندوق المطلوب ثم يستأجروا التاكسي الذي تنقل فيه الجثة الى الفيوم ومنها الى اطسا ، لان آل منقريوس من الريف وينبغي ان يعودوا الى الريف . ثم ينطلق منهم من يشاء ليشهد مراسيم الدفن ويعود منهم من يشاء الى القاهرة بالقطار في ذات اليوم ، وحسن مفتاح من العائدين .

كل هذا تم طبقاً للخطة الموضوعة ، غير ان حسن مفتاح حين بلغ رمال الصحراء الشرقية واشرف من كثبانها الحمراء على المشرحة بعد الثامنة بقليل لمح ببابها اليوزباشي شحاته منقريوس وولده جورجي ملتصقاً به متعلقاً بذراعه ، وقد علم بعد ذلك انهما ينتظران هنالك منذ السادسة . كذلك وجد الممرض الاعور ذا الطاقية البيضاء المتسخة والثياب البيضاء القذرة ورأى عينه المبصرة ثابتة تبرق كأنها عين من زجاج . وبعد قليل فتح الممرض الباب واذا بابراهيم نور الدين بينهم فجأة .

وكان الممرض شديد التأثر للمصاب ففتح قاعة المشرحة ودعاهم لوداع الميت قبل ان يجيء الطبيب المتغطرس فيحول دون ذلك او يجيء ،الممرض الآخر

فيشي به لدى الطبيب . اما ابراهيم نور الدين فقد جفل ولم يدخـل ، بل ابتعد
ى ركن الفناء وفي يده جورجي الصغير . ودخل الممرض، ومن بعده اليوزباشي
شحاته منقريوس ثم حسن مفتاح ، فأصابهما دوار لكثرة مـا في المشرحة من
فورمالين . وحين اضاء الممرض النور الكهربائي تجدد فيهما الدوار ، فقد وجدا
القاعة مترامية عالية السقف ، جدرانها شهباء ، ووجدا في القاعة ستة عشر
حوضاً تحت النوافذ الرمادية المعلقة ، وبطول الجدران الشهبـاء ، وفي وسط
القاعة ، منها ستة بها جثث تسبح في الفورمالين وعشرة خاوية . ولم يكن يسيراً
لتمييز بين هذه الجثث فكلها عارية وكلها متصلبة وكلها بلون البرونز المشرب
بالبنفسج ، لولا ان واحدة منهـا كانت لغلام صغير فرمه الترام واخرى كانت
لامراة . اما الباقون فقد كانوا سواسية في الموت .

ووقف الممرض بجثة ما وانشأ يرثيهـا ، ولكن اليوزباشي شحاته منقريوس
نصرف عنه وذهب يبحث عن جثة ولده بشخصه حتى اهتدى اليها . فقد كان
فؤاد منقريوس الحليق الوحيد بين سكان المشرحة ، وكان يحمل في يمنـاه خاتم
لخطوبة ، وكان في اذنه قضم صغير ، وبكى الاب في صمت فـلم يدرِ احد انه
يبكي .

ووقف حسن مفتاح من ورائه بعد ان رأى ما رأى وهو لا يقوى على رفع
بصره من جديد ، فذهب يتأمل المربعـات الكبيرة المنسوجة في ظهر سترة
ليوزباشي شحاته منقريوس المدنية ويعجب لذوقه السقيم في اختيار الاقمشة .
و وشك لولا حرمة الموت ومرارة الموقف ان يضحك لمرأى الممرض الواقـف
بجوار الجثة الاخرى ، وقد توقف عن الترحم حين ادرك انهـا لم تكن الجثة
لمقصودة ، ولم يبدُ عليه أي ارتباك فقد تعود امثال هـذه المواقف ، ولكنه
وقف ثابتاً في مكانه لا يعرف ما خطوته التالية لان الزائرين لم يكونا من اولاد
لبلد الذين يفهمونه بل كانا من الافندية .

وخرج اليوزباشي شحاته منقريوس وخرج معه حسن مفتاح، واتجه الممرض
نحو الجثة بقدم مترددة . ولمعت عينه الزجاجية الثابتة اكثر من ذي قبل. وحين

تجمع فيها الضوء الكهربائي توهجت كأنها ماسة في بطنها حجر اسود . وحين اوشك ان يبلغ الجثة ناداه اليوزباشي شحاته منقوريوس برفق فلبى النداء وفي عينه الغيظ واليأس معاً . فهو لم ينزع الخاتم من اصبع فؤاد منقريوس ليلة الامس معوّلاً على الصباح الباكر ، ولكن هؤلاء الافندية الملاعين قد بكروا بالحضور فافسدوا عليه خطته . والاصبع منتفخ فنزع الخاتم يحتاج الى ربع ساعة ان لم يلجأ الى بتر الاصبع،وهو لا يستطيع فلا بد أن يجيب النداء حتى لا يثير الشبهات. واليوزباشي شحاته منقريوس ماكر وحازم معاً ، وهو قبل هذا وذاك من الجيل القديم ، فهو لا يتعجب لألاعيب المرض ولا يتفجع لها بل يتوقعها ويحسب حسابها ويعرف السبيل الى ابطالها . بل هو فوق هذا كله لم يكن الا نفراً في البوليس ثم ارتقى فهو من أبناء الشعب وهو يفهم أساليب ابناء الشعب . لذلك لم يثر حين ادرك مراد المرض ولذلك ناداه برفق ، ولذلك اجاب المرض النداء في غير تردد . وانتهى الموضوع وكأنه لم يكن ، والساعة لا تزال النصف بعد الثامنة . واعلن المرض أن سعادة الدكتور لا يحضر الا بعد العاشرة، ولقد يتأخر الى الظهر اذا خسر في البوكر كثيراً ، اعلن انه قد تعوّد أن يوقع على الشهادات والتصريحات في غيبة سعادة البيه ، فإذا كانت جماعتهم في عجلة فهو في خدمتهم . ولكنه لم ينبئهم ان اطلاق يده في تصريحات الاكفان قد عاد عليه ببيت صغير في بركة الرطل اشتراه باسم زوجته المولدة الحاجة نبيهة ، كما عاد على كاتب التموين الذي يمون عملاءه بالبفتة اثواباً ليبيعها المرض في السوق السوداء ، عاد على الكاتب بمصاغ لزوجته تربو قيمته على خمسماية جنيه . كذلك لم ينبئهم بأن احصاء موتى المشرحة بمدينة القاهرة قد ارتفع في عام واحد من ١٥٣٢ الى ٤٧٥٠ كلهم قتلى لا وجود لهم في حوادث لم تقع الا في اوراق المرض . وكان اليوزباشي شحاته منقريوس يعلم بخبرته ان المرض يدلي بمعلومات صحيحة، وان استخراج شهادة الوفاة والتصريح بالدفن والاذن بالكفن ووزارة التموين والقماشين وباعة الصناديق ومتعهدي النقل ، كل ذلك يقتضي وقتاً طويلاً فلم يثر اعتراضاً ، وحين نفح المرض بريال لم يشمئز المرض كعادته مع الفقراء بل شكر . وفي

الساعة التاسعة كان اليوزباشي شحاته منقريوس يجوب طرقـات القاهرة في التاكسي ، وما ان بلغت الساعة العاشرة والنصف حتى كان في المشرحة قد فرغ من آخر اجراء ، وهو دق المسامير .

وتحركت سيارة الموتى كبيرة وسوداء ، وكانت لموتى المسلمين ، لأن اليوزباشي شحاته منقريوس لم يجد لولده سيارة تحمل الصلبان وصور الملائكة وآيات الانجيل ، فلم ينزعج لهذا الأمر لأن فطرته العملية كانت لا تجـد فرقاً كبيراً بين زورق اوزيريس وزورق آمون . وانطلقت السيارة في الشوارع تقول جوانبها للجالسين في القهاوي : « يا ايتها النفس المطمئنة عودي الى ربك راضية مرضية » ، ولم يكن بها غير فؤاد منقريوس ، واليوزباشي شحاته منقريوس وقد تسرى البياض في شاربه الاصفر الكبير سرياناً ، والصغير جورجي تفيض دموعه انهاراً وحسن مفتاح وابراهيم نور الدين . اما زكية حنين فلم تأتِ ولم تشق الجيوب ولم تعفر وجهها بالتراب . كذلك لم يأتِ حنين أفندي وزملاؤه في المكتب . وارتاح حسن مفتاح لهذه النهـاية ، فقد احس بأن اقرباء الميت وحدهم يشيعونه الى مقره الاخير ، بـل احس بأن اليوزباشي شحاته منقريوس وجورجي الصغير لا مكان لهـما في هذا الموكب الخاص ، لأنها ليسا من اقارب فؤاد منقريوس ، فأسرة فؤاد منقريوس تتألف من ثلاثة اشخاص لا سواهم كانوا جميعاً يتناجون على الحشيش اليابس في الفناء الخلفي بمدرسة المنيـا الثانوية منذ عشر سنوات ، وهم فؤاد منقريوس وحسن مفتـاح وابراهيم نور الدين ، وهم الآن قد اجتمعوا ليتناجوا كما كانوا يتناجون في القديم ، وهم الآن يتناجون لآخر مرة وقـد كان ينبغي ان يتركوا وشأنهم . ولكنه رغم ذلك سر لوجود اليوزباشي شحاته منقريوس ، فلولاه لما تيسرت له العودة في المساء ليحافظ على موعده مع عايدة علم . ثم ان صاحب الشأن يحل المشكلات غير محـاسب . فمثلا قد استحال العثور على تاكسي يرضى ان يسافر بالجثة الى الفيوم ، بعد ان تبين ان سيارات جمعية الرحمـة القبطية تشتغل جميعاً بنقل الموتى الاقباط في القاهرة ولن تفرغ احداها الا قرب المغرب . فلما تعقد الامر لم يتردد اليوزباشي

شحاته منقريوس في استئجار سيارة من سيارات المسلمين . ولو ان الامر كان بيد حسن مفتاح لتورط في اشكال فني لم يدرِ كيف الخروج منه ، لان نقل النصارى في عربات المسلمين قد يأذي النصارى والمسلمين جميعاً .

كل ذلك كان حسن مفتاح يفكر فيه وهو في مدخل البنسيون ينتظر عايدة علم بين الكراسي الاسيوطية والمائدة الفستقية والبساط الفستقي والازهار الفاقعة على ورق الحائط . واكثر من ذلك فكر في النسوة الفلاحات واشباه الفلاحات اللاتي خرجن الى الكوبري الصغير القريب من اطسا - فيوم سود الثياب طويلاتها حافيات الأقدام مكشوفات الوجوه محلولات الشعور معولات عويلاً فتت قلبه تفتيتاً وهو داخل السيارة وافهمه انه قد بلغ خاتمة المطاف . فلما خرج من السيارة اشتد دق الصدور واشتركت فيه البنات الصغار ذوات الجلاليب القذرة الملوثة . ولما خرج فؤاد منقريوس سقطت امرأة مغشياً عليها (امه) وسقطت فتاة من فرط الضنى والاعياء (اخته) على أرض بعضها طين وبعضها رمل وبعضها احجار صغيرة ، وقال فلاحون مسلمون لا اله الا الله. لا اله الا الله . ولكن كل هذا بعد الصلاة ، والصلاة لم تكن في اطسا انما كانت في الفيوم ، ولم تكن في الكنيسة علانية وانما في الكنيسة خلسة ، فقد ساوم ابونا اثناسيوس قمص الفيوم اليوزباشي شحاته منقريوس على روح ولده ، وافهمه أن المنتحرين كفار لا يصلي القساوسة على أرواحهم في بيوت الله ولكنه يرضى باستثناء ولده بعد الاحتياط اللازم وفاء منه للجوار الطويل لو ان اليوزباشي شحاته منقريوس قدر هذه المجازفة واعطى « الكنيسة » عشرين جنيهاً . ولم يقاوم اليوزباشي شحاته منقريوس طويلاً ، فقد كان لا يفهم كثيراً في أمور الروح ، وهو حقاً رجل متين البنيان متين الاعصاب رفعته متانته وحدها من تحت السلاح الى مصاف الضباط المحوظين ، ولكن أربعاً وعشرين ساعة من الفجيعة والتنقل المتواصل والتوتر الذي لا قبل لبشر به قد هدّمه تماماً ففدا يسلم على طول الخط ، ولو أن ابانا اثناسيوس قد طلب اليه قميصه لنزل له عنه .

وحسن مفتاح لا يستطيع ان يلقى عايدة علم بكل هذه الأكدار في وجدانه فلا بد له اذن ان ينصرف جملة عن هذه الذكريات وان يجـــدد نفسه استعداداً للشيء الوحيد المحتمل في حياته . وحين دقت عايدة علم الجرس بعد اربعـــين دقيقة من موعدها استقبلها حسن مفتاح مبتسماً أشد الابتسام وأمسك بيدهـا وقبلها عابثاً وشدها وراءه الى المدخل حيث كانت مدام ماريكا ترفع جهـــاز التليفون وتضع الشاي على المائدة الفستقية الصغيرة،وهو شاي بلا لبن ولا كعك. وأخذ يلغو عن رأس القديس نيقولا الذي سقط وتهشم ، ويلغو عن المسكينة مدام ماريكا التي تزوجت لثلاثين عاماً خلت فرّاز اقطان توفي بعد شهر مـــن الزفاف فعاشت مدام ماريكا من بعده في عفة مؤلمة ، تغزل البـــلوفرات في انتظار زوج جديد ، ويلغو عن البنسيون وكيف انه لا يدر على صاحبته اكثر من عشرة جنيهات شهرياً ، فمدام ماريكا امرأة شريفة عجز الضباط الانجليز عن اغرائها بالاجر المضاعف ،فهي تعلم ان الضباط الانجليز اذا سكنوا بيتاً تحول البيت الى ماخور كما حدث في بنسيون السيدة خرستينا بالطابق الاعلى . وهي تعول اخاها جورج وهو في الاربعين لان ضعف القلب أعجزه عن الكسب،ومن هنا جاء عطفها على جماعة ايام .وقد كانت تعلم مباديء حسن مفتاح شيئاً كثيراً فكانت تسأله كلما فرغ اليها نصف ساعة يحدثها في مدخل البنسيون ، كانت تسأله بسذاجة دونها سذاجة الاطفال : « امتى الروس راخ تيجي هنا يا مسيو مفتاخ » ، فيضحك ويجيب : « بعد عشرين سنة . » فتقول مدام ماريكا : « يكون انا مات ، يا مسيو مفتاخ ، يكون انا مات » . وكثيراً مـــا كان حسن مفتاح يدخل المطبخ فيجدمدام ماريكا جالسة الى جوار الثلاجة تبكي احزانها كثيرة . كذلك ذهب حسن مفتاح يلغو عن زيارة الصاغ ممدوح الشربيـــني واعرب لعايدة علم عن رثائه لحاله ، فهو يتعذب ، وعن خوفه منه ، ففي كل مرة يتردد على البنسيون للتفتيش يقوم حسن مفتاح بعد انصرافه فوراً يبحث دقيق في المدخل وفي غرفته خشية ان يكون الصاغ ممدوح الشربيني قـــد ترك وراءه قطعة من الحشيش أو نسخة من منشور ثوري أعد في القلم السياسي بقصد

ضبطها فيما بعد في بيوت المضطهدين .

كل ذلك قاله حسن مفتاح لعايـــدة علم حتى يتجنب الحديث عن فؤاد منقريوس . وهي تستمع الى لغوه ودعاباته الخفيفة ، ولا تدري اتوقفه عند هذا الحد أم تتركه يسترسل فقد كانت تعلم أن فؤاد منقريوس من اخلص خلصائه ، وهي لا تفهم كيف لا يشير حسن مفتاح الى موته بكلمة . وتجدد فيها خوفها منه . ولكنها آثرت الا تفتح باصابعها جراحه فتركته يهذي على هذا النسق حتى اذا ما جاء ذكر الصاغ ممدوح الشربيني بدا عليها قلق واضح . ولمح حسن مفتاح هذا القلق في عينيها فسكت ،وانتظر منها ان تتكلم فلم تتكلم،فعاد الى هذره يقول :

– اتعرفينه ؟ لا بد ان أقدمه اليك. نعم لا بد ان أقدم اليك كل اصحابي. لقد صرنا ، ممدوح الشربيني وانا ، من اخلص الاصدقاء ،واعتقد انه لن يتركني حتى يضع يدي في الحديد . ولكن ممدوح الشربيني لا يزورني الا بعد منتصف الليل ، واعتقد ان عبد السلام بك علم لن يسمح لك بالسهر حتى الفجر . المهم، اذا شئت زرناه معاً في مكتبه في الأسبوع القادم . سوف احمل اليه أي شيء ، قفازاً قديماً ، عصاً ، منديلاً ، سوف احمل اليه أي شيء وازعم أنـــه نسيه في داري . يا له من رجل مسكين . انه شقي في بيته ، شقي في عمـــله ، شقي في ضميره انه راحل الى الحجاز لينسي متاعب مصر . هكذا يقول .

ولكن عايدة علم رأت ان تضع حداً لهذا التوتر الخفي وأن تستبـدله بتوتر صريح ، فقالت :

– كلا . أشكرك ، فأنا أعرفه .

– أتعرفينه حقاً ؟ كيف ؟ هل شرفكم بزيارته ؟

– نعم شرفنا بزيارته .

وبدا الجد على وجه حسن مفتاح لأول مرة . فقد كان يحس احساسا باطنياً بأن في حياته عاصفة منذرة . ترى هل لمجيء عايدة علم في البنسيون صلة بممدوح

شربيني ؟ ولكن لا . ان ممدوح الشربيني لم يفه بكلمة واحدة تدل على علمه بوجود عايدة علم في حياة حسن مفتاح . قال حسن مفتاح :

آسف أشد الأسف يا عايدة . لا بد اني سببت لكم متاعب كثيرة . آسف آسف . ايعرف ممدوح الشربيني أباك ؟

- كلا .

— لمَ زاركم اذن ؟ أزاركم من تلقاء نفسه ؟ متى زاركم ؟

— في الاسبوع الماضي . الثلاثاء . ليلاً .

— للتفتيش ؟

— كلا . لتقديم النصيحة . ففي الساعة الثامنة جاء ضابط طويل القامة شقر الشعر احمر الوجه كبير الانف حسن الهندام . فاهم ؟ وسأل عن ابي فادخلته غرفة الاستقبال . وفيما هو يدخل ابتسم وقال : عايدة ؟ اليس كذلك؟ قلت : « نعم » . فاهم ؟ وعجبت اشد العجب لاني لم أرَ هذا الرجل من قبل . قلت لعله من اصدقاء ابي . فاهم ؟ وحين دخل ابي عجبت كذلك لرؤيته. فاهم ؟ قلت لعله رجل جاء يخطبني للزواج ، فقد زارنا منذ عامين رجل لا نعرفه ثم تبين بعد ذلك انه جاء ليخطبني . وجلست على السرير أفكر ، وبعد خمس دقائق جاء ابي وناداني لاشترك معهما في الحديث . فاهم ؟ ولما دخلت فاهم ؟قال ابي : « هذا ممدوح بك الشربيني الضابط في القلم السياسي ، قد جاء ليحدثك في موضوع ما » . قلت : « افندم » . قال : « نحن نعلم يا مدموزيل انك مخطوبة لحسن افندي مفتاح » . قلت : « نحن لا نزال في مرحلة الكلام ، وانا لم اخطب بعد رسمياً » . فأجاب : « على كل حال نحن نفكر في مصلحتك وفي مستقبلك ، ونحن نعلم انك آنسة طيبة ومتعلمة ولا نحب ان يمسك ادنى سوء » . فاهم ؟ « لهذا جئت لأخبرك ان وكيل الداخلية أقسم بشرفه منذ عشرة ايام أن يطهر البلاد من الشيوعيين » فاهم ؟ « وانت تعرفين بالطبع ان حسن

افندي مفتاح في رأس القائمة، وأؤكد لك انه اذا دخل هذه المرة فلن يخرج قبل عشر سنوات ، ومن يدري فقد يحكم عليه بالسجن المؤبد ، فنحن نعلم انهم يتآمرون الآن لقلب نظام الحكم، وانت تعرفين أن في البلد دستوراً وان وظيفتنا هي المحافظة على الدستور ...» قلت: « وخلاصة الأمر ، ماذا تريد ؟ » قال: «يؤلمني جداً يا آنسة أن اتدخل في شئونك الخاصة، لكن من المحزن . فاهم ؟ من المحزن ان آنسة متعلمة مثلك تحطم حياتها من أجل أفّاق كحسن مفتاح » . فوقفت وقلت : « إن حسن مفتاح ليس آفاقاً . ان ظفر حسن مفتاح أحسن من القلم السياسي وكل من فيه » . وكنت ارتجف . كنت ارتجف يا حسن . وبعد وبعد ان قلت ذلك ندمت على تهوري . فاهم ؟ ولكن الغريب ان الضابط لم يغضب ، بل ضحك وقال : « هذا جائز يا آنسة . لكن هدئي أعصابك . ارجوك ان تجلسي . انا أقصد أن هذا الزواج خطر عليك فاعدلي عنه ، ونحن نفكر في مصلحتك وحدها » . جلست وقلت : « انا أعرف منكم بمصلحتي ولست بحاجة الى من يدلني عليها ،ثم ان هذه امور خاصة ليس لأحد أن يتدخل فيها ». قال :«على كل حال فكري في الموضوع ».قلت :«انا فكرت وانتهيت من التفكير » . قال ، فاهم ؟ « لكن هذه ليست رغبة السيد الوالد ». قلت: « قلت انابي لا يوافق على هذا الزواج ولكنه لايعترض على تصرفاتي الشخصية فكيف يجوز لغريب مثلك ان يهددني » . وكان الرجل بارداً كانه لوح من الثلج. انا لا أعرف من أين لهم هذه الأعصاب يا حسن . المهم . قال : « بردون يا مدموزيل . انا لا اهدد . انا انصح » . قلت : « على كل حال اشكرك على النصيحة ، وانا لست بالقاصر فانا أقدر جميع اعمالي « . فنظر الى أبي كأنه يستنجد به . فاهم ؟ فقال ابي : « انا أجد كلامه معقولاً يا عايدة . افرضي انك تزوجت منه بعد ستة اشهر ثم حكم عليه بعد ذلك بالحبس عدة سنوات ، فماذا يكون الحال ؟ » .فلما رأيت ابي ينتصر له ثارت ثائرتي وقلت :«لو حدث شيء من ذلك اعتقنت مثله الشيوعية ودخلت مثله السجن » فاهم ؟ فلما رأى الضابط ان الكلام لا يجدي تناول طربوشه وصحيفته من على الكنبة ونهض قائلاً : «على

ـ حال انا قمت بواجبي . ثم ان هناك مسألة أخرى يا مدموزيل » . فاهم ؟
ـت مدرسة تحت اشراف الحكومة ، والحكومة يهمها ان يبتعد موظفوها عن
ـقيل والقال . ثم ان عبد السلام بك قد بقيت امامه ثماني سنوات من الخدمة في
و زارة الاوقاف، ويحسن ان يقضيها في سلام. انا آسف ياعبدالسلام بك على ازعاجك
ـ محرج يا مدموزيل ، صدقيني ، صدقيني ، انا أنفذ اوامر علي . محرج. محرج. »
بعد ان خرج دخلت امي واخي هدايت واجتمعوا عليّ في هيئة كونسولتو .
فلم أجد أمامي الا البكاء . وحين انهكني البكاء آويت الى فراشي ونمت. وهكذا
صبحت ايامي كلها شجاراً في شجار . هذا هو صديقك الشربيني .

واستمع حسن مفتاح الى كل هذا في هدوء ، فقد اضطرب لحظتين حـين
ـدأت عايدة علم تروي روايتها وادرك نهايتها من مطلعها ، ولكنه وجد الوقت
الكافي لضبط نفسه . وعاد بخيـاله الى زيارة الصاغ ممدوح الشربيني التي بدأت
بعد منتصف الليل وانتهت نحو الثالثة صباحاً ، وتذكر كل كلمة فاه بها فلم يجد
في حديثه اية اشارة الى ما كان قد فعله مع آل علم . انه لم يكن يعلم انـه على
هـــذا القدر من الختل والدهاء . انه لم يكن يعلم انه على هذا القدر من الخسة
و الدناءة . انه يفعل كل ذلك باسم الواجب . ولكن لعله معذور في كل ما يفعل
فهو عبد مأمور أو عبد المأمور . ولكن أي عذر له سوى حرصه على مرتبه ؟
ـه يفعل كل ذلك لقاء اثنين وثلاثين جنيهاً . أو ليس هذا عذراً كافياً ؟ ولكن
الصاغ ممدوح الشربيني ليس بحاجة الى مرتبه ، فلقد نهب من مال الدولة ما يغنيه
عن القيام بمثل هـذا الواجب الثقيل . ثم كيف يعلم حسن مفتاح ان الصاغ
ممدوح الشربيني قد كلف بهذا الواجب تكليفاً ولم يتطوع لادائه طمعاً في نجمة
و في علاوة او في مكافأة ؟ اليس هـــذا هو الارجح ؟ ولكن ما قيمة كل هذه
الافكار ؟ اليس الصـــاغ ممدوح الشربيني محض ترس صغير في الآلة الجهنمية
الكبرى ؟ نعم . ان حسن مفتاح يمهد لتحطيم الالة الجهنمية الكبرى ، فكيف
يحفل بهذا الترس الصغير ؟

وابتسم حسن مفتاح حين فرغت عايدة من حديثها وقال :

ممدوح الشربيني في بدلته العسكرية لقد فاتني هـــذا المنظر . إن ممدوح الشربيني لا يرى الا في الملابس المدنية . لعله أراد أن يخيف عبد السلام بك علم بالازرار النحاسية .

وعجبت عايدة علم لهذه البساطة التي استقبل بهـا حسن مفتاح الموضوع . وغضبت غضباً شديداً مهد له انفعالها وهي تقص قصتها . ان حياتها المحدودة لا مجال فيها للبطولة ، ولكنهـــا رغم ذلك قد دافعت عن حسن مفتاح دفاع الابطال ، وقد كان ينبغي ان يقدر ذلك فيها فيهوي على يدها تقبيلاً ويمطرها بكلمات الوفاء وعبارات الامتنان ، ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً . لقد جشمها حسن مفتاح فوق ما تحتمل ، فهي لا تعرف صديقة من صديقاتها استطاعت ان تقول لأبيها : « اني احب فلان » . او « اني سأتزوج من فلان » ، فأقصى ما تعرفه صديقاتها من الحرية هو ان يقلن لآبائهن : « اني لا احب فلان » او « اني لن اتزوج من فلان » . وأبوها المسكين صابر عليها ، لا لشيء الا لأن امها قد ثارت منذ ثلاثين عاماً على اسرتها في ظروف متشابهة وتزوجته رغم انف الجميع ، فهو يعرف ما الحب وهو يعرف فورات الشباب . انهـــا تعرض سمعتها ومستقبلها ومستقبل أخيها الغلام هدايت للضياع من أجل حسن مفتاح ، وكل ما تظفر به لقاء هذه التضحية الكبرى ابتسامة وعبـارة عابثة . ان هذا لا يطاق . لقد كانت ابتسامة حسن مفتاح مريرة يشوبها يأس عظيم ، وفطنت عايدة علم الى ذلك ، ولكنها قالت غضبى :

ـ أنت لا تحبني يا حسن ؟

قال هادئاً :

ـ لمَ تقولين ذلك ؟

ـ يبدو عليك أنك لا تكترث بالموضوع .

فعاد اليه الجد وقال :

ـ مطلقاً . لقد أساءت الفهم .

وامسك بيدها وضغطها ضغطاً مبرحاً وأضاف :

- وهل ينفع الكلام ؟

وقرأت في وجهه أنه يتعذب عذاباً دونه عذاب الجحيم ، واجتمع اليأس في عينيه فزاغتا ، وخيّل اليها أنه لا يرى شيئاً ، فندمت على ما بدر منها ، وعاد اليها حنانها القديم ، وانتابتها نوبة غريبة فاقتربت منه بسرعة وقبلته على شعره قبلة عصبية قصيرة ثم تهافتت في مقعدها واجهشت بالبكاء . واطلت مدام ماريكا من باب المطبخ برأسها لحظة لتقف على ما يجري ثم دخلت واقفلت البـــاب . وسعى حسن مفتاح الى عايدة علم وجلس على ذراع الكرسي الاسيوطي ومضى يطيب نفسها بعذب الكلام ويقبل شعرها الأسود الخشن بحنـان لم تعهده فيه ابداً . وأحس بضعفه الشديد ، ولكنه لم يخجل من ضعفه فترك رأسه ملقى على شعرها زمناً حتى عاد اليها هدوءها وعاد اليه هدوءه ، فدفع برأسها الى الخلف وقبل فمها قبلة طويلة ثم عاد الى مقعده وبدأ يدخن . واخذت عايدة علم تؤكد حسن مفتاح انها عنيدة اذا رغبت في العناد، وانها سوف تقاوم اسرتها والحكومة والعالم اجمع اذا لزم الأمر لو علمت ان حسن مفتاح يحبها حقاً، وأنه سوف يحبها دائماً . وكانت هذه أول مرة يتحدثان فيها عن الحب صراحة ، فوجدت عايدة علم لسانها يجري بهذه الكلمة في يسر شديد ولم يحمر خداها فيفتق دمها السمرة الاصيلة كما كان يحدث كلما تهيجت فيها خواطر الجنس ، فلقد تهيجت فيها خواطر الجنس لغير ما سبب الا القبل ، واحست بانها في حضرة رجل قوي يثير غريزتها وينبه فيها الاشواق ، ولو انه احب ان يتزوجها في هذا المساء بالذات لما ترددت قـط . ثم عادت الى حالتهـا الطبيعيـة ، وكانت تنتظر منه جوابا على قولها ، ولكنه لم يقل : « انا أعبدك ياعايدة ، ولسوف أكرس حياتي لاسعادك فلنتزوج غداً ولتفعل بنا المقادير ما تشاء » ، بل قال ان عايدة علم اطيب البنات قلباً وأرقهن نفساً ، وان عايدة علم تستطيع ان تعطيه كل ما يطمع فيه من سعادة وان عايدة علم تستحق ان ترى سعادة وهناء ، وان حسن مفتاح كان يتمنى ان يكون هذا الرجل الذي يسبغ عليها ما تستحقه من سعادة وهناء ، ولكن حسن مفتاح رغم نواياه الطيبة مضطرب الحياة سيء الظروف ، وحسن مفتاح راض

باضطراب احواله وسوء ظروفه لأنه صاحب هدف في الحياة، ولكنه لا يرضى لاحبائه ان تضطرب حياتهم وتسوء ظروفهم لقاء وفائهم له . حسن مفتاح وعايدة علم . كلا : ان هذين الاسمين لم يردا معاً في كتاب القدر .

وكانت هي تستمع الى حديثه بانتباه شديد . واطمأنت نفسها درجة درجة حتى استردت شيئاً من بشرها القديم . وكان حسن مفتاح يتوقع كل ذلك، فقد قرأ صفحة نفسها من قبل كما يقرأ كتاباً مفتوحاً . كان يعلم ان عايدة علم تريد ان تلعب دوراً لم تخلق له ، ان تقدم على عمل من اعمال البطولة لا قبل لها به ، فهي قليلة الاختبار في الحياة ، وهي ذكية الروح تتمسك بالمثاليات كأنها لاتزال في دور المراهقة ، فلقد كبر في نفسها ان يقال انها غدرت بصاحبها تحت ضغط مادي أو أدبي . بل لقد كان حسن مفتاح يعلم انها لا تحبه كما ينبغي ان تحب الزوجة زوجها بل تحبه حباً كحبها لها ، ولقد اشتد اشفاقها عليه حين رأت الذئاب تتجمهر حوله ، فهو الآن احوج الى العطف منه في أي وقت مضى ، وهو العليم بذلك فهو لا يغتنم فرصة ضعفها . وهو يعلم انها تود سراً أن يعفيها من هذه البطولة التي لم تخلق لها لكنها لا تحب ان تعترف بهذه الحقيقة أمام نفسها . فليحرمها اذن من هذه البطولة غير المأمونة العواقب . ان يقنع منها بالعطف فهل تقنع هي منه بالعطف كذلك ؟ ثم الامَ يدوم عطفها عليه ؟ لو انه كان كاتباً بمصلحة المساحة سويّ النفس محدود الفكر مألوف الاطماع لجاز ان يدوم هذا العطف الى يوم المات ، ولقد يتحول بعد حين الى حب مكين . ولكن حياته قلقة وعيشه مضطرب وامنه مهدد ومشاغله لا حصر لها وجهوده فذة لا تحتملها الا النفوس الكبار اذ لا تفهمها الا النفوس الكبار ، ولن ترضى بهذه الحياة الا امرأة تحبه حباً مدمراً عاصفاً يجعلها تستعذب العذاب في كنفه . فمن قال ان عايدة علم من ذوات النفوس الكبار ، ومن قال انها تحبه هذا الحب العاصف المدمر ؟ انها سوف تسقط في منتصف الطريق . وهل نسي حسن مفتاح ايام المعتقل ؟ لقد قضى فيه قرابة سنه منها ثلاثة اشهر متنقلاً بين تخشيبة المحافظة

و سجون الاقسام وسجن الاجانب دون تهمة واضحة، ثم اقصي اخيراً الى معتقل
سيا بحجة خطرة على الأمن العام في سنوات الحرب . ان عايدة علم لم تزره مرة
واحدة . كذلك لم يزره شركاؤه في العمل او اتباعه الاقربون ، وهو يفهم
متناعهم بل ويحضهم عليه حضاً فمن زاره اذن ؟ زارته ندى ، خادمته القديمة
و على الاصح خادمة أسرته ، زارته بانتظام مرة كل اسبوع ولم تتخلف اسبوعاً
واحداً ، وحملت اليه الطعام كل يوم أو ارسلته اليه من مالها الخاص لتعفيه من
طعام السجون ، وأرسلت اليه السجائر من مالها الخاص كذلك . ان عايدة علم
اقل شجاعة من ندى . لكم حزن حسن مفتاح لهذا التخلي . ولكم غضب . ولكنه
كان يجد الراحة دائماً في الموازنة بين اخلاق البرجوازية واخلاق البروليتاريا ،
فيكف عن ملامة عايدة علم ويزداد ايماناً بمعدن الطبقة العاملة . وحين افرج
عنه بعد اعتقاله الاخير ، من دفع كفالته ؟ ان عايدة علم لم تدفع كفالته ، كذلك
لم يدفع كفالته ابراهيم نورالدين أو صفوان أو الجيار أو قلادة أو نعيم ، فأكثرهم
كان مشتتاً في الارض أو يكابد الحرمان . وانما دفعت كفالته البنت ندى .
باعت سوارها الوحيد الذي تجمع فيه عرق خمس سنوات من الخدمة المضنية ،
باعته بخمسة عشر جنيهاً . ولما اعيتها الحيلة باعت نفسها للسكارى الجنود
البريطانيين لتتم الثلاثين وتشتري حرية حسن مفتاح. باعت نفسها مرة في ميدان
الملكة فريدة تحت ساعة البريد ، ومرة في شارع فؤاد أمام الامريكين الجديد ،
ومرة على ناصية شارع فاروق بجوار بائع اللبن العجوز . فأين عايدة علم من كل
هذا ؟ لقد فكر حسن مفتاح في الزواج من ندى بعد خروجه من المعتقل
فوراً ، ولكنه عدل عن ذلك لعلمه بأن ندى لا تقرأ ولا تكتب ، وهي قد
قاربت العشرين فتعليمها لا ينبت شيئاً . نعم . اين عايدة علم من كل هذا ؟
ولكن حسن لا يحب ان يقسو على عايدة علم ، فهو يعلم ان ظروفها دقيقة ،
وهو يعلم ان تخليها عنه في محنته جاء ضعفاً منها لا غدراً . وها هي ذي الآن

تعرض عليه تضحية لا قبل لها بها ، ولا شك انها سوف تتحامل على نفسها ما امكنها ذلك ، ولكن نفسها رخوة لم تتفتح لعظيمات الحوادث ولا تطيق الآلام الجبارة . ولقد ترضي عايدة علم في قابل الايام بما قسم لها كما تفعل غيرها من نساء الوادي وتشكو الى الله احزانها ، ولكن حسن مفتاح لا يرضى بان تكون سعادته على حساب هذا الملاك الهش الوديع . ولقد تمشي رخاوتها في صلابته فيغير مجرى حياته ويلتمس السلامة ضناً بها أو حباً لها ، وهو لا يرضى أن يخون قضيته لقاء هناء المحبين أو سلامة المسالمين . حسن مفتاح وعايدة علم . كلا . إن هذين الاسمين لم يردا معاً في كتاب القدر . ولو قد وردا لوجب محوهما تماماً .

وكان ما توقعه حسن مفتاح . استردت عايدة بعض بشرها القديم ، وخيل اليها انها اقتنعت ، وهي لم تكن بحاجة الى اقتناع بل كانت بحاجة الى اقناع. ولو ان حسن مفتاح صرخ في وجهها قائلاً : « من تكونين يا ذات الطبيعة اللدنة والافق الضيق والقلب الضعيف . ما انت الا حمل في وادي الذئاب ، فما عهدك بالكفاح وما علمك بالمكافحين » ، لو ان حسن مفتاح قال هذا واكثر منه لما غضبت عايدة علم بل لاطمأنت نفسها ورجع اليها السكون . فلقد كانت كالفأر السجين في مصيدة من العناد والكبرياء وشيء من المثاليات ، ولقد فتح لها حسن مفتاح باب المصيدة ولكن حسن مفتاح رغم غرامه بالمسرحيات لم يقل من ذلك شيئاً ، وانما صرف صاحبته بالتي هي احسن ، فطوى حزنه الجديد بين جنبيه وتكلف خلو البال ، وعاد يلغو بما كان يلغو فيه حين اقبلت عليه نصف ساعة أو يزيد ، ويداعبها بصوته الرخيم ويضحك ملء رئتيه كأن حياته قد خلت من الغيوم. وادركت عايدة علم ان حسن مفتاح يتعذب عذاباً بلا حدود تحت هذا القناع الثقيل من المرح والاستخفاف . وكانت هذه اول

مرة ادركت فيها عايدة علم ان حسن مفتـاح يحب ان يتعـذب على انفراد ، بعيداً عن فضول الناس. فوخز قلبها الم ضارٍ كأنه سكـين مشحوذ ، ولكنهـا تشبهت به فتكلفت المرح والاستخفاف ، وانفتح قلبها له بعد حين واوشك ان يحتويه ، لولا انه نهض واقتادها الى الباب وودعها الوداع الأخير .

٣

مر شهر ونصف شهر ، وحسن مفتاح في شغل عن الدنيا بالعمل ، فلم يذكر عايدة علم الا لماماً ، وان كان قــد قابلها مرتين احدهما في شارع سليمان باشا أمام الناشونال هوتيل والاخرى في نادي سيدات القــاهرة حيث كان على موعد مــع السيدة منيرة منير سكرتيرة الحزب النسائي . وفي كل مرة كان شديد الادب يحيي ويجامل ولا يحرج. وفي كل مرة يتذكر ماضيه القريب ايام ان كانت السعادة تدنو منه ولا تدنو. انه الآن راضٍ بخلوّه المطلق من كل عاطفة شخصية. ولكنه يعلم كذلك أن الخلو من كل عاطفة شخصية سوف يفتت في قلبه معنى الحياة لو استطال .

وكان الليل قد تقدم حين دخل حسن مفتاح على اعضاء اللجنة المركزية وفي يده زجاجة من البرندي وفي الاخرى ملف فيه ارقام واسماء بلدان وكلام بعضه ذو معنى وقصاصات من الصحف وبعض الاوراق المطبوعة على الآلة الكاتبة . وكان يعتقد انه مراقب بصورة متصلة ، ولذلك تعمد ان يحمل الزجاجة نصف مكشوفة للناظرين . وحين بلغ ٤٠ شارع سليمان باشا توقــــف عن السير وتردد طويلاً وهم بالدخول . ولكنه لم يدخل بل ذهب يحملــق كالابله في رقم المنزل فقد جذب الرقم بصره بقوة سحرية ، ويقرأ اللوحات المعلقة على جانبي الباب

فلم يجد بينها ما يعرفه . وعجب لامره وعاد يفكر في افكاره الغريبة منذ الصباح الباكر ، بل منذ الفجر ، فقد استيقظ من نومه على لحم مشوش . رأى في المنام بونابرت يلبس قبقاباً وجلباباً ويسير في حديقة الصاغ ممدوح الشربيني ويهيب بحسن مفتاح قائلاً : ان اربعين يوماً تطل عليك من فوق الاهرام ، ورأى ورأى الصاغ ممدوح الشربيني في ملابس النساء يبكي بركن الحديقة ، ثم رأى علي بابا في ملابس محمد باشا يقتحم باب الحديقة شاهراً سيفه والاربعين لصاً يتسلقون جدرانها حاملين الخناجر ، ولم يعرف ان كانوا يطلبون بونابرت ام يطلبون الصاغ ممدوح الشربيني . ثم استيقظ من نومه فزعاً وذهب يتأمل القط الأسود المصنوع من المصيص المطلي ، القط القابع على الكومودينو كأنه نمر صغير ، وذهب يتأمل صورة البنت العارية ذات الشعر المحلول والفخذين الوردتين المعلقتين فوق الكومودينو فذهب عنه جزعه ، وخرج من فراشه ليستحم بمياه ديسمبر الباردة ، ولكنه قرر ان يعدل عن حمام الصباح .

واجتاز حسن مفتاح الطريق ودخل ١٣ شارع سليمان باشا وامر الخادم بان يبتاع شيئاً من المخلل فيه بصل كثير وشيئاً من الجبن وشيئاً من الثلج وان يدخل على الاساتذة المحتفلين بالمزة والاكواب . وكان اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي هم مجلس ادارة « نادي البعث » إلا اربعاً : كانوا صفواناً وغايات ممدوح والجيار وسعدية الطويل وبطرس قلاده ونعيماً ، ومع هؤلاء حسن مفتاح . اما نور الدين والسيد علي وفتح الله فقد استبعدوا من اللجنة المركزية استبعادا ، الاول لما ابداه من جبن حين اعتذر عن الترافع في قضية البرت روزنشتاين والثاني لثرثرته والثالث لادمانه الحشيش . اما المكافح القديم عزمي فقد ثبت بالدليل القاطع انه يعمل لحساب البوليس السياسي ، ولم يكن لهؤلاء الاربعة علم بوجود اللجنة المركزية ، وكانوا يستبعدون بانتظام في اطراف القاهرة ان بالدعوات وان بالمهمات كلما انعقدت اللجنة المركزية حتى لا يهبطوا الدار والاجتماع دائر ، فان لم يتيسر استبعادهم جميعاً انعقدت اللجنة المركزية أما في ٢٢ شارع الملكة فريدة ، واما في الهرم بدار لعلي علوي ، وهو مدرس

بالجامعة ، يشرف مسكنه على ترعة المريوطية .

ومضت عنايات ممدوح تترجم الاجندا من الشفرة الى الكلام المفهوم، فعرضت اقتراحاً لصفوان يضم ستة عشر خلية جديدة ، ثلاث منها في الحوامدية وثلاث في المحلة الكبرى واربع في القاهرة متناثرة ، فقررت الجماعة قبولها جميعاً بعد ندب الجيار لتنسيق العمل بين هذه الخلايا وتنظيم أرقامها، وتحصيل الاشتراكات المتأخرة من الخلايا الأخرى . ثم عرضت عنايات ممدوح اقتراحاً تقدمت به للمرة الرابعة بضم أحمد عزمي الى اللجنة المركزية ، وكانت الجماعة تعرف ما تكنه السكرتيرة من حب لأحمد عزمي ، فاهتزت الرؤوس ورفض الاقتراح باجماع الآراء مع ابداء الثقة التي لا حد لها بالسكرتيرة (ضحك) فاحمر خدا عنايات ممدوح وطالبت بالكف عن هذه الدعابة ، ولكنها لم تحاول ان تدافع عن صاحبها أحمد عزمي . وفيما هم كذلك دخل الخادم حاملاً الثلج والجبن والمخلل والأكواب فتعالى اللغط بين المجتمعين . وانصرف الخادم وذهب صفوان يوزع الشراب . فاذا الشاربون أربعة هم حسن مفتاح وصفوان الجيار ونعيم . ثم تلت عنايات ممدوح اقتراحاً لحسن مفتاح بفتح مدرستين جديدتين إحداهما في العباسية والاخرى في بولاق يدير الاولى الطيار مسعود وتدير الثانية الدكتورة سميرة خلوصي فوافقت الجماعة على الاقترح . كذلك قررت الجماعة ندب الجيار للتحقيق في تقصير بعض الخلايا الجامعية في السيطرة على حركة التعليم المجاني ودعوة علي علوي وروزنشتاين الى الانضمام نهائياً وبصفة شخصية الى اللجنة المركزية ومفاوضة روزنشتاين في تحديد اعانته الشهرية ، وتكليف نور الدين بكتابة كراسة في الصهيونية ، ونقل اختصاص الصحيفة السرية وسائر شئون الدعاية من يد الجيار الى يد صفوان ، ورفع ثمن الصحيفة الى نصف قرش ، وتوحيد مكتبات الاعضاء واخفائها في بيت علي علوي اذا كرر اعتذاره عن الانضمام الي اللجنة المركزية أو في بيت آخر يحدده

صفوان في حالة انضمام علي علوي . وكذلك قررت الجماعة دفع اعانة شهرية للجيار قدرها ثمانية جنيهات حتى يجد عملاً جديداً .

وكان حسن مفتاح يكثر من الشراب ويسرع فيه ، فما ان بلغت الجماعة هذه المرحلة حتى فتح الملف الذي يحمله وذهب يتصفحه بإمعان وقد تنبهت جميع حواسه ، وتركزت الانظار على حسن مفتاح ، وأخيراً رفع رأسه وقال ان علي علوي قد جاءه يسعى في سبيل الوحدة للمرة الثالثة . فأرتفع اللغط ثم تلاشى ، وعاد حسن مفتاح الى ملفه لحظة وقال : إن الحزب الشيوعي لم يمر في في يوم من أيامه بمرحلة أخطر من هذه المرحلة ، وإن شيئاً كثيراً من التسامح والمرونة وانكار الذات يلزم الجميع قبل القيام بالخطوة التالية . إن علي علوي على حق ايها الزملاء ، وهو لم يفاتحني في هذا الصدد إلا بعد ان استوثق من الجماعات الاخرى . ولو استطعت اقناعكم ايها الزملاء بضرورة الاتحاد لاحتفلت الليلة بأسعد يوم في حياتي . نحن مقبلون في القريب العاجل على أعمال جسام أيها الزملاء، فالحرب توشك ان تنتهي والحزب ينبغي أن يخرج الى سطح الارض فهل عدتنا تكفي لذلك ؟ كلا ، لان عدتنا لا تتجاوز اربعمائة خلية فيها الفا عضو نصفهم ناقص الوعي ، وتحطيمنا أهون من الهوان ونحن متفرقون . أنا لا أشك ايها الزملاء في قوتنا ، فالمستقبل لنا رغم أنف المقادير ، وسنة التطور الجبري سوف تجعل نصرنا محققاً ، ولكن النصر لا يكون إلا لاهله ، ولن نستأهل النصر الا يوم ننتصر على أنفسنا ، ولن ننتصر على أنفسنا الا اذا تناولنا الايدي الممدودة نحونا وطوينا أسباب الخلاف ، فما هي بأصيلة . وما تعزيف الخلاف الاصيل أيها الزملاء ؟ الخلاف الأصيل ايها الزملاء لا يكون إلا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب ؟ فهل منكم من يستطيع ان يزعم أن علي علوي من اعداء الشعب ؟ كلا . ولكنكم رغم ذلك قد جافيتموه لانه ينقح الماركسية . هو عندكم شكاك منحرف وانتم عنده جهلة متزمتون ولكن التنقيح لا يرادف الانحراف دائماً، والصلابة في

الرأي ليست من التزمت في جميع الاحايين . الخلاف الاصيل لا يكون الا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب . فهل منكم من يستطيع ان يزعم ان رامزاً وجماعة الأحرار من أعداء الشعب ؟ كلا . ولكنكم رغم ذلك قد جافيتموكم لانهم في ثورة دائمة ، يثقون بالطبيعة الانسانية اكثر مما ينبغي . هم عندهم حالمون وانتم عندهم خونة متهاونون، ولكن الثورة الدائمة تفتت التحجر الاجتماعي والمهادنة تحفظ للأشياء طاقتها ، وكلاهما لازم ، فما السياسة الا أحلام عملية ، او هكذا ينبغي أن تكون . الخلاف الاصيل لا يكون الا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب . فهل منكم من يستطيع ان يزعم أن الصواف وجماعة التطور من اعداء الشعب ؟ كلا . ولكنكم رغم ذلك قد جافيتموهم لأنهم في حذر دائم ، لا يثقون بالطبيعة الانسانية الثقة الكافية أو يمقتون العنف مقتاً غرزياً . هم عندكم رعاديد مثبطون وانتم عندهم متهوسون مخربون . ولكن هدفكم واحد وهو إقامة نظام لا يتسع الا لطبقة واحدة هي طبقة العاملين الكادحين ووسيلتكم واحدة هي تأميم وسائل الانتاج . نعم ، ايها الزملاء ، ان الخلاف الاصيل لا يكون الا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب ، وليس بين هذه الشيع المتفرقة من هو أقل ايماناً بالشعب منكم » ولن يكون للشعب بينكم اعداء ما دمتم خارج الحكم ، فاقطعوا معاً كل الطريق او فاقطعوا بعضه اذا تعذرت الوحدة الكاملة ، واذا ما وليتم الأمر بين الناس فليلزم كل مذهبه ، ولسوف يصنع التاريخ أهلوه ولسوف يصطفي الشعب ابناءه الواعين . والتقارير بيدي تقول ان للاحرار نحو مائة وسبعين خلية اكثرها بين المثقفين وان لجماعة التطور خمسين أخرى يقوى بها عضدنا حتى تكون الساعة الفاصلة . فاذا ما انضم علوي وروزنشتاين الينا نهائياً بلغ اعضاء الحزب الشيوعي اربعة آلاف عضو عامل على وجه التقريب ، وهكذا نستطيع ان نخرج الى النور ، وهكذا تتحول خلايانا إلى لجان تقول في وضح النهار ما تقوله الآن في الظلام . واني اطلب الآن تفويضكم لتحقيق هذه الجبهة ، بل هذا الكل المتماسك ، واقترح ان يكون الاساس في كل تفاهم اعلان المسائل المشتركة بين الجميع واغفال كل

تفصيل يثير الشقاق ، فاذا ما جد خلاف بعد تحقيق الوحدة خضعت القلة لرأي كثرة، مهما تكن خطورة ذلك الخلاف، مع احتفاظ الأقلية بحقها في الامتناع. حتى لا تتصدع الجبهة في كل مناسبة . وبعد ان يوقع الجميع هذا الميثاق نعد عدة لظهور الحزب الشيوعي صبيحة الغاء الأحكام العرفية في البلاد .

كل ذلك قاله حسن مفتاح والجماعة من حوله صامتة ، وكان يتصبب عرقاً ثناء الحديث فنزف اكثر ما شرب من البراندي وبدا عليه الضيق الشديد وقلة لاستعداد للمناقشة رغم سماحته العظيمة . فقد كانت هذه هي المرة الثالثة التي يثار فيها مرضوع الوحدة ، ولم يبدُ على وجوه زملائه مـــا يدعو الى التفاؤل. فعنايات ممدوح قد طال وجهها وذهبت تخطط في ظهر الاجندا رسوماً خرافية . ونعيم قد انصرف عن الاستماع بنقر المائدة آناً وبقضم اظافره آناً آخر. وبطرس فلاده قد ارتسم الشك على محياه وحملق في حسن مفتاح كأنه يحملق في الفراغ الابيض . وحين بدأ الزملاء يعترضون لم يجد حسن مفتاح في نفسه الرغبـــة في المجادلة ، ولولا ان صفوان قد حل محله في الدفاع عن الوحدة لطلب تأجيل المناقشة .

ولكن صفواناً لم يكن الظهير الوحيد فقد كان الجيار كذلك مؤمناً بوجوب الوحدة ، والجيار قوة كبرى اينما اتجه ، فهو قليل الكلام ولكن لكلامه وزناً يحسه الجميع . وتشجع بذلك حسن مفتاح وعاد يدافع من جديد . قال ان هذه خطوة مأمونـــة العواقب ، لان التمثيل في اللجنـــة المركزية سوف يكون بنسبة خلايا أي ١ للتطوريين و ٣ للاحرار و ٥ للجنة المركزية ، فالاغلبية لا تزال في يدهم اما علوي فهو لا يمثل إلا شخصه فهو عضو بلا صوت والخطر من انحرافاته المذهبيه محدود ، لان روزنتشتاين اقرب اليهم منه . قـــال ان الوقت قد حان للتحرش بالاخوان المسلمين واشهار افلاسهم بين النـــاس ، وهو لا يستطيع ان يتحرش بهم بأقل من اربعة آلاف تابع . قال ان عضوين من اعضاء اللجنـــة

المركزية زائدان عن الحاجه في النظام الجديد ، وهو يرجو ان يتنحى العضوان بدلاً من عملية الاقتراع حتى تكون هيئتهم مضرب المثل في انكار الذات، كذلك قال ان هذه آخر مرة يعرض فيها موضوع الوحـــدة ، فان اصرت الهيئة على التفكك فسوف يخرج الامر من يدها لان جماعـــة الاحرار تعد العدة لاعلان الحزب الشيوعي بمفردها بعد انتهاء الحرب . ثم شرب حسن مفتاح ما تبقى من براندي ونهض قائلاً انه يترك اللجنة طلباً للهواء المنعش وسوف يعود بعد ربع ساعة لشهود الاقتراع . وحين انصرف احتدت اصوات الزملاء ، فابتسم حسن مفتاح ، ولطمه الشتاء في سليمان باشا ، فزال عنه بعض الحذر وذهب يتحدث في سماحة الى بواب العمارة النوبي ، ويسأله عن اجره وعياله ، وكان يعلم ان عم حمدون هذا يتقاضى ثلاثة جنيهات كل شهر من القلم السياسي لقاء تقريراتـه الشفوية ، فزوده حسن مفتاح ببعض الانباء الزائفة عن الست عنايات وكيف انها ستتزوج من شاب مسيحي، لعله يحمـــل الانباء الى سادتـه ونفحـــه بعشرة قروش ثم دخـل وتركه يلهث عجباً من فجور البنات في هـذه الايام .

وعاد حسن مفتاح الى المجتمعين ، وبعد ان هدأ اللغط اجرت عنايات ممدوح الاقتراع فاذا للوحدة اكثرية مطلقة . ووقف نعيم واعلن تنحيه راجياً الا يناقش ثم وقفت سعدية الطويل واعلنت تنحيها راجية الا تناقش، فشكر حسن مفتاح لهما اخلاصها الماضي ونبالتهما الراهنة بين الحماسة والضجيج ، وخطت عنايات ممدوح بعض الكلمات ثم طوت اوراقها وانصرفت ، وحـــين بلغت الباب الخارجي ألقت على البواب التحية ، فلم يجب عم حمدون بل دنا منها وامسك بذراعها قائلاً : « عيب يا ست عيب » قالت : « عيت ايه يا عم حمدون» ، فقال: « يعني المسلمين خلصوا من البلد ؟ يا رب كريم ، موتنا على دين الاسلام ، يا رب يا كريم». قات عناياتممدوح هازلة : « آمين بس انا مش فاهمة انت بتقول ايه » . فأخلى عم عبدون سبيلها ساخطـاً وقال : « يا عيب الشوم . يا عيب الشوم » .

وفي اعقابها انصرف حسن مفتاح ، وقد اشتعل خداه ان بفعل الخمر وان فرحة الظفر ، ومشى الى مأواه يصفر نشيد الانصار آنا ويغنيه آنا آخر ، ويمس تمدة النور في حماسة صبيانية كانت تنتابه كلما اجتمعت حوله جلائل الامور . ومضى يفكر في امر اللجنة المركزية . لقد ولدت بفضله من جديد ، بل لولاه لما كانت هناك لجنة مركزية اصلاً ، فلقد كان زملاؤه من قبل جماعة تحكمها الفوضى وبغت فيها الشقاق ، فما ان انضم اليها حتى طهرها من المتجسسين ثم طهرها من سحلين ثم علمهم النظام كيف يكون ، ثم ضرب المثل في انكار الذات باعتذاره عن الرياسة كلما عرضت عليه ، ولقد اعتذر خمس مرات في مدى عام واحد ، وكانت حجته في ذلك دائماً ان الحزب الشيوعي ليس بحاجـــة الى رئيس ففي سكرتير الكفاية . وذكر مسلك نعيم في الاجتماع وابتسم ، فلقد كان نعيم في ماضي مضطرباً كأنه البحر الغضوب ، اهوج كأنه النوء ، وكان يجد التعبير عن سخطه القوي في المثول صبـــاح كل جمعة مع فريق من الشعراء والرسامـــين متمردين الى الهرم الاكبر ليبولوا عليه جماعة ، وكان يرسل الخطـــابات بغير توقيع الى اقطاب البلاد يسبهم فيها بكلمتين من هجو القول ويستخدم التليفون عند منتصف الليل ليزعج الوزراء بافحش الشتائم ، ويجلس في القهاوي ليله ونهاره يحب البنات ازواجاً ازواجـــاً . لكم تبدلت حال نعيم بعد عام من الصقل والترويض : انه الآن منتظم التفكير ملتصق بالواقع . انه الآن لا يثور ، ولكنه [illegible] عصف . لقد اوشكت اللجنة المركزية ان تيأس منه وتقصيه ، ولكن حسن مفتاح لم ييأس بل دأب على تشذيبه آناً باللين وآناً بالعنف ، فقد ادرك بفطنته ان نعيماً وان كان مألوف الذكاء إلا انه نقي النفس لا حد لنقائه ، رقيق الحس لا حد لرقته آكل كالنار لو حسن توجيهه .

وما ان بلغ ٢٢ شارع الملكة فريدة حتى كان الهواء البارد قد ازال عنه الخدر ، ولكن صحوته التامة كانت قصيرة فقد استولى عليه ضيق شديد حين حنوته جدران غرفته ، واحس بوحشة مـــا بعدها وحشة فلم ينفعه النظر الى

صورة البنت العارية الوردية الفخذين المعلقة فوق الكومودينو. وعالج القراءة فلم ترد اليه طمأنينته ، وذكر انتصاره على اصحابه في نهـاية الاجتماع فلم تنتعش بالانتصار نفسه ، بل رأى في البنت العارية فراغاً وفي الكتـاب فراغاً وفي الاجتماعات فراغاً ، وطفق يجيل بصره على اثاث الغرفة دون ان يرى شيئاً إلا فراغاً اجوف قد ابتلع كل شيء ، فراغاً مطلقاً قـد احتوى نفسه ثم احتوى العالم الخارجي ، ولولا شيء من الانزعاج في فؤاده ولولا الصليل الحاد المتقطع المؤلم الصاعد اليه من محطة البنزين حيث تغسل السيارات لمرت به لحظات من الخلو المطلق الذي تنتفي فيه كينونته وينتفي فيه العـالم الأكبر . ولكن الانزعاج الخفي وصوت السيارات اثناء غسلها جعـلاه يحس بوجوده . واشتدت على حسن مفتاح الكآبة فتحرج صدره وضاقت أنفاسه وتسللت الى عقله خواطر الانتحار وخواطر القتل ورأى الدماء رؤية العين ، وأوشك أن يتهيج فيحطم الصورة العارية أو المرآة ، وأوشك ان يفقد سلطانه على نفسه فيصرخ مستغيثاً بمدام ماريكا . وأوشك أن يصلي الى القوى المستورة ان لم يكن بمفهوم اللفظ فبالتوجه الصامت العميق ، ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً واكتفى بفك ياقته وخلع ربطته بأصابع تتشنج . وحـين تنبه الى خواطره الانتحارية وخواطره الاجرامية ازداد انزعاجه لان هذه الخواطر لم تزره الا منـذ خمس سنوات قبل اشتغاله بالسياسة أيام ان ماتت جارته ملكة عبد السيد ، وهي فتاة قبطية جميلة اكل اهلوها الزيت عشرين قرناً فلم يطمس الزيت معالم نفرتيتي الأصيلة فيها ، ولكنه جفف حيويتها واذبل بشرتها . وحين ماتت ملكة عبد السيد تركت حسن مفتاح يعصر قلبه في مرات رديئة الصياغة مشوشة المعـاني يسطرها في سجلات مصلحة العمـل مكان الاحصاءات والملخصات والتقارير ، مما الزم بسيوني بك آنذاك بأن يؤنبه ثانياً ويهدده بنقله الى مصلحة أخرى .

وفي وسط هذه الاحساسات القليلة المتلفة تركزت خواطره حول عايدة

عـ و نشأ يراجع نفسه في شأنها ، فهو الآن يفتقدها افتقاداً مبرحاً . وعلم ان
ـرغ عظيم الذي ملأ قلبه ودنياه هو فراغها . وعجب حسن مفتاح لأمره
ب مـ احبها في يوم من الأيام ذلك الحب الذي تسوّد له الليالي البيضاء ويضرج
حبـ ون الدماء . فعلم ان عايدة علم كانت الخيط الوحيد الذي يصل بينه وبين
ـ الاحياء . انه يتحرك في محيط الظلال . ان صفوان ظل من الظلال والجيار
سعدية الطويل وعنايات ممدوح وبطرس قلادة ، كلهم ، كلهم ، من الظـلال ،
كبيرة والظلال الصغيرة . إن المائدة التي يلتفون حولهـا كذلك من الظلال ،
عـ حمدون البواب والصاغ الشربيني ومحاضر الجلسات وهتافـــات الانصار
حـ صخب وكؤوس البراندي التي يشربها ليحتمل إرهاق العمل ، كل هذه
ظلال فرغة لا مادة فيها . نعم . انه يعيش في عالم من الاشباح ، وهو بين هذه
الشبح الشبح الأكبر ، بل حسن مفتاح صانع الاشباح يجفف الأعواد الناضرة
جعل من الاحياء اشباحاً خاوية. ألم يغوِ دسوقي ابراهيم وطه الحكيم وحكمت
حكيم وبسطوروس وأبا زيد وسنية زيتون ومحيي العبد وطلبه وكامــل كمالي
وغيرهم وغيرهم ، ويزين لهم سبيل الكفاح ويعلمهم كيف يقرأون الكتب وكيف
يقرؤون الصحف وكيف يملأون الدنياعجيجاً بالمذهبيات، ويتقنون الكلمة الكبيرة
جوفاء ؟ كل هذا فعله حسن مفتاح باسم الانسانية ، فماذا اصابوا وماذا أصابت
الانسانية ؟ لقد جففهم حسن مفتاح كما تجفف الاسماك ووضع عليهم ملحه وتوابله
وحبسهم في احقاق محكمة . لقد كانوا اناساً هادئين متزنين فعلمهم حسن مفتاح
الغضب وأودى بتوازنهم ،لقد كان دسوقي ابراهيم وبسطورس وابو زيد وطلبه من
قبل فتياناً جاءوا من الريف ، واحد من طما واثنان من أسيوط والرابع من
بنها مقبلين على الحياة يسكنون بيتاً واحداً في بين السرايات وراء الجامعـــة
ـ عين بقذارتها ليقتصدوا اجر الترام الى كلية الآداب . وكانوا يخرجون في
جلابيبهم وقباقيبهم الى ناصية الشارع حاملين الصحاف دون تحرج الى سر الختم
بائع الفول النوبي المرابط بجوار مصنع البيرة . وكانوا يطهون طعامهم بأيديهم
لأنهم لا يملكون أجر الطاهي ، ولكنهم ما تذمروا يوماً بل كانوا يجتمعون في

المطبخ حول الحلة يستذكرون تاريخ البطالمة ويستظهرون ، المفردات اللاتينية ويتجادلون في مشكلات الفلسفة وفي عقد الاعراب دون ان يغيب عن الحلة بصرهم فيتلف الارز او تتفحم البطاطس . وكانوا يضاجعون بائعة اللبن سكينة السمراء ويحبون طالبات الكلية حبا افلاطونيا . وكانوا يقترضون القروش ويقرضون القروش ، ولقد يتعرضون للجوع أياماً فلا يعبأون . وكانوا لا يدخلون السينما الا مرة كل شهر ولا يركبون الترام الا نادراً ، فللقاهرة عندهم طريقان ، طريق قناة السويس وهو طريق بديعة — قصر النيل وطريق رأس الرجاء الصالح ، وهو طريق الزمالك — بولاق . نعم ، لقد كانوا راضين بماهم فيه من حياة شاذة اختلط فيها شعر شكسبير برائحة الطعمية واجتمع فيها الغرام الفرتري بالعفن القديم المتراكم على الجلباب الأسود الذي لم تخلعه سكينة السمراء في صحوها او في منامها ما يقرب من عام كامل . فما ان دخلوا في محيط حسن مفتاح حتى تبدلوا من حال الى حال ، فزال مرحهم الساذج وحلت محله سخرية مريرة متصلة وبرم بالواقع المحدود . فاذا العفن القديم المتراكم على جلباب سكينة السمراء يبدو أشد تعفناً مما كان ، واذا حب بنات الجامعة اعتماد وعزيزة وبهية والجيل يضحي بمعاييرهم الجديدة رومانطيقية مريضة ، فكفوا عن بائعة اللبن وعن حب بنات الجامعة جميعاً ، وخوت قلوبهم ثم صوُحت فلم يعد فيها مجال الا لمشكلات النوع الانساني . ولم ينجُ من هذا المصير سوى طلبه الذي كان شديد التمييز بين مفهوم الانسانية وما صدقاتها فانصرف عن المفهوم وآمن بالماصدق ، واحب راقصة من الكيت كات تدعى لوليتا وفاز بحبها لأن حذاءه المفتوق لم يعمِ لوليتا عن جمال صدره وجمال عينيه . ولكن هذا الحب كلفه مستقبله ، فقد هجر الجامعة وهو في السنة الثالثة وتعلق بهامش المسرح حيث بقي وحيث هو باقٍ الى نهاية عمره . نعم ، لم ينج الا طلبه ، فقد استغرق كفاحه السياسي خمس دقائق ، وكان ذلك يوم توفي رمزي باشا رئيس الوزراء الرجعي وخرج جنازه من ميدان الاسماعيلية ، وكان طلبه يومئذ يشهد الموكب واقفاً

على كرسي في قهوة ايزافتش فسمع بعض المأجورين يهتفون في حزن مفتعل قائلين: الى النعيم يا رمزي . الى جنة الخلد يا رمزي . فتهيج طلبه وعجز عن ضبط شعوره، ومد عنقه خارج القهوة وصرخ بأعلى صوته : « الى الجحيم يا رمزي . الى النار الآكلة يا رمزي . » ثم نزل من فوق الكرسي وتسلل من القهوة خشية ان يقبض عليه الشرطة ، ولم يعد بعد ذلك الى الاهتمام بالشؤون العامة ، وترك الناس في المربع الواقع بين ميدان الاسماعيلية وميدان التوفيقية وميدان الاوبرا وميدان عابدين يتحدثون عن فعلته أربعاً وعشرين ساعة .

وهذا ما فعله حسن مفتاح بجماعة بين السرايات ، وما اراد بأحد ضراً ، فهو يسوغ الناس على شاكلته . ولقد مـلأ قهاوي القاهرة ونواديها بفتيان لا حديث لهم إلا إضرابات العمال ، وغلمان يتشاحنون على ماهية التكتيك وماهيـة الاستراتيجية بدلاً من ان يتشاجنوا على بنات الجيران ، وشبان يتخاصمون في الثورة العالمية والثورة الاجتماعية بدلاً من ان يتخاصمو في لقمة العيش .

هذا ما فعله حسن مفتاح بشخصه وبرجاله ، وما خفي كان اعظم .

فان بعض الراغبين في الانتحار قـد عدلوا عن الانتحار انتظاراً للثورة الاجتماعية .

وان عنايات ممدوح قررت ألا تتزوج البتـة لتعد نفسها لحيـاة السجون ، ولكنت لا تفتأ تذكر حسن مفتاح بأنها قد كتمت هواها للجاسوس الجميل احمد عزمي وسحقت قلبها وبصقت عليـه لا لشيء إلا لأن اللجنة المركزية قـد نهتها عنه ، وهي تفعل كل ذلك رغم اقتناعها ببراءته .

وان نعيماً رغم برئه من الكثرة المطلقة من صبيانياته الاولى ما زال مقيماً على تمرينه اليومي الرهيب : فهو لا يزال يصنع الرجال المصغرين من الصلصال ، وهو لا يزال يشنق كل صباح رجلاً حتى يروض نفسه على القسوة حين يحل اليوم حضير .

وهو فوق هذا وذاك مقيم على تشاؤمه الاول ، فقد كان الوجود عنده اول فاجعة كونية ، فنعيم يجد ان كل خلق جزئي وكل خلق دنيء هو ابن التروي والتصميم ، اما الخلق الكلي ، الخلق العالمي ، فهو ابن الصدفة وحدها . ولكم كان يقول ان المثال لا يخلق التمثال إلا بعد ترو ٍ وتصميم ، والمهندس لا يخلــق الكوبري إلا بعد ترو ٍ وتصميم ، والتاجر لا يدخل في صفقة إلا بعد ترو ٍ وتصميم ، أما الانسان فيخلق بمحض المصادفة ، ويقصد شيئاً فيكون شيء آخر ، بل هو لا يفكر في الخلق اطلاقاً ، ولو قد قصد الخلق وفكر فيه لما استطاع ان يتروى في المخلوق او يصممه . فالبشر عند نعيم اعشاب شيطانية لم تغرسها يد عاقلة ، والحياة عنده غلطة من اغلاط المادة في الزمان والمكان . ولذا كان نعيم يصاب بنوبات من الميلانكوليا العميقة قد تلازمه اياماً ، وتتردد عليه بين حين وحين رغم صخبه الشديد وقوة اقباله على الحياة . ومع ان حسن مفتاح قد علمه الجبرية ، جبرية الرقي العضوي والرقي المادي ، وهداه بالمنطق الى التفاؤل إلا ان نعيماً اقام بالفطرة على تشاؤمه الاولي . ولم يكن لنعيم سخط سياسي قبــل اربعة اعـــوام خلا السخط السياسي الخفيف المألوف المختلط الذي يدفع المصريين الى الثورة السائبة على كل حكومة تقوم بينهم ولا يعلمون لذلك سبباً ، حتى خرج صباح يوم من ايام الجمعة ليتنزه في حديقـــة الاندلس مع طالبة بالجامعة ، وكانا يأكلان الساندويتش ويتبادلان لغو التلاميذ ، فهي تحدثه عن اخبار كلية التجارة وهو يحدثها عن اخبار كليــة الحقوق ، واذ بشرطي من بوليس الآداب يهبط عليهما من السماء ، واذ بالشرطي يتهم كل منهما زوراً بتقبيل الآخر ، واذ به يطلب اقتيادهما الى قسم البوليس . وادرك نعيم لفوره ان الشرطي انما يفعل ذلك طمعاً في عشرة قروش ، ففقد سلطانه على نفسه وهوى على الشرطي بالاكف واوسعه ركلا . وتجمهر الناس من حولهما من عشاق وباعة غازوزة وعمال في البستان ، وتقصوا الخبر ووجدوا فيه مناسبة تعبر عن عدائهم الكامن للسلطة فانتصروا لنعيم دون تحر ٍ لحقيقة ماجرى ، وتجاوز بعض العاشقين حدود الانتصار الشفوي فآزروا نعيماً بالأيدي وبالارجل ، حتى انسحب الشرطي بعد المجاهدة

وعسكر في مكان ما خارج الحديقة . وبعد ان هدأ الموقف ثاب نعيم الى نفسه فأدرك الهول الاكبر الذي نجـــا منه بأعجوبة . فلولا مؤازرة العشاق له لغلبه الشرطي ما في ذلك ، ولئن غلبه الشرطي لاقتاده الى القسم ، وفي القسم تبـدأ الفضيحة ان لم يبدأ القصاص ، فالبنت بنت استاذ من اساتذته ، ونعيم لا شك مفصول من الجامعة ان لم يسجن شهراً من اجل هذا « الفعل الفاضح » ، والبنت لا شك مطأطئة رأسها اربع سنوات حتى يتخرج كل من عرفها أو سمع بها في كليتها . أما الاعتداء على ممثل الحكومة فلا شك ان عقابه اشد وانكى . وكان نعيم قد سمع من قبل بالشرطة يحرسون بيوت الدعارة السرية في الفجالة وفي عماد الدين لقاء اتاوة شهرية يفرضونها على صاحبات البيوت ، بل سمع بالشرطة يقودون الزبائن الى بيوت الدعارة السرية لقاء شلن أو عشرة قروش ، بل لقـــد رأى بعينيه شرطياً مسلحاً يقـــف بناحية الانتيكخانة نحو منتصف الليل وبجواره عربة فيها جندي بريطاني ومجندة بريطانية يستغلان البلاكاوت الثقيـــل في حراسة الشرطي . وكان نعيم في كل مرة يستبشع ما يسمع او يرى ثم يهز كتفيه ويجد التفسير في الشرطة وحقارة منبتهم . بل لقد سمع نعيم بضباط البوليس الذين يستوقفون السيدات الجميـــلات في شوارع القاهرة ويزجون بهن في البوكسفورد بتهمة تصيد الرجال ليخلقوا بذلك مجالاً لمساومتهن في اعراضهن ، فلم يغضب ولم يثر حتى كان له حادث الحديقة فتفتحت جميع حواسه وتحول سخطه الفردي الى سخط اجتماعي شامل ، وغـدا يتقصى عيوب المجتمع عيبـاً عيباً ، ويطيل التفكير في اسباب الاصلاح . ولكن حاجته الى منهج جعلتـــه يرتجل الحلول ارتجالاً ، فلما ان عرف حسن مفتاح علمه حسن مفتاح الماركسية فوجد فيها كل ما يطلب من مفاتيح .

اما سعدية الطويل فقد كتمت هواها لبطرس قلادة وسحقت قلبها وبصقت عليه لان بطرس قلادة مثالي لا يؤمن بالمادية الديالكتية ، أو يؤمن بها نظرياً ولا يطبقها عملياً : فهو لم يتحرر بعد من قيود الدين فيشهر اسلامه ويتزوج منها .

اما بطرس قلادة فقد كانت له وجهة نظر اخرى : فهو لا يؤمن بالمسيحية ولكنه يؤمن بالمسيح ، وهو يقول ان الرأي العام لا يخيفه ولكنه لا يملك ان يتنزل عن تراث لا اختيار له فيه ، فكما ان عينيه خضروان واذنيه كبيرتان فهو مسيحي اورثوذكسي كذلك . واذا كان اسلافه قد احترقوا في الزيت المغلي ودخلوا جبوب الاسود ليستمسكوا بتقاليدهم عشرين قرناً من الزمان فهو لا يتحمل تبعة التخلي عنها ، وهو مسئول امام الخلف عما تركه السلف . ولو رضيت سعدية الطويل ان تعبر إليه هذا الجسر الصوري لازدراها لأن في التنقل ذبذبة إلا اذا توفر الاقتناع ، ومن تحول عن دينه من أجل الحب كمن تحول عن دينه من أجل المال ، ومهما قيل ان الشكليات لا اهمية لها ، فالانسان عنده لا يموت في سبيل الماديات وحدها وانما يموت في سبيل الشكليات كذلك كالشرف إذن يؤمن بالمادية الديالكتيكية ويطبقها ، وسعدية الطويل تؤمن بالمادية الميكانيكية وتطبقها وهما لا يلتقيان . والحل عند بطرس قلاده ان يحتفظ كل طرف بشكلياته وان يتحديا معاً اوضاع المجتمع وان يتزوجا بغير عقد الا كلمة الشرف ، وان يحرجا الدولة احراجاً باولاد لا دين لهم حتى يؤسس الزواج المدني في البلاد . فإن ابت سعدية الطويل ان تفعل ذلك كتم بطرس قلادة هواه لها وسحق قلبه وبصق عليه ، وعاش عزباً بقية حياته . وقد فعلا ذلك جميعاً . وهما الآن يعيشان بغير قلب . وهما الآن يلتقيان بحكم العمل ويقتضبان كل حديث لا يتصل بالعمل ، فيتكلفان الخلو المطلق ، ويقصيان كل حديث لا يتصل بالعمل ، ولقد يضعفان لحظة كلما انفردا فيمسك بطرس بذراع سعدية وتطرق سعدية امام انفاس بطرس المضطربة ، ولكنهما يثوبان فيفر كل منهما من الآخر مخافة ان ...

كل هذا فعله حسن مفتاح بهما ملأ رأسيهما بترهات قربت بين نفسيهما وباعدت بين جسديهما ، ولولاه لاقتربا نفساً وجسداً . لقد ملأ القاهرة بالاشباح . فاتباعه لا يسرقون ولكن يدافعون عن اللصوص ، ولا يحبون ولكن يوزعون الحب فيما يوزعون من حقوق الانسان ، ولا يتعذبون ولكن يدبرون غذاء الشعب بالحبر

على الورق . غير أن جريمته الكبرى كانت نحو نفسه ، فهو قد تجاوز الثلاثين ولكن حياته الخاصة خاوية من كل ما يسعدها أو ينغصهـا ، او بعبارة أدق ليست له حياة خاصة . وحين تأمل حسن مفتاح هـــذه الحقيقة أدرك ماهية احساساته الخانقة . ان الصداع الذي يلهب رأسه ليس صداع الحب ، فهو مـا احب عايدة علم هذا الحب المتلف ، ولكن عايدة علم كانت الخيط الوحيد الذي يربطه بعالم الأحياء ، ولقد انقطع هذا الخيط ، وهو الآن يعيش بين الظلال التي صنعها بيديه . المادة . المادة . المادة . أين هذه المادة ؟ وما تكون هذه المادة ؟ انها الاحساس بلحم المرأة . انها طعم ام الخلول . انها الاحساس بلحم المرأة . انها زجاجة من عطر الورد . انها الاحساس بلحم المرأة . انها لون الحمرة على وجنة التفاحة . انها الاحساس بلحم المرأة . انها صوت العنادل في اعقاب الصباح انها الاحساس بلحم المرأة ، انها لحم المرأة . وتحسس حسن مفتاح وسادته فقد كان غطاؤها من الحرير الوردي الفاتح ، ومضى يمسحها بكفه في عناية وحنان ، ثم ادرك انه يفعل ذلك لأن الوسادة كانت اقرب ما يملك الى لحم المرأة ، فخجل من نفسه قليلاً والقى بالوسادة الى مكانهـــا . وهنا انكسر الحاجز الذي يكبت افكاره فانطلقت خواطره كأنها السيول بعد ان تتكسر السدود ، ولكنهـــا كانت صريحة ليس فها نفاق وليس فيها عايدة علم . وأطمأنت نفسه درجة درجة حتى زال عن صدره الضيق . عاد الى مونا ربيع وقبلها في الخيال . عـــاد الى منكة عبد العزيز وأوشك ان يقبلها في الخيال ولكنه تذكرانها الان هيكل عظمي اقفر حتى من الدود . خرج من غرفته ودب الى الغرفة المجـــاورة التي تشرف على المطبخ فوجد بابها موصداً ففتحه ، ودخل فوجد مـــدام ماريكا كذلك ولكنه فعل كل ذلك دون ان يبرح مكانه على سريره ، وبرزت اسنانه و تسعت شفتاه ولاح عليه انه حيوان جائع يرى قطعة من اللحم يدبر طريق الوصول اليها . ثم عادت خواطره الى غرفته وتجمعت حـــول عايدة علم مرة اخرى ، ثم انصرف عن الصور الى الواقع الملموس ، وانتقل ببصره بين أثاث الغرفة والوسادة الحريرية والبنت العارية المعلقة فوق الكومودينو ، فرأى ان

يقصد الى بار بديعة ويعود براقصة تؤنسه بقية الليل كما كان يفعل ايام مصلحة العمل ، ولتفعل به مدام ماريكا ما تشاء في الصباح . وهم بالخروج ولكنه وجد ان الساعة قد بلغت منتصف الليل والحاكم العسكري يغلق جميع المحال العامة عند منتصف الليل . وبدا له ان يخرج الى منعطفات شارع عماد الدين ويعود ببنت من البنات اللائي يتسللن تحت جنح البلاكاوت ، ولكنه تذكر ان اجورهن قد ارتفعت الى خمسة جنيهات بسبب جيوش جلالة ملك بريطانيا ، ثم ان هناك أجر الطبيب اذ لا بد من طبيب . وبدا له ان يطرق باب مدام خرستينا التي قالت مدام ماريكا انها تدير بنسيونها للدعارة ، ولكنه خشي ان تكون مدام ماريكا قد أختلقت هذه الاشاعة لنزاع بينها وبين مدام خرستينا ، فلم يجرؤ على الصعود . وعدل عن رأيه واطفأ النور وفتح خشب النافذة ، وعاد الى مكانه من النافذة ، ودخل عليه الهواء بارداً موجعاً منعشاً رده الى حالته الطبيعية او ما يشبهها . ولم تدخل مع الهواء إلا اصوات حوافر الخيل التي تجر العربات التي تحمل السكارى من جنود الديمقراطية الى ثكناتهم او الى طرقات الجزيرة الجميلة ان كانوا مصحوبين . وعاد الى تأملاته يفكر في حاضره المقفر بهدوء تام لعله أن يصل الى حل دائم لهذه العقدة القائمة ، فهو يعلم ان العقدة قائمة وان أزمة هذه الليلة سوف تتجدد ، فلقد حلت به في الماضي خفيفة هينة ولسوف تحل به في المستقبل جارفة مدمرة .

وابصر من النافذة بصيصاً من النور لم يحسن اخفاؤه في جملة نوافذ بالعمارة الشاهقة المقابلة المبنية بالطوب الاحمر ، فطارت خواطره الى ما يحدث بين جدرانها . منتصف الليل ، البورجوازية الكبيرة ، الزمالك . الهرم . المعادي . في سررها يقبل نصفها النصف الآخر . البورجوازية المتوسطة (هليوبوليس . العباسية . الدقي) لا شك قد فرغت من التقبيل . البورجوازية الصغيرة (شبرا . السيدة . الجيزة) كانت تحب ان تسهر في الخارج ولكنها لا تملك ثمن السهر في الخارج فتعزي نفسها بمكارم الاخلاق وتبدأ التقبيل في العاشرة. مواعيد منتظمة

يؤثر فيها التوقيت الشتوي والتوقيت الصيفي لأن البورجوازية بكافة درجاتها تتقيد بالساعة في كل ما تعمل . أما البروليتاريا (بولاق. باب الشعرية. المعصرة) فتتناسل في التاسعة لأنها تستيقظ في باكورة الصباح . ولم يبقَ إلا الارستقراطية (جاردن سيتي) وهي لا تبدأ الحب ان بدأته إلا بعد الثانية صباحاً في الشتاء والرابعة صباحاً في الصيف . وهكذا بوّب حسن مفتاح المجتمع المصري طبقة طبقة تبويباً جنسياً ، ولكنه لم يكن يعلم ان نافذة من النوافذ المنيرة كانت لخياطة روسية طغى عليها العمل ، وان نافذة اخرى كانت لسيد عجوز اعزب يطبع على الآلة الكاتبة حساب شركة من شركات السينما ، وان النافذة الثالثة كانت لمعلم في الليسيه فرنسية يصحح انشاء تلاميذه . ثم عدل حسن مفتاح عن افكاره . فقد رأى ان تقديره مبالغ فيه ، فالبورجوازية لا تمارس الحب ولا تعرف كيف تمارسه ، لأن البورجوازية تشتغل بجمع المـــال وتحصي في السرير خسائرها بدلاً من ان تحصي القبلات ، وتخصص للحب ليلة واحدة من كل اسبوع ينبغي ألا تتجاوزها هي ليلة الجمعة ، ولان البورجوازية جيلان ، فالجيل القديم مهدم يجد سبيله الى الحب ولا يقوى عليه والجيل الجديد يقوى على الحب ولا يجد سبيله إليه .

كل ذلك كان حسن مفتاح يفكر فيه وهو واقف في النافذة يتأمل محطـة البنزين والعمارة الجسيمة المقابلة المبنية بالطوب الاحمر. كذلك فكر في سرهنك، صاحبه سرهنك ، فسرهنك دكتور في الحب من جامعات فرنسا ، كان مثالاً للوداعة ايام التلمذة في مدرسة المنيا الثانوية، ولكن ضابط المدرسة موسى افندي كان بحاجة الى سيارته الآدلر ليجعل منها مسرحاً لغرامياته بين نادي سبورتنج وقرية الاخصاص ، فأشرك موسى افندي الغلام سرهنك في صبواته وعلمه شرب الخمر وفتح حواسه الى اشياء ما كان ينبغي ان تتفتح لها حواسه وهو بعد غلام ، ولقاء ذلك كان موسى افندي يزود سرهنك باوراق الامتحان . وكان سرهنك الأب يعجب للادلر كيف تمتلىء مقاعدها بالقمل ، ويعنف سرهنك الولد لأنه يدعو فقراء التلاميذ الى ركوب السيارة ، فما كان يعلم ان فلاحات الاخصاص

هن علة ذلك . فلما كانت البكالوريا رسب سرهنك ثلاث سنوات بملاحقهـا ثم اختفى من الوجود خمس سنوات تنقل فيها بين معاهد باريس يدرس العطور ، لا صناعتها بل التمييز بينها ، وعاد ببعض الشهادات من بعض المحال التجارية تملؤه الحماسة لخدمة الوطن ، وكله عزم على ان يعلم ابناء النيل المبادىء الجمهورية وبنات النيل فنون الحب التي لقنته اياها بنات السين ، فابتاع ديملر ضخمة سوداء تسر الناظرين ، ووجد عملاً بمصلحة العمل في الغرفة المجـاورة لحسن مفتاح . ولكن دراسته للعطور باعدت بينه وبين مكتبه فلم يزره إلا غبّاً كلما عنّ له ان يطالب بالترقية ، أما اختصاصه فكان يزاوله في الطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية . ولكن سرهنك فجع في آماله بعد حين فقد تبين له ان محصول الديملر في عام واحد لم يتجاوز خمس بغايا مسرفات يعرفن بارتستات ، وخمساً من زوجات اصدقائه وخمساً من طالبات الجامعة يردن ان يتزوجن ، فسخط على الوطن ، وباع الديملر ، وحزم حقائبـه وقرر ان يقضي بقيـة عمره في مونبارناس . غير ان الحرب اعلنت وسدت عليه الطريق ، ففك امتعته وقرر الاشتغال بالسياسة في فترة الحرب، فتزوج من ابنة وزير بلا وزارة ودخل البرلمان ونزل عن مبادئه الجمهورية . كلا . ان البورجوازية ليست مسئولة عما كان حسن مفتاح فيه من حرمان . وكان حسن مفتاح يحب أن يلوم البورجوازية عما هو فيه من حرمان ولكنه لم يستطع فبدأ يلوم نفسه . لقد اعطته الحياة من فرصها شيئاً ، وهو الذي ركل هذه الفرص بقدمه في الماضي .

وارتدت خواطره اليه ، وانشأ يستعرض ماضيه ، فقد كان له ماض . وعاد بذاكرته الى ايام مصلحة العمـل ، فذكر الديملر الضخمة السوداء ، ذكر الاوتوموبيليا كما كان يسميها وذكر كيف كانت تتردد به وبصاحبها سرهنك في الطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية مرة كل اسبوع . ألم يكن يومئذ سعيداً فالصحراء ونور القمر ونسيم مايو نحو منتصف الليل . كل هذه كانت له وكان له معها بنتان : بنت للنهار وبنت لليل ، ملكة عبد السيد يمارس معهـا عاطفة الحب وامرأة مطلقة من رائدات حديقة جروبي يمارس معها احساسات

الحب . ولكن كم دامت هذه السعادة ؟ انها لم تدم الا ستة اشهر ، لان ملكت عبد السيد قضت نحبها ، فما ان جعله الحزن يهمل المطلقة أهملته المطلقة واتخذت سواه . ولكن أكان سعيداً حقاً ايام مصلحة العمل ؟ انه ما احس بهذه السعادة إلا الآن . بل انه يذكر كيف كان يضيق بالحيـــاة ايام الطريق الصحراوي .
كذلك كان سرهنك دائم الشكوى من الحياة التي غبنته كل هذا الغبن فردته الى مصر العابسة بعد ان كان ينعم في فرنسا المشرقـــة . وحسن مفتاح كان يحب سرهنك حباً خفيفاً بحكم الألفة وذكريات المنيا الثانوية رغم احتقاره اياه ، فقد كان سرهنك يمثل عند حسن مفتاح ابغض ما في ابناء الارستقراطية وابغض ما في ابناء البورجوازية من صفات ، منها العقم المطلق والاسراف الذي لا جمال فيه ، والراحة التي لا يبررها عمل سابق ، والانانية البشعة التي تجعل صاحبها ينتظر من المجتمع كل شيء ولا يجود على المجتمع بشيء . وقد كان في سرهنك شي من الدم الأزرق الباهت الذي ورثه عن أمه عصمت هانم ، فقد كانت أمـه تنحدر من شراف أتراك قدامى كانوا أشرافاً قبل قدومهم إلى مصر . وكانت لها في شبابها كلمة مسموعة بين الاتراك المحليين لاصالتها في الشرف ، ثم زلت ذات ليلة مع محامٍ شاب هو سرهنك الكبير لذي كان ابوه من أوساط تجار الصوف . وقد كان يمكن لهذه الزلة ان تمر دون ان تؤدي الى شيء كثير لولا ان الزلة كانت مصحوبة بخطابات ، والخطابات فيها ما يخدش السمعة . وقد استخدم سرهنك الكبير هذه الخطابات بما ينبغي من المهارة حتى تزوج من الفتاة ، ولكن هذا الزواج انتهى بعكس ما كان ينتظر ، فلم يدخل به سرهنك محيط الارستقراطية بل خرجت به عصمت هانم من محيط الإرستقراطية . ولقد كان سرهنك الكبير يجيد الاسهم والسندات كثر مما كان يجيد المحاماة فتحولت اطيان عصمت هانم الى اوراق ، كما كانت لسرهنك الكبير يد ميداس لا يمس شيئاً الا تحول الذهب ، فتحولت أوراق عصمت هانم الى ذهب ، فسرهنك الصغير كان ثمرة الارستقراطية والبورجوازية وقد أخذ من كل بطرف حقارة ولكنه لم يأخذ الا أحط ما في الجانبين . فلما ن كان سرهنك الصغير في فرنسا نزلت الكارثة ومات الأب والأم في سيارتهما تي انقلبت في الترعة الابراهيمية ، فتحول دهب آل سرهنك الى هواء . وضاع

ربع المليون في خمس سنوات ، ولولا ان الفدادين الالف الباقية كانت موقوفة لضاعت كذلك. أما كيف ضاع ربع المليون فسرهنك لا يخجل من التفصيل، لقد كان سرهنك في ايام عزه يستخدم سكرتيراً خاصاً ليقامر نيابة عنه لا لأن الميسر عنده رجس من عمل الشيطان ولكن لان العالم المعطر الذي كان يعيش فيه لا يدع له وقتاً . لقد رأى سرهنك ذات مرة سيدة تجر كلباً صغيراً ابيض في شارع الشانزليزيه ، فاستوقفها وسألها عن اسرة الكلب ، فلما علم ان للكلب أخاً لا يزال على قيد الحياة في اسكتلندا استحضره بالطائرة الى باريس ، ثم زهد فيه بعد اسبوع واهداه لسكرتيره الخاص . ولكن أكبر عيب في سرهنك كان غرامه بشخصية بجماليون ، فقد كانت هوايته التقاط الخادمات والفلاحات والعاملات وكسوتهن بالفراء وتدريبهن على العطور ، وحين ترك فرنسا كان له في شامبيري شاليه تحتله البرتين (فام دي شامبر شقراء من بريتانيا) وفي الريفييرا شاليه تحتله فرانسواز (خادم في حمام عام بالحي اللاتيني ، شقراء من سان كلو) ونصف طابق في الكابوسين بباريس كدس فيه ريموند وجانين وناتاليا البولندية ، فلاحة وغسالة وبائعة كبريت كلهن سوداوات الشعور .
وكان هذا هو المظهر الوحيد لعطفه على الطبقات الفقيرة . كلا . كلا . ان حسن مفتاح لم يستطع ان يصب جام غضبه على البورجوازية . ان سرهنك معذب وهو يملك كل مقومات السعادة . وممدوح الشربيني ؟ انه معذب حقاً ، فهو لا يحب زوجته ولم يحبها في يوم من الايام وان كان يستخدمها كل ليلة ، فلقد تزوجها بوساطة الخاطبة . لا . ان ممدوح الشربيني لا يعرف كيف يحب. ونعيم؟ نعيم معذب كذلك ، وهو من أوساط البورجوازيين ، فأبوه طبيب مشهور ، ولقد ضاعت منه أجمل سنوات حياته متنقلاً بين ابنة استاذه وزينب البورجوازية واخريات غيرها كثيرات فلم يظفر منهن بشيء مذكور ، فكلهن يطلبن الزواج ، وقد جاء حظه العاثر من طمعهن فيه ، فقد اتضح له من تكرار هذه العفة ان المراد بها طمأنته على شرفه حتى يفكر في الزواج . ان نعيماً ليست له حياة خاصة . بل ان نعيماً كان أشد من حسن مفتاح نقمة على النفاق البورجوازي .

كلا. كلا. ان حسن مفتاح لا يستطيع ان يغبط البورجوازية ، ولكنه يستطيع ان يغبط الارستقراطية والبرولتاريا ، فكلاهما يحيا حياة طبيعية ، الارستقراطية بشجاعتها التي تحل العقد والبروليتاريا بفطرتها التي لا تفهم العقد . كلا . كلا . ان حسن مفتاح لا يعرف احداً له حياة خاصة ، حتى صدقاؤه المتزوجون ليست لهم حياة خاصة . فهم يقصدون الى الديوان في الصباح وهم يعودون الى دورهم في الثانية وهم ينامون بعد الغذاء وهم يخرجون الى القهاوي ان اقبل المساء ولا يبرحونها حتى يحل موعد النوم . فاين هو الحب؟ واين هم المحبون ؟ ان حسن مفتاح يعرف انه لم يختص بهذا الحرمان من دون شعب النيل . ان حسن مفتاح يعرف ان سرهنك قد بعثر ربع مليون من الجنيهات لتكون له حياة خاصة ولكنه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً . ولقد كان حسن مفتاح يسأل نفسه كثيراً : « ترى ماذا سنفعل بسرهنك يوم الجيلوتين ؟» ثم يبتسم وتبرز اسنانه ويتأمل عنق سرهنك الجالس الى جواره في الديلمر يتأملها جيداً ، يتأملها بشراهة ، يتأملها بغبطة ملحوظة ، ويتصورها محزوزة او معلقة في حبل غليظ فلا يضطرب ويجيب على هذا السؤال قائلاً : « ترى ماذا سيفعل سرهنك بنفسه يوم الجيلوتين ؟» وينزعج سرهنك امام نظراته المتصلة وبتسامته الشيطانية الساذجة ويسأله عما يغريه بالنظر الى عنقه فيضحك حسن مفتاح ويقول : « لا شيء. لا شيء . هو الخال في عنقك الابيض حسبته قملة ». ويضحكان وينتهي الموضوع . ونعيم ؟ عادت افكار حسن مفتاح الى نعيم . كان نعيم من قبل يشتغل بمشاكل الفرد وحدها وكان يقيس الافراد بفرديته فيجعل من نفسه مفتاح المجتمع . ولم يكن في حياته ما يؤرقه إلا الجانب الجنسي ، فقد كان نعيم اعصاراً جنسياً، لذلك حسب جميع الناس اعاصير جنسية خلت حياتهم كل ما يؤرق الا سياط الجنس. ومضى يجمع الاحصاءات الجنسية ليدلل على فساد من النظام الحاضر. ولم يجد إلا الدين يصب عليه جام غضبه. ان جيلنا جيل هالك، كان يقول . ان مجتمعنا مجتمع هالك، كان يقول . ان انسانيتنا انسانية هالكة ، كان يقول . ان ادبنا استمناء . ان موسيقانا استمناء ، ان سياستنا استمناء ، كان يقول . ان الحياة قد افلست ، كان يقول ان الشيء الوحيد الذي يعوق

تقدم المصريين هو الهرم ، فنسف الهرم هو أول عمل وطني . أبولو بلغدير تحفة رائعة. الهرم أروع. الريفييرا جميلة الهرم اجمل. الطماطم الانجليزية لذيذة. الهرم الذ. ان شعوب الشمال شديدة الامانة، نحن بناة الاهرام . من أجل هذا ثار نعيم على النظام الحاضر ودعا الى الثورة عليه . ولم يزل على رأيه هذا حتى اقنعه حسن مفتاح بان احصاءاته غير كاملة، وعلمه ان ميزان العرض والطلب هو المسئول الاول عن حالة الحرمان الجنسي الذي يعيش فيه الجيل ، وافهمه ان المطروح في السوق من الرجال للعلم والعمل اضعاف اضعاف المطروح في السوق من النساء ولن تختفي هذه الحالة الشاذة حتى يتعادل العرض والطلب . من أجل هذا كان نعيم يقول دائمـــاً ان الثورة القادمة لا بد ان تكون ثورة جنسية ، وكان له نداء يردده في مناسبة وفي غير مناسبة متشبهاً بكاتو الخطيب ، وهـــذا النداء هو « اسلخوا جلود الشيوخ » فقد كان نعيم يحمل الشيوخ تبعة هذا الوضع الشاذ ويدعو الابناء الى سلخ جلود الاباء، والشيوخ عنده كل من تجاوز الثلاثين والشباب هم ما دون ذلك او بتعبير نعيم : الشيوخ من يلعبون الطـــاولة والشباب من لا يلعبونها . وكان لا يجد في مصر ما هو أبشع من رجل تجاوز الثلاثين ، فكل من تجاوز تحجرت افكاره وبليت نظرياته وفقد هياج الشباب وسماحته واخلاصه وسذاجته ومرونته وتسامحه فإذا به مخلوق بليد حاقد ماكر منافق متعصب شديد الجمود يترك في البيت زوجته واخته وبنته ليجلس في البول نور أو بور فؤاد أو ركس أو البوديجا يلعب الطاولة ويتحدث في سير الغائبين ويتتبع سيقان الرائحات والغاديات من زوجات الناس واخوات النـــاس وبنات الناس دون ان يتحرك من مكانه، فان رأى عاشقين يمران امامه ثار وندد بانهيار الاخلاق الذي جاءت به المدنية الاوربية أو جاء به الاستعمار البريطاني على وجه التعيين . وقد كان برنامج الاصلاح عند نعيم معقداً يتناول اشياء متعددة من الغاء الدين الى تحريم الطاولة ، ولكنه انصرف بعد ذلك الى جمع الاحصاءات الاقتصادية ونزل معها عن حياته الخاصة . كلا . نعيم ليست له حياة خاصة . كذلك سرهنك ، رغم الديملر وخيراتها لم تكن له حياة خاصة • إلا احلامه كلما اختلى بنفسه بين عطوره وإلا ذكرياته كلما ردته الصبابة الى ايام باريس .

ان حسين مفتاح لا يعرف احداً وهو الكثير المعارف ، له حيـــاة خاصة .
نعم اذن شكواه ؟ ان القوانين الاجتماعية التي تطحنه تطحن الاخرين كذلك .
ولكنه لم يعد يحتمل . ان عايده علم رغم تفاهتها كانت تملأ فراغاً في نفسه . ان
عايدة علم كانت تنشر الدفء في دائره ضيقة حقاً ، ولقد حرم حسن مفتاح هذه
الدائرة على ضيقها . ولم تكن لعايدة علم قبلات تلهب الحس ولا نظرات تلهب
الوجدان ، ولكن بمجرد وجودها الى جواره كان يغذى فيه براعم الحيـاة ،
كان يهدىء اعصابه المتوترة ، كان يدمث كيانه كما يدمت الشحم الآلة فـــلا
تجرش تروسها بعضها البعض الآخر بفعل الصدأ او الجفاف . من يدري ؟ لعل
نعيماً كان محقاً في نظرياته الاولى واوشكت روح حسن مفتاح ان تصرخ : « لقد
قتلني كارل ماركس . لقد قتلني كارل ماركس ، ولكنها عدلت عن ذلك
وقالت : « لقد قتلت نفسي . لقد قتلت نفسي » .

وحين بلغ حسن مفتاح هـذه المرحلة من التفكير ارتاح : لقد اضاع حياته
بين المحابر والتقارير والجماعات الصاخبة والقراءات الجافة والمقابلات العقيمة ،
وقلما وجد نفسه وحيداً بين جدران اربع ، جدران سميكة تعزله عن العـــالم
الخارجي تماماً وترده الى التفكير في حاله . والآن قد خلا حسن مفتاح الى نفسه
فعلام انتهى ؟ انتهى الى ان حسن مفتـاح لا وجود له . انما الموجـود شبح ،
شبح خاوٍ . انما الموجود اسم على اوراق . آلة في جهاز . مقعد في مجلس . رقم
في خلية ، اعلان في حائط . فكرة في اذهان . اما الانسان ، اللحم ذو الحقوق ،
المادة المشتاقة الى الحياة ، فلا وجود لهـا . وتحسس حسن مفتاح جسده فبدأ
بفخذيه ثم هبط الى صدره الضامر ثم ضغط على فخذيـه ليتحقق من انه يحيـا .
تحسس جسده في شوق وجزع معاً ، وحين تحقق من انـه يحيا اطمأنت نفسه
وارتاح جسده وغمرته لذة حيوانيـة اقرب شيء الى لذة الجنس ، لذة من لذة
الكلب حين يتمرغ على الحشيش في الصباح المشرق مستدفئاً بشمس فبراير السافرة .
لذة من لذة الهر حين يقبع الساعـات الطوال قرب المدفأة الموقدة في زمهرير
يناير .

وبدا الحسن مفتاح ان يخلع عنه ملابسه قطعة قطعة ويتعرى امام نفسه كأنه في حمام ويشبع بصره من رؤية اعضائه الحقيقية ويشبع حسه من نعومة جلده الناعم . ولكنه لم يفعل لأن البرد كان موجعاً . ثم عجب لهذه الخواطر الشاذة كيف تتردد عليه،واعترف امام نفسه بان الحرمان يرهقواعصابه ويعرقل تفكيره المنتظم ويخرب عمله ونشاطه . ثم ماذا جنى من حياتة العامة ؟ لقد فقد نفسه . لقد ضاع بين الجماهير ، وينبغي ان يسترد نفسه قبل فوات الاوان ، قبل ان يصوح ويقشعر وييبس كأعواد النوص . نعم ، ينبغي ان ينسحب من الحياة العامةوان يندمج في الحياة الخاصة.ولو الى اجل مسمى. انه لم يعد يحتمل، ان كينونته مهددة . الرزق المهدد يهون. الحرية المهددة تهون . لكن كينونته ذاتها قد باتت في خطر . غداً يجف كأعواد البوص . انه لم يعد يحتمل . غداً يتحول حبه للبشر بغضاً مريراً . انه لم يعد يحتمل . غداً تملأ الجماهير نهاره صخباً فان خلا الى نفسه بالليل اكتنف فراشه صمت القبور . غدا شيخوخته فكيف يجابه شيخوخته وحيداً ؟ ان اعضاء اللجنة المركزية لا شك يؤنسون . ان كئوس البراندي لا شك تؤنس . ان عمـــله لا يؤنس . ان الملل لا يخيفه . فالرفيق يقتله والكأس تقتله والعمل يقتله . ولكن ماذا يفعل بالتنين الجائع ؟ ماذا يفعل بالفراغ الذي ينهش من الداخل؟ لا بحار الراح تملؤه ، ولا مغامرات الابطال ، ولا حديث شهرزاد . واسترسل في تفكيره . لا بد من الانسحاب يا حسن مفتاح. قبل ان يفوت الأوان يا حسن مفتاح. وبدأ يناجي مونا ربيع . اين انت يا مونا ربيع ؟ وبدأ يناجي عايـــدة علم . اين انت يا عايدة علم ؟ ان عايدة علم تكفي. عايدة علم وبندقية. لسوف يحارب كالابطال . لسوف يحارب كالعمالقة . لسوف يرد العدو عن اسوار جرنيكا . ولكن لا بنادق بعد اليوم . ان عايدة علم لا تطيق مرأى البنادق . كفى كفاحاً. حسن مفتاح يريد ان يرى حوله عادل حسن مفتاح وكامل حسن مفتاح وسعيد حسن مفتاح ، واذا امكن فنادية حسن مفتاح . ان هذا حق من حقوقه الازلية المقدسة . ان هذا حق من حقوق الانسان . ومعهم امهم عايدة مفتاح تطعمهم بأناملها الرقيقـــة كما تطعم

حمامة افراخها . ان مونا ربيع جاءت من وادي الاحلام وعادت الى وادي الاحلام كأنها قوس قزح . ان مونا ربيع طيف من اطياف السعادة وهو قد سئم الاطياف . انه يطلب المادة التي تخضع لحواسه الخمس ، يطلب عايدة علم .

وفيما كان حسن مفتاح يفكر على هذا النسق اشتد به الضيق وعاد اليه الاحساس بالاختناق . ولكن برودة الهواء اسعفته فلم يختنق . وحين نفدت خواطره هدأ باله ، واطمأن جسده شيئاً ما ولكنه احس بالاعياء الشديد والحاجة الى الراحة . انه ضعيف أمام الليل . انه يعلم تماماً ان هذه ترهات الوحدة ، فهو لم يخلق ليشتري الكرنب لبيته أو لينجب عادلاً وكاملاً وسعيداً ونادية . بل هو لم يخلق ليكون له بيت اصلاً ، وهو يعلم ذلك قبل سواه . ولو اوتي بيتاً لهجره وعاد نزيلاً في خان الحياة . ان اعصابه محطمة . انه يتحدث عن الانسحاب لانه ضعيف أمام الليل . انه ليس ضعيفاً ولكنه ضعيف امام الليل . انه يحتاج الى الراحة . انه يحتاج الى النوم . وحين تتجدد الحياة مع الصباح فله أن يتدبر أمره بما ينبغي من الهدوء ، وعندئذ يتاح له ان يختار بين عايده علم واللجنة المركزية .

ومحطة البنزين تحت بصره حمراء مكبوتة وسط الظلام كأنها بقايا حريق هائل ، وسط الظلام . وبصيص النور المتسرب من نوافذ العمارة الشاهقة المقابلة قد اختفى اكثره ، ولم تبقَ إلا نافذة مضيئة واحدة . وانقطعت العربات من سكة فريدة فلم يسمع حسن مفتاح الا حوافر عربة واحدة في شارع سليمان . تخيل اليه انها تسير صوب قصر النيل . وزادت المصابيح الزرقاء سكون الليل . وزاد سكون الليل برودة الليل . فأقفل حسن مفتاح خشب النافذة ثم زجاجها ثم جذب الستار الاسود ليحجب النور حين ينيره ليقرأ قليلاً ، وتلمس طريقه في الظلام الكامل الى مفتاح النور . وفي طريقه الى المفتاح وسط الظلمة

وقع بصره على المرآة الطويلة مرآة الدولاب فرأى نوراً غريباً مخنوقاً ضرب الى الحمرة يتجمع فيها كانه قبس من نور محطة البنزين . وعجب لهذا النور كيف يصل الى المرآة الطويلة بعد ان أغلق النافذة وجذب الستار. واراد ان ينصرف عن المرآة ولكن قوة مجهولة عاقته عن الحركة . فمضى يتأمل الغبش الأحمر فرأى في وسطه صورة فؤاد منقريوس تطلع اليه فيما يشبه العتاب ، فتلاحقت دقات قلبه حتى كادت ان تختلط ، وارتفع لها صخب عال انتشر في الغرفة الساكنة السوداء فجعل كلما فيها يرتجف فرقاً حتى قطع الاثاث ، او خيل الى حسن مفتاح ذلك فقد سمع صريراً على الخشب الباركيه وطقطقة جاءته من السرير أو شبه ذلك . ووجد حسن مفتاح نفسه يقول بصوت مسموع ، « باسم الله الرحمن الرحيم » واحس بقطرات العرق تنحدر على جبينه وتبلل خديه . واندفع الى النور فأناره وأغمض عينيه لحظة ثم فتحهما فرأى الغرفة تسبح في النور ، وعادت تسبح في النور ، وعادت اليه الطمأنينة شيئاً قليلاً ولكنه لم ينسَ الغبش الوردي المجتمع في المرآة الطويلة من لا شيء في الغرفة الظلماء . ولم ينسَ فؤاد منقريوس الذي أطل عليه من الغبش الوردي . وكان يخشى ان يرفع بصره الى المرآة الطويلة فيرى ما كان قد رأى . فأطرق لحظات يرتب افكاره ويطمئن قلبه ثم تشجع ورفع بصره الى المرآة الطويلة ولكن فيما يشبه الخلسة . فلما رأى المرآة الطويلة بيضاء بلورية صافية ناصعة لا يعكرها غبش، الا تتجمع فيها حمرة ولا يطل منها وجه ، اشتدت شجاعته واوجه المرآة الطويلة فوجدها لا تزال بيضاء بلورية ، ووجد النور الكهربائي قد تجمع في ركن من اركانها العالية وانعكس فبدا كبؤرة نورانية متفجرة يعشي سناها الأبصار اوذرة جسيمة تمزقت كهاربها وضاعت في الفضاء بدداً . اما بقية المرآة فقد رأى حسن مفتاح فيها بعض اثاث الغرفة معكوساً ورأى جزءاً من نفسه ، أكثر وجهه ونصف صدره وذراعه اليسرى فوق الغطاء الأحمر المفروش على السرير ، ورأى

الكوموديNو كاملاً وعليه القط الأسود كاملاً ورأى فخذي البنت العارية المعلقة فوق الكوموديno دون صدرها ورأسها . ولكن كل هذا لم يزل خوفه او عجبه تماماً . فقد كان يعلم ان الخروق في خشب النافذة قد يتسرب منها نور محطة البنزين . اما الستار الأسود فيعزل الغرفة عن العالم الخارجي تماماً . ومشى الى الستار يتحنه لعله يجد به خرقاً ينفذ منه النور فلم يجد بالستار خرقاً. لم يبق اذن الا ان يكون الغبش الوردي والوجه المطل من نسج وهمه . ولكن حسن مفتاح كان قليل الأوهام . ثم انه كان يفكر بالنساء حين اغلق النافذة وجذب الستار . وبدا له ان يجعل من فؤاد منقريوس موضوعاً للتجربة فيطفىء النور من جديد ويتطلع الى المرآة الطويلة ليرى ان كل الغبش الوردي والوجه المطل متجسدين ام لا . ولكن قلبه اصطفق في صدره اصطفاقاً مروعاً فعدل عن هذه التجربة ، وازداد تشككه في حواسه . واختلطت في رأسه الافكار فحاول ان ينصرف الى التفكير في النساء مرة اخرى لعله ان يهدأ ، فجاءت افكاره قصيرة مشوشة مبتورة كأنها نتف من شريط السينما المقطوع تعرض عرضاً مختلاً ، فيها لطخ بيضاء وفيها كتابة مقلوبة، وفيها صور لفؤادمنقريوس بعضها مفزع وبعضها حزين وبعضها هادىء لا سوءة فيه ، وفيها مدى مشحوذة وفيها امطار غزيرة تبلل سطوح منازل قديمة، وفيها جوارب صفراء ممزقة وفيها بنات كثيرات منهن عايدة علم ومنهن المرأةالمطلقة ومنهن عظام ملكة عبد السيد ومنهن موناً ربيع ومنهن الخادمندى ومنهن نسوة عرفهن في حفلات ساهرة ارتدين الحرائر الديكولتيه والحرائر ذات الذيول، ونسوة يراهن كل اسبوع مصادفة ونسوة مجندات من « الإنسا » لا يعرفهن زرق العيون صفر الشعور ونسوة ببنطلونات رآهن في شارع فؤادالأول. وفيهن ليدي ماكبث وفيهن امرأة تدعى يولاندا روسي كان قد عرفها ببور سعيد معرفة حميمة وفيهن امرأة صعيدية عوراء لا يذكر اين رآها . واختفت من هذه الرؤى المحمومة صور الرجال إلا صورة واحدة هي صورة فؤاد منقريوس التي كانت تتدخل بين هؤلاء النسوة بانتظام يوشك ان يكون رتيباً . واشتد به الهجس فثقل رأسه واحس بحاجة

الى النوم تشبه حاجة من يتناول شراباً مخدراً . وتمدد بعرض السرير ولكنه لم يتم تماماً بل بقي بين الغيبوبة والوعي . وانجلت صور النساء فما كان منها ملحاً خف وما كان منها عابراً لم يتكرر. ولم يبقَ في خياله إلا صورة فؤاد منقريوس ومن ورائه وقف الصاغ ممدوح الشربيني صاغراً في ملابس النساء ، ثم بعض المدى وشيء من الثلج المخطط بالاوحال .

ولكن فؤاد منقريوس بدا في زي بونابرت وقد دس يداً بين ازرار سترته واخفى الأخرى وراء ظهره ، وسمع حسن مفتاح فؤاد منقريوس يهمس مبتسماً: « إنَ اربعين يوماً تطل عليك من فوق الاهرام » ، ثم رأى علي بابا في ملابس محمد علي باشا شاهراً سيفه ومن ورائه اللصوص الاربعون حاملين خناجرهم. وخيّل الى حسن مفتاح أنه قد رأى هذا المشهد من قبل . ولكن اللصوص اختفوا ثم اختفى علي بابا ثم اختفى ممدوح الشربيني بعد ان خلع ملابس النساء وقذف بها في الهواء فتلاشت ، ولم يبقَ إلا فؤاد منقريوس في ملابس بونابرت ، ثم بدأ فؤاد منقريوس في جلباب وقبقاب ، وتلفت حوله فلماذا لم يجد احداً ضحك ضحكة عصبية جعلت حسن مفتاح يتصبب عرقاً وهو في غيبوبته ، ولكن فؤاد منقريوس هدأ بعد ذلك وابتسم له بحنان وقال :

– السلام عليك يا حسن .

– السلام عليك يا فؤاد .

– اطفىء النور يا حسن .

فنهض حسن مفتاح وسار الى مفتاح النور متخشب الاطراف كأنه نائم يمشي في سباته وادار المفتاح وعاد الى مكانه في السرير فقال فؤاد منقريوس :

– السلام عليك يا حسن .

فاضطرب حسن مفتاح لتكرار التحية واجاب :

– السلام عليك يا فؤاد .

وساد صمت قليل واذا الصوت يتجدد قائلا :

– السلام عليك يا حسن .

وكاد حسن مفتاح ان يهب مذعوراً فقد احس بما يشبه الاختناق ، ولكن قوة خفية ثبتته في مكانه . أجاب :

– السلام عليك يا فؤاد .

وبعد انسلم للمرة الثالثة أحس بطمأنينة عجيبة لا عهد له بها ، وصفت نفسه كأنما ارتفع الى مواقع الملائكة ، وسمع رفيف اجنحـــة ولكنه لم يرَ إلا وجه فؤاد منقريوس تحيط به هالة من النور الدري ، وسمعه يقول :

– حاولت ان اذكّرك منذ الصباح .

وبمَ تذكرني ؟

– بالاربعين . اليوم اربعيني يا حسن .

وتذكر حسن مفتاح احلام الفجر واخطأ النهار وقال :

– عفواً . أنا لم افهم .

ـ أأنت حانق يا حسن ؟

– كلا . ولكني انتظرتك في الليلة الاولى فلم تزرني كما وعدت .

– نعم . نعم . اعلم ذلك . وقد رأيتك تنتظر ، ولكني لم اجرؤ على الدخول .

– ما السبب ؟

ـ الا تعرف السبب ؟

ـ هل اخافك ممدوح الشربيني ؟

فضحك فؤاد منقريوس وقال :

ـ كلا . وانما ردني القط الأسود .

ـ وما شأن القط الأسود .

ـ هو الذي ردني . نحن ندخل مكاناً فية قط اسود .

ـ ولم لم تطلعني على هذه الحقيقة يا فؤاد .

ـ لِمَ ؟ لِمَ ؟ لان المنية لم تمهلني .

ـ ليتني كنت اعرف .

ـ ما فات فات .

ـ لو انني عرفت لأبعدت القط الأسود .

ـ ما فات فات .

ـ اتحب ان ابعد القط الاسود .

ـ كلا . كلا . لقد فات الاوان .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أنسيت ان هذه ليلة الأربعين ؟ لسوف ينتهي اجلي غداً عند منتصف النهار . انت تعلم ذلك يا حسن . ولكني لا ادري ما مصيري بعد ذلك . من يدري . قد أسجن في قبري الى الأبد . قد اطير الى عالم ثانٍ. من يدري ؟ ولكن اربعيني تنتهي غداً اذا انتصف النهار . نعم ، هذا شك فيه . قلت ان لم ارك قبل مطلع الفجر فلن اراك ثانية . قلت لا بد من المجازفة ، ولو حبست ألف سنة .

– من يحبسك يا فؤاد ؟

– الملـكان .

– ولمَ يحبسانك ؟

– محرم على الأموات أن يزوروا الاحياء .

– اهذا هو العقاب ؟

– نعم يا حسن . الف سنة في جذع شجرة الجميز . أواه ! سوف أحبس الف سنة في شجرة الجميز . في شجرة الجميز . ولكن لا تخف شيئاً يا حسن . لن يمسك سوء يا حسن .

– اي سوء يا فؤاد ؟

– لن يمسك سوء . القط الاسود يحميك . قلت لن يمسك سوء .

– اي سوء يا فؤاد ؟

– من زارته روح مات في شبابه . فان كانت روحه طاهرة مات غريقاً ، وان كانت تحسه مات مخنوقاً . ولكن لا تخف . لا تخف . لا تخف . القـط الأسود يحميك . نعم القط الاسود . كان ينبغي ان أحطم القط الأسود . ولكن لا . انا لا أرضى ان يمسك سوء . لا تخف . لا تخف . لا تخف .

– انا لا أخاف يا فؤاد . ولكن لمَ حكمت على نفسك بالسجن ؟ الف سنة . في شجرة الجميز . ما اقسى الجزاء .

– لم حكمت على نفسي ؟ انا لم أحكم على نفسي . انت حكمت عـلي . انت . انت . انت .

– كيف كان ذلك ؟

– ألم اسألك ان تقتل علي عبد الله ؟

– نعم ، سألتني .

ـ لو انك قتلته لحللت فيه وكتب لي أجل جديد . ولكنك لم تقتله . لا بد أن أحيا من جديد .

ـ ولمَ تريد ان تحيا من جديد .

ـ لكي انتقم .

ـ آه تذكرت . نعم . تنتقم . ولكنك سألتني ان أرتكب جريمة .

ـ نعم . وانا الآن أسالك الآن .

ـ انت مجنون يا فؤاد .

ـ ألست صديقي ؟

ـ طبعاً يا فؤاد .

ـ هيا اقتل علي عبدالله .

ـ هذا محال يا فؤاد .

ـ ألست صديقي ؟

ـ طبعاً يا فؤاد .

ـ هيا أقتل علي عبدالله .

ـ هذا محال يا فؤاد . كيف أقتل بريئاً ؟

ـ هيا اقتل علي عبد الله .

ـ محال يا فؤاد . محال . محال .

ـ لا بد ان أنتقم .

ـ ولمَ اقتله انا ؟ لم لا تقتله انت ؟

ـ العاجز يسأل القادر .

ـ أتقصد اني مجرم ؟

ـ كلا . ولكن الناس نوعان : القادرون وانت منهم ، والعاجزون وانا منهم .

ـ من اين لك هذا ؟

ـ لو انني استطعت ان أقتل لما انتحرت . نعم كان ينبغي ان اقتل زكية فقتلتُ نفسي .

ـ ولم اردت ان تقتل زكية ؟

ـ لانها خانتني .

ـ ألم تقل ان زكية « واحة في صحراء الحياة » ؟

ـ انها قطعة من قلب الجحيم . انها حرية في ضمير الانسانية . انها . . .

ـ ماذا جئت ؟

ـ اسأل تحية .

ـ تحية ؟ من تكون تحية ؟

ـ تحية بنت الخفير مدبولي .

ـ ومن يكون مدبولي ؟

ـ الا تذكر المنيا الثانوية ؟ الا تذكر غرفتي في شارع باك ؟ الا تذكر أن أبي قد ارسل إليّ بنتاً صغيرة عمرها تسع سنين لتخدمني ، شعرها أصفر وعيناها زرقاوان ، وكان ابراهيم نور الدين يشدها من شعرها دائماً ، وكنت انت تكايدها دائماً بقولك : « يا بت انت لازم جايه من دير مواس ؟»

ـ نعم ، اذكرها . أكان اسمها تحية ؟

ـ نعم ، هذه كانت تحية بنت الخفير مدبولي .

ـ وما لتحية وما لزكية ؟

ـ كنت في اليوم السابق بالذات أتجول صباحاً في ميدان السيدة فقابلت سيدة جميلةشعرها اصفر وعيناها زرقاوان تلبس افخر الثياب ويفوح منها عطر يكفي لعشرين امرأة . رأيتهـــا ترمقني وتضحك ثم قالت : « انت مش عارفني ؟» قلت : «لا» قالت : لكن « انا عارفاك ». قلت : « حضرتك مين ؟ » قالت . « حضرتي؟ جرى ايه يا سي فؤاد ؟ » فارتبكت وقلت ، « انا آسف قوي لكن انا مش فاكرك . » قالت « انا تحية» ولكني لم افهم وازداد ارتباكي فضحكت من جديد وقالت : « تحية بنت الغفير مدبولي ، خدامتك تحية بتاعت المنيا ، تحية اللي من دير مواس ، افتكرت يا سي فؤاد ؟ تخونـــك العشرة . تخونك الخدمة يا سي فواد » . فأمسكت بذراعها وقلت: « انت اتغيرت قوي يا تحية ، لكن ازاي بقيت كده ؟ انت بتمشي مع الانجليز ؟» .قالت انها خدمت بعد ان مات أبوها في بيت مهندس من مهندسي الري انتقل الى القاهرة فانتقلت معه اليها ثم حدث ان اختفت أساور سيدتها فاتهمت تحية بسرقتها وطردت وقبض عليها البوليس بضعة أسابيع ثم اطلق سراحهـــا لعدم توفر الأدلة ، فاشتغلت ببيع اليانصيب ثم رآها شاب يدعى سرهنك . أنت تذكر الولد سرهنك الذي كان معنا في المنيا الثانوية، سرهنك صاحب العربة الأدلر. رآها سرهنك ونظفها وجعل منها سيدة ووضعها في جرسونييرة له بشارع شمبوليون بجوار الانتكخانه .

ـ ولكن ما لتحية وما لزكية ؟

ـ في ذلك اليوم سألتني تحية عنك وأرسلت اليك معي سلامها ، وسألتني عن أحوالي فقلت لها اني مقدم على الزواج من آنسة تدعى زكية حنين صفاتها كذا وكذا، وإذا بتحية تضرب كفيها عجباً ثم اقتادتني في صمت الى الجرسونييره. وكنت اسألها في الطريق : « على فين بس يا تحية ؟ » فتجيب : « صبرك يا سي فؤاد .حاتعرف كل حاجة ». فلما وصلنا اخرجت المفتاح وفتحت الباب ، فهب في وجهي عطر غريب ، ودفعتني تحية الى الداخل وقالت : « خش يا بطل . »

ودخلت فرأيت زكية حنين تسير في المدخل حافية القدمين وقد لبست روب دي شامبر من أرواب الرجال على اللحم، ورأيت صاحبنا سرهنك يجلس في مقعد عظيم ويدخن سيجاراً . وجمد الدم في عروقي فلم أفه بكلمة وانسحبت ورجعت الى بيتي حيث استخرجت مسدسي وعدت الى دار زكية ، وهناك انتظرتها تحت السلم حتى عادت وقت الغداء . ولكني عجزت عن قتلها . بل اني عجزت عن إخراج المسدس . ونظرت الى زكية نظرة احتقار وهي تصعد السلم ولم تقل شيئاً فانتابني دوار واستندت إلى الحائط . وحين أفقت رجعت إلى بيتي وأشتريت في طريقي شيئاً من الجبن ولكن نفسي زهدت في الطعام طول اليوم وفي الليل لم يغمض لي جفن ، وظللت معتكفاً حتى مجيئك في اليوم التالي .

– مسكين يا فواد .

– أجب . أتستحق زكية ان تموت ام لا ؟

– مسكين يا فواد .

– اجب . اتستحق زكية الموت أم لا ؟

– كان ينبغي أن تموت .

– ينبغي ان تموت الآن .

– كان ينبغي ان تموت ساعتها . اما الآن ..

– لا أرى فرقاً .

– جائز يا فؤاد .

– مؤكد يا حسن .

– ينبغي ان تموت زكية . لا بد ان تقتلها انت .

– محال يا فؤاد .

– اتعجز عن قتلها ؟

– انا ارفض ان أقتلها .

– اذن فأقتل علي عبدالله لأحلّ فيه واقتلها بيدي . انا اطلب مهلة . انا لا اطلب إلا مهلة .

– محال يا فؤاد .

– اقتل علي عبدالله .

– أنا لست بالمجرم .

– أنا لا اطلب إلا مهلة .

– محال .

– لقد جازفت وجئتك .

– محال .

– سوف احبس الف سنة في شجرة الجميز .

– محـــال .

ورأى حسن مفتاح الهالة النورانية تنطفىء فجأة ولم يبقَ امامه إلا وجه فؤاد منقريوس مختلطاً بالغبش الوردي ، وقـد احمرت عيناه ولاح فيهما غضب صريح . فاصطفق قلب حسن مفتاح وعلا لغطه فقـد رأى نذر الشر توشك ان تنقض عليه . وعاد اليه احساسه بالاختنـــاق ، وسال العرق على شعره الناعم الجميل وجرى على جبينه وسمع فؤاد منقريوس يقول :

– كان في امكاني ان احطم القط الأسود .

فارتجف حسن مفتاح ارتجافاً متصلاً . ارتجف كل ما فيه ، ارتجفت اذناه ،

ارتجفت اصابعه ، ارتجفت ساقاه ، ارتجفت شفتاه . اما قطرات العرق فصارت جداول بللت الغطاء الاحمر تحت رأسه ، واما قلبه فقد كف عن الخفقان فلم يعد له همسة الماضي كأنه في عداد المائتين . ولكنه رغم ذلك جمع البقية الباقية من شجاعته وقال :

— محال . محال . محال .

وما ان فرغ من كلامه حتى سمع زمزمة كأنها الريح تمعمع لها الفراش الهادىء. ونظر الى القط الأسود فإذا عيناه الخضروان تلسعان وتحترقان في الظلام الكامل كأنها شعلتان من البوسفور . واذا القط الأسود يهوي على الارض ويتحطم ، ومن بعده صورة البنت العارية المعلقة فوق الكومودينو . فشهق حسن مفتاح ونهض من مرقده مذعوراً وافلتت منه صرخة مرعبة ، واندفع نحـــو الباب يلتمس النجاة وسقطت كفـه على مفتاح النور فأداره ، وعادت الى قلبه ضرباته المضطربة ، ونظر الى ارض الغرفـــة فرأى القط الاسود مهشماً ايما تهشيم ، فشهق مرة اخرى ونظر الى المرآة الطويلة فرآهـــا بيضاء بلورية صافية ناصعة لا يعكرها غبش ولا تتجمع فيها حمرة ولا يطل منها وجه فؤاد منقريوس . وفتح باب غرفته ونفذ منه الى المدخل وانارة على عجل ، ومضى يقرع باب مدام ماريكا قرعاً متوصلاً حتى استيقظت ونادت فزعة : « من الطارق ؟ » وحـــين اجابها خرجت إليه مضطربة عاجبة مستفسرة ، فجذبها من يمنيها دون كلام واجلسها على كرسي من كراسيها الاسيوطية الرابضة في المدخل . ولما استفاق قليلاً جمع محصوله من اللغة وصاغ منه اعتذاراً غير مفهوم ، والسيدة صابرة عليه تسوي من شعرها الابيض المنقوش وتنظر اليه في ذهول واشفاق حتى استرد اكثر طمأنينته بمطلع الفجر وروى لهـــا طرفاً من حلمه المزعج ، طرفاً تسمعه السيدة ولا ترتاب في عقل راويه .

وبالقهوة والسجائر والصبح العريض هدأ حسن مفتاح اتم الهدوء. ودفع باب غرفته بثبات فوقع على القط الاسود المهشم ورفض ان يتذكر ، ولكنـــه علم انه من الهالكين . كذلك اطفأ النور ثم سعى الى النافـــذة بثبات وأزاح عنها ستارها ثم فتحها فتدفق منها الصباح في الغرفة الساهمة .



٤

تواری حسن مفتاح من القـــاهرة اذ كان لا بد ان يتواری . كان مرهق الاعصاب مهدود البناء . كان مرهق الاعصاب اكثر مما كان مهدود البناء . لقد رأى وسمع اكثر مما يطيق . خرج من داره في باكورة الصباح مـــا ان سمع الموتوسيكلات تقعقع في شارع سليان باشا وقوافـــل اللوريات ، لوريات الجيش البريطاني ، تجلجل في شارع الملكة فريدة . خرج على عجل . خرج . خرج بلا وجهة معينة . خرج . خرج . فاراً من داره . خرج . وسار في الطرقات بخطى واسعة كأنه ساعٍ الى موعد ، ولكنه وجد نفسه بعد ساعة يدور حول مربع واحد يبدأ بالناشونال هوتيل ويصل الى ميدان سليان باشا ويمر بالبنك الاهلي ويصل الى تقاطع الملكة فريدة بشريف باشا وينتهي حيث بـــدأ في الناشونال هوتيل . وكان في الصباح ما يسر خاطره ويهدىء نفسه ولكن خاطره لم يسر ونفسه لم تهدأ . فصحو مصر الابدي قـــد تجمع في شارع قصر النيل ، ولكن حسن مفتاح لم يلتفت حتى الى اشعة الشمس المنعكسة على زجـــاج الصالون الاخضر فاستحال بها المكان الى مروج الذهب ، وخطرت عرائسه الخشبية ناقصة الثياب تغتسل في الشروق الجديد كأنها حور تحلت بماسات كبيرة يتفجر منهـا الضياء ، وتهادت على السندس المفروش في احلام الشعراء .

ولم يلتفت حسن مفتاح الى قلة السابلة وقد كان ينبغي ان يلتفت لان هدوء

شارع قصر النيل لم يكن هدوءاً موحشاً . وقد كان ينبغي ان يحس بأن القاهرة في بواكير النهار قد خلقت له ولسيارات الجيش البريطاني وحدهما . وقد كان ينبغي ان يحس بالدفء رغم ان عرائس الصالون الاخضر الباسمة وراء الفترينات وتماثيل بونتريمولي ورؤوس البنات التي يعرض سقراط عليهـــا أساليبه في قص الشعور وتزيين الاهداب كانت تكويها سهام الشمس الباردة فتقشعر رغم نضارتها واستبشارها . كان ينبغي ان يحس حسن مفتاح بالدفء لانه كابد الليل الطويل في اعجاز ديسمبر المتلفة ، ولكنه لم يحس به ، ولم يحس بشيء مـــا الا عقارب الساعات العامة وهي ترتعش سواء في التقاطع او في الميادين . لم يستول عليـــه عجب ولم يستولِ عليه فضول،ولكن استولى عليه انزعاج من الداخل ، ولولا السماء الضحوك ذات الاطلس الغزير الذي شف عن الشوارع الجميلة الشهبـــاء ذات البقع الصفراء والبقع الحمراء لاستولى عليه انزعاج من الخارج كذلك .

ان كل ما رآه وسمعه اثناء الليل كان محض خيال ، فهذه الاشياء لا وجود لها الا في خيال المحمومين ، وهو لا شك محموم . كله باطـل . اسمعت يا حسن مفتاح ؟ باطل . باطل . اسمعت يا حسن مفتاح ؟ ولكن القط الاسود قد تحطم . ألم يتحطم القط الأسود ؟ نعم تحطم القط الأسود . فكل ما رآه وسمعه اثناء الليل كان حقيقة إذن ، وهذه الأشياء لا وجود لها في عالم الايقاظ . ولكن من قال ان القط الأسود تحطم ؟ نعم ، تحطم القط الأسود ، وقـــد رأته مدام ماريكا مبعثراً على أرض الغرفة ، وفي هذا فصل الخطاب . اهرب ايها الرجل. أهرب ايها الرجل. ان لعنة فؤاد منقريوس قد حلت به ولسوف يموت مشنوقاً. مشنوقاً ؟ لا . لا . لسوف يموت غريقاً . اهرب ايها الرجل . ولكن ... ولكن ماذا جنى حتى ينزل به فؤاد منقريوس هذا القصاص ؟ ان روح فؤاد منقريوس لا شك روح آثمة . ولسوف يموت مشنوقاً . ان روح فؤاد منقريوس تطلب اليه ان يقتل، بل ان يقتل رجلاً بريئاً. ان روح فؤاد منقريوس لا شك روح شريرة . ولكن حسن مفتاح يعرف ان فؤاد منقريوس كان اثناء حياته مثالاً للوفاء ، لا

يحمل من الشر الا ما يحمله طفل في الثالثة ، فلا بد اذن ان روحه قد غضبت وحطمت القط الاسود في لحظة حمقاء .

يا لها من روح تاعسة . لقد كانت تتعذب . لقد تعذبت اربعين يوماً ، ولسوف تتعذب الآن الف سنة كاملة في شجرة الجميز ، فلا بد ان لديه سبباً قوياً . لقد حطم فؤاد منقريوس القط الاسود ورضي لحسن مفتاح ان يموت ، فلا بد ان لديه سبباً قوياً ، انه يريد ان ينتقم ، ان ينتقم من زكية حنين . نعم . ان هذا سبب قوي عند فؤاد منقريوس ، ولكن حسن مفتاح لا يفهمه . ان حسن مفتاح يفهم الحقد كيف يكون اهوج جباراً . وهو يفهم الانتقام كيف يكون مدمراً كالصواعق مهلكاً كمياه الطوفان . هو يفهم ان يقتل رجل رجلاً بل ان يقتل رجل الف رجل اذا حقق ذلك خيراً عاماً ، ولسوف يقتل بيده السنوسي باشا ورؤوف باشا وخيرت باشا وشوقي باشا حين يأتي اليوم العظيم . نعم ، سيشنقهم بيده لو امكن ذلك واحداً واحداً : في ميدان العتبة الخضراء وواحد في ميدان باب الحديد وواحد في ميدان الاسماعيلية وواحد في ميدان الجيزة ، سيشنقهم على مرأى من الجماهير الهائجة الظمأى الى الدماء ، كل في مكان جريمته ، الاول حيث اباد مائة رجل يطالبون باحياء الدستور ، والثاني حيث اباد نحو خمسين عاملاً مسالماً يوم تظاهر عمال النقل طالبين رفع الاجور ، والثالث حيث سقطت جموع لا حصر لها تنادي بسقوط الانجليز والرابع حيث سقط خمسون طالباً يوم تظاهر الطلبة منادين بتنفيذ الدستور .

ولسوف يجد حسن مفتاح لذة في شنقهم . ولكن حسن مفتاح لا يفهم كيف يقتل رجل رجلاً لأنه فر مع زوجته أو لأنه طعنه في كبريائه أو لأنه غشه في البوكر . ان حسن مفتاح ليست له حياة خاصة فهو لا يفهم هذه العواطف الخاصة . ثم ما شأنه هو بكل ذلك ؟ اذا شاء فؤاد منقريوس ان يقتل زكية حنين فليقتلها بشخصه أو فلينسَ ما كان . اما ان يزج بحسن مفتاح في جريمة لا شأن له بها فهذا ما لا يقبله حسن مفتاح ، وهذا ما لا يفهمه حسن مفتاح في

فؤاد منقريوس . انه لن يقتل علي عبدالله ولو جاء بذلك أمر من السماء . ان روح فؤاد منقريوس لا تزال حائمة ، ولعلها الآن تتبع خطاه (هنا يلتفت حسن مفتاح مذعوراً ويحملق في الفضاء الابيض) ، ولكنها سوف تدخل شجرة الجميز عند الظهيرة ولسوف يرتاح حسن مفتاح منها الى الأبد ، أو على الاقل حتى يلقاها في عالم الارواح . فلو ان حسن مفتاح قتل علي عبدالله لما انتفع فؤاد منقريوس بذلك . وهبه ينتفع بذلك فان حسن مفتاح « لن » يقتل علي عبدالله ولو عذبته الابالسة. لن يقتل حسن مفتاح علي عبدالله ولو علم ان في ذلك الخلاص لروح فؤاد منقريوس . لن يقتل حسن مفتاح علي عبدالله . لن يقتل ... لن لن يقتل يقتل لن لن لن . لن يقتل . لن يقتل . لن . ثم ما أدراه ان فؤاد منقريوس سينتفع من قتل علي عبدالله لو تجسد فيه ؟ ان فؤاد منقريوس مخلوق وديع لا يملك ان يقتل دجاجة فكيف يقتل زكية حنين؟ ألم يعترف له ليلاً بانه ترصد لها تحت السلم بعدوقوفه على خيانتها ولكنه عجز عن قتلها فانتحر ؟ وما الدليل على انه لو اتيحت له فرصة أخرى سيقتلها ؟ أليس الأرجح انه سيحمل مسدسه ويتعقبها فترة من الزمان بباب سرهنك وبباب ابيها وبباب الخياطة وبابواب السينمات وفي الحواري الضيقة دون ان يجسر على قتلها .

وحين ييأس من قتلها قد ينتحر مرة اخرى ويعود من حيث بدأ او يأوي الى معتزله في شجرة الجميز يبكي احلامه الضائعة . ليس هذا هو الارجح بل هذا هو المؤكد . فما جدوى قتل علي عبدالله ؟ ان فؤاد منقريوس قد قالها بنفسه . ان في العالم اناساً يقتلون واناساً لا يقتلون . وحسن مفتاح من الفريق الاول وهو لا يعلم ذلك ، وفؤاد منقريوس من الفريق الثاني وهو يعلم ذلك ايضاً . لعل لأرومته التى اكلت الزيت ألفي عام دخلاً في ذلك اذ كسرت فيه ناب الشر ودمثته على طريقة الاقباط .

ولكن لا . ان اليوزباشي شحاته منقريوس شرس غضوب خليق بأن يبيد قرية بأكملها . ان اليوزباشي شحاته منقريوس لا أثر فيه للاجيال آكلة الزيت ، وما

من مرة رآه فيها حسن مفتاح الا وخيل اليه أن مثله يأكل في كل وجبة أقة من اللحم النيء . ترى كيف أنجب اليوزباشي شحاته منقريوس فؤاد منقريوس؟ كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟ فؤاد منقريوس قاتل . ها ! ها ! ها !

وحين بلغ حسن مفتاح هذا القدر من التفكير خطر له خاطرغريب. خيّل اليه ان فؤاد منقريوس قد ابتكر هذه القصة الشيطانية ليكتب له اجل جديد. ولكنه انتحر ، فلا بدأن لانتحاره سبباً . ان حكاية زكية حنين حكاية متماسكة ، وهي حكاية تتكرر كل يوم عشرات المرات ، وحسن مفتاح يعلم انها ظاهرة مألوفة فى المجتمع المصري حيث يتم الزواج بالوسيط او بالضغط الخارجي ، وحيث يجد الفتيان والفتيات بعض المشقة في التخلص من غرامياتهم السابقة ، حيث الخيانة ان لم تحدث بالفعل فهي حادثة بالفكر لمن لاحيلة لهم او للزاهدين. ولكن من قال ان فؤاد منقريوس قد انتحر ؟ ان الطبيب الشرعي قد احتمل الرصاصة الطائشة ولو من قبيل الفرض . نعم . ان الرصاصة التي أردت فؤاد منقريوس كانت رصاصة طائشة، فزكية حنين لم تخن، وفؤاد منقريوس لم ينتحر اما حديث الانتقام فخرافة اختلقها فؤاد منقريوس لانه يحب الحياة ويود أن يكتب له فيها أجل جديد . ان روح فؤاد منقريوس روح ماكرة تزعج الهادئين وتوعز بالقتل لتعيش من جديد . انها روح لعينة . انها روح لعينة ، ولو لم تكن روحاً لعينة لما حطمت القط الأسود ورضيت لحسن مفتاح الوفي الأمين أن يموت في شبابه وأن يموت مشنوقاً . أغربي ايتها الروح اللعينة ! أهرب ايها الرجل ! أغربي ! أهرب !

ما هذه الترهات يا حسن مفتاح ؟ ان عقارب الساعات لم تعد ترتعش ، وعرائس الصالون الاخضر وبونتريمولي وسقراط قد استدفأت بالشمس التي ارتفعت، ورائحة الصباح الجميلة قد اختفت وحلت محلها رائحة القهوة في الريتز ، وفي الافريكا وفي بار مترو وفي الامريكين ، وهدوء الصباح بدده باعة الصباح الهاتفين : اهرام اهرام . جبشان ميل ميل . جيبت ايجيبت . والسيارات

الخاصة السوداء والخضراء والصفراء والداكنـة الصفرة من كل ذات كلا كسون مزعج او نفير ، واقدام السابلة المهرولين ، ودخل العالم الخارجي في نفس حسن مفتاح رويداً رويداً حتى هدأت نفسه وكاد ان ينصرف عن التفكير . وابتاع بعض الصحف وسعى الى الامريكين القديم ليشرب شيئاً من القهوة ويأكل بضعة من الكرواسان ، وسار بين الناس كالأبله لا يعلم ما نزل به . ان خصلة مـــن مفرقه الابيض الجميل قد ابيضت . ولكن حسن مفتاح لن يعلم ذلك لانـــه لن يتطلع الى مرآة بعد اليوم ، الا ان يدله عليه صديق من اصدقائه . ولكن حسن مفتاح قد هدأ الان بعد انزعاج لان السابلة قد ملأوا الشوارع ، واكثرهم من الاجانب يحمل كل بورتفيوليو جسيمة كأنهم ذاهبون جميعاً الى المحاكم . ولكن لا مفر من زيارة علي عبد الله فحسن مفتاح لن يطمئن قبل ان يتأكد من صدق حواسه او كذبهـــا . ان علي عبد الله لا شك يحمل السر . ان فؤاد منقريوس الذي ازعج الصديق لا بد ان يكون قد ازعج الفريسة . فان أيد عـلي عبدالله مزاعمه فقد وجب عليه الفرار ، الفرار حيث لا تطارده هذه الروح اللعينة ، وان نفي علي عبدالله مزاعمه وجب عليه ان ينسى الموضوع تمامـــاً . ووجد حسن مفتاح ان كل تفكير سابق لذلك يضير اكثر مما ينفع فهدأ باله . وبعد ان هدأ باله قرر ان القط الاسود قد تحطم فعلاً ، ولكنه قرر كذلك انه لا بد قد حطمه بيديه وهو نائم يتلوى تحت كابوسه المزعج .

وفي الامريكين جلس يتناول افطاره ، وهو شيء من القهوة وعـــدد من الكرواسان ، ويقرأ الصحف . وكان أول ما وقعت عليه عيناه الشارة السوداء التي تجلل الركن الأيسر من الصفحة الاخيرة . وتحت الشارة السوداء قرأ : « يقيم اليوزباشي شحاته منقريوس مأمور مركز الفيوم قداس الاربعين عن روح ولده بكنيسة مارجرجس » فارتجف حسن مفتاح وكادت ان تسقط الصحيفة من يده وحسب ان هذا صوت الفـــال . ان فؤاد منقريوس يطارده حتى في القهوة ذاتها . ولكن هدوءه عاد إليه حين ذكر ان الناس يعلنون دائماً عن الاربعين

وان ورود الخبر في « الاهرام » امر طبيعي ، بل وجد انه من غير الطبيعي ألا يرد الخبر في « الاهرام » . ومضي يقرأ البلاغات الحربية ثم انباء الداخل ثم نسي نفسه جملة في مقال يحصي ضحايا التيفوس والملاريا الخبيثة في الصعيد .

وفيما هو يتناول فطوره اذ لمح رجلاً يتناول قهوته بين البار والخزنة ، وارتجف لمرآة ؛ فقد كان الرجل علي عبدالله . أي قدر هذا الذي يسوق الرجال كأنهم قطع الشطرنج . ان حسن مفتاح لم يكن يرى علي عبدالله إلا غراراً منذ انفصالهما بعد البكالوريا . مرة كل عامين او ما يشبه ذلك . ترى ماذا ساق علي عبدالله الى حسن مفتاح يوم الاربعين ؟ لعل روح فؤاد منقريوس قد همست في اذنه صبحاً وقادت خطاه الى حسن مفتاح ليتم فيه حسن مفتاح الأمر العظيم . وزاغت عينا حسن مفتاح وأحس بالجريمة تملأ جو الامريكين تحت الخيمة الداكنة ، ورأى الهواء الاشهب يتمزق أمام بصره وتتطاير منه ذرات لامعة كأنها الكهارب الهاربة . ثم رأى سواداً : حلقة كبيرة سوداء حجبت عنه البار والخزنة وعلي عبدالله وكل شيء . ولكنه استرد رشده بعد قليل . ان فؤاد منقريوس لا شك آثم وملعون ولا يستحق ان يقام على روحه قداس في كنيسة ، فقداسه الحق بين القتلة والخونة والكذابين والأمارين بالسوء ينبغي ان يقيمه الابالسة حول الجيف البرصاء بين القبور لتهلك روحه أبد الآبدين . ان فؤاد منقريوس قد حطم القط الأسود وفي هذا الكفاية .

ولكن حسن مفتاح كان يعلم ان هذه فرصة نادرة للقاء علي عبدالله . فهو لا يعلم له مسكناً ولو افلت منه الآن لاقتضاه ذلك ان يقصد الى وزارة الاوقاف ، حيث يعمل علي عبدالله بادارة الجماعات الخيرية ، لكي يحصل منه على موعد وفي هذا مضيعة لنهارين . كذلك ادرك ان تردده صبياني ليس له ما يبرره . ودس يده في جيبه باحثاً عن الآلات الحادة ، مبرأة أو موسى أو اي شيء، فلم يجد من هذه الآلات شيئاً فاطمأنت نفسه وأمنت شر الوسواس؛ كل ذلك

وعلي عبدالله في شغل عنه بقهوته وفطيرته بين البار والخزنة ، لا يبدو لحسن مفتاح منه الا الجانب الايسر .

واخيراً نهض حسن مفتاح وتقدم من علي عبدالله وحيّاه ودعاه الى مائدته فأستجاب وسأله عن أحواله فهمهم علي عبد الله بما لا يفيد شيئاً . ولم يعجب حسن مفتاح لذلك ، فقد رأى جفنيه متورمتين ورأى الزرقة ضاربة فيما تحت عينيه، ورأى الشيب قد امتد الى بعض شعره قبل الأوان . وقال علي عبد الله انه ما كان ليتعرف على حسن مفتاح فقد شاب مثله قبل الأوان في الناصية . فلما سمع حسن مفتاح هذا الكلام تحسس رأسه بأصابعه وحك ذقنه حكاً متواصلاً، وتجمع في عينيه ما يشبه اليأس . وقال علي عبد الله انه كان دائم التفكير في حسن مفتاح منذ اكثر من شهر لغير ما سبب معلوم . ثم كان سكوت واطراق طويل . ولكن حسن مفتاح لا يحتمل الصبر . ولم يدرِ كيف يبدأ المناورة ، انه لا يستطيع ان يكاشف علي عبد الله بخواطره وشكوكه خشية أن يهزأ منه علي عبدالله ويظن بعقله الظنون . ان حسن مفتاح يرى القرائن تتواتر ولكنه لا يجرؤ على اذاعة هواجسه . وأخيراً طبق حسن مفتاح الصحيفة بعناية وناولها لعلي عبدالله فقرأ علي عبدالله الخبر في انزعاج واضح . وسأله حسن مفتاح قائلاً : « اتذكره ؟ » اجاب : « نعم » . وكان صمت جديد . قال : « لقد كان شديد الشبه بك» . أجاب : « نعم » . ولم يضف الى ذلك شيئاً ولكنه ابتلع لعابه ، فعلم حسن مفتاح انه يعرف شيئاً كثيراً . وكان لا بد لاحدهما ان يكسر الصمت فتأهبا للكلام في وقت واحد . ثم نظر كل منهما الى الآخر واطرق ولزم الصمت الطويل . واخيراً قال علي عبد الله :

– اتعتقد في الأرواح ؟

اجاب حسن مفتاح :

– لا ادري . اتعتقد انت فيها ؟

– نعم .

وحين اطمأن الى ان حسن مفتاح لن يهزأ اضاف :

– انا الآن اعيش في جحيم يا حسن ، ففي كل ليلة أحس باختناق شديد وأصحو نحو منتصف الليل على صوت قعقعة كأن يداً خفية تحطم أثات غرفتي ، او صوت حشرجة كأن رجلاً يكابد الموت في غرفتي ، أو صوت نحيب موجع متصل كأن رجلاً يبكي خطاياه في غرفتي . ولقد صحوت ذات ليلة على رياح شداد تعصف بغرفتي رفعت عني الغطاء واطاحت بالصور المعلقة فهشمت بها المرايا ، وحملت كتابي الذي اقرؤه قبل النوم الى أقصى الغرفة وملأت البيت صفيراً أيقظ النائمين .

– ومتى كان ذلك ؟

وسكت علي عبد الله سكوت من يراجع نفسه ثم قال :

– كان ذلك منذ اربعين يوماً .

وشخص حسن مفتاح اليه ببصره ثم تطلع الى النعي في الصحيفة الملقاة على المائدة الخضراء ذات المفروش المخطط . وتنبه علي عبدالله الى ما يفعله حسن مفتاح ، والتقى بصراهما .

قال حسن مفتاح :

– أي يوم مات فؤاد منقريوس .

– اظن ذلك ...

– ألا تستطيع ان تربط بين الحادثين ؟

– ولكن ما شأن فؤاد منقريوس . ان صلتنا ايام المنيا الثانوية لم تتجاوز التحية ، وما آذيته في حياتي وما حملت له حباً ، ففيم يزورني فؤاد منقريوس ؟

– لعل شدة الشبه بينكما جعلته يأنس اليك يا علي .

ولم يعرف علي عبدالله بم يجيب ، ولكنه قال بعد سكوت طويل :

– هذا جائز ، واعجب منه ان اراك انت في منامي شاهراً مدية تلمع في الظلام تطعن بها رجلاً يلبس بعض ثيابي ، ولكني لا اتبين له وجهه . لقد رأيتك تفعل ذلك ثلاث مرات .

– لعل الذي اطعنه في احلامك هو انت شخصك .

واوشك علي عبدالله ان يضحك رغم جفنيه المتورمتين ، ولكنه لم يفعل بل اجاب :

وفيمَ تقتلني ؟ أنا ما رأيتك منذ عامين .

وصمت حسن مفتاح ، فقد خشى ان يتكلم فيفضح سره . الساعة قد جاوزت التاسعة. ولم يبقَ امام فؤاد منقريوس إلا ثلاث ساعات يسجن بعدها داخل شجرة الجميز فيريح ويستريح. وخير لعلي عبدالله ان يجهل الكيد الذي كادته له القوى الخفيــة حتى لا يصيبه مس أو تتهشم اعصابه الى يوم يموت . ثلاث ساعات بعدها يستطيع علي عبدالله ان ينام ملء جفنيه فلا تزعجه المدى المشحوذة في الظلام ولا الرياح العاوية بين جدران اربع ولا قوى الجحيم وهي تحطم اثاثه تحطيماً لتصنع له منه نعشاً وتابوتاً . ان علي عبدالله يقول انه فكر في الانتحار واوشك ان يقدم عليه لولا حسن المصادفات . خــيراً فعل علي عبدالله ، ولقد كتبت له السلامة . ان علي عبدالله يؤمن بالارواح فلو وقف على ما كان يجري في الخفاء للازمه اضطرابه بقية عمره ، لانتحر أو لجن دون ضرورة . فليخف حسن مفتاح عنه السر ، فلم تبق إلا ثلاث ساعات . ولكن علي عبدالله لا يزال مضطرباً ، وهو ينظر الى حسن مفتاح نظرات غريبة بعضها صريحة وبعضها مختلسة بعضها مطمئنة وبعضها مرتابة . واوشك حسن مفتاح ان يسأله عن مسكنه ، ولكنه عدل . ان روح فؤاد منقريوس لا تزال حائمة في الهواء ، ولعلها واقفة بالباب بين البار والخزنة ترقبها ، ولعلها جالسة بينهما الى

المائدة الخضراء ذات المفرش الابيض المخطط تصغي الى حديثهما . واظلمت الدنيا لحظة أمام حسن مفتاح فرأى الدائرة السوداء التي كان قد رآها من قبل، ورأى في وسطها سكيناً يلمع . ورفـــع يمينه في الهواء ليمسك بالسكين وأوشك أن يمسك به ولكنه افاق على قول علي عبدالله :

ـ ماذا انت فاعل ؟ ابك دوار ؟

ولكن الذعر كان مرتسماً على وجه علي عبد الله ، ورغب في النهوض فوراً ولكنه خجل امام نفسه ، وادرك حسن مفتاح ما يجول بخاطره ، وسمع الصوت الأول يقول : « اهرب ايها الرجل » ، فنهض على عجـــل . لم يبقَ الا ثلاث ساعات حقاً ، ولكن الافلاك قد تتصادم والدنيا بأسرها تصير ناراً ودخاناً في هذه الساعات الثلاث . أهرب أيها الرجل . ان الروح الآثمة لا تزال تحوم في جنبات المكان . الا أهرب ايها الرجل . وبدأ لحسن مفتاح ان ينصرف بغير تحية ولكنه خجل امام نفسه وقال ؟

ـ اسمع يا علي . أنت في أمان بعد انتصاف النهار، فبانتصاف النهار تنقضي أربعون فؤاد منقريوس وتأوي روحه التائهة الى قبره حيث تقيم الى الأبد بعيداً عن عالم الاحياء . لن تعصف بغرفتك الرياح بعد اليوم ولن يتحرك فيها ركز ، فطب نفساً ودع عنك هذه المخاوف . ولكن عدني بشيء واحد . قال علي عبد الله وهو يحملق كالأبله :

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا يزال امامك ساعتان او ثلاث قبل ان يزول عنك الخطر تماماً، فلا تبرح هذا المكان . ان حياتك مهددة . مهدد من الداخل. مهددة من الخارج. اتفهم. لسوف تحس بالاختناق . لسوف تحس بالاختناق . لسوف تتعذب . لسوف تضيق بالحياة ، وتشتهي الموت . ولكن كل هذه سيزول اذا ما انتصف النهـار . لا تقترب من النيل فقد تغريك امواجه الهادئة بالراحة الكبرى . لا تبرح مكانك

حتى الظهيرة . أفعل ما أوصيك به تسلم ، والا كنت من الهالكين . وفوق هذا وذاك لا تجزع ، فكل ما في الامر ان روحاً شريرة تكيد لك ولسوف تختفي هذه الروح عند انتصاف النهار .

ثم انطلق حسن مفتاح مسرعاً . انطلق ولم تكن له غاية الا ان يبتعد عن الامريكين . واصطدم بالمارة . واصطدم بأعمدة النور . واوشك ان يصطدم بالسيارات الخارجة من وراء الناشونال هوتيل . وكان يعلم انروح فؤاد منقريوس لا تزال تحوم بالامريكين لتغري علي عبد الله بالموت فتحل فيه ، لذلك لم يكن في سيره جزعاً ولكنه كان يطلب الهرب . وكان بين حين وحين يتحسس مفرقه كأنه يريد ان يزيل منه الشيب وكان يحك ذقنه . ترى مـــاذا يفعل بشعره الاشيب ؟ لا بد أن يصبغه حتى يتجنب الاسئلة والتفسيرات والنظرات . ولكن اين يصبغه ؟ الى الحلاق اذن قبل ان يراه من يعرفه . كلا . انما يكون الحلاق بعد انتصاف النهار ، لأن الحلاق يستخدم الموسى ، والروح اللعينة الغاضبة التي حطمت القط الاسود قد تكون باقية على غضبهـــا فتزين للحلاق ان... اين تراه يمضي ؟ الى الجنوب ما في ذلك شك ، لان الجنوب يباعد بنه وبين الامريكين. وحين بلغ مقابل قاعة نوبيليس لمح نعيماً يسير في نفس الاتجاه امـــام الحانوت فادار وجهه ناحية الشبان المسيحية . ترى هل رآه نعيم ؟ ان لم يكن قد رآه فهو لا بد رائيه . ودخل حسن مفتاح جماعة الشبان المسيحية وسال عن ماجور دنكان فيليبس ، صاغ في الجيش البريطاني لا وجـــود له إلا في خيال حسن مفتاح . كل ذلك ليطيل المسافـــة بينه وبين نعيم ، وقد اطالها ، فما ان خرج حتى كان نعيم قد اختفى . الى ٢٢ شارع الملكة فريدة . كلا فلعل القط الاسود لا يزال مبعثراً على الباركية . ايان؟ ايان ؟ كان ينبغي ان يقف ليفكر ، ولكنه لم يجسر على الوقوف . الى الجنوب . نعم ، الى الجنوب . لولا موعـــد الليلة لهرب الى الجنوب ، الى الصعيد، الى الاقصر ليستجم فهو بحاجة الى الراحة . انه لا يخاف الروح ، انه لا يهرب من الروح ، فالروح سوف تقيد عند الظهيرة .

انما هو بحاجة الى الراحة . الراحة . الأقصر الجميلة القذرة . الاقصر . الراحة . ان حسن مفتاح لا يزال أمام قهوة وستمنستر فليدخل اذن وليرتب افكاره ، وليكتب خطاباته وتقاريره فلا بد من الاختفاء من القاهرة شهراً كاملاً على اقل تقدير . نعم ، لا بد . وفي وستمنستر كتب حسن مفتاح خطابين ، واحـــداً لعايدة علم والآخر لمندوب اللجنة بطنطا يشرح له فيه السياسة الجديدة . ثم انطلق الى مكتب تلغراف عدلي باشا وارسل خمس برقيـــات الى رامز والى الصواف والى علوي والى روزنشتاين والى عنايات ممدوح يدعوهم الى الاجتماع به . فلما فرغ من بعض مكالماته التليفونية كانت الساعة قد اوشكت على الظهر . فسعى متلصصاً الى دكان حلاقة في ميدان الاسماعيلية . وارتجف لمرأى المرآة ولكن المرآة لم تلبث ان ردت إليه هدوءه ولم يأخذ مكانه تواً بل انتظر بعض الوقت متظاهراً بقراءة الصحف . كل ذلك وعينه تختلس النظر الى الساعة المعلّقة ، فلما انتطابق عقرباها تنفس الصعداء ونظر الى ساعته وكان لا يثق بها ، فاذا عقرباها متطابقان ، واطل برأسه من الدكان ليقرأ ساعة الميدان فإذا عقرباها متطابقان كذلك . وعاد الى مكانه الاول ، ونقل بصره في ارجاء الصالون كأنه ينتظر علامة ، فلم يرَ علامة ولم يسمع علامة وطفـــق يلغو مع الاسطوات عن ساعته وكيف انها تضلله احياناً ، وخلعها وادارها عليهم ، ثم فتحها وألصقها باذنه ثم اقفلها وربطها حول معصمه . كل ذلك ليطمئن الى فوات الظهر بشهادة جميع الساعات ، ولقد استهلك في كل ذلك التسويف نحواً من عشر دقائق . وقبل ان يأخذ مكانة من الحلاق سأل الزبون الوحيد الجالس عن الوقت فأجابه بما طمأن نفسه . ثم وضع نفسه اخيراً تحت تصرف الحلاق .

وتصفح في المرآة العظيمة وجهه فرأى الخصلة البيضاء في مفرقه ومسحها بيمينه ، ولم يكن الشيب كثيراً ، ولكنه كان شيباً على كل حـــال . مسكين علي عبدالله . انه الآن في الامريكين لا يجسر على مغادرتها . انه يفرك المفرش الابيض المخطط أو يجرش اسنانه كلما أصابه احساس بالاختناق أو اسودت

الدنيا أمام عينيه . ولكنه الآن احسن حــالاً ولا شك . انه الآن يفكر في الانصراف ولا شك . انه قد نجا ولا شك . نجا؟ من قال انه نجا ؟ من قال انه لم يضعف ؟ لعله الآن في قاع النيل أو في القصر العيني . وارتجف حسن مفتاح تحت الصابون الذي كسا سالفيه . ان الحلاق يتكلم بلا انقطاع وهو لا يسمع كلمــة واحدة مما يقول . لعله يتحدث عن شعره الذي شاب قبـــل الأوان. ولكن لمَ هذه الأفكار السوداء ؟ ان علي عبدالله قد قاوم اربعين يوماً بلياليها فالأرجـــح انه لم يضعف في اللحظة الاخيرة .

النوم ، القطار . اللجنة المركزية . نعم ، اللجنة المركزية ، فلا يزال أمام حسن مفتاح تحضير كثير لاجتماع المساء. أما النوم فيمكن اجراؤه في القطار . لا بد اذن من العودة الى ٢٢ شارع الملكة فريدة ، لتحرير بعض التقارير ولتنسيق بعضها الآخر . ولتشكيل اللجان على الورق في الضوء الجديد . ان القط الأسود لا يخيفه الآن . أما القطار فقطار الليل ، قطار الساعة العاشرة . ولكن مــاذا تراه يصنع في الاقصر؟ انه ليس بحاجة الى الدفء فليذهب اذن الى الاسكندرية ، فهو لا يعرف احداً في الاقصر ، ولسوف يختنق في جو الوحدة المطلقة . ولم لا يذهب الى مسقط رأسه دماريس ، مركز سمالوط ، سوسنة الاودية . ولكن ليبدأ بالاسكندرية فهو بحاجة الى ان ينغمس في تيار الحيـــاة ، وان يصير الى الى قطرة في ذلك التيار تدفع غيرها من القطرات وتدفعها غيرها من القطرات ، قطرة لا تحس بنفسها ولا يحس بها احد انه بحاجة الى الهواء الملح يملأ به رئتيه . انه بحاجة الى الزنك البارد السائل المتموج الذي تشرف عليه نوافذ اتنيوس لعله أن يعيد إلى نفسه الهدوء . انه بحاجة الى تصفح افخاذ الراقصات في التريانون حيث يستطيع ان يأكلها بعينيه غير ملحوظ . انه بحاجـــة الى عروس البحر يخاصرها ويقبلها ويسكب الراح بين ثدييها . انه بحاجة الى مرأى الغيوم لان صحو القاهرة البشوش قد أمله إملالاً . فان اصاب بعض المطر فيا لسعادته حين يتخلل ماء السماء شعره ويلذغ اذنيه ويجري على عنقه رطيباً بارداً . انـه يحب

ان يجلس على صخرة في ستانلي او سيدي بشر، صخرة من تلك الصخور الخضراء التي كساها البحر وجوفتها امواجه في الف موضع ، انه يحب ان يجلس على صخرة من تلك الصخور الخضراء التي كساها البحر وجوفتها امواجه في الف موضع ، انه يحب ان يجلس على صخرة من تلك الصخور ويدلي قدميه العاريتين في الهواء، ويحدق على الشاطىء البعيد ، ويحدق في الأفق البعيد ، يحدق حتى تتعب عيناه من التحديق ، وتتجمهر الطبيعة البكر في وجدانه فيأخذه الوجد ويتحد مع الوجود، فيستلقي على الصخرة ذات الطحلب ويعري صدره للسماوات ويفتح فؤاده لهمس النسيم وشقشقة الموج وزقزقة الزوارق السابحة واللغط العلوي الجميل الذي يأتي مع الصباح من الأرخبيل الايجي البعيد ، حيث بانثيا تمشط غدائر أيون الزرق عند شواطىء سريفوس وبروتيوس العجوز بساحل صاموس يبث زفير شجوه على محارته التي خرجت منها فينوس ام الغرام .

كل ذلك يحبه حسن مفتاح . ولكنه قبل كل شيء يحب ان ينام . فالآن قد هدأ باله وهو متمدد على الكرسي الاسيوطي بداره يشرب البراندي ويأكل الزيتون الاسود ويحلم بالسعادة . ونام حسن مفتاح بعد ان ثقل رأسه . نام نوماً قريراً . نام كما ينام الأطفال . نام .

وصحا في الوقت المناسب ، نحو الخامسة . وأعد حقيبته الصغرى اولاً ، ثم انصرف الى أوراقه يدرسها ويعلق عليها حتى كانت السابعة ، وفي السابعة توافد المدعوون حتى اكتملوا عدداً : وكانوا عنايات ممدوح وبطرس قلادة وصفوانا والجيار ورامزاً والصواف وزيادة ومنصوراً وعلي علوي وروزنشتاين. وتكدسوا جميعاً في المدخل الصغير وتناول بعضهم الشاي وتناول بعضهم البراندي. ثم اعلن لهم حسن مفتاح نجاحه في ضم الصفوف ، وشرح لهم الأسس التي وضعتها اللجنة المركزية للاندماج فوافقوا عليها. وتجادلوا في تشكيل اللجنة المركزية الجديدة ، فانتهوا الى ضم رامز وزيادة ومنصور عن جماعة الأحرار والصواف عن جماعة التطور بالاضافة الى روزنشتاين وعلي علوي . وتنحت عنايات ممدوح عن

السكرتارية وتسلم روزنشاين امانـــة الصندوق . واجرى انتخاب السكرتير الجديد فاذا به حسن مفتاح باجماع الآراء ، ولم يشذ عن الاجماع إلا صوته هو فقد اعطاه لعنايات ممدوح . ثم انتقل المجتمعون الى موضوع الخـــلايا فاعادوا تنسيقها الاجمالي واطلقوا يد الجيار في امر ربطها ، وطلب الصوافالاشراف على الدعاية فأعطي له ما طلب على ان يحتفظ بالصحيفة لصفوان . وتحدثوا في ان تكون للجنة المركزية رياسة فخرية نائمة وان تكون الرياسة لعلي علوي. وتحمس حسن مفتاح لهذا الرأي تحمساً شديداً مما لفت انظار زملائه الأولين ، فلقد كان ابداً يقول ان اللجنة المركزية ليست بحاجة الى رؤساء . ولكنهم لزموا الصمت حتى لا يثيروا الشقاق في أول اجتماع . ولقد فطن حسن مفتاح الى المعاني التي ارتسمت في عيونهم فلم يطلب الموافقة بل سأل ان كان هناك من يعترض ، فلم يعترض انسان . وقررت الجماعة اقامة حفل بدار روزنشتاين ابتهاجاً بالوحدة الجديدة ، وقررت اصدار بيان عام يوزع في جميع انحاء البلاد ليزف للناس نبأ هذه الوحدة وقررت الاحتفاظ بالمراكز والنوادي القائمة احتفاظاً صورياً حتى اعلان الحزب اعلاناً رسمياً، لكي تجد اللجنة المركزية واجهات متعددة تعمل من ورائها كلما اشتد عليها ضغط الحكومات . ثم اوصاهم حسن مفتاح بانتخاب رجال الصف الثاني على وجه السرعة استعداداً للطوارىء. وبعد ان فرغ اعضاء اللجنة المركزية من بحث هذه الأمور رجاهم حسن مفتاح ان يأذنوا له بالسفر شهراً يجدد فيه اعصابه ، وبعد لجاج قليـــل اذنوا له بذلك ، وفوضوا عنايات ممدوح في ان تتولى اعمال السكرتيرية في غيبته . وجمعت عنايات ممدوح اوراقها وانصرفت . وانصرف من بعدها روزنشتاين ثم تفرق الباقون ولم يبقَ منهم سوى بطرس قلادة وصفوان .

وسار الثلاثة الى باب الحديد . واخذ حسن مفتاح يداعب بطرس قلادة طول الطريق ويفتتت قلبه برفق . اسمع يا بطرس ، حرام ان تفعل كل هـــذا بسعدية الطويل. ان كنت يا بطرس لا تجد الشجاعة الكافية للزواج منها فتخلَّ

عنها لغيرك . يا بطرس، اسلم تسلم ، يؤتك الله اجرك مرتين . انت يا بطرس لا تزال بورجوازياً متعفناً . يا بطرس ، طلقها فلست لها بكفء . ولكن القطار ينتظر والناس يهرولون. ومدام كلاداكيس صاحبة بنسيون رويال المطل على البحر لا شك تنتظر ، تنتظر أي حسن مفتاح. واغمض حسن مفتاح جفنيه على عايدة علم حتى صحا في اليوم التالي فلم يجد عايدة علم الى جواره أو تحت جفنيه بلى وجدنفسه قدشبع من النوم الجميل في السرير الجميل ببنسيون مدام كلاداكيس الجميلة بجوار البحر الجميل .

وفي الشاطىء جلس حسن مفتاح على صخرة من تلك الصخور الخضراء التي كساها عفن البحر وجوفتها امواجه في ألف موضع . جلس حسن مفتاح على صخرة من تلك الصخور ودلى قدميه العاريتين في الهواء فوق الثبج الأبيض ذي الخوار المتصل والرذاذ المتطاير ذي الفقاقيع البراقة ، وحدق في الشاطىء البعيد ، حدق حتى تعبت عيناه من التحديق وتجمهرت الطبيعة البكر في وجدانه فأخذه الوجد واتحد بالوجود ، واستلقى على الصخرة ذات الطحلب وعرى صدره للسماوات ، وفتح فؤاده لهمس النسيم وشقشقة الموج وزفزفة الزوارق السابحة واللغط العلوي الجميل الذي جاء مع الصباح من الارخبيل البعيد حيث بانثيا تمشط غدائر ايون الزرق عند شواطىء سريفوس وبروتيوس العجوز بساحل صاموس يبث زفيره على محارته التي خرجت منها فينوس ام الغرام . وفي اتنيوس شرب الشاي عشرين مرة ورأى من زجاجه الكثير المتكرر الزنك البارد السائل المتموج . ولقد أصاب بعض المطر فاكتملت سعادته حين تخلل ماء السماء شعره ولذع اذنيه وجرى على عنقه رطيباً بارداً . وفي التريانون تصفح افخاذ الراقصات كل مساء . واستطاح ان يأكلها بعينيه غير ملحوظ . ولقد رأى عروس البحر وخاصرها وقبلها وسكب الراح ما بين ثدييها . ولقد ملأ حسن مفتاح رئتيه من الهواء الملح . ولكنه فعل ما هو اكثر من ذلك . لقد انغمس في تيار الحياة وصار الى قطرة في ذلك التيار تدفع غيرها من

القطرات وتدفعها غيرها من القطرات ، قطرة لا تحس بنفسها ولا يحس بها أحد .

وأوشك الشهر ان ينقضي وحسن مفتاح يؤجل التفكير في مسألته الكبرى عامداً . وكلما اختلى بنفسه ساعة وسنحت له فرصة استعراض ماضيه ومستقبله انصرف عن ذلك الى استعراض حاضره ، كأنه يخشى ان يؤدي به التفكير الى البت . ان الحياة جميلة ، وهي رغم الشتاء دافئة زاهية الألوان . ففيم افسادهـا بالتفكير الرشيد . ليدع المقادير تجري في أعنتها ، فإن قضت عليه بالبقاء بقي وان قضت عليه بالعودة عاد ، اما هو فلن يتحمل تبعة شيء . ولكن حسن مفتاح لم يهبط الاسكندرية فراراً من فؤاد منقريوس ، فهو يعلم انه الان سجين في شجرة من أشجار الجميز ، وخطره قد بات محدوداً ، اللهم إلا اذا كان قد... ولكن التفكير في هذا ضرب من الحماقة . انه الان في الاسكندرية والحياة في الاسكندرية جميلة دافئة زاهيـــة الألوان رغم الشتاء ، فلا داعي لتعكيرها بالهواجس النكراء. أما الان فلا بد من البت ، فانما هبط حسن مفتاح الاسكندرية ليبت في مآله . ان العودة الى القاهرة معناها العودة الى الحياة العامة ، العودة الى الحرمان المطلق ، الى الوحدة المطلقة ، الى الخلو المطلق . ان عايدة عـلم قد أعرضت عن الحب الا أن تجاب مطالبها . ومونا ربيـع قد تبخرت في الهواء . فلم يبقَ له اذن الا الخادم ندى ، المخلوق الوحيد الذي يقبله بلا قيد ولا شرط وهي محال . انه يعرف ما يقرب من مائتي آنسة وسيدة ، يعرفهن جميعاً على مبعدة . ولكن حياته الخاصة انطوت على ثلاث لا رابعة لهن ، عايدة ومونا وندى . ان مونا ربيع تحل سائر عقد الحياة . هي مركب الموضوع كما قد يسميها اعضاء اللجنة المركزية . الموضوع : حياته الخاصة . نقيض الموضوع : حياتـه العامة . مركب الموضوع مونا ربيع . ففي مونا يلتقي الحب والكفاح . وبمونا ربيع ينتهي الاشكال . لسوف تحبه ولسوف تكافح معه . ان عيني مونا ربيـع قد نفذتا الى اغوار قلبه ، وفي أغوار قلبه انغمست اهدابها ، وفي أغوار قلبه

استقر هواها حيث يرقد الان طي اكداس من أنسجة الحرير . كل ذلك حدث في نصف ساعة على تراس الكونتننتال . وحسن مفتاح يعلم ان صوته الجميل وشخصيته الناجعة قد استقرا كذلك في أغوار قلب مونا ربيع . هو يعلم ذلك لانها شهقت . ولكن أين هي مونا ربيع ؟ ان بينه وبينها يقف التنين الابله ، عبد السلام بك ربيع . لماذا لا يموت التنين الأبله ؟ ان التنانين الذكية قد تحتمل رغم انها ضارية ، اما التنانين البله فلا عذر لها في البقاء . ان سرهنك بك (جاءه الانعام الملكي في الاسبوع الماضي) قد يحتمل ، فهو على الأقل يجيد العطور . اما ربيع بك فماذا يتقن ؟ لا شيء . بل انه يتقن شيئاً ، وهو مضايقته مونا ربيع وتعذيبها . ان العالم مليء بالتنانين . وخاصة التنانين البله . لم لا تموت التنانين البله ؟ لم لا تموت جميع التنانين ؟

ولكن التفكير في مونا ربيع غير مجدٍ ، وهو ما جاء الى الاسكندرية ليفكر في الاحلام ولكن ليمسك الواقع من فخذيه ، وليتحسس الحقيقة بيديه . ان التفكير في الخادم ندى لأقرب الى الواقع من التفكير في مونا ربيع . ان ندى يمكن كذلك ان تكون مركب الموضوع ، يمكن ان تعطيه الحب والكفاح مندمجين . هي تحبه وهو يعطف عليها عطفاً شديداً (كان يمكن ان يحبها لو كانت تعرف القراءة والكتابة) ، وهي ترضى أن تشترك معه في الكفاح. ولكن اي كفاح يمكن ان يكون كفاحها . ان دورها في حركة البروليتاريا سيقف لا شك عند مسح حذائه وتنظيف ثيابه وطهو طعامه ومحاسبة الكواء . ان الأقدار تسخر من حسن مفتاح ، فهو في هذا العالم العريض يتأرجح بين كريسلر مونا ربيع ومكنسة الخادم ندى . في الخادم ندى. ولكن التفكير في الخادم ندى غير مجدٍ ، وهو ما جاء الى الاسكندرية ليفكر في الاحلام ولكن ليمسك الواقع من فخذيه ، وليتحسس الحقيقة بيديه .

انه جاء الى الاسكندرية ليفكر في عايدة علم ، فعايدة علم ، هي أقرب شيء في حياته الى الواقع . بل ان عايده علم « هي » الواقع ، وكل ما خلاها

احلام معسولة او احلام مزعجة . ان الحياة العامة تضيق بالحياة الخاصة ، كما ثبت بالتجربة كذلك ان الحياة الخاصة تضيق بالحياة العامة . وعايدة علم هي الواقع الكبير ، الواقع بحروف التاج ، المادة في حالتهـــا الطبيعية بعيدة عن الاوحال بعيدة عن سحر الخيال . وعايدة علم طوع بنانه لو انسحب من الحياة العامة ، وحدد اهدافه ببيت من ثلاث غرف (مفروشة) ، ومطبخ لا يخلو من الطعام ، وأطفال يجدون ما يلبسون ، ومكتب ذي ادراج يجيئـــه بالرزق في الأول من كل شهر . وعايدة علم لا تلام على ذلك ، فهي نموذج حي للبنات ، للكثرة المطلقة من البنات ، اللائي نمين في ظروف طبيعية ، او بتعبير ادق في ظروف متوسطة ، فكل ما هو موجود من الطبيعة . وما جاء حسن مفتاح الى الاسكندرية الا ليدرس هذه المسألة بعيداً عن صخب الجماعات ، بعيداً عن جو الذي يسود مخـــدعه كلما جن الليل ، ويقرر الانسحاب من الحياة العامـة أو الزهد في الحياة الخاصة . وهو اذا كان قد تجنب التفكير في هذا الأمر هذه الأسابيع الثلاثة الماضية ، فهو لا بد حازم امره قبل انقضاء الشهر ، فامـــا الى عايدة علم وحدها وأما الى اللجنة المركزية وحدها .

أن أول ما سوف تقتضيه منه عايدة علم هو ألا يطلق لحيته وان يبقى كسائر مخلوقات الله ، ولقد تطلب إليه أن يطلق شاربه كسائر مخلوقات الله وعليه اذن ان يحتمل . ولكن حسن مفتاح لن يحزن كثيراً ، ثم انه لن يحتاج الى لحيته مع عايدة علم ولكنها سوف تطلب إليه الأمان كذلك ، والأمان عندها وظيفة ثابتة وحياة رتيبة سالبة لازعازع فيها (سجون – اجتماعات - جواسيس) . بعبارة مختصرة سوف تطب إليه عايدة علم ان يخون فإن لم يرضَ بالخيانة فليرضَ إذن بالابالسة تجلده بالسياط جلداً وتكوي فخذيه باسياخ النار وتجلس على صدره الليل بعد الليل حتى يختنق . ليرضَ بالخلو المطلق ، بالوحدة القاتلة . ولكن ام مستطيعة عايدة علم ان تنفي عنه الوحدة ؟ ان حسن مفتاح كان يعلم انه يخـــدع نفسه . الخيانة لا عيب فيها ولا مؤاخذة عليها ، فالملايين تخون ، كل يوم ، اذا كان السلب

خيانة. ولكن كيف تزيل عايدة علم الوحدة من نفس حسن مفتاح انها سوف تزيلها في شهر العسل لا شك في ذلك، وربما ازالتها فيما بعده بقليل. ولكن كيف تملأ عايدة علم كل هذا الفراغ الرحيب. ان نفس حسن مفتاح واسعة كالهاوية الفاغرة. ان نفس حسن مفتاح كبيرة تضم الأنسانية وتشمل كل ما في الوجود. ان حب حسن مفتاح قوي كالمحيط جازف كالطوفان فاتك كالنار الحمراء. كذلك حقده غضوب كالبحر مدمر كالسيول آكل كالشعلة الموقدة. ان حسن مفتاح ينظر الى الزهرة ويقول يا اختاه، وينظر الى البجعة ويقول يا اختاه، وينظر الى الحمل ويقول أي اخي الصغير، وينظر الى الجبل ويقول أي اخي الكبير، وينظر الى الأرض الرحيبة ويقول يا اماه، وينظر الى البحر العظيم ويقول يا ابتاه، انا ابن زفاف جيا واوقيانوس. انه يستطيع ان يمسك سنابل الحنطة ويقبلها في حنان. انه يستطيع ان يعبد الشمس وان يناجي القمر وان يحتضن الرياح وان يبث نجواه لروح الانسان. فكيف تملأ فراغه عايدة علم؟ كلا. ان حسن مفتاح كان يعلم انه لم يخلق ليلعب هذا الدور الصغير، وانما خلق ليصارع العمالقة وليقتتل مع الارواح الشريرة التي سوّدت الليالي وملأت الارض بالغيلان. ان عايدة علم لن تغنيه عن نعيم وسعدية الطويل والجيار وصفوان واحبائه الذين يشقون ليمحقوا الظالين ويوزعوا الخيرات على بني الانسان. ان حسن مفتاح خارج المجتمع كالسمكة خارج الماء.

ان عايدة علم سوف تقول: «كفى قراءة يا حسن، لقد تعبت عيناك فاسترح» أو تقول: «ان ايجار بيتنا كبير فابحث لنا عن دار اخرى» أو تقول: «لقد نزلت بالولد الحصباء، فاذهب وادعُ الطبيب» أو تقول: «كفى كتابة يا حبيبي فليل الشتاء يضنيني». كل هذا ستقوله عايدة علم. واكثر منه. ستحدثه عن سعر الطماطم، وعن الكواء الذي احرق الشميزيت، وعن البواب الذي لم يرد بقية الريال، وعن السباك الذي لم يحضر ليسد ماسورة الحمام. وعندئذ سوف يحس بالوحدة الكبرى، بالخلو الذي ما بعده خلو. عندئذ سوف يحس

بالعزلة الروحية تنهش وجدانه نهشاً . ولكنها يومئذ وحدة لا مهرب منها وهو عندئذ خلو مقيم الى يوم الممات ، وعزلة لهـــا انياب كالأفاعي الجائعة . كلا . لتتزوج عايدة علم من موظف في مصلحة البريـد . اما هو فليرضَ بما قسم له . ليعد الى اللجنة المركزية . وليتم ما بدأ وليرضَ بالابالسة تجلده بالسياط جـــلداً وتكوي فخذيه باسياخ النار وتجلس على صدره الليل بعد الليل حتى يختنق . فان احب ان يملأ الفراغ الضارب في نفسه فالخمر تعرق الاحزان وتؤنس البائسين، وليتسلل تحت جنح الليل وليسعَ الى اللحم الذي لا يكلف الا تحية المساء وبعض الدنانير .

واستمع حسن مفتاح الى هذا الصوت ووجد انه صوت الرشاد . فهو الآن ليس بجائع ولا محروم ، واما اعصابه فقد تجددت . فالقرار الذي ينتهي اليه الان قرار لن يحله منه شيء . فغدا سوف يتقلب في فراشه مناجياً النعاس فلا يأتيه النعاس . وغدا سوف يتقلب في فراشه مناجياً عايدة علم فلا تأتيه عايدة علم . وعندئذ سوف تسودّ الدنيا أمام عينيه ، ولقد تمر به لحظات يكره فيهـا البشر من اعماق اعماقه . ولكن مهما ساءت حاله فينبغي عليه الا يضعف تحت سياط الجنس او يتخاذل امام مشنقة الوحدة . كل هـــذا حسب حسن مفتاح حسابه وادركه بوضوح لا لبس فيه . وهو الآن يحدد سبيله بمحض اختياره فلا نكوص بعد اليوم . ولقد كان يعلم انه في واقع الامر لم يكن مختاراً ، فلقـد ولد يوم ولد سكرتيراً للجنة المركزية ولم يولد ليكون زوجاً لعايدة علم . وهكذا خضع حسن مفتاح للضرورة الكبرى ، خضع لها مختاراً ، وهكذا ثار على الضرورة الصغرى ، ثار عليها مختاراً ، فقد فهم الضرورتين ورجـح اقلهما وبالاً عليه مختاراً . ربما . ربما . اياً كان الامر فهو لن يطالب احداً بثمن بطولة لا يد له فيها .

كذلك خضع حسن مفتاح للضرورة ساعة ان خرج من موناخوس حول التاسعة مساء، ووقف امام الحديقة الصغيرة المقابلة حائراً لا يدري اين يقضي

سهرته ، وخيل اليه انه يستقبل رشاش البحر وهو لا يستقبله . ولكنه في واقع الأمر لم يكن حائراً بل كان خاضعاً للضرورة لا يتبينها . فقد لمـــح في الظلام الكرايسلر السوداء بين بعض الضباط الانجليز السكارى امام المونسنيير . ولعله لم يلمحها قط. لعل الكرايسلر السوداء كانت كحجر المغناطيس تجذب ما يدخل في مجالها بفعل ناموس ازلي . مهما يكن من شيء فان حسن مفتاح وقف أمام الحديقة الصغيرة يتطلع الى محطة الرمل ونورها الازرق المكبوت الذي ذكره بمحطة البنزين الجاثمة بقرب داره ونورها الأحمر المكبوت ويتطلع الى المصابيـح العالية الزرقاء المتكررة في شارع الرمل كأنها رؤوس اشباح حزانى ، ويتطلع الى الى أرض الشارع السوداء اللامعة بعد أن بللتها الأمطار ، ويتطلع الى الفراء البيضاء والفراء السوداء والفراء الشهباء التي تخب فوق الحرائر ذات الذيول صوب المونسنيير. وعندئذ فقط رأى الكرايسلر السوداء رؤية واضحة وأحس بضيق غريب كأنه في حضرة غريبة لا يفهمها . ثم سار الى باب المونسنيير وقد تم في نفسه الترجيح. ولكن ما إن اقترب من الباب حتى وقف بجوار السيارة ثابتاً يتطلع اليها . انه يعرف هذه السيارة أنه رآها من قبل . انها سيارة المنا سترلي . كلا . انها ليست سيارة المناسترلي ، فسيارة المناسترلي كرايسلر حقاً ، وسوداء حقاً ، ولكنهـا تحمل اللوحة القائلة « هيئة سياسية » . ان في مصر الف كرايسلر ، وكلها بحاجة جيدة ، فماذا يحمله على التمسح بهذه بالذات ؟ وأوشك حسن مفتاح ان يضحك سخرية من نفسه . ثم دخل المونسنيير ، وحيداً . وكان ينبغي ان يكون في زي السهرة . وكان ينبغي أن يكون مصحوباً ، ولكنه لم يعد يكترث . وفيما هو يجتاز المدخل بلغته اذيال « تريستيس » شوبان ، فوجم وكاد الدمع ان يجتمع في عينيه ، فقد كانت لهذه التانجو في نفسه ذكريات . ولكن هـــذا شيء مألوف يجمع الذكريات في آلاف النفوس ، وهو لا يجمع الدمع في كل العيون . أخص من ذلك أنه يطابق وهو يدخل حائراً لا رفيق له . وسار متئداً الى رفيقـــه الوحيد في هذا المكان ، سار الى المائدة الصغيرة .

واختفى النغم ولكن بقي بعده جوّه. ولم يصفق أحد فما كان هناك أحد يصفق. لم يكن في المكان الا ثلاثة أزواج كلهم من الأجانب وكلهم في ثياب السهرة، وواحدة من المجندات البريطانيات تنتظر صاحبها، بريجادير من تحت السلاح. نعم. انه سيرقص الليلة مـــع المجندات. بل ان هناك امرأة اخرى جلست بمفردها الى جوار الاوركسترا. ووثب حسن مفتاح من مكانه ثم خجل من نفسه وأوشك ان يعود الى الجلوس. انها مونا ربيع. ولكنه سعى الى السيدة مضطرباً، فلما أمسك يدها وجدها تضطرب كذلك. ولما قبل يدها استرخت في يده كأنها لا تريد أن تنسحب. ووقف حسن مفتاح الى جوارها لحظة لا يقول شيئاً، فأمرته بالجلوس. ولما جلس عادت اليه طمأنينته. وأراد ان يتكلف المرح فلم ينجح في ذلك. وسألها عن حالها فلم تجب. وسألها عن زيارتها للاسكندرية فأجابت بأن عمه ربيع بك معلقة بين الحياة والموت. وسألها عن زوجها فأجابت بأنها تنتظره بين لحظة وأخرى. وأمسك حسن مفتاح بيدها الملقاة فوق المائدة ومضى يعبث بأناملها، وجذب اليه اليد قليلاً ففهمت انه يريد تقبيلها، وتركته يفعل بها ما يشاء، ولكنه لم يفعل شيئاً، واكتفى بأن ضغطها فيما يشبه التشنج. وفتح فاه، واوشك أن يقول: «تعالي معي يا مونا تعالي معي، هيا نفر من هذا المكان، ها نفر»، ولكن الأوركسترا عادت الى العزف فعاقته عن الكلام. وكان اللحن «الأرملة الطروب» فنظر اليها وابتسم ونظرت اليه وابتسمت. وتفاهما. ونهض فنهضت، وأقتادها من يدها الى الحلقة، وذهبا يدوران مـع الفالس العجيب. دار حول الحلقة جملة مرات، ولما اقتربا من الباب كفّ عن الرقص، وساقها من يدها الى المدخل فدق قلبها دقاً عنيفاً، ولكنها تبعته، وبلغ بها الأمانات وقال: «اطلبي اشياءك» فطلبت اشياءها. كل ذلك ويده لا تفارق يدها. كل ذلك ويده تضغط على يدها في تشنج. ولكن صفارات الأنذار انطلقت فارتبكا لحظة ثم قالت: «هيا نخرج من هذا المكان. خذني أينما تشاء». ولكنه تردد كثيراً ثم أشار عليها باعادة اشيائها، وسار بها الى مخبأ المونسنيير. ولم يكن في المخبأ سوى الأزواج الثلاثة والمجندة. وساد المخبأ السكون. ثم

جاء افراد الاوركسترا وبعض الخدم والموظفين فعلا لغط اللاغطين ، واختلطت النكات العصبية المرة بصلوات المصلين ببكاء الخادمات بأوامر رئيس الخدم فكان منها ضجيج لا يحتمل ، ولم يعد في المخبأ مظهر واحد من مظاهر الانتصار الا الشيخ الضئيل لاعب الكمان الذي انتحى مكاناً قصياً وذهب يعزف « آنى ماريا » والابتسامة لا تفارق شفتيه . ولما اشتد الضيق بحسن مفتاح أوشك ان يجذب مونا ربيع من يدها ويفر من هذه الإنسانية الضعيفة التي لا تريد ان تموت في صمت . ولكن صوت القنابل التي كانت تنفجر قرب الميناء البعيدة بلغ المخبأ واضحاً ومكتوماً معاً فتعلقت الأنفاس، وجلس على الأرض أكثرالواقفين. وحين تواترت القذائف ذات الدوي والأصداء ، قذائف المدافع المضادة ، الفتها الآذان ، وجلس حسن مفتاح على الارض مع الجالسين ليكون عند قدمي مونا ربيع . وأمسك بيدها وذهب يقبلها بلا انقطاع ، وما قبلها ولكن عبث فيها بشفتيه . وكانت مونا شاحبة وكان حسن ضعيفاً . وكفت المدافع المضادة عن الزمجرة وظهر في الجو أزيز . فاخذت مونا تذكر الله بالفرنسية وأوشكت أن تستنجد بالقديسين المسيحيين ولكنها أمسكت . أما حسن فقد ستر ضعفه ، ورفع وجهه اليها مبتسماً، وحاول أن يسري عنها بالهزل فلم يستطع ، لأن حلقه كان جافاً . ولكن حلقه الجاف لم يجفف كلمات الحب ، فمضى يصارحها بحبه همساً فيما يشبه الثرثرة . أنا أحبك يا مونا . منذ يوم الكونتننتال يا مونا . أتفهمين يا مونا ؟ أنا شقي يا مونا . انا أشقى الناس يا مونا . انا أتعذب فيك يا مونا . تعالي معي يا مونا . انا اشقى الناس يا مونا . انقذيني يا مونا . كل ذلك ومونا ربيع صامتة لا تجيب وقد القت برأسها الى الخلف ، فبدا وجهها في النور الشاحب أبيض لا دم فيه ، وارتسمت أهدابها الخرافية الطويلة المسبلة على خديها أطول مما هي فأكدت في وجهها معاني الموت . وحين كفّ حسن مفتاح عن الثرثرة وقبّل ركبتيها ثم اعتمد برأسه عليها كطفل لا ينقصه إلاّ البكاء ، شهقت مونا ربيع ورفعت رأسها وفتحت عينيها وأجالتها في الوجوه اليائسة أمامها ثم انحنت وقبلت رأسه قبلة طويلة لم يقطعها إلاّ أزيز الطائرات الذي اقترب

وارتفع حتى بلغ أشده فوق المكان ، فارتفعت كل العيون الى سقف المخبأ في هلع عظيم . وأعقب ذلك دوي هائل اهتزت له جدران المونسنيير اهتزازاً ثم تلته أصوات صغيرة متفرقة من نافذة هوت وزجاج تحطم ، وأفلتت في المخبأ صرخات وسقطت امرأتان في اغماء مفجع، وخفّ اليهما عازف الكمان العجوز وبعض زملائه . فقد سقطت قنبلة في البحر مقابل المكان فرفعت الماء لججاً واللجج رُشاشاً وبعد الرشاش كان خوار ثم ساد السكون، ولم يبقَ إلا أزيز القاذفات والطائرات القاتلة ، ولقد تلاشى درجة درجة . وادرك حسن مفتاح قبل سواه ان الغارة قد انتهت فذهب يهوّن الأمر على مونا ربيع ، وأمكنه ان يهزل ، ونهض وأخذ يمسح شعرها بيده ويتخلله باصابعه ويقبله في خفة، حتى عادت اليها شجاعتها ، فنظرت اليه وابتسمت وقالت :

– كان ينبغي أن نموت معاً .

فضحك وأجاب :

– بل ينبغي ان نعيش معاً .

وفيما هو يقول ذلك انطلقت صفارة الأمان فعلاً فعلا اللغط في المخبأ، ثم تسابق المختبئون الى الباب ليأخذ كل مكانه من المكان ، وتريث حسن مفتاح ومونا ربيع حتى خف الزحام ، وتسللا الى الخارج لا يشعر بهما أحد ، قالت : « كم أنا متعبة » . قال : « لا بد أن تكوني . » قالت : « اليّ بأشيائي . » قال : « سأصل بك الى دارك » . قالت : « لم أعد أحتمل يا حسن » . قال : « تعالي غداً عند الغروب » . قالت « نحن ننزلق يا حسن » . قال : « هي المقادير لنا أو علينا ، فكوني شجاعة » . قالت : « وكيف الخلاص من زوجي ؟ » قال : « وهل أمامك الا الطلاق ؟ » قالت : « انه لن يرضى بتسريحي » . قال : « انت طالق منذ يوم الكونتيننتال » . قالت : « ليت هذا يغير الواقع » . قال : « أنت طالق امام النجوم . انت طالق في كل شريعة . أنت طالق » . قالت : « ليت

هذا يغير الواقع» . قال : « لقـــد أفلتّ مني مرة ولن تفلتي مرة أخرى » . قالت : « حلّ عقدتي وأنا أتبعك إلى أطراف الأرض».قال : « وفي السجون؟» قالت : « وفي السجون ». قال : « تعالي إذن عند الغروب . انــا في بنسيون رويال بجوار الكارلتون» . قالت : « سوف آتي عند الغروب ».

وكفت عن القيادة أمام بيت أحمر في مصطفى باشا . ونظر حسن مفتاح الى البيت الاحمر فهزت مونا ربيع رأسها وأشارت الى فيلا صفراء تقع بعد ناصيتين، فأدرك انها تفضل أن تصل الى بابها منفردة . فتناول ذراعها البعيدة وقـــال . « يا لك من سائقة ماهرة » وضمها اليه في وحشية ، وقبلها حتى أدار رأسها . ثم تركها وعاد الى ترام الرمل فركبه ، وعاد الطريق كله وهو أشبه بالذاهلين . وفي فراشه أفاق الى الواقع . لقد وعدها بأن يحل عقدتها ، فكيف يفعل ذلك ؟ الويل لك يا حسن مفتاح . لقد تعودت الكلمة الكبيرة الجوفاء فهانت عليك الوعود . انك قد تكتب التاريخ من جديد ، ولكنك لا تملك ان تمحو وثيقة زواج . ان ما ربطه المأذون في الأرض لا يكفه بكاء الملائكة في السماء . الويل لك يا حسن مفتاح . ماذا أنت فاعل . ماذا أنت فاعل . إن حسن مفتاح لن يفعل شيئاً لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً . إنما الأقدار تفعل كل شيء . إن حسن مفتاح لن يفعل شيئاً لأنه نائم ، لأن السعادة جاءتـــه كعنقود من العنب مذوب في كأس من البلور شربها ثم نام .

ثم حدث له حادث تافه :

ففي الصباح صحا حسن مفتاح وخرج في نزهة بحرية . وخرج مـــع الجميلة مدام كلاداكيس صاحبة البنسيون والجميلة مدموازيل كابتناكيس ابنة إختها الجميلة مدام فوتيس من زوجها الأول الجميل الذي كان ضابطاً بحرياً ثم أكله السمك في المنطقة ما بين داكار وجزائر الخالدات. وكان الجو جميلاً طبقاً للخطة الموضوعة. فخرجوا في العاشرة طبقاً للخطة الموضوعة، واشتروا الساندويتشات

الجميلة من تورناراكيس الجميل طبقاً للخطة الموضوعة ، وبلغوا الميناء الجميل طبقاً للخطة الموضوعة. وركبوا الزورق الجميل طبقاً للخطة الموضوعة. ولكنهم لم يعودوا طبقاً للخطة الموضوعة . لم يعد إلا النوتي الجميل الذي لم يشترك في وضع الخطة .

فقد ارتطم الزورق بالصخور فامتلأ بالماء ثم توارى . وعرف النوتي واجبه فسبح إلى أقرب صخرة وتشبث بها . أما حسن مفتاح فلم يكن يعرف العوم ، فضرب الموج بذراعيه جملة مرات ثم اختفى تحت المياه ، ثم طفا مرة أخرى وضرب الموج بذراعيه جملة مرات وسعل سعالاً ملحاً جملة مرات، وكان آخر ما رآه مونا ربيع جالسة بين الصخور ، ثم اختفى تحت المياه ولم يعد إلى الظهور . اما كلاداكيس فقد سبحت متراً ثم تخشبت ساقها اليسرى في مياه يناير ، واستغاثت باليونانية جملة مرات ، ولكن النوتي الجالس على الصخرة لم يكن يفهم اليونانية فظل جالساً على الصخرة ، ثم تخشبت بقية اعضائها واختفت تحت المياه . أما كابتناكس فلم تضرب الموج ولم تسعل ولم تتخشب ولم تستغث باليونانية لان ثوبها كان مشتبكاً بالزورق فغاصت مع الزورق الى الأبد. اختفى كل شيء تحت المياه ، الا بعض الساندويتشات وايشارب مدام كلاداكيس وصحيفة حسن مفتاح والنوتي الجميل الذى لا يفهم اليونانية . لقد انتهى كل شيء في عشر دقائق. انتهى بأقل جلبة ممكنة . ان البحر أزرق وجميل، والسماء زرقاء وجميلة ، والصخور سوداء وجميلة . وبقي لكل شيء جماله رغم ماحدث، وهل حدث شيء ؟ جلس النوتي على صخرته يتأمل ما حدث . ولم يبدُ عليه أنه يتأمل حطام الدنيا . ولم يبدُ عليه انه يفكر بتاتاً . لقد نازعته نفسه مرتين أن يقفز في البحر لينقذ الغارقين ، ولكنه غالب نفسه الامارة بالخير حتى غلبها ، وبعد ذكر أنه أوشك أن يهلك منذ شهر لأنه أراد ان ينقذ سيدة تغرق . إنه

زاهد في بطولة لا يشهدها أحد . بل هو زاهد في البطولة ولو شهدها جميع الناس بل هو زاهدفي الخير الذييورد موارد التهلكة . لقد كان يحسب ان انقاذ الغرقى امر هين فلما اختبره وجد ان الغريق لا يحب ان يغرق وحده . ان عباس الصعيدي بادر في الصيف الماضي لانقاذ تلميذ رسب في الامتحان فألقى بنفسه في الماء . فأين عباس الصعيدي الآن ؟ أن أرملته تتسول الآن بعيالها الأربعة . هلك عباس الصعيدي ونجا التلميذ . إن مشيئة الله عجيبة لا يفهمها أحد . (ولكن النوتي الجميل وأرملة عباس الصعيدي وإخوانه جميعاً لا يعلمون أن التلميذ قد رسب في الدور الثاني ، ولو قد عرفوا لزاد عجبهم من الله) . جلس النوتي الجميل على صخرته السوداء يتأمل ما حدث . ولم يبدُ عليه انه يتأمل حطام الدنيا . ولم يبدُ عليه انه يفكر بتاتاً . ولكنه كان يفكر . كان يفكر في نفسه وفي عباس الصعيدي ، في المرأة التي أوشك أن يهلك في انقاذها وفي الأرملة التي تتسول بعيالها الأربعة . أن النوتي الجميل ليس له عيال أربعة ، ولكنه قد تزوج البنت خديجة الحلوة بائعة الفجل في درب المحاميد ، وهو الان يذوق عسيلتها وهي الان تذوق عسيلته . حسناً فعل النوتي الجميل .

ولكنه هز رأسه أسفاً على الشباب . ونظر الى البحر فرآه أزرق ولكنه لم يفهم أنه جميل كذلك . ونظر الى السماء فوجدها زرقاء ولكنه لم يفهم انها جميلة كذلك . ونظر الى الصخور السوداء فاذا هي لا تزال سوداء ، ولكنه لم يفهم انها جميلة كذلك . ونظر الى الشمس فهي في السماء باردة ، ولكنه لم يفهم انها جميلة كذلك . لقد بقي لكل شيء جماله رغم ما حدث . وهل حدث شيء ؟ قال الموج الوديع : لم يحدث شيء . قالت السماء الضحوك : لم يحدث شيء . قالت الصخور السحرية : لم يحدث شيء . واحمرت الشمس

البيضاء وقالت من سمتها : لم يحدث شيء ، لم يحدث شيء ، لم يحدث شيء البتة . أنا هنا منذ الأزل ، وعيني ترى كل شيء . انا أقول لم يحدث شيء ، لم يحدث شيء البتة . قطع منا وعادت الينا . فـــلا تزعجوا سكون الطبيعة بنقيق الضفادع . وزال عن الشمس غضبها فزالت حمرتها ، وعادت بيضاء تشرق في صمت على العالمين .

٥

هكذا انتهى حسن مفتاح . أما روح كلاداكيس وروح كابتياكيس فقد حومتا في يأس وغباوة أربعين يوماً على وجه المياه ثم انطفأت فيهما الذكريات فأنطفأتا الى الأبد . ولكن روح حسن مفتاح لم تفعل ذلك ، بل انطلقت في جنون الى الشاطىء تبحث ، تبحث عن مونا ربيع ، فلم تجد لها أثراً في دارها أو في مستشفيات المدينة حيث العمة معلقة بين الحياة والموت او بين المقابر . فلم يكن بد من انتظارها حتى الغروب . وقبعت روح حسن مفتاح في غرفته بقية النهار تبكي في رفق حتى لا يسمعها أحد ، بكت حتى نزفت كل ما معها من حسرات ، فقبعت في سكون تفكر وتنتظر .

أهذه لعنة فؤاد منقريوس ؟ ان كانت هذه لعنة فقد تحققت اللعنة . لم حطمت القط الأسود يا فؤاد ؟ لم فعلت بي ذلك يا فؤاد ، وأنا هل أضمرت لك إلا الود؟ اني أغفر لك يا فؤاد، وهل أملك إلا الغفران ؟ تعالَ إليّ يا فؤاد لتؤنس وحشتي ، فالليل بارد والظلام شديد وأرواح المدينة لا تفهم شيئاً مما أقول . تعال يا فؤاد ننطلق بين المروج الخضر والفلوات الصفر والحقول التي توشك ان تكتسي بالقمح السعيد، حتى نبلغ المنيا الثانوية فنجلس على الأعشاب في فنائها ونتبادل الذكريات ، او نجلس قرب ترعة دماريس نخاطب الجن الساكن في مجواها ونقطف ذقن الباشا ريحان صبانا الذي اختفى مع العمران . قد غفرت لك يا فؤاد فتعالَ . أوّاه .

ما أبرد الشتاء وما أحلك الليل وما أقسى الوحشة على نفسي الحزينة . ولكن فؤاد منقريوس لم يسمع هذا النداء فقد كان سجيناً في شجرة الجميز ، ولو قد سمعه لما استطاع ان يستجيب ، بل لهمهم قائـــلاً لا تبتئس يا حسن. ان هي إلا الليلة الأولى ، ولسوف تألف بعدها زمهرير الموت وظلام النهار . أواه . أين أنت يا فؤاد ، واين شجرة الجميز ، شجرتك ، فأطير اليك اناجيك في مخبئك وأهون عليك سجنك المديد . اين شجرة الجميز شجرتـــك ، فأسكن الشجرة المجاورة ، نتهامس الليل والنهار الى يوم الدينونة . كلا يا فؤاد ، لن افعل ذلك ، فشجرتي شجرة مونا ربيع . ولسوف نختبس فيها الى الأبد سوياً ، وكلما أنقضى الف عام تجددنا الفاً آخران بالضراعة وإن بالجرائم النكراء ، فقد كان ينبغي أن نتحد أيام الدفء بين ورود الربيع . أما انت فلتبقَ في شجرتك وحيداً تبكي حظك التاعس وتبكي عزلتك المخيفة جزاء ما انزلته بي من دمار عاجل . لقـد اغرقتني يا فؤاد وأعفيتني من حبل المشنقة ، فشكراً لروحك الطاهرة . ولكن أبقَ حيث أنت واندب حظك التاعس وأعوِ كالذئاب في عزلتك المخيفة جزاء ما انزلته بي من دمار عاجل . أما انا فباقٍ هنا حتى اتحد مع مونا ربيع .

ولكن روح حسن مفتاح لم تدرِ كيف الاتحاد بمونا ربيع. ان مونا ربيـــع لا تزال حية ترزق ولا سبيل الى الاتحاد معها إلا ان تموت . فهـــل ترضى روح حسن مفتاح الموت لمونا ربيع ؟ كلا . ولكن روح حسن مفتـــاح سوف تتعذب عذاباً ما له نهاية ، سوف تنهشها الوحدة ، سوف تنعب على قبور المحبين أربعين يوماً بلياليها ، ثم تخرج من عالم الأحياء الى عالم الظلال الأبدية ، حيث تنعب على غرامها الفقيد الى أبـــد الابدين . فلتمت إذن مونا ربيـع أو فليعش حسن مفتاح من جديد . أما موت مونا ربيـع فمحال ، محال . محال ان ترضى روح حسن مفتاح الموت لمونا ربيـــع . ان روح حسن مفتاح لا ترضى ان يخدش لمونا ربيـــع إصبع فكيف ترضى لها الموت ؟ ان روح حسن مفتاح لتقبل ان تحترق ان كانت نارها تدفع عن مونا لذعة برد . انهـا لتقبل ان تكون روحاً

ملعونة بين الأرواح الملعونة،وان تقيد دهراً بعد دهر بسلاسل الصوان الى جوار بحيرةالنار والكبريت، ان كانت اللعنة والاغلال تعود على مونا بالسعادة. ثم أن مونا من لحم جميل منفتح لافراح الحياة . انها تحب ان تنعم بالألوان التي حرمت منها روح حسن مفتاح ، آه الألوان التي كانت تزين الدنيا ، خضرة العشب، سمرة الأرض ، زرقة البحر ، حمرة السحاب وقت الأصيل ، صفرة اللارنج وذهب البرتقال وقوس قزح الذي انتشر بين أزهار الوادي وجدران المنازل. والعطور. والطعوم . والأصوات. وكل ما يثير الحواس . فيها حياة اللحم ولو كانت اليمة. ان روح حسن مفتاح قد آضت الى نفس حائر ، الى قبضة من رياح ، وغـــداً تصير الى خلو كامل ، الى ريح ساكنة خارج الزمان وخارج المكان ، لا قدرة لهـــا حتى على الحركة . وروح حسن مفتاح الى الحيـــاة . لتسكن بيتاً من بيوت اللحم ان أحبت ان تتحـد بمونا ربيع . فليس يتحد باللحم إلا اللحم . آه ، اللحم .

واني لروح حسن مفتاح ببيت آخر من اللحم غير ذلك الذي غاص تحت الصخور السوداء؟ ان هذا جائز . بل هو ميسور . فروح حسن مفتاح تذكر ان لحسن مفتاح ابن عم قروي يدعى سيد قنديل لا يزال يعيش في ارباض دماريس يفلح الأرض ويطعم الماشية ويمشي وراء المحراث، وهو شبيه بحسن مفتاح شبهاً يذهل الجميع وان كان يصغره بعامين ويتجاوزه طولاً بأقل من القليل . ولعله الان عائد من حقله قبيل الغروب بزمام دماريس في جلبابه القذر على حماره الصبور،وقد عقد منديله الكبير الملون حول عنقه بعد ان أتى على ما فيه من جبن وبتاو في وجبة الغداء. الموت لك يا سيد قنديل . ان الاقدار قد خلقتك لتكون ضحية . انت العابر الذي يسعى في أمان فيسقط عليه منزل داثر . انت الحاصد الذي يحصد في أمان فترديه رصاصـــة طائشة كان ينبغي ان تردي البط البري . انت المحارب الذي كتبت له السلامة ليموت في الهدنة . انت العوبة القدر التي يعرضها القدر بين الحين والحين حتى لا ينساه الناس .ولكن لا ؛ البشرى لك يا سيد قنديل ،

فسوف تعيش طويلاً . ان روح حسن مفتاح روح لاترضى بالجريمة. ان روح حسن مفتاح فيها الخير وفيها الشر ولكن خيرها كلي وشرها جزئي ، والكلي يقهر الجزئي. ان روح حسن مفتاح ترضى ان تقبع في ركن الغرفة وتتعب على حبها الفقيد ولا تقبل ان يصاب سيد قنديل بخدش . لسوف يعيش سيد قنديل فما أذنب . انما الذي اذنب هو عبد السلام بك ربيع ، فينبغي اذن ان يموت . ينبغي ان يموت عبد السلام بك ربيع لانه عذب مونا ربيع اولاً ، ولأنه حرم منها حسن مفتاح ثانياً . فليتهشم ولتتهشم معه الكرايسلر السوداء وليتهشم وراءهما كل أثر من آثاره في العالم المادي وأكثر من ذلك إنه لم يعذب الحبيبة فحسب . وانما سيعذبها بحفلاته الاسبوعية التي لا يتردد عليها إلا السفهاء والسفيهات من كل صاحب كرايسلر ومن كل صاحبة سوليتير . سيعذبها بعماته العليلات اللائي يمتن ويبعثن كل يوم مرات . سيعذبها بجهله العظيم وتفاهته العظمى . نعم ، سيعذبها بتفاهته العظمى فهو في مجتمع التفاهة أمام التافهين . ليته كان يقامر ، أو يحب سباق الخيل ، او يستطيب عشرة النساء . اذن لاستراحت منه نصف النهار واكثر الليل . اذن لخلت بعده الى معارضها وكتبها ، الى الموسيقى التي تحب أن تعيش لها . ان مونا ربيع من ذوات الاهداب الفاحمة الطويلة والوجه الذى لا هو شاحب ولا هو ناضر ، والأعصاب الحية دائمة التوتر التي لا تهدأ الا بمرأى الآفاق الزرقاء ، لا تهدأ الا بمرأى الآفاق ، والبدن الضئيل الذي يوحي بذات الرئة ، فكيف يحرمها إنسان من الموسيقى ؟ إن مونا ربيع مازوركا تسير على قدمين ، انها حورية مصدورة ثائرة على روتين الفردوس . ولكن ربيع بك لا رذائل له ، وهو لا يغادر بيته الا غراراً ليشبع مونا بتفاهته. أما حفلاته وهي المبرر الأوحد لحياته ، فهو يقيمها لأسباب مالية ، يقيمها بانتظام . انه شاب ، ووسامته لا شك فيها ، ولكن رأسه كجوزة الهند الفارغة ، وحياته قد انكمشت الى عمود البورصة في الأهرام ، وطريقته في التودد الى زوجته كلما أحس بأنه لم يعد يطاق هي أن يشتري لها فراء جديدة او بعض اسهم شركة الحرير الصناعي. ان ربيع بك ينبغي ان يختفي من الوجود ، لا لانه عذب مونا ربيع ، فما فات فات ،

ـ لأنه سيعذبها لأربعين سنة قادمة . ولو ان نعيماً كان يعالج هذا الموقف لقال: ينبغي على جميع نساء القطر ان يدسسن السم لأزواجهن . ينبغي ان يختنق ربيع بك الى ان يطفح الدم من فمه ، حتى تسلم مونا ربيع ، بل حتى تسلم طفلتها . أواه، لولا هذه الطفلة لفرت منه مونا ربيع فهي تستطيع ان تفر . سوف تعذب روح حسن مفتاح عبد السلام بك ربيع حتى تدفعه الى الانتحار . سوف تطلعه على اسرار الجحيم حتى تدفعه الى الانتحار . لسوف تجلس على صدره اثناء الليل حتى تدفعه الى الانتحار . لسوف تعلقه من أذنيه في سقف الغرفة حتى يصيح : وارحمتاه . لسوف تتقمص له في زي سحلية وتتسلل الى فراشه وتمضغ خشب السرير بين المساء والصباح ، بين كل مساء وصباح ، وتصرخ في أذنيه صراخها الحاد المتواصل حتى يجن ويقذف بنفسه من النافذة . لسوف يتقمص له في زي فأر يتكلم حتى يبيض شعره هلعاً .

ولكن ما بال روح حسن مفتاح لا تفكر إلا في الجريمة ؟ أهي ظلمة النهار وبرودة الموت ؟ ان حسن مفتاح ابان حياته لم يرضَ بقتل علي عبدالله لأنه بريء. أما ربيع بك فليس بريئاً ، وهو يقتل مونا ربيع كل يوم الف مرة . ولكن حسن مفتاح أبان حياته لم يرضَ ان يقتل زكية حنين وهي مذنبة، فحسن مفتاح لم يكن يقر الانتقام ، لم يكن يقر الجريمة الفردية مهما كبرت الدوافع اليها . أنه احتقر فؤاد منقريوس لانه اندفع الى الاجرام لدوافع شخصية ، فكيف ترضى روح حسن مفتاح الآن بقتل ربيع بك . لو انها فعلت ذلك لاستحقت اللعنة الى الابد . ان ما بين ربيع بك وحسن مفتاح مسألة تسويها الالهة . وان ما بين حسن مفتاح ومونا ربيع مسألة تسويها مونا ربيع ثم ان الوقت قد فات . فحسن مفتاح الآن روح لا يمكن ان ينتفع باللحم ولا بصحبة الاحياء . اما مونا ربيع فهي تعرف كيف تدافع عن سعادتها ، فان لم تفعل استحقت كل ما ينزل بها كما استحقت كل ما نزل بها حين اخطأت وتزوجته . ان روح حسن مفتاح لا تملك ان تقتل ذبابة ، فالقتل قتل ولكل جريمة عقاب والعقاب سلاسل الصوان

بجوار بحيرة النـــار والكبريت . لا. لا. لا. سوف يعيش ربيـع بك . سوف يعيش سيد قنديل . سوف تعيش مونا ربيـع . سوف يعيشون جميعاً . سوف يعيش الجميـع إلا حسن مفتاح . الموت للموتى والحياة للأحياء . للموتى الظلام البارد اما الأحياء فلهم النور والدفء وأطايب الجنان .

فلتبق إذن روح حسن مفتاح قابعة في ركن الغرفة تنتظر قدوم الاصيل ، فمونا ربيع لا شك قادمة عند الاصيل . ولترض روح حسن مفتاح اذن بما كان من نصيبها في الحياة ، ولترض كذلك بنصيبها في الموت . لتقبع في صمت ، ثم فلتحوّم أيامها الاربعين في هدوء حتى ينقضي اجلها فتنطلق الى الهاوية حيث المادة ممتنعة . أما الآن فسوف تأتي مونا ربيع ، وسوف تدخل الدهليز الصغير فلا تجد أحداً ، وسوف تدق الجرس من المدخل الصغير فلا تجد أحداً ، وسوف تدق الجرس من المدخل الصغير فيخف اليها الخادم النوبي او الخادمـــة ذات الوجـــه المبثور ، فهما في المطبخ يتعاونان في قشر البطاطس أو يتناجيان تحت رائحه البفتيك أو يتخاصمان في توزيع القرش التي يتركها النزلاء المسافرون هبة للخدم . ولكنهما لا يعلمان بما كان من امر مدام كلاداكيس او من امر مدام كابيتاناكيس أو من أمر ذلك النزيل صديق البنسيون الذي لا يعرف له أحد اسماً على وجه التحقيق . وسوف تجلس مونا ربيـع في مقعد من المقاعد الصغيرة في المدخل ، وسوف ترتاح قدماها على البساط الأسيوطي الصغير الخشن؛ سوف تنتظر مونا ربيـع حتى ينفذ صبرها . وكلما فتح نزيل باب غرفته شخصت اليه في لهفة ثم ارتد بصرها الى صلبان الارض في خجل ووجوم . وحين ينفذ صبرها سوف تفهم . سوف تفهم ان حسن مفتاح قد صحا الى حقيقة الموقف بمقـدم الصباح، فآثر ان يضع حداً لهذه المأساة التي توشك عناصرها ان تتجمع فتعصف بالجميع . آثر النسيان ، ولعـله الآن ينسى في حانـة من حانات المدينة فوق كؤوس النبيذ . وسوف يزداد اعجابها بشجاعته وتجمله ورجاحة عقله . انها لن تغضب لأنه اخلف الموعد . انها ستفهم . انها ستتشبه به فتطلب النسيان .

ولكن حسن مفتاح يستطيع ان ينسى بالشراب الذي يحبه ، ويستطيع أن ينسى باللجنة المركزية التي يحبها ، أما مونا ربيع فكيف تنسى ؟ ان غصتها تجلس دائماً على الفوتيل الرمادي قرب المدفأة التي لا تدخلها نار في الشتاء او في الصيف ، وتدخن البيبة في صمت وتقرأ « الاهرام » صباحاً و « المقطم » مساء . ولكن مونا ربيع سوف تفهم وسوف تنصرف اقرب الى الراحة منها الى الشقاء ، وسوف تعود الى غرفتها وتغلق من ورائها بابها ثم تحتضن طفلتها ماجدة وتقبلها الف قبلة وقبلة . انها اوشكت في وقت من الأوقات ان تمقت ماجدة لان في دمها آثاراً من ربيع بك ، ولكنها عدلت عن ذلك واسرفت في حبها إسرافاً فعلقت عليها آمالها وسعادتها وحقوقها في الحياة . بل علقت عليها حقها في رجولة الرجال ، فغدت تجد في تقبيلها وفي عناقها وفي مناجاتها وفي المسح على شعرها راحة تبعث الخدر في جسمها ولذة الامومة واشباعاً فيه من إشباع الجنس شيء كثير . وبعد ان تفعل مونا ربيع كل ذلك سوف تروض نفسها على النسيان ، سوف ترضى بربيع بك على علاته ، سوف ترضى ببيبة ربيع بك التي تثير فيها الحنق وتجعل اسنانها تصطك غيظاً .

فلتبقَ اذن روح حسن مفتاح قابعة في ركن الغرفة تنتظر مونا ربيع. فمونا ربيع لا شك قادمة عند الاصيل . وعند الأصيل سوف تتسرب روح حسن من ثقب الباب أو من تحت الباب حتى تبتهج برؤية مونا ربيع . ولكن روح حسن مفتاح لن تطيل المكث حتى لا تشيع في المكان برودة الموت . ولن تمر أمام المرايا او ألواح الزجاج قبل ان يضاء النور حتى لا تفزع الآمنين ، ولن تتحرك في عنف حتى لا يحس بوجودها أحد، فلو أحس بوجودها، سجنها السجان الاعظم الف سنة في شجرة الجميز. وفوق هذا وذاك لن تتحدث روح حسن مفتاح الى مونا ربيع خشية ان تنزل بها ما أنزلته روح فؤاد منقريوس بحسن مفتاح . لن تتحدث روح حسن مفتاح الى أحد فهي لا ترضى الموت لأحد . انما ستسعى روح حسن مفتاح في صمت واحتراس الى قدمي مونا ربيع حتى اذا ما بلغت

قدميها قبلتها في صمت كذلك لتقول : الوداع ايتها الحبيبة ، ومن ثم تنصرف الى ابد الآبدين، ومن ثم ترفرف على المياه وتحـــوّم على اليابسة حتى تستهلك اربعينها وتنزح جملة عن عالم الاحياء .

كلا . ان روح حسن مفتاح لن ترفرف ولن تحوّم ولن تستهلك ولن تنزح. لن تفعل شيئاً من هذا روح حسن مفتاح. لقد كانت روح حسن مفتاح تفكر في الجريمة تفكيراً متصلاً ولا تدري لذلك سبباً . اما الان فهي تفهم السبب . ان اللجنة المركزية في انتظارها ، ولئن غابت روح حسن مفتاح عـــن اللجنة المركزية تفكك عقدها بعد حين وتشاجر اعضاؤها في المذهبيات وهم في واقع الأمر يتشاجرون على النفوذ فخربوا المذهب والحركة جميعاً . نعم ، ان القادة اذا تنافسوا أو تخاصموا خربوا المذهب وعددوا البرامج واعضاء اللجنة المركزية لا شك متنافسون ثم متخاصمون . ان الزملاء زملاء بالمعنى الصحيح . خلقوا ليكونوا زملاء متساوين لا أكثر من ذلك ، وسيتسابقون من بعده الى النفـوذ لأنهم زملاء متساوون ، فهم بحاجة الى شخصية ناجعة ومرنة معاً ، شخصية أقوى من شخصياتهم يلتفون حولها ويرضون بالولاء لها ، شخصية تتقدمهم في تحمل التبعات فتتقدمهم في نيل الجزاء . هم بحاجة الى حسن مفتاح . ولسوف يعود اليهم حسن مفتاح . نعم ، لسوف يعود حسن مفتاح ولو مشى على اجداث الملايين . لا مفر من الجريمة يا حسن مفتاح . ان مصير الشعب في خطر فلا بد من انقاذ الشعب . ان هذه اول تضحية جدية يطلبها الشعب اليه فكيف يبخل على الشعب بهذه التضحية . ان هذا أول امتحان عسير يجتازه ، ولسوف يثبت جدارته في الامتحان . انه ليس بقاتل . ولكنه سيقتل . اقاتل هو ؟ كلا . فلو قد كان قاتلاً لقتل علي عبدالله وفاءً لفؤاد منقريوس . اقاتل هو ؟ كلا. فلو قد كان قاتلاً لقتل ربيع بك وفاءً لمونا ربيع. ولكنه لم يقتل علي عبد الله ولن يقتل علي عبد الله ولن يقتل ربيع بك ، فما هو بقاتل ، وانما هو منقذ . انما يسمع زحار العبيد في شعاب الارض ويسمع نحيب الملائكة في رحاب السماء فيستجيب.

لا مفر من الجريمة يا حسن مفتاح. سوف تبحث روح حسن مفتاح عن جسد تحل فيه ليكتب لها اجل جديـد . سوف تجوب مشارق الارض ومغاربها بحثاً عن شبيه تسكن فيه . في الصين . في بلاد البيض . بـين الزنوج . في جزيرة النار . سوف تنقب روح حسن مفتاح عن شبيه تسكن فيه . وحين تجـد روح حسن مفتاح هذا الشبيه سوف تجده حياً يسعى بين الأحياء ، فتتآمر به حتى تصرعه ثم تحل فيه . سوف تستدرجه الى الغابات الصنوبرية وترديه قتيلاً على اكداس وراقها ، على مشهد من السناجب والعصافـير ، أو تقتاده الى الرابية الصخرية حيث يلطم الموج الغاضب صوانها السحري فينقش عليه عبر المجهول ، او تخنقه في فراشه بأنامل من هواء ثقيل ، وتجلس على صدره جلوس قيظ اغسطس حتى تزهق انفاسه على مرأى من زوجه وعياله ، او تطارده كما طاردت ابو ذبابة الأساطير ، كل هذا ستفعله روح حسن مفتاح ، واكثر منه . كل هـذا ستفعله روح حسن مفتاح من اجلى الشعب لأن النهاية قد اقتربت وآن يوم الخلاص . ان موته كان خطأ من القدر. فليصلح هو ذلك الخطأ . ان هـذه ارادة الشعب ، وارادة الشعب من ارادة الله ، فهذه ارادة الله. انه يقتل بأمر من الله ، بتكليف من السماء القوية ام الجميع .

هو لن يقتل بل سيهب الحياة . ولكن بحثه لن يطول . فهـو يعلم اين يجد الشبيه ، فله ابن عم قروي لا يزال يسير حافياً وراء المحراث في رباع دماريس مسقط رأسه ، هو سيد قنديل . وابن عمه نسخة منه تحير الناظرين ، فهو يعرف فريسته منذ الآن. لسوف يقتل سيد قنديل اذن. ولكنه سيقتل على كره منه . هو لا يحب القتل ، ورائحة الدم تزكم انفه . ولكنه سيقتل ، بل سيشرب الدم الاحمر اذا لزم الأمر . هذه ارادة الشعب ، وارادة الشعب من ارادة الله ، فهذه ارادة الله. واذا لم تكن هذه ارادة الله فلمَ باح له منقريوس بهذا السر العظيم؟ ان الملايين والملايين تقيم الاربعين وتقدس الاربعين ، ولكنها لا تدري لم تقيمها ولم تقدسها . اما هو فيدري . وهو يدري بإذن من الله . أم بأمر من الشيطان ؟

أليس جائزاً ان روح حسن مفتاح روح نجسة لعينة ؟ نعم انــــه الشيطان الذي رسم له الطريق من مبدئه الى منتهاه ليقوده من رحاب الله الى عرصات الجحيم. أليس جائزاً ان روح حسن مفتاح روح نجسة لعينة ؟ أليس جائزاً ان روح حسن مفتاح تحب الحياة وتتشبث بها فتبحث لهــــا عن اجل جديد ؟ ان روح حسن مفتاح تقشعر في ركن الغرفة تحت ظلام النهار. ولكن لا . ألف مرة لا . ان حسن مفتاح لم يكن بالقاتل ومــــا روحه بالروح النجسة التي تخرب وتمشي بالفساد . انما هي تفعل كل ذلك لأن السماء قداستودعتها امانة ينبغي ان تؤدّى فتصل بالشعب الى مصيره المحتوم، وهي الآن تصلي الى السماء وتستغفر عما تقدم من ذنبها وما تأخر ، وتسلم امرها لمشيئة الدافع المجهول .

وجاء الاصيل وجاءت مونا ربيع ، ووقفت بباب المدخل الصغير ، ودقت الجرس ؛ وخرج إليها الخادم النوبي من مطبخه وهو يمسح كلتا يديه في بنطلونه الازرق المرقوع . فلما لم تهتدِ الى شيء معلوم جلست في المقعد الصغير واراحت رجليها على البساط الصغير الخشن ذي الصلبان المتداخلة .

وانتظرت. ولكن انوار المدخل كانت مضاءة ، ولم يكن لروح حسن مفتاح بدّ من الخروج فخرجت الى المدخل في احتراس شديد ، تتلمس طريقها في أناة خشية ان ترتطم بالمشجب الواقف فتلقي به على الارض او تحتك بمائدة التليفون فتحدث ضجيجاً يلفت اليها الانظار . ووجدت المدخل مظلمــــاً لا حدّ لظلمته فزحفت على البساط الاسيوطي زحفــاً حتى بلغت قدمي مونا ربيع ، وهناك وقفت. وغلبها الشجن فكادت ان تجهش بالنحيب ولكنها غالبت احزانها حتى انتصرت عليها . وانتشرت في المدخل برودة غريبة جعلت مونا ربيع تلتفت الى ممر الهواء . وتقدمت روح حسن مفتــاح من خدي مونا ربيع فمستها مساً رقيقاً ، واحست مونا ربيع بريح باردة تعبث بخديها فاقشعرت . ثم انسابت روح حسن مفتاح الى الخارج . وعاد المدخل كما كان آمنا لا تعكره الاشباح .

وفي لحظات كانت روح حسن مفتاح تضرب في مهامـه المدينة ، فزارت موقع الغرام موقعاً موقعاً. زارت المونسنيير فوجدته لا يزال خاوياً ، وترسمت طريقها الى مصطفى باشا وتوقفت حيث توقفت الكرايسلر، وهناك لم تحتمل غصة الذكرى فأجهشت بالبكاء. وسمعت اشجار الشارع الخالي نواحها فارتعشت وسمعت امواج البحر انينها فخارت خواراً يفتت القلوب . وتقدمت روح حسن مفتاح من الفيلا الصفراء مودعـة ثم انطلقت في الفضاء ، انطلقت الى الاعالي كأنها تبغي النجوم، ولكنها كفت اخيراً عن الطيران، وحلقت فوق المدينة ذات نمط الجميل والانوار الزرقاء الداكنة التي تغشى النفوس ، فقـد خرجت روح حسن مفتاح من نطاق النور المظلم الى نطاق الظلمة المنيرة . ههنـا لن تزعجها نور الارض المظلمة ، فههنا الظـلام منير يعشي سناه الابصار . هنا لن تزعج حداً برياحها الباردة وجوها الرطيب ، ولن يزعجها احـد باللعنات أو بالتعاويذ .

وانطلقت روح حسن مفتاح الى الجنوب على جناح الريح ، وهي لا تدري فيم طيرانها الى الجنوب مع ريح الشمال . نعم . انها تنطلـق الى الجنوب لتهرب من موتا ربيع . لا. إنها تنطلق الى الجنوب لتحج الى مولدها . وبلغت روح حسن مفتاح ارباض دماريس قبيل الفجر رغم انها تلكأت في مواضع عدة . وعلى قمة بتلال قرارة جلست ، وذهبت تصغي الى السكون الأبدي شرق التلال حيث الوادي المتدرج ، وتتأمل منازل قرارة التي تناثرت في الغرب بين الرمـال وعلى حافة النبت اليابس بيضاء حجرية أو شهباء من طين جاف ، ومن حولها ومـن بعدها غابة سوداء من احراش النخيل القصير الغليظ العقيم الذي ينمو كما ينمـو الصبار ، رمز الحياة . وبعد أحراش النخيل القصير الغليظ العقيم رمال ، وبعد الرمال يبدأ الوادي ، يبدأ بغابة سوداء من احراش النخيل الطويل ، النخيـل المثمر الذي يرضع الماء من جذع ممتلىء ومن بعده حشائس المراعي ، ومن بعد المراعي أفدنة من الطماطم تبتهج بحمرتها العيون ، ثم افدنة من البرسيم المترعرع

الشديد الخضرة، ثم قصب عالٍ ما له نهاية ثم فلوات فيها بالت الشياطين فأنبتت حسكاً شائكاً ، ومن بعدها زمام دماريس الذى اكتسى قصباً واكتسى ذرة من تخوم الجزيرة الى تخوم الجرابيع ، ومن وراء ذلك كله انساب النيل ثقيلاً كالرصاص المصبوب ، ما فيه موج وما فيه رياح ، وانما عليه قشرة من ضباب الصباح. وفي التخوم الشمالية غابة سوداء من احراش النخيل الطويل النحيل المثمر التفت غزاراً فضربت حول الأكواخ نطاقاً يدرأ عنها الخماسين كل ربيع. وكانت الجن تسير بين نخيل الغاب وأطفالها تتقاذف بالحصرم المر الذي نبت قبل الأوان، وكانت الجنيات يتباهين بشعورهن الطويلة البيضاء ويمشطنها تحت جذوع النخيل بأمشاط من عاج وأمشاط من أبنوس ، او يغتسلن في الضباب تحت الجرف العميق حتى لا تصل اليهن عيون الجان ، يغتسلن قرب الشط جماعات وقد تماسكن خشية ان يفترسهن التمساح العظيم ، او يتحلين بين اعواد الذرة الهيفاء بعقود من حبها الابيض المفروط . فلما رأت روح حسن مفتاح كل ذلك تسللت الى مشارف الغاب ، ووقفت بين نخلات ثلاث متعانقات تتسمع الى ما يقوله الجن فلم تفهم من لغة الجن شيئاً ، ومضت تتأمل اجساد الجنيات وهي نورانية وراعتها شعورهن الطويلة التي تنسدل غزاراً الى العقبين كأنها اسلاك البلاتين . فلما ان صاح الديك كثر الهرج بين جماعة الجن فبدت كأنها جماعة من الغجر تتأهب فجأة للرحيل. واجتمعت الجنيات حول النخلات الثلاث وتماسكن في هيئة العقد ورقص حولها رقصة الوداع سبع مرات ، ثم حملت كل صغارها وانصرفن الى كهوف الجان بين التلال . وانصرف في اثرهن الجن يتسابقون . وبقيت روح حسن مفتاح بين النخلات الثلاث وحيدة تنتظر الفجر الاحمر وهو يتدفق رويداً رويداً بين قمم المقطم فلما تدفق الفجر الاحمر رويداً رويداً بين قمم المقطم اظلمت السماء رويداً رويداً حول روح حسن مفتاح حتى لم تعد تبصر الأكواخ ولا مياه النهر القريب ولا غابة النخيل. فلما اكتملت الشمس فوق القمة الحمراء باتت روح حسن مفتاح في ظلام دامس .

لقد رأت روح حسن مفتاح ما كفاها ، وانها لتأنس الى هذا العالم الجديد .

. مها أربعين يوماً تستطيع فيهــا لو أحبت ان تتسلل اينما شاءت : الى
حدع ، الى مجالس الانس ، الى مجامع الاشباح ، الى قيعان الانهـار ، الى
كد س السحاب ، الى بلاد الثلوج والى بلاد القيظ الاحمر ، وبعـد ذلك تنزح
. لأبد عن عالم الأحياء ، ولعلها تجد في الملكوت النوراني السعادة التي فاتتهـا
في بيت الصلصال . ولكنها لم تزر دماريس لتستمتع بمرأى الجـان او لتناجي
لأفـحي البرية او لتتمنى عذب الاماني ، وانما زارتها لقضاء امر عظيم ، زارتهـا
لتؤدي رسالة ، زارتها لتحقق نبوءة . زارتها لترى مولدها ، وتلعب في الدرب
سعيد مع الدجاج اللاغط ومع العنزة ذات الاجراس . كلا . انها مـا جاءت
لزيرة مولدها ، وما جاءت لتلعب في الدرب السعيد مع الدجاج اللاغط ومـع
لعنزة ذات الاجراس، وانماجاءت لتزور سيد قنديل ابن عمها الغالي. لتطمئن على
صحته الغالية ، فصحة سيد قنديل هي الآن اثمن ما في الوجود .

ان سيد قنديل سوف يخرج مع الفجر ،ولعله الان قد صحا من نومه في الدوار
لصغير بدرب المفاتيح ،وليس خفية وغسل وجهه بلا صابون بالانجر والابريق
ثم تناول عصاه من وراء الزير وسعى الى حماره يفك وثاقه ، ولقد خرج سيد
قنديل على حماره وسار في الدرب المتعرج الفقير ، والقى السلام جملة مرات على
القرويين المتعرجين الفقراء ، وتجاوز بيت الخواجة عبد الملاك ابو عازر وهـو
البيت الوحيد المبني بالحجر بعد بيت العمدة .. وحين بلغ الحمار الكوم العظيم ،
كوم الروث ، القائم خارج القرية في مدخل الدرب لم يقف لأن رائحة الحثالة
اوقفته . فقد الف رائحة الحثالة منذ ان كان جحشاً وليداً ، بل وقف لأنه كان
عطشان فرأى الثيل. ورأى سيد قنديل في اقصى يساره البيت الحجري الاخر،
بيت طه أبو عبد الصمد ، البيت الوحيد الذي يحتوي على آلات غريبة لا وجود
لها الا في البنادر. ففيه راديو ببطارية،وفيه تلفون يبلغ به العمدة حوادث دماريس
الى بوليس سمالوط ، وبه صندوق من الحديد يغني ، أهم من هذا وذاك به دراجة
يركبها ابن طه ابو عبد الصمد ويختال بها بين اطفال القرية ، ولا يأذن لاحد منهم

ان يركبها إلا بأمر من أبيه ما خلا السيد ابن شيخ البلد . ان ابن سيد قنديل لا يزال يأكل الدراجة بعينيه كلما رآها في زقاق من الأزقة ، وقد بدا له مرة ان يمسكها ليحس بحديدها تحت اصابعه ويفرح قليلاً ، ولكن ابن العمدة نهره نهراً موجعاً والقى به على الأرض ، فكان ذلك عظة كافية لأطفـــال القرية . وسيد قنديل لم يطلب قط لنفسه راديو ولكنه كان يحب ان يسمح طه ابو عبد الصمد للفلاحين ان يدخلوا حوش داره، ظهر الجمعة ليسمعوا خطبة الجمعة في الراديو وان تكون لولده دراجة . ولكن سيد قنديل كان يعلم ان هـذه ارادة الله ، فالله يعطي الدراجات لمن يشاء ، ولو شاء ربك لأعطى كل من في القرية دراجـــة ، ولكنه لا يفعل ذلك ، وهو لا يفعل ذلك لأن له في ذلك حكماً ، فأصابع اليد ليست متساوية . وهنا ينظر سيد قنديل الى اصابع يده فيرى انها غير متساوية ولكنه لا يرى انها جافة متشققة قذره رغم غسلها بالماء كل صباح . ثم يلكز حماره ويصعد به ما بقى من كوم الروث العظيم . ثم يهبط من الكوم الى المقات الممتد بطول دماريس محاذياً للنيل ، ويقود حماره بين رؤوس الطماطم الى الشاطىء حيث يمد الحمار عنقه ويشرب من دموع ايزيس . ويحس الحمار بغبطة ما لها نهاية ، وكذلك يحس سيد قنديل بغبطة ما لها نهاية ، ويحمد الله لأنه لا يزال في الدنيا أشياء لم يملكهـــا احد بعد : الهواء والمـــاء ورائحة الصبـــاح . فهو يحب رائحة الصباح التي اختلطت فيها انفاس الروث وانفاس الطماطم شتاء، وأنفاس الروث وانفاس البطيخ صيفاً . ثم يسوي سيد قنديل اللبدة على رأسه المحلوق ويهش على حماره بعصاه ويسعى نحو ميل الى الشمال على الجسر الطويـل اولاً الى القراريط الخمسة التي استأجروها بجوار القيراطين اللذين ورثهما عن أبيه، وبعد ان يتفقد قراريطه يجمع أكواز الذرة ساعة او بعضها حتى تأتي زوجته بفطوره ، بتاوتين وقطعة من الجبن ، ملفوفة في المنديل الملون العريض (امـــا الفول الاخضر فهي تسرقه من الحقول) . ولكن زوجته قد تأخرت ، وهو لا يستطيع ان يترك اكوازة على الارض في متناول السارقين . ثم انه جائع . ثم ماذا يقول الحاج سيد احمد الذي كراه ليقطع له قصبه . لا شك ان بقية الجدعان

فـ وصلوا الى غيط الحاج سيد احمد، وبدأوا العمل فعلاً فالشمس قد ارتفعت و دفت الكون . كذلك لم يأتِ مقصوف الرقبة عبد السميع (ولده) ليجمع معه كواز الذرة . لعل مقصوف الرقبة قد خالف امره وذهب الى الكتّاب ـ من انيأتي الغيط ويعينه في العمل . ترى ما نفع هذا الكتّاب ؟ انه يمنع غص عن العمل ، وقد كان خليقاً بهم ان يعملوا . ان عبد السميع يجمع ـزة شتاء ويجني القطن صيفاً لقاء ثلاثة قروش يومياً ، وهي ثمن طعامه وبعض طعام اخته الصغيرة سيدة . وذهابه إلى الكتاب يحرم سيد قنديل منهذا الدخل ـعد ، ويجعل من مقصوف الرقبة عالة على سيد قنديل لا تحتمل .

ولكم امر سيد قنديل مقصوف الرقبة عبد السميعبالكف عن الذهاب الى كتاب ليعاونـه في طلب الرزق ، ولكن مقصوف الرقبـة لا يجد فرصة يتسلل فيها الى الكتاب إلا واغتنمها . ترى ما نفع هذا الكتاب ؟ انـه يعلم مقصوف الرقبـة القراءة والكتابة والقرآن والحساب . ولكن ما نفع هذه لاشياء؟ ان حفظ القرآن نافع لأنه يقرب الاسرة من الله ويرفعها في نظر الجيران ويطهر البيت من العفاريت . وقد يدعو الجيران مقصوف الرقبة بعد ان يكبر ليقرأ عدية يس فيخرج من بيوتهم الشياطين او ليقرأ ما تيسر على ارواح موتاهم. ثم انهم حين يخرجرن الى القرافة لزيارة المرحومين من اقرباء الاسرة فقد يوفر مقصوف الرقبة اجر الفقى اذا اجاد تلاوة القرآن . ولكن ما نفع هذه الاشياء؟ انها لا تجعل مقصوف الرقبة يجمع الذرة أو يجني القطن بأسرع مما يفعل الآن . انها لا تعلم مقصوف الرقبة ان يزرع الأرض بأتقن مما زرعها اجـداده . وهبها علمته ان يفعل ذلك فما الارض بأرضه وما الغلة بغلته .

وغداً يتعلم مقصوف الرقبة القراءة والكتابة والقرآن والحساب ثم يعود الى الارض فيفلحها ويزرعها ويرويها ويحصدها ثم يسلم ثمارهـا للحاج سيد احمد أو للشركة او للعمدة أو لأي مقصوف الرقبة يملك الارض. ثم ينسى مقصوفالرقبة عبد السميع القراءة والكتابة والقرآن والحساب كما نسيها يونسابن نبوية العمشاء

بائعة البيض ، فما نفع الكتاب. ان الكتّاب يقتضي سيد قنديل جنيهين كل عام ينفقها على حذاء مقصوف الرقبة وجلبابه الجديد ولوح الارتواز والكتابين اللذين يصوران الأسد والجمل والقرد بالالوان ، ومع الجنيهين كيلتان من الذرة يغتصبها الشيخ اغتصاباً رغم ان الحكومة تأجره على عمله . كل ذلك ضائع في الكتاب ، وضائع كذلك اجر مقصوف الرقبة في كل يوم ينقطع فيه مقصوف الرقبة عن العمل . ما نفع الكتاب ؟ ان زوجته مقصوفة الرقبة فاطمة تقول انه نافع . ولكن مقصوفة الرقبة فاطمة لا تفهم ما تقول ، وهي تشجع مقصوف الرقبة عبد السميع على العصيان ، وتقول ان الكتاب سوف يؤهل الولد لأن يكون صرافاً اذا اتم علومه في المدرسة الكبيرة بسمالوط ، فإذا استحال ذلك فهو يؤهله لأن يكون ساعي البريد (سيد قنديل لا يعلم ان مقصوفة الرقبة فاطمة كانت تحب ان تتزوج من ساعي البريد) فإن لم يصبح عبد السميع ساعي بريد فقد يعفيه حفظه القرآن من الجهادية حين يبلغ سن التجنيد ولا يجد البدل الذي يفدى نفسه به ، فان كان قد نسي القرآن عندئذ فسوف يجعله المامه بالقراءة والكتابة بلوك امين محترماً بدل ان يكون نفراً بسيطاً ، ولقد يدخل البوليس بعد تسريحه من الجيش ويعود الى دماريس او نباشيا يرهب الاهلين . كل هذا كانت تقدره مقصوفة الرقبة فاطمة كأنها تقرأ الغيب .

اما سيد قنديل فكان لا يفهم كيف تتحدث زوجته عن المستقبل بهذا اليسر العظيم ، وهي تعلم انه ما من خطوة تخطوها إلا بإذن الله . وهو لا يزال بعد هذا كله يسأل نفسه : وما نفع الكتاب ؟ ان الكتاب قد ينفع ابن العمدة لأن الشيخ يرهب العمدة فلا ينتظر منه قمحاً ولا ذرة ، ولأن الاسكافي والقماش وجميع من في القرية يرهبون العمدة فلا يكلفون العمدة مليماً واحداً ، بل يهدون ولده كل ما يريد. ان الكتاب قد ينفع ابن العمدة لأن ابن العمدة يستطيع بعد تعليمه الالزامي ان يعبر الى ضفة النيل الغربية ويتم تعليمه في مدرسة سمالوط الكبيرة (يقصد الابتدائية) فإن أتم تعليمه في مدرسة سمالوط الابتدائية

ستطاع ان يركب القطار الى بندر المنيا ليتم تعليمه في مدرسة المنيا العاليـة بقصد الثانوية) امكنه ان يسافر الى القـاهرة او بلاد بره ليتم تعليمه (هنا يقصر خيال سيد قنديل عن تتبع مستقبل ابن العمدة) .وبعـد سنوات يعود ضابطاً او محامياً او وكيلاً للنيابة أو طبيباً ، ويصبح واحداً من الحكام . امـا مثل مقصوف الرقبة فالكتّاب لا ينفعهم بشيء.

وفيما كان سيد قنديل يفكر في ولده ابصر زوجته على البعد تقطع الجسر مسرعة فكف عن قطع اعواد الذرة وذهب يتأمل السيقان الجميـلة الفارعة ويتأسف على ما كان . فقد كان سيد قنديل يتمنى ان يكون موضع الذرة قصب في قراريطه الخمسة ، ولكنه كان يعلم ان زراعة القصب لا تدخـل اصحابها في صلات مع شركة السكر إلا اذا كانت على نطاق واسع فمحصول قراريطه الخمسة لا شك راجع الى وسيط والوسيط لا شك سوف يغشه في مال كثير ، سواء اكان الوسيط الحاج سيد احمد ذاته ام المقدس عبد الملاك ابو عازر .

وما ان وصلت البنت فاطمة حتى فرشت المنديل الملون العريض امام سيد ابو قنديل ، فلما اتى سيد ابو قنديل على كل ما فيه انصرف مهرولاً الى الغيط الكبير ليقطع قصب الحاج سيد احمد ، فكان يشق طريقه بين عيدان الذرة آناً وبين عيدان القصب آناً آخر فيحدث جلبة كبرى اشبه بتمزيق آلاف الاوراق مرة واحدة ،أو بنبش آلاف الفيران في دولاب مقفل ، تتبعه روح حسن مفتاح التي كانت تلطم الزعازيع كأنها قبضة من رياح.وهي تتحرق الى لحمه تحرق الجوعان الضاري . لقد رأت روح حسن مفتاح كل شيء. رأت سيد قنديل يجمع اكواز الذرة ويتحدث اليها ، وقرأت افكاره كأنهـا تقرأ كتاباً مفتوحاً ، ورأت مقصوفة الرقبة فاطمة على الجسر تحمل الفطور مسرعة خشية ان يضربها زوجها، ومن ورائها نساء ومن امامها نساء كلهن فرادى وكلهن في جلاليب سود قذرة تجر في الارض جراً، وكلهن حافيات وكلهن مسرعـات بالفطور الى ازواجهن خشية ان يضربهن ازواجهن او يرموا عليهن الطلاق . ورأت كذلك مقاصيف

الرقبة غلمان القرية في اول الجسر ساعين الى الكتاب في جلاليبهم المخططة القذرة، أو ساعين وراء الجاموس حفاة يغنون المواويل . ورأت مقصوف الرقبة عبد السميع متسللا بين التلاميذ الى كتابه على تخوم القرية قرب غابة النخيل. وعلى الجسر رأت القرية وقد احاط بها النخيل من كل جانب ، فبدت كأنها القبر الكبير ، ولكنه قبر لم يصنع من المرمر ولا من الصوان بل صنع من الطين الأشهب المجفف) ورأت للقبر بابين كلاهما حجري وابيض ، واحد في الجنوب وواحد في الشمال ، واحد يقيم فيه العمدة والآخر يقيم فيه الخواجة عبد الملاك ابو عازر .

وفي القبر الكبير رأت روح حسن مفتاح اربعة آلاف جثة راقدة ما لبثت ان نهضت ببزوغ الشمس وسعت كالأشياء الغبراء، وانتشرت في الربوع لتذرف العرق الأسود تحية لرع العظيم . وادركت روح حسن مفتاح ان خيمي الناضجة السوداء التي اختفى صدرها الاسمر تحت اعواد القصب والذرة وزوجها حابي العجوز الذي لمعت غدائره الرصاصية من وراء الجروف تحت الزوارق الآمنة هما الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود القديم ، وكل ما عداهما بدا كأشخاص الاحلام او كعرائس البانتوميم . حتى الحقائق الأليمة كالعمدة والخواجة عبد الملاك ابو عازر وشيخ الكتاب الذي نهب فقراء القرية نهباً وضاجع نساءهم وأفسد عقول ابنائهم ، حتى هذه الحقائق المؤلمة قد بدت لروح حسن مفتاح كأنها الاشباح. ففي دماريس وقف الزمن منذ اربعة آلاف سنة فبطلت عناصر الهدم والبناء، وثبت كل شيء على حاله. فالقبر الأشهب الكبير الذي رأته روح حسن مفتاح هو شبح القبر الأشهب الكبير الذي بني يوم بني قبر خوفو ، والعجول الساعية على الجسر المتعرج ومن ورائها الغلمان هي العجول المنقوشة على جدران المعابد ، والمحاريث رقدت في الحقول كأن لم تمسها يد انسان منذ ان وضعها تحت رب الزراعة هنالك ، والسواقي ناحت كما كانت تنوح في القديم ولعلها لم تقطع قط النواح . حتى الجعارين ذات الألوان الزاهية طنّت كما كانت تطن في القديم .

و عواد الذرة هزت رؤوسها للنسيم كما كانت تفعل في الماضي . كذلك تحجر نخيل ، وبدا كل شيء بين التلال الشرقية والتلال الغربية وجوداً ذا بعدين ، ه طول وله عرض ولكن لا عمق له . شكل بـــلا قالب ، ظل بلا لون ، قوة مشلولة ، اشارة بلا حركة .

وفي دماريس فهمت روح حسن مفتـــاح الروح الأكبر الذي يسيطر على نوادي. ان الابن قد اندمج في الأب وان القلب قد خضع للعقل وطأطأ اوزيريس رأسه منـــذ ان أصبح تحت كبير الالهة في الدولة الحديثـــة . قال تحت : نا الالف انا الياء، انا البداية انا النهاية، انا الكل انا الواحد ، انا الكل في واحد. وحين سمع اوزيريس هذا طأطأ اوزيريس رأسه أمام تحت . وحـــين طاطأ اوزيريس رأسه أمام تحت طأطأت الاشجار رؤوسها، وطأطأت الابقار رؤوسها وسجدت المنازل ودخلت الجرذان شقوقها حتى تهرب من نور النهار، وسكت الهواء وتعلقت انفاسه رهبة وخشوعاً ، وغاصت تماسيح النيل الى الأبد فانتهى عصر الخيال وعبد الخلف السلف . أما ثعابين الوادي فقد هزت اعناقها الملساء سخطاً ،وزحفت حانقة الى رمال الصحراء حيث تضع بيضها الذهبي بعيداً عـن جور الآله الحكيم . وتحجر كل شيء فخرجت منه الحياة . ولمـا شاهد تحت كل ذلك اطمأنت نفسه وسكن المومياء واستراح الى الأبد . وقد كان المحرات قبل ذلك أخضر يانعاً يجرس كفرس النبي بين النبت الاخضر اليانـع ، فغـــد خشبة يابسة برصاء وثبت في مكانه حيث هو يقيم الآن . وقد كان البشر قبل ذلك مردة وعمالقة وأبطالاً وتياتين، لكل منهم أسطورة،وفيهم من اوزيريس شيء كثير، ففدوا بعد محنة اوزيريس أقواماً خانعين، وصار الخلف نسخة من السلف، وقنعوا بما عندهم وانطووا على أنفسهم كأنهم القواقع المختومة، واغلقوا تخـــوم بلادهم فلا هم خرجوا ولا هم اذنوا للداخلين.وأغلقوا نفوسهم فلا هم اعطوا ولا هم اخذوا من المعطين، ولم يحدث في الوادي جديد. وهو الآن باقٍ على عهده الأول حتى يخرج المخلص حوريس . وارادت روح حسن مفتاح ان تتقمص شخص

حوريس المخلص، وأن تهيب باوزيريس قائلة : « انهض ، انهض يا أوزيريس انا ولدك مفتاح ، جئت ارد اليك الحياة، لم يزل لك قلبك الحقيقي ، قلبك الحقيقي ، قلبك الباقي » ، ولكنها أدركت أنها روح جوفاء لا تملك لأحد نفعاً إلا ان تلبس ثوب المادة ، وعندئذ تجاب الصلاة ويرفع أوزيريس رأسه الكسير ، وتطفو التماسيح من جديد ، وتخرج الجرذان من شقوقها ، وتضطرب أنفاس الهواء فتهتز لها الاشجار والأبقار والمنازل ، ويخضوضر المحراث فيخضوضر معه النبت ، وتعود الحياة الى الوادي لتتراقص حول النيران لمسمع الأرغول في محراب انوبيس كما كانت تفعل في القديم ، وتدب في الحجر الحياة فيثور الأبناء على الآباء ويهزأوا من طغيانهم وجحودهم وصلفهم وخوفهم المزري من لعنة الاجداد ، وينسلوا بعد عقم فيملأوا الوادي بالمردة والعمالقة والابطال والتياتين .

واقترب سيد قنديل من الحرف الذي يجري تحته النيل بعد أن انحسر عما يشبه الجزيرة . وكان لا بد لروح حسن مفتاح ان تبت على وجه السرعة ، فقد رأت الفرصة النادرة . ترى ماذا يحدث لو كان النيل عميقاً ؟ ولكن نيل يناير لا يمكن ان يكون عميق الشطآن . إن سيد قنديل لا يختلف عن أعواد الذرة التي ينبتها في قراريطه الخمسة ، فهو لا يهتز الا أمام الريح. أن سيد قنديل وجود قديم متكرر، نسخة من فلاح أزلي في عالم المثل، ولعله ليس سيد قنديل إطلاقاً بل جابي حورتيب الذي كان يتجول هنا قرب هذا الجرف منذ أربعة آلاف سنة . فاذا كان الأمر كذلك فقد عاش أكثر مما ينبغي ، وإذا كان الامر كذلك فينبغي أن يموت ليفسح المجال لجيل جديد . ان سيد قنديل ظل ثابتاً في ملتقى الزمان والمكان ، فينبغي أن يصير الظل الى مادة، وان تتعلم المادة الحركة في الزمان والمكان. ان سيد قنديل شبح خاوٍ ذو بعدين فينبغي ان يكتسب بعداً ثالثاً ، والا فمكانه الطبيعي داخل اطار تزين به جدران المتاحف لا بين الأرض والشمس والهواء. إن سيد قنديل رمز عتيق لعشرين مليوناً من الاسياد القناديل

فينبغي ان يزول هذا الرمز ليحل محله رمز جديد ، ولو مات سيد قنديل لعاش عشرون مليوناً من الأسياد القناديل . ان ثمانين الفاً من الاسياد القناديل قد قتلوا في نجاد أبي حمد وفي فيافي كردفان دون ان يسألوا جزارهم فيم نموت . فإن قتل حسن مفتاح سيد قنديل واحداً قيل جريمة ؟ ثم ماذا يفقد سيد قنديل بأنه سقط من حافة هذا الجرف العميق ؟ لا شيء . انــــه الان يأكل البتاو وجبن نهاره وليله ، ولسوف يصاب بالبلاجرا بعد جملة أعوام ، ولو سقط من الجرف العميق لاكل البفتيك والبطاطس البورية بعـــد أن يخرج من النهر في شخص حسن مفتاح . انـــه الان ينام في القبر الأشهب الكبير على حصير يابس فوق مصطبة من الطين المجفف يحلم بخوار الثيران وكيد الحاج سيد أحمد ، ولو سقط من الجرف العميق لنام على السرر المنمقة . وبات يحلم بالغيد الحسان وبعظائم الأمور. إنه الآن لا يرى الا الماء والطين وثمر الماء والطين ، ولو سقط من الجرف العميق لرأى الآفاق والآفاق . انه الآن يحيا بين احضان أمه العجوز خيمى وأبيه العجوز حابي ، ولكنه لا يعلم بأن أمه خيمى لم تعد العذراء السمراء التي كانت يوم أن زفتها الآلهة الى النيل بل اكتهلت وشحب وجهها وتشقق جسدها وأشرف على الجفـــاف ضرعاها ، فهي لا تطعم كل بينها وترجو لاكثرهم ان يموت . وان أباه حابي لم يعد الفتى القوي الجياش ذا الذوائب السمراء الذي كان يوم زفته الالهة الى مصر بل شاخ وابيضت غدائره فهو لا يخصب كل عام ولا ينجب من صلبه المردة والعمالقة والابطال والتياتين . ولكن الاسياد القناديل لا حول لهم ولا ارادة يعيشون على الكفاف في كنف الوالدين ولا يخرجون الى الدنيا العريضة ليغازلوا العذارى الناضجات وينتزعوا اللقمة من أفواه الأسود . ثم إن حسن مفتاح اذ يقتل سيد قنديل انما يتيح له وجوداً اسمى من وجوده . إن حسن مفتاح يأكل الأحياء كل يوم ، يأكل الثيران والخراف ويأكل الكرمب والفاصوليا . وهو حقاً يبغض العنف ولكنه يبغض العنف الذي لا مسوغ له . وهو رغم أسفه على الثيران والخراف والكرمب والفاصوليا يأكلها كل يوم فلو لم

يأكلها لمات . وهو لا يضرب عن أكلها احتجاجاً على وحشية الطبيعة ، بل هو لا يلوم الطبيعة لوماً يفسدعليه حياته ، لانه يفهم ان الثيران والخراف والكرمب والفاصوليا انما تتحول الى كائنات أرقى في الوجود وأفعل ، فتتحول الى انسجة ودماءوأعصاب في جسد الانسانية ، وتتحول الى أفكار وسيمفونيات وتابلوهات في عقل الانسانية ، وفوق هذا وذاك تتحول الى أعمال إرادية . إن التناسخ سنة الوجود . إن التناسخ رأس التطور فأي خطـــأ اخلاقي اذن ان يتناسخ حسن مفتاح في سيد قنديل أو سيد قنديل في حسن مفتـــاح ؟ فلتدخـل اذن روح حسن مفتـــاح في جسد سيد قنديل ، وليتجدد بهذا الاتحـاد كلاهما . نعم . ان التناسخ سنة الوجود . التناسخ ؟ كلا . كلا . أليس هذا ما يقوله الانجليز حين يفترسون المصريين والهنود وزنوج افريقيا العذراء . كلا . كلا. كفى تردداً ، فالتناسخ سنة الوجود . وحين وقف سيد قنويل على شفا الجرف العميق خيّل الي روح حسن مفتاح انه يستنجد بها لتنقـــذه من حياته الخاوية . ولكن سيدقنديل لم يكن يفكر في شيء من ذلك ، وانما كان يفكر في كيلة الذرة التي ينبغي ان يدفعها للمراكبي في المساء لقاء انتقاله طوال العـــام الماضي بين دماريس في البر الشرقي وسمالوط في البر الغربي يوم الاثنيـــن من كل اسبوع ليشهد السوق .

وكان النهار محاقاً ، ولكن روح حسن مفتاح لم تخطىء قط طريقها الى سيد قنديل . واقتربت روح حسن مفتاح من سيد قنديل فأحس سيد قنديل فجأة بأنه في حضرة غريبة لا يفهمها . وارتجف قلبه لغير ما سبب ظاهر . وتلفت وراءه ، فقد خيل إليه ان رجلاً يتبعه فلم يرَ إلا الارض المكشوفة ومن ورائها افدنة الذرة . وتلفت حوله فقد خيـــل إليه انه ابصر ظلاً يتبعه فلم يرَ إلا ظله ممدوداً على الارض المكشوفة ، بما يقرب من ضعف حجمه الطبيعي . فعـــاد يتأمل النيل ، ويفكر في حماره المقيد في قراريطه الخمسة ، وفي زوجته التي تقطع اعواد الذرة . وخيّل إليه انه يرى في الماء البعيد خياله . ولكن الماء كان بعيداً

ـه يستطع ان يجزم بذلك .

، خيراً جمعت روح حسن مفتــاح كل ما بها من عزم وغلظة ودفعت بسيد قـ ـن من فوق الجرف العميق فاختل توازنه ، وارتفعت منه صرخة أليمة وهوى مـ حلق ثم ارتطم رأسه بالماء فأحدث دوياً عظيماً اعقبه خوار عالٍ ثم رشاش عـ ـ . وافقدته الصدمة وعيه او كادت ، واختفى تحت سطح الماء ما يقرب من ـقيقة ، ولكن سطح الماء توجته فقاقيع عالية تسير مع التيار نحـــو الشمال بلا ـقطع حتى خرجت من الجرف العميق ودخلت في منطقة الشاطىء المبسوط . ، سمعت الجعارين التي تطن بلا انقطاع فوق الأرض المكشوفة والغربان التي تحجل ـين ـبوص الاصفر المنثور صراخاً صامتاً اختلط فيه الرعب والعناد فكفت جعـ ـرين عن الطنين وثبتت الغربان بين البوص الأصفر المنثور ، وتعلق كل شيء ـتـظـراً لنتيجة المعركة .

فقد كانت روح حسن مفتاح وروح سيد قنديل تقتتلان تحت المـــاء لتحل لا ولى مكان الثانية . واخيراً ارتفع رأس الغريق فوق سطح الماء ، وكان يلهث . وكان يضرب الماء بيديه عبثاً كأنه لا يعرف السباحة ، ولكن شطآن نيل يناير ـضحلة الهادئة لم تكن تقتضي معرفة بالسباحة . وسرعان ما استرد الرجل توازنه فوجد رأسه وعنقه ونصف صدره فوق الماء ، ووجد قدميه ترتاحان على غرين ـزلق ، ووجد التيار الضعيف يجذب ساقيــه في قاع النهر الى الشمال ، ولكنه لم يلن امام ، بل سعي الى الشاطىء ، الى الارض المكشوفة ذات البوص الاصفر ـمتناثر . ووقف يمسح رأسه المحلوق ويعصر جلبابه المبلول . وطنت حوله الجعارين وحجلت إليه الغربان ، ولكنها لم تستطع ان تتبين ان كان الرجل سيد قنديل ـم حسن مفتاح . وعلى الماء طفت اللبدة تحت الجرف ولكنها كانت ثابتة في الماء ـلذي عاد إليه ركوده . وخلع الرجل جلبابه ومضى يعصره بقوة ثم خلع قطنيته ومضى يعصرها بقوة . ورأى الألوان في وجه السماء ومن وجه الأرض فميز بينها

رغم ان الشمس كانت في أوج الفضاء . واوشك ان يخلع عنه سرواله الطويل الذي يبلغ الكاحلين ذا الرباط المزدوج الغليظ الذي يتدلى الى القدمين . ولكنه استحى . ثم سعي الى حزم من اعواد الذرة ملقاة على الأرض فنشر عليها ملابسه . وجلس تحت الشمس عاري الصدر يستدفيء .

وذهب يتأمل صدره فاذا سمرته قد اشتدت ، واذا عليه وشم . وهاله ان يرى الوشم . وشم ؟ ماذا أفعل بهذا الوشم ؟ كيف أزيل هذا الوشم ؟ وتمعن في يديه ظهراً وبطناً فوجدهما آية في الخشونة . ولكن باله هدأ حين هبت نفحة من النسيم فحملت اليه رائحة الذرة والقصب وصوت كروان بعيد . كذلك هدأ جسده حين تسلطت عليه الشمس زمناً فجففته وادفأته ومشت في أوصاله بالكسل الجميل . وتجاوبت في خاطره انغام قديمة ، انغام رعوية تصف الطبيعة في بلاد التيرول من باستورال بيتهوفن ، واستنام الى الانغام واحس بجمال الحياة ، ولكن قدمه لم تتحرك مع الانغام. ان قدمه قد تعودت ان تتحرك مع الانغام. ان قدم حسن مفتاح تتحرك دائماً مع الانغام . ولكن هذه القدم لا تتحرك مع الانغام . وتذكر ان هذه القدم قدم سيد قنديل. وتملكه رعب قاتل جعله يوشك ان ينهض من مجلسه ، ولكنه عاد الى مكانه وثبت فيه. وبدأ يشك في هويته. اهو حسن مفتاح ام سيد قنديل؟ ومضى يتحسس جسده الخشن باصابعه الخشنة. اهو حسن مفتاح او سيد قنديل ؟ ان سيد قنديل لا يعرف انغاماً رعوية تصف الطبيعة في بلاد التيرول ، فهو اذن حسن مفتاح . ان سيد قنديل لا يتفتح هذا التفتح العجيب لرائحة الذرة والقصب ولا لصوت الكروان البعيد ، لأنه قد ألفها جميعاً ، فهو اذن حسن مفتاح . ان سيد قنديل لم يكن يستحي ان يخلع سرواله ويقف عارياً امام الملأ فهو اذن حسن مفتاح ما في ذلك شك. ولكن الجسم بوشمه وغلظته وسمرته لا شك جسم سيد قنديل . انه روح حسن مفتاح في جسم سيد قنديل. ولكن ترى هل حدث خطأ؟ ان جسم سيد قنديل لا يطيع

... حسن مفتاح . ترى هل بقيت لجسم سيد قنديـــل مدركات حواسه ؟ ان ... الرعوية التي تصف الطبيعة في بلاد التيرول كانت من قبل تمشي في أعصاب حسن مفتاح ، وتنتشر انتشار الدم في خلاياه فتفهم قدمه الانغام وتتحرك لها ، وتستجيب أصابعه للانغام فتنقبض لها وتنبسط . اما هذه القدم فهي ترتاح على ... في غباوة ، كأنها لا تعي بما يجري داخل الروح. ان حسن مفتاح قد تعود ... يده الى عنقه بين آن وآخر ليصلح رباط رقبته ، ولكن هذه اليد الغليظة ... تفعل الان من ذلك شيئاً. ترى هل بقيت لجسم سيد قنديل عاداته الاوتوماتية؟ ... كان ينبغي ان يكون هذا الاندماج كاملاً . ترى هـل حدث خطأ ؟ ترى ماذا يحدث لو ان الروح لم تندمج في الجسد ؟ لسوف تتداخـــل الاحساسات ... تتداخل فتكون منها فوضى يضطرب لها وجدانه ويشذ سلوكه . ترى ماذا حدث لو أن الروح لم تندمج في الجسد ؟ لسوف يكون منه مخـــلوق عجيب لا يفهم الناس تماماً ولا يفهمه الناس تماماً . لسوف يفتضح امره بين الناس فيفر منه الناس اينما يكون ، فان مر بالمسلمين استعاذوا بالله من الشيطان الرجيم وان مر بالنصارى رسموا علامة الصليب .

ولكن حسن مفتاح رغم ذلك كان يعرف انه حسن مفتاح . كذلك كان يعرف انه سيد قنديل برغم الوشم الكبير الذي يملأ صدره ، وبرغم يديه الغليظتين وبرغم رأسه المحلوقة . فمن أين لسيد قنديل بهذه الأفكار المرتبة الدقيقة التي تتبع نهجاً علمياً . ان حسن مفتاح ، يعرف انه حسن مفتاح وفي هذا الكفاية . ان سيد قنديل فطري ان اراد ان يقول : «تسعة وتسعين» قال «مائة الا واحداً». ان سيد قنديل جلف قد يحسن التمييز بين رائحة القصب ، رائحة الذرة او بين روث الحمير وروث الخيل ، ولكنه لا يستطيـع ان يستحضر فلاحي فان جوخ كما يفعل حسن مفتاح الان ، ولا يستطيـع ان يستحضر اقوال الزملاء ، في جلسات اللجنة المركزية كما يفعل حسن مفتاح الان ، ولا يستطيـع أن يفكر بالفرنسية كما يفعل حسن مفتاح الان . اما مدركات سيد قنديل الساذجة فلم يبقَ منها شيء ، فقد خرجت

بخروج روحه ، ولئن بقي منهـا شيء فهو اصداء بعيدة لذكريات بعيدة لا تزال تعيش في حواسه بحكم العادة،وليس لأن لها نظائر في النفس . فهو الان يستتيـع ان يرفع الفأس الثقيلة الملقاة بين البوص الأصفر المتناثر، دون ان يحس بثقلها فما زالت في يده الغليظة ذكرى أوزان قديمة، ولكن غدا سوف تنسى يده الغليظة موازينها الاولى . ولعله الآن يتحدث فيخلط لهجة القاهرة بلهجة الصعيد ، فما زالت في حلقه الخشن وشفتيه الخشنتين آثار اصوات قديمة . ولكن غداً ينسى حلقه الخشن وشفتاه الخشنتان تلك الآثار . غداً يُعلـّم حواس سيد قنديل ما تعلمته حواس حسن مفتاح . غداً يصير الى كل واحد متماسك .

ولكن غداً بعيد ، فلا يزال أمامه ان يعود الى« زوجته » مقصوفة الرقبة فاطمة ليسوي حسابه معها ، ولا يزال امامه ان يخرج من دماريس ليعود الى اللجنة المركزية . ان شهره لم ينفد بعد ، ولقد بقيت فيه أيام تربو على الاسبوع ولقد كان يحب ان يقيم في دماريس هذا الاسبوع لولا خوفه من ان يفتضح امره بين أهل القرية . ولو انه بقي بينهم لوجب عليه ان يمارس كل ما كان يمارسه سيد قنديل . وهل يستطيع حسن مفتاح ان يملأ هذا الفراغ الذي خلا ؟ الأرجح انه لا يستطيع. فماذا يعرف حسن مفتاح عن مجرى الحياة في بيت سيد قنديل؟ انه يتسلم الدور في منتصف الطريق بلا تحضير . ان عليه اولاً أن يتكلم كما يتكلم أهل القرية ، فهل هو مستطيـع ان يفعل ذلك ؟ انه قد يتكلم كما يتكلمون دقيقة او دقيقتين ، ولكنه لن يستطيع ان يتم ما بدأ . ترى ماذا يحدث لو انه خاطب مقصوفة الرقبة ام عبد السميع فأخطأ في نحو القرية، او حدثها بما لا تألفه من الكلام ؟ بل انه لا يعلم كيف يخاطب سيد قنديل زوجته ، ايناديها بفاطمة أم عبد السميـع ؟ نعم ، انه يعلم انه يناديها بمجصوفة الرجبة ، كما ينـادي اكثر رجال القرية زوجاتهم وبناتهم وابناءهم واخوتهم الصغار . ولكنه لا يستطيـع أن يقصف رقبتها باستمرار ، فلا بد ان هناك تعارفاً آخر على النداء . ام ترى ان قصف الرقبة عند أهل دماريس دلالة الاعزاز ؟ ولو انه أخطأ في نحو القرية

حمقت فيه مقصوفة الرقبة وظنت ان به مساً. نعم ، لا مهرب من ذلك . سوف تظن ان به مساً . وسوف يذيع امره من طرف القرية الى طرفها الآخر ، من بيت طه ابو عبد الصمد الى بيت عبد الملاك ابو عازر ، وسيتناقل الناس ان به مساً ، وسيتحدث الناس عن المس الذي اصاب المسكين سيد قنديل اسبوعاً كاملاً حتى يخرج من القرية ، وربما تحدثوا به عن موسم القطن ، فالقرية ضيقة والقرية لا يحدث فيها جديد اللهم الا جرائم القتل واحراق المحاصيل وسرقة الماشية ، وهي تتجدد كل مساء ، كل مساء ، منذ ان انقرضت اسرة الالهة من وادي النيل ، ولكن القرويين لا يتحدثون فيها في الصباح لأنهم الفوها حتى زهدوها . انها جزء من روتينهم اليومي فكيف يجدون في ترديدها لذة ! ثم ان الأيام (أو الترك ؟) قد علمت القرويين شيئاً من الحصافة وشيئاً من الحيطة ، فهم لا يتحدثون عن جرائم القرية خشية ان يغضبوا سادة القرية ، خشية ان يغضبوا العمدة وخصوم العمدة واصدقاء العمدة ، فأكثر الجرائم من سادة القرية . ولقد يرى القرويون القتيل يسقط بين أعواد الذرة أو على الجسر المتعرج الطويل ويعرفون قاتله معرفة العين ، ولكنهم قد تعلموا ان الصمت أمام وكيل النيابة خير وأبقى . فان كان للقتيل دم فليثأر له اهلوه ، أما ان تنحشر الحكومة بين نبصلة وقشرتها فهذا ما لا ترضى به تقاليد القرية . ان القرية في عزلة كاملة منذ ان انقرضت اسرة الآلهة من وادي النيل ، وقد الف سادة القرية هذه العزلة واحبوها ، وهم لا يرضون للحكومة المركزية ان تبدل نهج حياتهم .

ولكن ماذا ينال من حسن مفتاح ان يتحدث الناس بجنون سيد قنديل ؟ نعم ، ماذا ينال منه لو تبعه صبية القرية الملاعين حاملين صفائحهم وملاعقهم ضاربين صفائحهم بملاعقهم كأنهم يدقون الطبول ؟ ماذا ينال منه لو سخر منه رجال القرية وجعلوه موضع سمرهم طوال الاسبوع ؟ انه سوف يختفي من القرية. وحين تحدثه مقصوفة الرقبة عن زيارة علي عبد المتعال وعن دين موسى ابو صبرة

وعن قيراط البرسيم المجاور للمقابر وعن غير هذا من الشؤون التي تتألف منها حياة سيد قنديل ، فهو يستطيع ان يحملق فيها عندئـذ باطمئنان ولا يجيب ، أو لعله يجيب بما لا تنتظره مقصوفة الرقبة . لسوف تنسب كل شيء الى العفريت المصراوي الذي ركبه . وأهم من هـــذا وذاك ، لسوف يستطيع ان يتخلف معذوراً عن قطع القصب في زراعة الحاج سيد احمد .

ولكن هذه الخواطر الغريبة انقطعت جميعاً حين ذكر حسن مفتاح ان قصة جنونه قد تعرقل خروجه من القرية . ان المراكبي سيعرف بجنونه ولن يسمح له بأن ينتقل في مركبه الى سمالوط . فان سمح له المراكبي ان ينتقل في مركبه الى سمالوط فلا شك ان تليفون العمدة سوف يثير بوليس سمالوط عليه . ولن يعتب يومئذ على أحد فالمجانين لا يتركون وشأنهم . ثم ان اسبوعاً كاملاً بدرب المفاتيح الى جوار مقصوفة الرقبة قد يتجاوز قدرته على الاحتمال ، فهي لا شك تنتظر منه ان يقوم بواجبات الزوجية عاقلاً كان ام مجنوناً. كلا . ان مقامه في دماريس لا ينبغي أن يطول . ولم لا يهرب الآن . في التو واللحظة . ان النقود التي وجدها في قطنية سيد قنديل تتجاوز الريال بقليل ، ولكنه بحاجة الى خمسين قرشاً يركب بها القطار الى القاهرة في الدرجة الثالثة ، فمن اين له بالثلاثين الباقية ، لا بد اذن من مواجهة مقصوفة الرقبة فاطمة وهب مقصوفـة . الرقبة لا تملك الثلاثين الباقية ، فماذا يكون الحال ، اتبيع حلة من حلل البيت ، تقترضها من الجيران ، ام يكتسبها حسن مفتاح بالعمل في قصب الحاج سيد احمد ثلاثة ايام ؟

ان الشمس قد ارتفعت والظلال قد قصرت وثقلت بعد ان كانت طويـــلة وخفيفة ، وسرواله قد جف أو كاد فلا بد أن يكون جلبابه قد جف كذلك . وسعى حسن مفتاح الى ملابسه فارتداها وكان بها بلل خفيف . ثم عاد يقطع ارض الجرف العميق حافي القدمين ويطأ كسر البوص الأصفر المتناثر فلا يوجعه ملمسها . ان قدميـــه سميكتان لا توجعهما اسياخ الحديد ، ولسوف يبقى لهما

ـمكهما زمناً طويلاً حتى يترهفا ، فعليه اذن ان يقبل هذه الحقيقة . ومـــن
يـدري ؟ لعله موفق في هذه الصفقة . ان كبده الأول لم يكن على أحسن حال ،
وكم نهاه الطبيب عن الشراب ، فلعل كبده الجديد صاغ سليم . ولكن مـن
يـدري : لعله قد ورث بلهارسيا سيد قنديل وانكلستوما سيد قنديل ، فتسعون
في لمائة من الأسياد القناديل يشكون من البلهارسيا والانكلستوما . ان التفكير
في هذه الأمور لا يجدي ، فالواقع هو الواقع ، ولن يغير القلق ما قـد كان . ان
عواد الذرة جميلة . ان اكواز الذرة جميلة . ان دفء الريف جميـــل . ان
سماء خيمة من الاطلس الأملس اللبني ضربت فوق الآفاق المستديرة . ان حسن
مفتاح يضرب الاحجار الصغيرة بقدمه العارية فتوجعه الأحجار الصغيرة ولكنه
رغم ذلك يفرح . انه سائر الى التماسك الـكامـل . ان الطرب يستخفه فيلمس
عواد الذرة بيمينه كما كان يلمس أعمدة النور في شوارع القاهرة . انه يرى التلال
شرقية على مدى البصر فلا يجد فيها الغباوة التي تلازم التلال بل يجد فيهـــا
الفخامة التي تلازم الجبال . حتى الجاموس السائر على الجسر امام الغلمان قدخرج
فجأة من اللوحة الصامتة ودبت فيه الحياة ، والثيران المتناثرة في الحقول الفارغة
. تعد كالثيران التي حفرها الكهنة على جدران المعابد بل بدت لعينه لحماً ودماً .
والأرض السمراء تحت قدميه بدت سمراء ناضجة كأنها عذراء حبشية يحلي جيدها
عاري شراريب من الحب الابيض المقشور ، بعدان رآها صفراء عجفاء شققتها السنون .
ان حسن مفتاح كان يرى صورة الريف ذات بعدين لأنه كان المشاهد من الخارج ،
اما الآن فحسن مفتاح جزء من هذه الصورة يتحرك داخل اطارها فاذا يد سحرية
نفثت في كل ما حوله بالحياة . وأوشك حسن مفتاح ان يلقي بنفسه على الأرض
الخشنة ويعانقها ويقبلها صائحاً : « تباركت يا خيمى يا أم العمالقة ، تباركت يا
زوج النيل السعيد ، تباركت يا أرض الميعاد ، تباركت تباركت تباركت ،
وتبارك ضرعك الأبدي الغزير ، وتبارك رحمك القوي الخصيب ، وتبارك بنوك
الأحياء منهم والراحلون » . ولكنه لم يفعل لأنه ألفى نفسه في قراريطه الخمسة

بين ذرته العزيزة أمام زوجته . ونظر الى فاطمة فوجدها قوية وقذرة وسمراء كأنها قد سويت من التربة القوية القذرة السمراء ، ووجدها جميلة . ان فاطمة التي رآها قبل ساعة فخالها صورة ذات بعدين تبدو الآن امامه مادة ذات ثلاثة ابعاد . وتأمـــل خطوط جسمها التي اخفاها الجلباب الأسود الفضفاض الضافي واستطاع ان يستشف قوتها رغم الجلباب . وتحركت فيه نوازع الجنس واكدتها في نفسه وفي حسه رحابة الفضاء والصمت الكلي الذي هوشته أصوات بعيـدة وروائح الطبيعة وسذاجة الذرة،القائمة في مهب النسيم والذرة القائمـة عند قدمي فاطمة . وراعه انسجام الروائح في الريف ، فالذرة رائحتها من الذرة والأرض رائحتها من الذرة وجلباب فاطمة رائحته من الذرة (ولا شك ان جسدهـــا كذلك رائحته من الذرة ، والضفادع التي تركت مواضعها وجاءت تقفز عنـد قدميه رائحتها من الذرة . وأوشك ان يدنو منها ويحتويها بين ذراعيه ويقبلها ، ولكنه تذكر ان الأمر أعقد من ذلك . لم لا يقيم بين أعـــواد الذرة وفي درب المفاتيح ؟ لم لا يتم ما قد بقي من حياته بين احضان الطبيعة ؟ غـــداً يخضوضر القمح الصغير الذي كسا ما وراء الجرف الى حيث يقف غراب المقات ، وبعـد غد ينضج ويصفر ويهدي في سنابله الحياة . وفي الصيف تلبس الأرض حلتهـــا البيضاء وينتشر القطن من مدى البصر الى مدى البصر . وهذه البنت القوية القذرة السمراء سوف تملأ حياته بحقائق المادة واحساسات المادة حتى ينسى اللجنـــة المركزية وينسى المجردات، وتملأ داره بالاطفال فتدعم صلته بالحياة . لم لا يذهب غداً وكل صباح الى زراعة الحاج سيد احمد ليكسر القصب طول اليوم، ويعود بعشرة قروش مع المساء ؟ انه لن يشكو التعب لان له ذراعي سيد قنديل او لا يزال له ذراعاه . من قال انه حسن مفتاح ؟ ولم لا يكون سيد قنديل ؟ انه سيد قنديل بقدر ما هو حسن مفتاح ، وهو الآن في المفترق ولا يزال في وسعـه ان يختار . انه ما احس بوجوده في يوم من الايام بقدر ما يحس به الآن . لقد ارتد الى نفسه بعد ان كان شتيتاً في العالمين . انه يحس بالمادة التي هو منها ، فما في الطبيعة الا هو . انه يحس بأن له جسداً . كم هو قذر هذا الجسد ، وكم هو خشن !

ولكنه خير من لا جسد على الأطلاق . كذلك يحس بالمـادة التي تقـف امامه بغباوة وتمحي امامه بغباوة بين آن وآخر لتكسر أعواد الذرة . انهـا مادة لا شكل لها، ولكنها مادة على كل حال . ان الجبن ذو الدود الذي سيأكله من الآن فصاعداً مادة لا شك فيها ، فهو يتحول الى انسجة خشنة تحس وتحس في جسده الخشن الذي يحس ويحس . اما البفتيك الذي كان يأكله قديماً فهو بخار فهو هواء ، فهو عدم لانه كان يتحول الى افكار دقيقة لا تقاس في ذهنـه الدقيق الذي لا يخضع لمقاييس الوجود. ثم الامَ يعود؟ الى أشباح اللجنة المركزية؟ الى اشباح ايزافيتش ؟ الى الغرام الشبح وشبح الغرام ، مونا ربيع ؟ ان اقرب شيء يعرفه الى هذا الوجود المادي الذي يحيط به وهو عايدة علم بنت عبد السلام افندي علم باشكاتب الارشيف بوزارة الاوقاف ، عايدة علم التي توشك ان تفهمه ولكنها لا تفهمه تماماً

ولكن حسن مفتاح سخر من نفسه حين اقترب من مقصوفة الرقبة، واراد ان يلفت نظرها الى وجوده فأوشك ان يقول : « بردون » . وكانت مقصوفة الرقبه في شغل ،بأكوازها وأعوادها لاهية عن كل شيء ، تنحني دقيقة ثم تعتدل دقيقة وعلى خدها ما يشبه العرق . لا بد من الشجاعة يا حسن مفتاح . لا تقل « لا مؤاخذة » فهذه زوجتك وهي لا تؤاخذك ، زوجتك التي تضربها كل مساء من بعصاك وان بخفك فلا تجسر ان ترفع بصرها اليك . هذه مقصوفة الرقبة يا حسن مفتاح . وهذا سيد ابو قنديل يا مقصوفة الرقبة . ومـا ان قال « بت يا فطمة » حتى التفتت اليه فقرأ الدهشة في عينيها . وكاد ان يرتبك فقد حسب ان في مظهره ما يدعو الى الريبة . ولكنه اطمأن حين سألته عما فعل بلبدتـه وبخفيه وعما فعل بثيابه . فأجابها باقتصاب انه سقط من الجرف. ولكن دهشتها لم تزل وعادت تسأله عما صرفه عن الذهاب الى قصب الحاج سيد احمد ، فلم

يجب بل أطرق الى الارض . فلما قالت معنفة انها كانت تنتظر اجر اليوم لتتم به الجنيه، وتسد به حلق مشكور البدال اضطربت نفسه واطمأنت معاً، وبدأ يبحث عن كلمات يطلب بها القروش التسعين. واخيراً قال: «انتي حاطاهم فين؟» فازدادت دهشتها وقالت : « مش انت اللي حاططهم بأيدك جوّه الزلعة اللي في الحضير ؟ اياك ناوي تدهم له دلوجت ؟ » قال نعم . وعبثت فاطمة في جيب لها داخلي لم تصل اليه الا بعد ان رفعت جلبابها الطويـــل وكشفت عن سروالها الطويل القذر ودست أصابعها مراراً في جلباب آخر داخلي . وحين وقع بصره على السروال القذر اشمأزت نفسه . وناولته المفتاح وانصرف عنها لينطلق الى القرية ، ولكنها صرخت في أثره تقول : « ما تفلك الجحش يا أبو عبد السميع». وتردد لحظة ثم تذكر انه لا يعرف كيف يمتطي الحمار . وخشى ان تعـود الى مجادلته فقال : « اسكتي يا مجصوفة الرجبة » ، ومشى الى الجسر وفي طريقه الى الجسر ذكر انه اخطأ في توزيع النبرة في كلامه قال . « اسكتي » وقد كان ينبغي ان يقول ؟ « اسكتي» ، انه قال: « ت تم ت » وقد كان ينبغي ان يقول: « تم ت ت » . ترى هـل لاحظت المرأه شيئاً ؟ ولكن كيف تلاحظ وعثرات اللسان كثيرة . وهو لم يقل شيئاً كثيراً . وهبها لاحظت فما نتيجة ذلـك ؟ دقيقة من الحيرة تهز بعدها كتفيها وتعود الى قطع الذرة . وسوف لا ينتصف النهار الا وهو في المركب يفكر في أعجب اختبار لقيه انسان ، ويودع القرية الشهباء. ولكن كيف يعرف الحضير؟ انه يعرف دار سيد قنديل بدرب المفاتيح حقاً ولكنه لا يعرف الحضير . لو انها قالت الدوار لعرف الدوار ، ولكنه لا لا يعرف ما الحضير . ان الحضير هو حيث تكون الزلعة، ولن يتعب في اكتشاف الزلعة . سوف يحطم الابواب اذا لزم الأمر حتى يعثر على الزلعة .

وبلغ الدار وعالج الضبة فانفتح الباب ، ودخل فوجد قاعة خاوية من كل اثاث أرضها من طين وجدرانها الاربعة من طين ، فيهـــا شيء من ضوء النهار ولكنه لا يكفي لقراءة صحيفة ، وفي ركنها الايسر فرن كبير من طين وفي

ركبه الايمن سلم حجري اكثره مهشم ولا سند له، ولكن سقف القاعة كان من سقف النخيل القديم. وصعد الى الطابق الأعلى فوجد قاعة أخرى خاوية كذلك جدرانها من طين كذلك وسقفها من فلقان النخيل القديم. ولكن ارضها كانت تغطيها حصيرتان كبيرتان هما كل ما بالقاعة من اثاث. وفي القاعة نافذتان لا خشب فيهما ولا زجاج وباب لا خشب فيه ولا زجاج، باب يؤدي الى غرفة داخلية، فادرك انها لا يمكن ان تكون الحضير. انه يبحث عن زلعة. وحيث تكون الزلعة يكون الحضير. ودخل الغرفة الداخلية فوجدها عميقة مظلمة ينير مقدمتها الضوء الداخل من الطاقتين الكبيرتين اللتين لا خشب لهما ولا زجاج فيهما عن طريق الباب الذي لا خشب له ولا زجاج فيه، ولكن قاعها مظلم، فقد كانت الغرفة بلا نوافذ. ولبث في الغرفة بعض الوقت حتى الفت عيناه الظلام فرأى على الأرض بساطاًمن اللباد في أحد طرفيه وسادة وفي طرفهالآخر غطاءان من الصوف أحدهما مهلهل والآخر في اجود حالة. ورأى في ركن الغرفة صرة، ومع الصرة صرة، ثم صندوقاً فتحه فاذا به ملابس بعضها للحريم وبعضها للرجال وشيئاً من الخرز اللامع المنثور ورأى الزلعة ففتحهـــا ووجد القروش التسعين ومزيداً من الخرز الملون يلمع في الظلام وبكرتي خيط احداهما بيضاء والأخرى سوداء وفيهـــما غرست بعض الأبر. وانتزع القروش التسعين واستأثر لنفسه منها بستين تاركاً الثلاثين في زلعتها، وأغلق الصندوق ووضـــع القروش في جيب قطنيته مع القروش الاولى التي كان قد وجدها قرب الجرف العميق. ثم عاد الى القاعة ذات النافذتين ومنها ارتقى الدرجات الحجرية الثلاث الباقية في السلم ليستكشف ما بقي من المكان وهو غرفة واحدة اعلى بقليل من مستوى القاعة امتدت الى اليسار على قنطرة من فلقان النخيل،اقيمت فوق درب مفتوح. وتطل كالقاعة عليه ولكن بنافذتين متقابلتين لا بنافذتين متجاورتين. وكانت الغرفة مشرقة كل الاشراق لان نافذتيهـــا المتقابلتين المطلتين على درب مفتوح كشفتا الغرفة للسماء العريضة، لشمس الشروق ولشمس الغروب. ولكن

الغرفة كانت كالغرف الآخريات كلها طين في طين إلا السقف فقد كان اكثره من الجريد . وكانت بها مصطبتان متقابلتان بنيتا بالطين ، وعلى كل من المصطبتين لباد مفروش لا بأس به ، وعلى الأرض لباد ، وفي ركن الغرفة جوزة وكانون نصف موقد به خشب من خشب الذرة نصف محروق،والى جواره بعض ادوات الشاي ففهم أن هذه الغرفة هي صالون البيت . واطـل على درب المفاتيح من النافذة الغربية فرأى النيل بعيداً ، ورأى أمامه المقات ذات الطماطم الناضجة المغرية للعيون ، ولكن البعد أخفى عنه الطماطم . وامام المقات رأى كوم الروث وامام كوم الروث رأى البيت الحجري الذي لا نظير له في القرية الا بيت العمدة ثم رأى الدرب المتعرج الطويل « وبعض الامهات جلسن على الارض امام أبواب دورهن يغزلن الصوف ، بعضهن حبالى وبعضهن عجائز . ورأى طفلين ، بنتاً وولداً ، يلعبان حافيين في حراسة احدى العجائز ويصنعان العرائس من الطين ، ولم يشك في ان البنت هي مقصوفة الرقبة سيدة ، بنته ، بنت سيد قنديل . وكان في عينها صديد كثير . ورأى في الدرب تيساً يعطس . . ولم يحس بأنه يقف على البونتي دي سوسيري رغم أنه قلما كان يتعلق في الهواء على هذا النحو . وخرج . ولكنه لمح قبل خروجه كبشاً قابعاً في ركن القاعة السفلي على فرش من البرسيم ينبعث منه عفن كثير . كذلك ابصر باباً خشبياً قصيراً معلقاً يقابل الباب الخارجي لا بد لداخله ان يطاطىء الرأس ، فادرك انه باب الخزانة ، فقد كانت الخزانة بين ذكرياته القديمة الاولى . لقد ولد في هذا البيت ، يقولون في الحضير ، والبيت بيت جده او كان بيت جده مفتاح ابو مفتاح . لقد كان لجده اولاد كثيرون كلهم نزحوا الى المدينة وكلهم بنى لنفسه عشاً لا بأس به في نقط متفرقة بين القاهرة والخرطوم ، وكلهم انجبوا ذكوراً كثيرين هم الآن بين الشباب القوي والرجولة القوية يرتزقون من المهن العليا او من خدمة الحكومة ، وكلهم صفى صلاته بالقرية : كلهم فعل ذلك الا عمه قنديل الذي بقي وراء المحراث ولكنه لم يحرث كثيراً لانه كان رجلاً ذا صبوات يحب مجامع الحشيش ، فاضاع الحرث ولم يترك لولده سيد إلا القراريط الخمسة والدار القائمة بدرب المفاتيح . كذلك لم ينسَ العم

قنديل قبل ان يموت ان يزوج ولده سيداً . وكان شهماً فلم يترك له أرملة يعولها و اخوة صغاراً. لكن اسرة مفتاح الآبقة الى المدينة ، او الى المدن كانت تنتقل في القرية بكامل هيئتها من حين لآخر لتدفن موتاها ، موتى الحضر وموتى القرية وكانت آخر مرة زار فيهـــا حسن مفتاح درب المفاتيح منذ عامين في رابع عمامه ، ولكنه تخلف عنها قبل ذلك نحو خمسة عشر عاماً . لذلك كانت صور لجدران الطينية والمصاطب الطينية وسقوف النخيل والنوافذ والأبواب الداخلية لتي ليس لها خشب ولا زجاج ولا موضع فيها لخشب او زجاج حية في خيالـه وباهتة معاً .

واجتاز حسن مفتاح كوم الروث ثم اجتاز المقات حتى بلغ الشاطيء ونزل لمركب فوجد نفسه بين ثلاث من الابقار وجحش صغير وقفصين فيهما دجاج كثير يوقوق،وديكة تتشاجر وقلة من الراكبين حياهم جملة فحيوه جملة. وانتحى بجوار الدفة مكاناً قصياً حتى لا يدخل في حديث مع أحد ، وجلس على كيس من أكياس الذرة وتحت قدميه حفن التبن تملا ارض المركب. استلقى على جنبه لأيمن ووضع ركبته قرت ذقنه وتظاهر بالنوم والاعياء .

ان كل ما يبغيه هو بلوغ الشاطيء الآخر ، بـلوغ سمالوط . ففي سمالوط قطار ، وهو في هذا القطار بمنجاة عن كل شيء . ان عياله لن يفتقدوه الا ليلاً، وهو في الليل سيكون في ٢٢ شارع الملكـــة فريدة . ومضى يفكر في المعاش لشهري الذي سوف يرسله الى مقصوفة الرقبة لقاء خطف زوجها منهـا ، فقر رأيه ان يكون جنيهين في كل شهر . كذلك قر رأيه أن يرسلها اليها عن طريق لبريد في صورة اذونات لا في صورة حوالات حتى لا يجد أحد سبيلاً الى معرفة شخصية المرسل . ورأى ان يبدأ بكلمة يقول فيها ان زوجها قد نزح الى القاهرة وراء الرزق. كذلك قرر ان يرسل لها بعد أشهر قليلة كلمة يقول فيها ان زوجها قد توفي حتى يتيح لها ان تتزوج اذا احبت ، وأن يزعم لها بأن زوجها قـــد صاب من عمله بعض المال حتى يبرر الاعانة الشهرية .

وبعد ان فرغ من التفكير في غيره انصرف الى التفكير في نفسه . كيف يدخل القاهرة في هذا الزي العجيب ؟ هب بعض من يعرفونه قد قابلوه في باب الحديد او في ميدان الاوبرا ؟ لسوف يحملقون فيه ذهولاً . لسوف يظنون به الظنون . ثم كيف يلقي مدام ماريكا وهو على هذه الصورة ؟ لسوف ترتاب في عقله . ولكنه سيقص عليها قصة يفسر بها الموقف من الفه الى يائه ، ولسوف تكون هذه القصة كاذبة من الفها الى يائها . يا للعجب . انه لم يكذب مرة واحدة منذ ان بلغ سن الرشد . انه لم يفكر في هذا قبل الآن . نعم لقد كان يحاور ويداور ويخفي ويتصنع ، ولكنه لم يكذب كذباً صريحاً منذ ان بلغ سن الرشد . ولا بد له الان من الكذب . ولكن سفاهة منه ان يفكر في هذه الأمور . أبعد ان قتل النفس التي حرم الله قتلها يفكر في هذه السفاسف ؟ انه لا يعرف احداً بسمالوط يمكن ان يعيره حذاءً وبدلة وقميصاً ، وهو لا يملك بعد خصم ثمن التذكرة وطعام اليوم ما يشتري به حبلاً قوياً يشنق نفسه به اذا أحب أن يشنق نفسه . ان المراكبي اللعين قد يوقظه في اية لحظة ليطالبه بكلية الذرة التي يستحقها من العام الفائت . لسوف يجيب بأن ام عبد السميع قد أعدتها له ولكن المراكبي رجل انسان ، فهو لا يقول شيئاً ولا يطالب بذرة . كم كان موفقاً في كل خطوة يخطوها ؟ لكأن المقادير ذاتها سخرت كل شيء لخدمته . ان ما حدث ؟ ماذا حدث ؟ ان ما حدث جريمة من الطراز الاول . بل ان ما حدث لأعجوبة لم تحدث قبل منذ ان دخل جبريل في أعطاف مريم ورفرف بجناحيه تحت ضلوعها ، بل منذ تجددت العنقاء المشتعلة من رمادها . ومع ذلك فقد تم كل شيء في عشر دقائق ، تم بأقل جلبة ممكنة . من ساق سيد قنديل الى الجرف العميق ؟ القدر . ومن جعل سيد قنديل يسبح تحت الماء الى بر الأمان وقد كان جائزاً ان تخور قواه فينجرف نحو الماء الغزير ويهلك ؟ القدر . من وضع تسعين قرشاً في زلعة سيد قنديل ؟ القدر . ومن جعل النوتي يصبر عليه الآن ؟ القدر . انه يرى اصبع القدر في كل ما حدث . كلا . ان القدر لا دخل له في شيء من هذا ، فسيد قنديل يمر كل صباح بجوار الجرف العميق ، والقروش

تسعون كانت في زلعة سيد قنديل طوال الاسبوع الفائت فهي اجره المدخر ، والنوتي من أدمث أهل القرية خلقاً فهو يغني للمسافرين حزين الاغاني ليشجعهم بحديث الحب الشقي .

بيني وبين الحبايب جبل عالي وتل حشيش !

ولو لم يغنّ للمسافرين لغنى للماشية ، ولو لم يغني للماشية لغنى لنفسه . انه دائم الغناء ، ولعله يحب حباً شقياً ، ومن كان دائم الغناء ومن كان يحب حباً شقياً لا يطالب المسافرين بكيلة ذرة . ان من يرى كل هذا الماء صباح مساء لا بد ان يكون دمث الطباع . ولكن من اين له هـذا الشعر الأصفر الناعم ؟ ان وجهه مصري صميم ، ولكن شعره أصفر وناعم . ان القدر قد دبر كل شيء . كلا . ان القدر لم يدبر شيئاً . ان كل شيء جرى مجراه الطبيعي . ان في هـذا النوتي ملامح من شارون ربان الآلهة ، ناقل الارواح عبر اشيرون نهر الأحزان ، والزورق لا يعبر النيل بل يعبر اشيرون نهر الاحزان ، وتلك الأعشاب الشيطانية التي انتشرت على الشاطىء هي الارواح الملعونة ؛ وابقار الزورق والمسافرون والدجاج ليسوا ابقاراً ولا مسافرين ولا دجاجاً ولكنهم ارواح في طريقها الى حساب في دولة بلوتو المظلم ، وحسن مفتاح ليس منتقلاً الى سمالوط بل الى هاديس التي لم ترَ النور منذ ان تزوج اريبوس المظلم امه نيكس الظلماء وانجبا الاثير والنهار . ان حسن مفتاح ليس منتقلاً الى القاهرة بل الى خليج النار ، خليج ترتاروس . وهذا الصوت الذي يهدر في اذنيه هديراً رتيباً ليس صوت القطار بل صوت الفوريات الجائعات . لسوف ينهشنه نهشاً مع مقدم المساء . لسوف يضربنه بالسياط ان أقبل النهار . ما اقـذر الصعايدة الجالسين الى جواره ببلاليصهم وبقاطفهم وزكائبهم . متى يتعلم هؤلاء الصعايدة ان يجلسوا على المقاعد ويضعوا على ارض القطار اشياءهم بدلاً من ان يجلسوا على الأرض ويضعوا على مقاعد القطار اشياءهم ؟ ولكن الفلاحين ليسوا أحسن منهم حالاً فهم يخرجون الى الجسر كل

يوم حفاة رجالهم والنساء حاملين نعالهم على رؤوسهم . ان الفلاحين يفعلون ذلك اقتصاداً للنعال ، ولكن لمَ يجلس الصعايدة على الارض؟أهي العادة ؟ انه **يتأفف** من قذارة الصعايدة والفلاحين وهو يضاهيهم قذارة . ان الطين قد لطخ جلبابه في الف موضع . انه لا يملك نعلاً ولا يملك ثمن النعل . انه لا يملك لبدة ولا يملك ثمن اللبدة . فكيف يحق له ان يتأفف من هؤلاء المساكين ؟ انه قاتل . فكيف يحق له ان يتأفف من هؤلاء الأبرياء ؟ ابرياء ؟ من قال انهم آبرياء ؟ لا بد ان بينهم رجلاً من طما او اخميم قد بقر بطن ابنته لأنها حملت سفاحاً والقى بجثتها في النيل ثم اندس في القطار ليفر من قبضة القانون في القاهرة ذات الملايين . لا بد أن بينهم رجلا من الاشراف ملوثاً بدم الحميدات او رجلاً من الحميدات ملوثاً بدم الأشراف . انهم يتحدثون عن الأمن العام ، فأين هو الأمن العام ؟ ان القروي لا يجرؤ ان يمشي في زراعته بعد الغروب . وبعد الغروب تصفر الطلقات النارية في الهواء طول الليل . يقولون رداً للصوص ، فأين هو الأمن العام ؟ ان الدرب قد يخرج لمقاتلة الدرب والاسرة تخرج لمقاتلة الاسرة والقرية ، تخرج لمقاتلة القرية ، بالعصي ، بالشوم ، بالفؤوس ، بالبنادق . ان الريف في حرب اهلية دائمة . إن الريف لا يزال في المرحلة القبلية . كل ذلك تحت عين الحكومة المركزية ؟ الحكومة المركزية ، اين هي الحكومة المركزية ؟ انها سبعة من الخفراء تحت تصرف العمدة امير القرية وممثل السلطات الثلاث فيها بالاكراه ، يشرّع لها ويقضي لها ويحميها . فمن يحمي القرية من العمدة ؟ حاميها حراميها. ان خفراء القرية يتعاونون مع أهلها في تسميم الماشية واحراق المحاصيل وفي القتل كذلك . ان اقرب قوة بوليس في سمالوط وهي تبعد عشرين كيلومتراً تقطع في ساعتين اذا اسعفت المركب الريح فالطريق الزراعي لا يصلح للعجلات والكباري لا وجود لها ، وهي قوة لا تجدي الا في الحوادث الفردية . ان سمالوط او حتى مغاغة ليست بأسعد حالاً من دماريس ، فقد كان بها الى العام الماضي لملوم باشا الذي تخيل انه امير من امراء الاقطاع ، فاستقل بالناحية وشكل بوليسه الخاص وأقام بداره سجنه الخاص ومحكمته الخاصة ، اختصاصها واسع يبدأ بالجلد وينتهي

بالاعدام حتى ارهب الاهلين وأذهل الحكومة المركزية، ودامت دولته عشرة أعوام حتى اغتاله منافس من عشيرته . اين هي الحكومة المركزية ؟ ومضى حسن مفتاح يفكر : ان أكثر هؤلاء المسافرين القاعدين بجوار مقاطف البتاو وبلاليص العسل الاسود لا بد آتون من جرجا. ترى ماذا يحدث في جرجا فيحمل رجالها على الهجرة الى القاهرة والاسكندرية ؟ ان هـذه مسألة تستحق الدراسة . لا بد ان في اقتصاديات جرجا ما يحبب أهلها في الهجرة او يدفعهم اليها. ينبغي ن يدرس صفوان هذه المسألة ويضع عنها تقريراً . متى يتعلم الصعايدة والفلاحون الا يقتلوا بناتهم الزانيات ؟ ان صفوان يرى ان تعلـيم الديالكتية كافٍ . ان الكمساري في نهاية العربة يساوم الصعايدة في أجر السفر. متى يتعلم الصعايدة والفلاحون الا يقتلوا بناتهم الزانيات؟ ان صفوان يرى ان تعليم الديالكتية كاف. ان الكمساري في نهاية العربة يساوم الصعايدة في اجر السفر . متى يتعلم الصعايدة ان يدفعوا اجر انتقالهم ؟ ان الصعايدة يراوغون لأنهم فقراء. متى يتعلم الكمسارية الا يرتشوا ؟ ان الكمسارية يرتشون لانهم فقراء . كيف لا يرتشي الكمساري ومرتبه خمسة جنيهات تقسم على خمسة اطفال ؟ فقراء ؟ والإغنياء ؟ ان مدير السكك الحديـــدية يرتشي ، ترشوه الشركات الانجليزية . فقراء؟ ان وزير المواصلات يرتشي: ترشوه الشركات الاميريكية. وعندما يختلف المدير والوزير تحدث ازمة سياسية يزج فيها باسم الوطن . فقراء ؟ أهناك رجـل في مصر لا يسرق ؟ وزارة الصحة الممرض يسرق المرضى والطبيب يسرق بنسلين الحكومة ووزير الصحة يسرق الاراضي . وزارة الداخلية . الشرطي يسرق الطماطم من الباعة والضابط يسرق الأموال السرية ووزير الداخلية يسرق الاراضي . وزارة الدفاع . الجندي يسرق المهمات الخفيفة والضابط يسرق المهمات الثقيلة ووزير الدفاع يسرق الاراضي . وزارة المعارف . المعلم الالزامي يسرق طعام الفقراء وناظر المدرسة يسرق اليمخانة ووزير المعارف يسرق الاراضي . وزير الدولة لا يجد ما يسرقه فيسرق الدولة . الحكومة تسرق الموظف في مرتبه والموظف يسرق الحكومه في عملها . يسرق ؟ من قال يسرق ؟ ان السرقة تكون في السر

ولا تكون في العلانية . يغتصب . نعم . انه اغتصاب . يا له من تراث متعفن . يا لهـــا من تركة مثقلة بالديون . ان صفوان لا يفهم . ان كوميسارية الشعب تستطيع ان تلغي الشتاء ولكنها لا تستطيـع ان تديم الربيـع . ان بطرس قلادة يعتقد انه يستطيـع ان يلغي الغيبيات بقرار من البرلمان . والتهبت خواطر حسن مفتاح ؟ ان الغيبيات هي المسؤولة الاولى عن سلبية المصريين . كيف يلغي بطرس قلادة الغيبيات بقرار من البرلمان ؟ ان كوميسارية الشعب لا تستطيع ان تلغى الغيبيات بجرة قلم . لا ولا الخرافات . ان النساء في درب المفاتيح يقمن حفلة حصبة اذا مرض في الدرب طفل بالحصبة : حفلة حصبة يدعي اليها اطفال درب المفاتيح ليحصبوا ، فكل طفل لا بد ان يحصب . يا له من تراث متعفن . يا لها من تركة مثقلة بالديون . ان الكلب اذا جاع عض ولكن الاسياد القناديل يجوعون ولا يعضون . ماذا تفعل كوميسارية الشعب بكل هذا ؟ كيف تعلم كوميسارية الشعب بكل هذا ؟ كيف تعلم كوميسارية الشعب الناس ان يعضوا اذا جاعوا ؟ ان الفرمانات لا تكفي . ان التشريعات لا تكفي . لا بد من جيل كامل . لا بد من عزل الجيل الجديد . كيف تعلم كوميسارية الشعب الناس ان يتأدبوا فلا يقاطع احد احداً؟ لا بد من جيل كامل. لا بد من عزل الجيل الجديد. ان الناس اذا تحدثوا مألوف الحديث رفعوا اصواتهم كأن الشعب كلـه يشكو الصمم . كيف تعلم كوميسارية الشعب الناس ان يغضوا من اصواتهم ؟ الأصلاح من الخارج لا يكفي . الاصلاح من الداخل يحتاج الى اجيـال . الكوميسار لا يكفي . لا بد من اليوجى كذلك . المشانق لا تكفي . لا بد من المصحات . ان الشعب يعيش على الفطرة . ان الهمج لا يفهمون الا الألوان الأساسية . الاحمر الفاقع . الاصفر الفاقع . الاسود الفاقع . اليس هذا ما تلبسه النساء؟ إن الازرق؟ اين البنفسجي ؟ اين الوردي الخفيف ؟ اين الرمادي ؟ اين الهمج لا يفهمـون الا الافـكار البسيطة . اليس هذا ما يفهمه الرجال ؟ اين ظلال الفكر ؟ ان الاشياء في وادي النيل اما بيضاء واما سوداء ، والآراء امـــا صواب صراح او خطأ صراح ، والاشخاص اما ملائكة أو أبالسة . لسوف تحتاج كوميسارية الشعب

. .قت . الى وقت طويل ، الى مصحات ، الى مصحات لا عدد لها . ان
.ومیسارية الشعب تستطيع ان تحرم على اصحاب الراديوات ازعاج سابع جار
. .كنهـ لا تستطيع ان تمنع الناس بجرة قلم من الضحك الداعر الممدود . يا له من
ت. ت متعفن . يا لها من تركة مثقلة بالديون . ان الريف جميل . جميل من نافذة
.لقطار . جميل على البعد . ولكنه جميل لنصف ساعة لأن جماله مكشوف . ان
.وحة القديمة الساكنة ذات البعيدين ، الوجود الثابت في ملتقى الزمان والمكان
قـ عاد الى ذهن حسن مفتاح . ولكن الحياة دبّت فيه فبدا ذا ثلاثة ابعـاد .
. مع ذلك فقد كان ينقصه شيء . وبحث حسن مفتاح عن البعد الرابع فلم يقف
. على أثر . ان السماء التي كانت صافية لا تزال صافية ، وسوف تظل صافيـة
قبل اليوم ، وغداً ، وفي كل يوم هنا ، وهناك ، وفي كل مكان . ان الأرض
السمراء التي كانت مسطحة لا تزال مسطحة ، وسوف تظل سمراء ومسطحة ،
هـ . وهناك ، وفي كل مكان . واعواد الذرة هي اعواد الذرة واعواد القصب
هي عواد القصب وخضرة البرسيم هي خضرة البرسيم والتلال الشرقية والتلال
الغربية هي التلال الشرقية والتلال الغربية بطول الوادي الحزين ، ومن ورائها
على جانبين الملل الأصفر الأبدي ، الملل الذي يخيف الخيال . وفي الملل الأسمر
حصيب تقف احراش النخيل ، وتحت كل غابة قريتها الشهبـــاء ، منثورة في
تكرار رتيب كأنها اعمدة التلغراف أو علامات الأميال ، كلها شهباء بـــلون
نخيل ، وكلها من الطين المجفف وكلها كالضريح الحزين وكلها من عصر مينا .
وعلى جسورها الوعرة المغبرة بدت العجول والجواميس كأنها التصاوير المنقوشة
على جدران المعابد . ان كرونوس لم يسقط في روما بل سقط في وادي النيل .
سقط العملاق على ام رأسه فمات ، وبموته مات الزمن . يا له من تراث متعفن .
. . من تركة مثقلة بالديون . ان الريف جميل . جميل من نافذة القطـــار .
جميل على البعد . أما على القرب فهو بشع ملوث كئيب . لسوف يقول للجنة
المركزية : ان كوميسارية الشعب ستهـدم جميع القرى – اربعة آلاف قرية

ستهدمها كوميسارية الشعب . وما يتبعها من نزلات وعزب واكوام . ان كوميسارية الشعب ستجند عشرة في المائة من تعداد كل قرية ليعيدوا تعمير مصر ولسوف تقرضهم ما يلزم من الخرائط والبنائين والمهندسين. ان كوميسارية الشعب ستعطي كل اسرة بيتاً من الحجر أو من القرميد الأحمر ذا حديقة صغيرة ،وشوارع مخططة وميادين فيها الساعات والتماثيل. وستجعل مركزالقرية ميدان الشعب وفي ميدان الشعب تضع كل المرافق العامة ،مدرسة القرية ومستشفى القرية ومراكز البوليس والاسعاف والمطافىء والحمامات العامة والبريد وسوق القرية وحديقة القرية وقاعة الاجتماعات ودار العمدة . وستبني لبهائم القرية حظائر عامة خارج القرية حتى لا ينام الشعب بين عجوله وحميره في زريبة واحدة . إن كوميسارية الشعب سوف تجمع اللبن وتعقمه في معمل القرية ثم توزعه على مستحقيه طبقاً لمشورة الأطباء ، وستطهر للشعب ماءه وتمده بالكهرباء من طرف القرية . كذلك ستمد كوميسارية الشعب بالطرق المرصوفة على أحدث الأساليب بين الكوم والعزبة وبين العزبة والنزلة والقرية وبين القرية والمركز وبين وبين المدينة والمدينة. وتجري فيها السيارات العامة بانتظام كل نصف ساعة، وكلها بالمجان حتى يصير الوادي الى شبكة محكمة الشرايين والأوردة والشعيرات تحمل دم الحضارة الى أصغر خلية في البلاد. ان كوميسارية الشعب ستغير وجه مصر. ان كوميسارية الشعب ستغير وجه التاريخ . ان كوميسارية الشعب ستهدم مصر القديمة وتبني مصر الجديدة . فليحيَ الشعب ولتحيَ كوميسارية الشعب . كل هذا سيقوله حسن مفتاح للجنة المركزية حين يبلغ القاهرة . لا محاريث خشبية. لا سواقي. لا حمير بعد اليوم. ان كوميسارية الشعب ستوزع المحاريث الموطورية وآلات الري والدراجات على ابناء الشعب . كذلك سوف تغرق المراكب الشراعية وتضع موضعها الزوارق الموطورية كلما تعذر عليها بناء الكباري . ان كوميسارية الشعب تؤمن بالآلة . الآلة . الآلة . الآلة . الحرث بالآلة ، الزرع بالآلة ، الري بالآلة ، الحصد بالآلة ، النقل بالآلة ، الاكل بالآلة اذا لزم الأمر . ان الريف ليس بحاجة الى هذه الأفواه يطعمها ، والالة سوف تريح

صدر الأرض من الملايين الذين لا يستهلكون لأنهم لا ينتجون . سوف يقول للجنة المركزية : ان امكم خيمى لا تزال مخصبة ولوداً حلوباً ، وقد رأيتها بعيني فلا ترهقوها . انزحوا الى المصانع . انزحوا الى المصائد . انزحوا الى الجحيم ان لم تتسع لكم آفاق البسيطة . انزحوا. كل هذا سيقوله حسن مفتاح للجنة المركزية شفاهاً وفي التقارير . يا له من تراث متعفن . يا لها من تركة مثقلة بالديون . ترى ماذا كان يفعل المصريون منذ آخر الرعامسة ؟ كيف ترفع كل هذه الأنقاض ؟ ان كوميسارية الشعب سوف تجعل الشعب يعمل نهاراً وليلاً ، يعمل العمل المنتج العمل الناجع، ولو بالسخرة ، ولو بالسياط ، ولو بالمشانق . ان السخرة بنت قبور الملوك، فلتبنِ السخرة مساكن الشعوب . ولن يشتكي الشعب من كوميسارية الشعب لأن ثمار عمله سوف تعود اليه ، اليه وحده ، لا الى المتطلبين ولا الى الدخلاء . نعم . لا اغتصاب بعد اليوم . نعم . سوف ينجزه الشعب في عشرين عاماً ما فاته ان ينجزه في الفين . نعم . سوف تكون يقظة تكفر في عشرين عاماً عن نومة الفين . سيسمونها في التاريخ سنوات التكفير . سيسمونه في التاريخ الجيل الشهيد . ولكن الشعب سيعرق ويبتسم . سينزف دماً ويبتسم . لأنه يبني حضارة لا تدانيها حضارة الفراعنة . وبعد ان يتم التعمير يستطيع الشعب ان يستريح . نعم ، يستريح ، ويملأ رئتيه بالهواء ، فسوف يكون الهواء نقياً بدل هذا الهواء الملوث . فان احب يومئذ ان يهتف لكوميسارية الشعب فليهتف . اما قبل ذلك فلا أهتاف ولا معارضة. هناك عمل . ان اعضاء اللجنة المركزية فتيان جادون ولكنهم ، لا يقدرون جسامة التبعات ؟ يا له من تراث متعفن يا لها من تركة مثقلة بالديون . كيف ترفع كل هذه الانقاض؟ ان الفرامانات لا تكفي . ان التشريعات لا تكفي . لا بد من المشانق لا بد من عزل الجيل الجديد . نعم . المشانق للجيل القديم والمصحات للجيل الجديد نعم مصحات، مصحات بطول البحر الاحمر ، مصحات بطول البحر الابيض . مصحات . ان هواء الوادي ملوث . ان ارض الوادي قبر مفتوح . ان سكان الوادي جيف . نعم . مشانق ، مشانق ، في كل ميدان ، على أكوام الروث في كل القرى .

هذا مشروع السنوات الخمس الأولى : مشانق ومصحات . مشانق للجيل القديم ومصحات للجيل القديم . ان الزبانية قد علا ضجيجها، فماذا يحميه من الزبانية؟ ان كوميساريه الشعب لن تضع التماثيل في الميـــادين ولكنها ستضع المشانق في الميادين . المشانق اولاً والتماثيل ثانياً : والمجالد كذلك . من سمع بالمجـــالد ؟ المجالد اختراع جديد للموظفين الكسالى ، وللجالسين على القهاوي في الصباح . المشانق لأعداء الشعب الواعين والمجالد لأعداء الشعب الغافلين . وبعد المشانق لن يكون هناك مغتصبون ولا ظلمة ولا مرتشون ولا مبددون لانتاج الشعب ولا معوقون لنهضة الشعب . وبعد المجالد لن يجلس الناس على القهاوي في أوقات العمل . وعندئذ ترفع المشانق وتوضع مكانها التماثيل، وعندئذ ترفع المجالد وتوضع مكانها الحدائق العامة . سيقولون في الخارج : « توتاليتير » ، ولكن كوميسارية الشعب لن تعبأ بما يقال في الخارج ، لأن الشعب ليست له سياسة خارجية مدى عشرين عاماً . الشعب صديق الجميع ، والشعب مشغول بالتعمير . هذا يكفي . مشانق . مصحات . . ان الزبانية قد علا ضجيجها . فماذا يحميه من الزبانيـــة؟ انه لا يفكر الا في المشانق والمصحات. ماله لا يفكر الا في المشانق والمصحات ؟ لعل روح حسن مفتاح بحاجة الى مشنقة . لعل جسم سيد قنديل بحاجة الى مصحة. كل هذا سيقوله للجنة المركزية، شفاهاً وفي التقارير . اللجنة المركزية؟ وماذا تكون اللجنة المركزية ؟ انه بحاجة الى بطانة من القتلة والسفاحين لا الى جماعة من المفكرين الساخطين . لا بد ان يعلمهم القسوة . كيف يعلم سعدية الطويل القسوة ؟ ان الجيار يرجى منه . كذلك عنايات ممدوح ، وربما صفوان كذلك . ولكن سعدية الطويل مثال للدماثة . انه بحاجة الى قادة شرسين . ترى كيف يعلم سعدية الطويل الشراسة ؟ ان جماعة الأحرار لا بأس بهم ،ولعلهم خير من جماعته . ان رامزاً إما عبقري وإما مجـــرم . ان هذا الشعب وديع . أرضه وديعة . سماءه وديعة . رياحه وديعة . كل شيء هنا وديع . ان الشعب هنا متمدن ، مدنه الوادي السعيد ، مدنته آلاف السنين في احضـــان حابي

هادي، وخيمى الرحيمة . تمدن حتى فقد عـدة الكفاح . تمدن حتى نسى الغضب . تمدن حتى تخنث . من له بشيء من الهمجية ؟ ان الرأسماليين والملاك قد ابتاعوا الشعب وعرّوه وحبسوا عنه نور العلم وثمرات المدنية ، والشعب رغم ذلك صابر . الشعب يفهم كل ذلك ويصبر . انه يفور كزجاجة الصودا ثم يهدأ ، وقد كان ينبغي أن يثور ثورة البركان . أهذا نسل العمالقة ؟ نعم ، هذا نسل العمالقة . ولكن العمالقة كانوا عمالقة يوم كانوا يجثون الغابات ويردمون المستنقعات ويحولون مجرى النيل . يوم روضوا الطبيعة الضارية . لقـــد استمدوا صلابتهم من كفاحهم مع الطبيعة . فلما ان قهر العمالقة الطبيعة بذروا الحب فكان ثمراً ، بذروا الحب وجنوا الثمر اربعة آلاف سنة ، ففاضت حيويتهم وكسرت الدعة صلابتهم فانقرض العمالقة درجة درجة حتى خرج من اصلابهم هـــذا الشعب الخنوع . الكفاح مع الطبيعة يرد للشعب صلابته المفقودة ، وحين ينشر الشعب الصناعة كما نشر الزراعة سوف يتجدد كفاحه مـــع الطبيعة ، وسوف يسترد صلابته المفقودة . ان اللجنة المركزية تعلم كل ذلك ، ولكنها لا تعلم انهـــا صورة مصغرة لهذا الشعب الرخو الوديع . لسوف يصهرهم في اتون التجارب حتى يصوغهم على غراره . لسوف يعلمهم القسوة كما تعلمهـــا هو ، حتى يألفوا المشانق الى أن ترد للشعب حقوقه . لسوف يجعل سعدية الطويل تفرك يديهـــا فرحاً كلما اضيف الى قائمة الهالكين اسم جديد . لسوف يعلم نساء الشعب كيف يمضغن اللبان وهن يشهدن رؤوس الباشاوات تحت الجيلوتين . ان نعيماً يحس ببعض احساسه ، ولعل هذا هو سر حبه له . ان نعيماً اعصار مكتسح يدمر كل ما أمامه . ان نعيماً يتعطش لمرأى الدماء كأنه قد رضع ثدي ذئبة . انه قد تنحى عن اللجنة المركزية ولكنه سوف يكون الجلاد الأول يوم حز الرؤوس . نعم سوف يعلم حسن مفتاح اللجنة المركزية هذه اللغة الدامغة . بالمشانق والمجالد ترفع الانقاض ويتم التعمير . كلا ان الشعب ليس وديعاً . ان الشعب ليس متمدناً . والوادي السعيد لم يمدن الشعب . والوادي السعيد ليس سعيداً . وما هذه بوداعة

تلك التي يراها حوله، وماهي بتمدن وانما هي ذلة وخنوع. ان الفلاح يقتل الفلاح اختصاماً في كوز من الذرة، والمتمدنون لا يفعلون ذلك، وانما اهل الفطرة. انه يقرأ في الصحف عن قتلة محترفين يجهزون على الناس لقاء خمسة جنيهات. انه يذكر يوم كان في سيارة سرهنك يقطعان شارع الملك فأبصرا امرأة حبلى سقطت مغشياً عليها على رصيف الشارع فرفض سرهنك ان يحملها الى الاسعاف، أو ان يتصل بالاسعاف. أما المارة فمروا و كأنهم لم يروا شيئاً. انه يرى آلاف العجزة بين اعمى وأعور واكتع وابرص ومجذوم وقعيد ومشرد لا مأوى لهم يتسولون في الطرقات اثناء النهار، وينامون على ارصفتها في العراء في ليالي يناير المميت، فلا يلتفت اليهم أحد كأنهم من طبيعة الاشياء. انه يعرف ان الناس يقسمون بالطلاق ان يدفعوا عن اصحابهم تذكرة الترام ما علموا ان اصحابهم قادرون على دفعها، فان علموا انهم غير قادرين جانبوهم كأنهم مجذومون. كلا. ان الشعب ليس وديعاً بل غليظ الكبد. كلا. ان الشعب ليس متمدناً بل متبربر خشن العواطف. كلا. ان الشعب جبان. وما يراه حسن مفتاح حوله من استضعاف ان هو الا ذلة وخنوع. انه لم يسمع بفلاح ثار على مالك ظالم. انه لم يسمع بموظف القى المحبرة في وجه رئيسه المتحيز. انه لم يسمع بضمير تحرك في المكتب أو المتجر أو المصنع فكل الضمائر تتحرك في القهوة. ومن اين للشعب بالشجاعة؟ ان الشعب مصاب بالانيميا ان الشعب شديد الهزال. ان الشعب لا يأكل كفايته، فهو لا شك مصاب بسوء التغذية. ولكنه سوء وراثي. ان الشعب اكل البصل والجبن الخشن ثلاث وجبات يومياً ثلاثة آلاف سنة، فكيف لا يصاب بالهزال، وكيف لا يكون هزاله وراثياً. ان البيولوجيا تقول ان العضو يضمر ثم ينقرض اذا بطل استخدامه. اليس جائزاً ان يورث الهزال كذلك؟ ان كوميسارية الشعب بحاجة الى اجيال لترد للشعب حيويته. ولكن كيف لم ينقرض الشعب رغم كل ذلك؟ من بعنخا الى ولزلي. نعم، من بعنخا الى ولزلى. ان محنته بدأت بجيش النوبة وانتهت بجيش الانجليز. كيف لم ينقرض هذا الشعب؟ ثلاثة آلاف سنة، تحت النوبيين، تحت الفرس، تحت الاغريق، تحت الرومان،

تحت المماليك ، تحت الاتراك ، بل تحت الاتراك ، نعم ، تحت الاتراك تحت
مليك ، تحت الفرنسيين ، تحت الانجليز . كيف لم ينقرض هذا الشعب بعد
ن انحدر آتون وراء التلال الغربية . تحت الزمن . نعم ، كيف لم ينقرض تحت
زمن . ان الزمن يبلي كل شيء . ان الاسياد القناديل قد تحدوا الزمن ، فلا بد
نهم من نسل العمالقة . ثلاث وجبات من البصل والمش يومياً . ثلاثة آلاف
سنة . سوف ترسل كوميسارية الشعب مندوبين في كافة عواصم العالم ، حاملين
جراساً كباراً ذات رنين كبير يصيحون كالدلالين قائلين : « تعالوا . تعالوا
تعالوا . تعالوا شاهدوا عجيبة العجائب . الشعب الشبح وشبح الشعب . تعالوا
وشاهدوا . عجيبة العجائب . الشعب المنحط يعود الى الحياة . ايزيس تمشي على
حبل . اوزيريس يأكل النار . حوريس يخرج لسانه للعالم . هرم خوفو يقف
على رأسه . جلا . جلا. جلا . جلين . جلين . جلين . تعالوا ، تعالوا ، تعالوا»
ن حسن مفتاح يفهم الآن فقط معنى المحراث اليابس الأبرص الملقى امامه في
حقول ، ويفهم معنى العجول الساعية على الجسور كأنها الصور على جدران
معابد . انه يفهم الان كيف وقف الزمن ولماذا خرج المصريون من البعد الرابع
ومتنع عليهم النعل وصاروا اشكالاً بلا قوالب، ظلالاً بلا ألوان ، قوى مشلولة،
شارات بلا حركات . لقد فعلوا كل ذلك لأنهم عمالقة ، والعمالقة لا يموتون
لأنهم عمالقة ، والعمالقة اسباط الآلهة واسباط الالهة خالدون لأن الالهة خالدة .
فحين هجمت التنانين على العمالقة كانت التنانين جوعانة ضارية، وكانت العمالقة
تسمر وتقصف في الوادي الأمين . وكانت حرباً عجباً لم تشهد مثلها الأرض ولا
سماء ، ولكن تاريخها مخطوط عند تحت كاتب الالهة . رحين وهنت قوة
لعمالقة فرت العمالقة امام التنانين ، ودخلت كهوفها كما تدخل احياء اوقيانوس
لكريمة قصورها الدرية الكريمة ، وتنتظر يوم الخلاص. ولكن الأرض كانت ملأى
بالتنانين الجائعة الضارية التي لم تعرف قط السمر ولا القصف ، ولم تذق كروم
و دي ولا شمت رياحينه العاطرة ، فتكاثرت على الوادي التنانين : التنانين

السوداء ، والتنانين البيضاء ، والتنانين السمراء ، والتنانين الصفراء ، والتنانين الزرقاء . وتجمهرت من كل حدب وصوب طامعـــة في الزبرجدة الخضراء . واكلت التنانين بعضها بعضاً ولزمت العمالقة كهوفها تنتظر يوم الخلاص . تنتظر وتنتظر . وقد انتظرت ثلاثة آلاف سنة . ولكن انتظارها لن يطول . لزمت العمالقة قماقمها كما تلزم احياء اوقيانوس قواقعها الدرية الكريمة حتى تمر الحيتان ودنيء الاسماك ، وبكت اسرها الطويل كما تبكي احياء اوقيانوس الكريمة ، وكلما نفذ الى قصورها الدرية جسم غريب ذرفت عليه دموعها الحزينة فغدا دراً مـن درها المكنون . وهكذا فني في الشعب الدخلاء . وهكذا اغلق العمالقة تخوم بلادهم واغلقوا نفوسهم لكل جديد . وهكذا وقف الزمن . وهكذا تعـلم العمالقة احناء الرؤوس امام العواصف حتى تمر العواصف ويبقى العمالقة عمالقة . وقد كان . فما كان هذا ذلة ولا خنوعاً ولا جبناً ولا خسة في الأصول ، وانما كان حكمة عظمى وامراً من اوزيريس حامي الذمار ، وصبراً ثوابه على الأرض وفي السماء . ولكن انتظارها لن يطول ، فالتنانين قـد أكلت بعضها البعض الآخر ولم يبقَ منها الا التنين الذي اراد مار جرجس ان يقتله فأخطأه، التنين الازرق اللعين ، التنين البحري الازرق الماكر اللعين . وقـد كبرت الدرة وأمتلأت بالضياء ، وسوف تفتق محبسها الضيق وتفتت جدران القوقعة وتخرج عارية يبهر نورها العالمين. وحين يرى التنين الأزرق هذه الدرة السحرية الكبيرة سوف يعشيه ضياؤها ويثبت في مكانه خائفاً مأخوذاً ، وعندئذ يخرج العمالقة من قصرهم الدري ويقطعون ارجله الكثيرة التي نشرت الذعر في الوادي الامين ، ويريحون العباد من مكره ابد الابدين . كل هذا سيقوله حسن مفتاح للجنة المركزية حين يعود الى القاهرة ان قدر له ان يعود . سوف يقول لهم انه حل لغز الشعب . سوف يقول لهم انه حل لغز ابي الهول . إن ابا الهول اقيم ليتهكم على السائحين . ان السائحين يحسبون انهم يزورون خرائب حضارة ، ولكن ابا الهول وحده يعلم ان هذه الحضارة باقية ، وهو لا يبوح بهذا السر إلا للاصفياء .

لسوف يقول لهم حسن مفتاح : اعيدوا إلى الشعب ثقته بنفسه تخرج العمالقة من قصرها الدري . لسوف يقول لهم : ان اعدى اعداء الشعب هم القائلون « مـا ميش فايـــدة » ، هم سر هنك وشركاؤه الذين يجلسون حول أكواب الويسكي وحول موائد الطاولة وحول جوز الحشيش ، وينشرون اليأس في النفوس ليعفوا انفسهم من تبعة الكفاح أو لينقذوا مصالحهم من نتائج الكفاح . سيقول لهم ان هؤلاء هم ارجل التنين التي سوف تقطعها العمالقة يوم تخرج من قصرها المسحور ، وهم مخالبه التي سوف تستأصلهـــا . هم الدخـــلاء الذين تسللوا إلى قصر العمالقة حتى وقفوا ببابه وهم العبيد الذين تسللوا من قصر العمالقـــة حتى وقفوا ببابه ، وقد حمـــل الدخـــلاء والعبيـــد مفاتيح القصر ومضوا يساومون التنين في القصر وابطاله . وقد ساوموا من قبل كل التنانين ، وباعوا القصر للسود والبيض والسمر والصفر والزرق . سيقول لهم : لا تيأسوا ، لقـد انفتح القمقم المختوم ، لقد تشققت جدران القصر ، وخرجت منها طلائع العمالقة تتصدى للتنين وتناوشه ، ولكن حراس القصر تجردها من السلاح فلا تفهم ان حراس القصر هم سماسرة التنين . سيقول لهم : اقتلوا الحراس واعطوا المفاتيح لأربابها . كل ما حدث خطأ زمني هائل ولسوف تصلح كوميسارية الشعب هذا الخطأ . واهل القصر المسحور يحسبون انهم ما زالوا في القصر المسحور والدنيا من حولهم قد تبدلت . نعم ، سوف تصلح كوميسارية الشعب هـذا الخطأ . بالمشانق . بالمصحات . ان الزبانية قد علا ضجيجها . ان اجنحتهـــا الحديدية تصفق بين عجلات القطار . يا ويله من الزبانية . ايان الفرار من الزبانية . مـن المشانق . من المصحات . ان رأسه ملتهب والدم قد تجمع حول عينيه . انـــه يطل من نافذة القطار فيرى القمح الوليد احمر بلون الدماء . ويرى اعواد الذرة فيرى في كل منهـــا مشنقة تنتظر . كذلك رأى غراب القات كأنه الصليب البعيد المهمل فلم يميز منه تماماً الا ضلعين وحسبه مشنقة تنتظر . انه مفتـــاح . قنديل . انه قنديل . مفتاح . انه مفتاح . انه قنديل . انه يفكر في المشنقـة لأنه خائف من المشنقة . انه قاتل . كلا . انه لا يخـاف المشنقة . انه منقذ . قاتل أو منقذ ، لقد فرغ من كل ذلـك وهو فوق الجرف العميق وتحت الجرف

العميق . نعم، انه حسن مفتاح قتل سيد قنديل ، ولكن من قتل حسن مفتاح؟ الاقدار . الاقدار . الاقدار ؟ ان الاقدار قتلت في العام السابق ربع مليون حيوان ناطق بالملاريا الخبيثة وفي العام الأسبق مائة ألف بالتيفوس . ولكن المعارضة تقول انهم ماتوا لسوء التغذية . فالتبعة نصفها على الاقدار التى ارسلت الأوبئة ، ونصفها على الملاك الذين اجاعوا الشعب. اشنقوا الملاك. اشنقوا الاقدار. التبعة ؟ من ذا يحدد التبعة ؟ ان كانت الاقدار عاقلة فهي مسئولة تشنق ، وان كانت الاقدار مجنونة فلتضرب بالرصاص كما تضرب الكلاب المسعورة . سوف يطالب وكيل النيابة بدم سيد قنديل ، فمن ذا يطالب بدم حسن مفتاح ؟ ما الفرق بين السلسلة والجرف ؟ ما الفرق بين الماء الملح والماء العذب؟ قاتل أو منقذ فهذا لا يقدم ولا يؤخر . فاذا تناهى اللا متناهي فلايمكن للمتناهي الا يتناهى. انه لا يخشى المشنقة . انه قاتل . انه يستطيع ان يقف بالمحكمة ويعلن بأعلى صوته : اني قاتل ، ولن يصيبه سوء . سوف يسأل الناس : اين القتيل : سوف يطلب القاضي جسم الجريمة . سوف يصيح المحامي : ابرزوا الجثة . سوف يتصبب وكيل النيابة عرقاً ويفأفىء ثم يلوذ بالصمت العميق ، ثم يجمع اوراقه ثم ينصرف . وعندئذ يخلى سبيل حسن مفتاح . انه لا يخشى المشنقة . وكيف يخشى المشنقة . انه قرأ عن روسكولنيكوف ولسوف يسلم نفسه الى الصاغ ممدوح الشربيني كما سلم روسكولنيكوف نفسه الى بورفير . ولكن روسكولنيكوف كان حالة مرضية ، ولم يكن صانعاً من صانعي التاريخ . لو ان حسن مفتاح اقتحم اقرب مركز من مراكز البوليس ، وادلى للضابط النوبتجي بقصته من الفها الى يائها ، لما صدقه . صدقه ؟ لسوف يشير بعينه للجاويش الهائل الجثة الواقف بالباب فيدب اليه الجاويش في سكون واحتياط ثم يحيطه من الخلف بذراعين من فولاذ حتى لا يفلت ، على حين يطلب الضابط النوبتجي مستشفى المجاذيب بالتليفون . وسوف ينظر اليه الطبيب بارتياب ، سوف يستمع اليه بارتياب ثم يقول : « بارانويدال سكايزوفرينيا » . ماذا يفهم هؤلاء الاطباء؟ كيف يميزون الشعرة الفاصلة بين احلام العباقرة وأوهام المجانين ؟ كلا.

نه لا يخشى المشنقة . ان هذه اول جريمة « كاملة » منذ قابيل . ولكن فؤاد منقريوس قال انه سيموت مشنوقاً . كلا . ان فؤاد منقريوس قال انه سيموت غريقاً ، وقد مات غريقاً . عند السلسلة . لقد مات . انه ميت ، والمرء لا يموت مرتين . ان حسن مفتاح قد مـــات . ان روح فؤاد منقريوس لا شك روح ملعونة ، روح لاعنة ملعونة لعينة . ألم تطلب قتل علي عبدالله ؟ ان علي عبد نه رجل بريء . ولكن سيد قنديل رجل بريء كذلك . نعم ، سوف تتحقق نبوءة . ولكن حسن مفتاح يحتقر فؤاد منقريوس . ان فؤاد منقريوس قاتـــل :فه ، يقتل للانتقام ، ولا فرق بينه وبين ذلك الفلاح الجالس بجواره ، المطرق بجوار مقطفه الذي بقر بطن ابنته لانها حملت سفاحاً ، ولا فرق بينه وبـــين ذلك الصعيدي الشارد النظر الذي ثأر للحميدات من دم الاشراف أو ثـــأر لاشراف من دم الحميدات . انهم يستحقون المشنقة جميعاً . أما هو فقاتل عظيم ، لا يستحق إلا اكاليل الغار وتماثيل البازلت في أجمل الميادين . انـــه البطل في صورة قاتل . انه قتل فرداً ليحيي شعباً . وما قيمة الفرد . ؟ ان حياة المجتمع ثمن من كل أفراده . ان المجتمع باقٍ ولو هلك كل أفراده ، لأن المجتمع فكرة ، لأن المجتمع ظل الله على الأرض ، لأن المجتمع أعلى مرحـــلة للتطور الديالكتي داخل الروح المطلق . المجتمع بحروف التاج . حاسب يا مفتاح . لقد تعودت ان تبدأ بالماصدق المادي المتناهي وتنتهي بالمدلول المجرد اللا متناهي ، فـــلا تبدأ بالمدلول وتنتهي بالماصدق . كلا . ان المجتمع لن يهلك كلمة . لن يهلك من مجتمع إلا بعضه ، قلة منه سوف يهلـك اعضـــاء اللجنـة المركزية و عداء اللجنة المركزية . سوف يهلك اصدقاء الشعب واعداء الشعب . أما الشعب فلن يمسه سوء .

ان القطار قد دخل القاهرة ، وهو يعلم ما سوف يعلمه . سوف يقصد تواً الى داره حيث يكذب على مدام ماريكا كذبة عريضة . ان امامه اسبوعاً او اقل قبلاً حتى تنتهي اجازته . وهو يستطيع ان يضيف اليه شهراً جديداً يعكف فيه على كتابة التقارير ووضع الخطط والقراءة الكثيرة ، فهو بحـــاجة الى القراءة

الكثـــيرة . لسوف يلزم داره حتى تنمو لحيته وشعر رأسه . سوف ينظر الى صورته في المرآة كل يوم حتى يزيل الفروق الطفيفة اولاً باول . ان شعره الزيتوني الناعم كان يرتاح الى الخلف. ان حاجبيه كانا أقل غزاره مما هما الآن . اما بشرته الخائنة فسوف تتعلم النعومة مع الأيام ، وقليل من السمنة سوف يزول بحمامات البخار المنتظمة ، والعينان الصافيتان سوف تنطفئان بالعمل المرهق . وبعد ان يسترد صورته الاولى يعود الى اللجنة المركزية ليستانف الكفـــاح . فليطمئن نفساً . إن الفوارق ضئيلة ولسوف تختفي تحت اللحية الناعمة السوداء . كل ما في الأمر ان في اسفل اذنه اليسرى خرقاً كان موضع حلق كانت ام سيد قنديـــل تشبكه في اذن ولدها تأنيثاً له حتى لا تطمع فيه قوى الظلام فتخطفه يد المنون. ترى هل يلحظ الخرق احد ؟ ان الأمر لا يدعو الى الانزعـاج . سوف يصرف عنه الانتباه بنكتة يرتجلها كعادته لو لاحظه انسان . وابتسم حسن مفتاح حين ذكر أن كوميسارية الشعب قد تستطيع ان تعمر البلاد ،وان تشنق العباد بجرة قلم ،ولكنهالا تستطيع ان تعفي آذان الريفيين من حلقان امهاتهم في يوم وليلة . وتأمل الحمـــالين زرق الجلاليب ذوي الطواقي والاحزمة الجلدية حول الخصور ووجدهم يتشاحنون . وكان حسن مفتاح آية في الهدوء حين نزل من القطار . وسار بقدم غليظة ثابتة حتى خرج من المحطة، ووقف تحت ساعة باب الحـديد . وألقى على الميدان الواسع ذي الانوار الكثـــيرة الزرقاء بصره فبدا له كل شيء مألوفاً ، ولكن جسده اهتز طرباً لغير ما سبب معلوم ،ودب فيه انتعاش عجيب كأنه يستقبل هذا الجمال القديم لأول مرة .

٦

يوم خرج حسن مفتاح من ٢٢ شارع الملكة فريدة للقاء زملائه بعد شهرين من الاعتكاف المتصل حدثت له احداث كثيرة . ولكن اعتكـــافه لم يمنه من الاحداث كذلك . وقد احسنت اليه الظروف كثيرا في ليلته الاولى ولكنها لم تحسن اليه فيا بعد ذلك . فقد قطع شارع ابراهيم باشا حافي القدمين يوشك ان يكون مكشوف الرأس ، اما رأسه المحلوق وشاربه الأسود الناعم الطويل فقد كانا مصدر ازعاج له ومصدر طمأنينة معـــاً . فشفته العليا لم تتعود ان تتحمل شعراً كثيراً او قليلا ، وجلد رأسه لم يتعود ان يتعرى تحت السماء . ولكن هذا كله طمس معالمه الى حد عظيم . وكانت له من قبل صلات بالجـــانب الايمن من شارع ابراهيم باشا فتجنبه والتزم الجـــانب الأيسر . وحين بلغ جمعية الشبان المسيحية ذهب يدلك وجهه بكفه كله اخفاء له حتى يتقي نظر الخارجـــين . كذلك فعل حين بلغ فندق شبرد ، ثم عبر الشارع ولزم سور الازبكية حتى دخل ميدان الاوبرا، وهو على وجل شديد . ولكن نفسه اطمأنت حين قلت الانوار الزرقاء في شارع الملكة فريدة . وفي الملكة فريدة لم يصادف الا نفراً من الاجانب المحليين يتسكعون تحت الظلام طالبين اماكن اللهو ، ثم شرطة المرور والجنود البريطانيين الخارجين من كاباريه الدولز والساعين اليه . وحين

بلغ البنك العقاري بدا يفكر فيما سيقوله لمدام ماريكا .

فمفتاحه كان منذ يومين في بنطولنه الخلفي ، وقد غاص تحت صخور السلسلة ، ولعله الآن في بطن سمكة بسوق السمك بالعطارين، أو في بطن سمكة نفذت من فجوة السلسلة الى البحر الكبير . ولسوف يواجه مدام ماريكا حين يدق الجرس . ولقد يواجه كذلك مسيو كرافتشنكو الروسي الأبيض الذي يسكن الغرفة رقم ٤ ليلاً ويدرس في مدرسة برليتز نهاراً . أو الخواجة جورج حداد اللبناني المتمصر نزيل الغرفة رقم ٣ الذي يتوسط كل عام في نقل ملكية عمارة ضخمة واحدة أو خمسمائة فدان ويعيش من سمسرتها طول العام ، متعففاً عن عدد لا يحصى من الصفقات التافهة، وكان تعريف الخواجة جورج حداد للصفقة التافهة هو أية صفقة لا تدر على سمسارها خمسة آلاف جنيه . ولقد يواجه كذلك مدحت نزيل الغرفة رقم ٢ وهو محامٍ عراقي أوفدته حكومته لينال درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ولكنه لم يقابل أحداً من هؤلاء حين دق الجرس وانفتح الباب . فقد كانت مدام ماريكا في زيارة اختها بجوار بنك مصر ،وكان كرافتشنكو في مقبرة من مقابر الروم الارثوذكس لاسابيع خلت منذ ان مات بالسكتة القلبية على درج البنسيون ، وكان جورج حداد يزور ابنة له بالدقي ليصلحها مع زوجها ، وكان المحامي العراقي يقوم برياضته الليلية بين قهوة البول نور ومخزن البن البرازيلي ، وهي قرص المجندات في افخاذهن ، وتتبعهن بعض الطريق ان كن منفردات. رياضة تعلمها من بعض زملائه المصريين الذين تحدد شعورهم الوطني فأخذ هذه الصورة من الاحتجاج على الاستعمار البريطاني . ولكن حسن مفتاح بعد ان تجسد من جديد فقد القدرة على المعرفة الكل مكانية ، وغدا سجين اللحم مرة اخرى . وكل ما عرفه لحظتها هو ان الباب انفتح وأطلت منه الخادم الشابة فهيمة التي كانت تتردد على البنسيون من وقت الى آخر لتنظف الحمام، وتغسل الصحون وتمسح البلاط . وكانت بين حسن مفتاح وفهيمة عواطف خفيفة منشؤها سخاؤه وملاطفته اياها . وهي

ملاطفة كانت تصل احياناً الى خدها الذي كان يربته بلطف ، ونكتة عابرة تسمعها مدام ماريكا فلا تفهمها لركاكة عربيتها ، ولكنها تفهم الموقف ولا تحمله اكثر مما يحتمل ، وإن كانت في ليالي الوحدة تتمنى ان يخرج حسن مفتاح عن طوره فيلاطفها ايضاً بطريقته الخاصة .

ولما اطلت فهيمة من الباب تقول : « نعم » للقروي الحافي الواقف به ، لم يجب القروي الحافي فوراً بل ابتسم في نور السلم الباهت ثم قال : « جرى إيه يا فهيمة » . وعندئذ شهقت فهيمة وحملقت وأرادت أن تقول شيئاً . أرادت أن تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ففتحت فاها ، ولكن صوتها خانها فتركت فاها مفتوحاً . ودخل القروي الحافي وأغلق الباب في هدوء ، وأجال بصره في جميع الغرف فلم يرَ من زجاج ابوابها نوراً فاطمأنت نفسه ، وأمسك بفهيمة من يد ها وسار بها الى المدخل الصغير ، وهناك طمأنها قائلاً أن جميع ملابسه قد سرقت في الريف فلم يبقِ له اللصوص على شيء حتى الحـــذاء ، ثم أشار الى رأسه العاري وقال ان أسبوعاً في الريف ملأ رأسه بالدمامل فنصحه القرويون بحلق شعره حتى يبرأ من دماملة ، أما عن شاربيه فلم يقدم حسن مفتاح تفسيراً ولكنه رجا فهيمة الا تذكر لأحد شيئاً عما رأت، حتى لا تزعجه مدام ماريكا بالأسئلة . ووعدها ببقشيش طيب ان هي لزمت الصمت . ثم ربت على خدهـا ملاطفاً ، ولكنها ظلت على ذهولها الاول أو ما يشبهه . وحـــين تذكر حسن مفتاح ان اقرب مال الى يده مودع في البنك ، رأى ان يسجل هـــذه الصفقة باشارة انسانية تفتح قلب الخادم له ولو إلى حين ، فمال عليها وألصق قذارتـه بقذارتها وقبلها ثم أخلى سبيلها قبـل أن تقول : « لا . لا . يا سي حسن » . ودفع باب غرفته وانارها ، وذهب يجيل بصره بين الكومودينو حيث كان للقط الأسود وبين الغطاء الأحمر حيث زاره فؤاد منقريوس ، وبين المرآة الطويلة البلورية الصافية حيث كان الغبش الوردي الذي أطل منه الوجه المخيف ،وتذكر كل ما حدث . ولكنه لم يرتجف ولم يهلع ، فهو الآن قاتل عظيم لا تخيفه الأرواح

المريضة الهزيلة التي لا ترضى بالموت ولا تقوى على الحياة. وفتح الدولاب ومضى يستخرج اشياءه فيما يشبه العجلة، ثم اطفأ النور وخرج الى المدخل، وقال لفهيمة مبتسماً انه ذاهب ليستحم، وسألها ان تعد صرة تجمع فيها أشياءه القذرة لتهبها من تشاء.

وفي الحمام خلع اشياءه ثم نادى قائلاً: «فهيمة» فخفت اليه فهيمة تحمل منديلاً عظيماً ملوناً فرشته على الأرض. وفتح الباب قليلاً وناولها الأشياء من الفراغ الصغير. ولمحت فهيمة بعض صدره فراعها ما به من الشعر الغزير ورأت طرفاً من الوشم. انها لم ترَ شعراً في مثل هذه الغزارة منذ أن تعرفت على الكواء السكير مرسي الفحل في العام الماضي. وضحك حسن مفتاح، فقد كان واثقاً من انها تنتظر دعوته، ولكنه اغلق الباب وسمعت فهيمة صوت الدوش ينقطع وهي تربط الصرة. ثم اتصل الرشاش. ثم اختلط الصفير بالرشاش. ثم اختلط الصفير بالغناء والرشاش، ولكنه كان غناءً عالي الطبقة لا تفهمه فهيمة بلغة اعجمية لا تفهمها فهيمة. ان هؤلاء الأفندية يقلدون الافرنج في كل شيء. ودام الرشاش والغناء في الحمام ربع ساعة. ثم انقطع الرشاش وبقي الغناء. ثم انقطع الغناء ولكن حسن مفتاح لم يخرج. غير انه خرج اخيراً في بيجامته وقد لف الفوطة حول رأسه المحلوق ولمع وجهه تحت نور المدخل القوي، فقد كان وجهه حليقاً بدقة تامة. ولمعت بقايا الكريم مكان الشارب المهوش الكبير الذي اختفى جملة. وكانت في خديه طراوة كسرت غلظتها السابقة. وفيما هو واقف في المدخل سمع مفتاحاً يعبث بالباب. وفكر في الفرار إلى غرفته، ولكنه آثر ان يثبت الى النهاية. وكان ما توقعه، اذ دخلت مدام ماريكا، ولما وقع بصرها عليه مضت ترحب به على البعد ترحيباً وسعت اليه وهزت يده باشتياق، وسألته عن احواله فأجاب بأنه قضى شهراً عجيباً. وراعها فيه تحسن صحته، فتحدثت عن ذلك نحواً من خمس دقائق تسللت اثناءها فهيمة وانصرفت تحمل الصرة. وبعد أن اعدت له فنجاناً من الشاي حدثها عن رحلته بما شاء ان يرتجل

من الأكاذيب وزودها بأمر كتابي الى البنك لتستخرج له في الغـــداة عشرة جنيهات وهي نصف ما بقي في حسابه الجاري ، ودفتراً للشيكات ، محتجـاً بحاجته الى الراحة التامة . ثم أوى الى غرفته وأحكم اغلاق بابه ، وأضاء نوره وسعى الى المرآة الطويلة الصافية، وذهب يتمعن قسمات وجهه بارتياح . لقد نجح في الامتحان الاول فله ان يطمئن . فلولا ان وجهه الثاني يطابق وجهه الاول لبدا في نظرات مدام ماريكا ما ينم عن الشك، فان لم يبدُ في نظراتها ما ينم عن الشك ، بدا في نظراتها ما ينم على الحيرة على الأقل . ولكن نظرات مدام ماريكا كانت نظرات مدام ماريكا : بريئة مبتسمة ، هادئة ، فيها شيء من الغباوة . كذلك كان صوتها ، لا جديد فيه ، فهو ممدود به خنوع قليل، لا هو بالرخيم ولا هو بالجارح . لا بد اذن ان وجهه الثاني يطابق وجهه الأول . فان كان بينهما اختلاف ، فهو لا شك اختلاف هين يجوز على الناظرين ، او اختلاف هين تزيله العناية ويزيله التحفيف . كذلك صوته . لقد جربه في الحمام ، فصعد به السلم الموسيقي مراراً ، بعضه وكله ، مرتباً وغير مرتب ، منتظماً وواثباً ، فوجده أشد عذوبة من صوتــه الأول وأشد انطلاقاً حتى لقد يصل الى اصوات الخطباء المهيجين . ووجد رنينه متشابهاً ، ولكنه لم يكن الرنين الأول نفسه الا حين يخفض صوته الى طبقــة واطئة بين الهمس والكلام العادي . وعندئذ تندغم الفروق . لذلك قرر ان يقتصد في الضحك ما أمكنه ذلك ، وان يضبط رئتيه كلما ضحك . وما كان هذا بعسير عليه فهو من شيمه الاولى ، وقرر ان يغض من صوته حتى يألف الناس صوته الجديد ، وعندئذ يتصرف فيه بما يشاء . اما محيّاه فهو الآن في المرآة كما كان قبل رحلته الى حافة المادة،تماماً،لولاغلظة في الحاجبين وغلظةحول الشفتين لا فيهما . وذهب يدلك ما حول الشفتين فراقته نعومته . ترى ماالسبيل الى اخفاء هذه الغلظة ؟ ان الشارب وحده لا يكفي اذ ان الغلظة تمتد الى اسفل حتى تتناول جانبي الذقن ، فلا بد اذن من اللحية ، لا بد من الشارب الغزير واللحية الغزيرة معاً ، وفي غزارة الشارب واللحية تختفي الغلظة البادية حول الشفتين . أما السوالف فلا حاجة بها الى ما يكسوها . ولا شك ان القشرة

الجامدة السمراء التي تركتها شمس دماريس وخشونة حقولها سوف تلين تحت الماء الكثير والتدليك الكثير والكريم الكثير . ومضى بعد هذا يمسح حاجبيه الكثيفين ، وشاء ان ينتزع منهما بأصابعه بعض الشعرات التي خرجت على النظام العام ، ولم يجد بداً من الاستعانة بملقط من مدام ماريكا . فخرج الى المطبخ حيث وجد صاحبة البنسيون في روبها الأحمر القديم الرخيص تطعم قطاً أسود هائل الجثة لم يكن له من قبل وجود في الدار ، فاهتز جسده قليلاً لمرأى القط ، ولكنه فهم ان مدام ماريكا قد استعاضت به اثناء غيابه عن القط الجامد الذي تهشم لشهر خلا . وارتاح ايما ارتياح الى خرافات مدام ماريكا التي تنشر السلام في الدار . وسأل حسن مفتاح مدام ماريكا ان تقرضه ملقطها ففعلت . وعاد حسن مفتاح الى غرفته يفتش بين مجلاته القديمة عن صورة من صوره المنشورة ليهتدي بها في تخفيف حاجبيه فوجد صورتين تخير اوضحهما . فلما بدأ العمل وجد ان الصورة الواضحة باهتة لا تفيد كثيراً . فأعادها الى مكانها بعناية، وفتح درج الكومودينو واستخرج منه جواز سفره ، ثم سعى الى المرآة وانشأ يسوي حاجبيه .

ومرت الأيام هادئة لا يؤنسها شيء ولا يزعجها شيء . مرت الأيام . فكانت كلها قراءة وتفكيراً وتحريراً ، وانقطع حسن مفتاح عن العالم الخارجي تماماً ، اللهم الا ببعض الرسائل التي كتبها لأصدقاء له في الاقاليم ، يستعين بهم على زيادة رصيده في البنك ، ولم يكن يقض مضجعه الا ان يتذكر ان الصحف لا بد قد نشرت نبأ غرقه على صورة من الصور . أليس جائزاً ان النوتي الجميل قد ادى واجبه بعد عودته الى الميناء فأبلغ الشرطة ؟ أليس جائزاً ان الشرطة قد ادت واجبها وعادت بالسيدتين وبالسيد المجهول ؟ كل هذا جائز ، ولكنه مشكوك فيه . فحسن مفتاح كان يعرف مأموراً في جنوب القناطر رأى جثة تطفو في النيل فاشاح بوجهه حتى يتحاشى العلم بها ، وحين نبهه حسن مفتاح الى ما يجري في الماء ضغط المأمور على ذراعه وهمس في اذنه قائلاً : « ان هذه رزية ، فدعها

تمر مع التيار من عيون القناطر حتى تكون من نصيب مـــأمور القسم الشمالي يحقق فيها طول الليل ، وهيا بنا الى النادي نشرب كأساً من الويسكي » . فلما ان ابصر المأمور قروياً يخلع ملابسه ويلقي بنفسه في الماء ويسبح الى الجثـــة لينتشلها ذهب يسب ويلعن الفلاحين اولاد الكلب الذين لا ينتظر منهـــم الا الرزايا ، وأسرع الى بيته وأصدر امره بان سعادة البك غير موجود للسائلين . لسوف يقيد الحادث في الاوراق الرسمية حادث مجهول ضد مجهول. بل ان النوتي الجميل قد لا يجد الشجاعة لابلاغ البوليس ، فلئن فعل ذلك لا محـــالة مقبوض عليه ، وهو لا محالة مقيم في الحفظ تحت التحقيق اياماً وربما اسابيع ، وهو لا محالة متهم باغراق ركابه وربما باشياء اخرى كثيرة منها السلب ومنها الاختطاف كذلك . والنوتي الجميل لا ذنب له في كل ذلـــك الا انه ازعج البوليس ، ومن يزعج البوليس يزعجه البوليس . والنوتي الجميل مذنب الى ان تثبت براءته شأنه شأن كل نوتي آخر ، الجهلاء والدهماء على السواء . وما الذنب في ذلك الا ذنب النوتية ، فهم لا يستطيعون قراءة قانون نابليون ولا يعرفون حقوقهم . فاذا كان السادة يقرأون قانون نابليون ويعرفون حقوقهم ، فليس للعبيد ان يشتكوا من السادة ، فقانون نابليون موجود في كل مكان ، عند باعة الكتب وعلى رفوف المحامين ، وقد بلغ من كرم الدولة انها وضعت منه نسخاً في المكتبات العامـــة تقرأ بالمجان لمنفعة المعدمين ، الله في علاه والدنيا بخير عميم . ولا شك ان النوتي الجميل لم يكن يفكر بهذا المنطق الواضح ،فالنوتية ليسوا من اهـــل المنطق أو التفكير ، ولكنه عرفه بالاختبار ، فحمزة افندي ، وهو الافندي الوحيد الذي انجبته اسرة النوتي الجميل رغم ضخامتها ، كان يرى دائماً ان اداء الشهادة تفغيل كبير ، فقد ذهب مرة الى قسم كرموز بوازع من ضميره ليشهد امـــام حضرة الضابط بان الذي صدم الغلام كان سيارة حشمت باشا لا سائق التاكسي ، فكان جزاؤه اربعاً وعشرين ساعة من الحبس الاحتياطي واثبات القضية ضد مجهول . فاذا كان الافندي قد اصابه كل ذلك مع ما يبعثه الطربوش والبذلة من تهيب في محيط الشرطة ،فلا شك ان نوتياً فقيراً يلبس البالطو فوق الجلبـــاب

ويستعير ما ينبذه حمزة افندي من الطرابيش حين يخرج للنزهة، ملاقٍ من أذى الشرطة شيئاً كثيراً .

ولكن حسن مفتاح لم يشك لحظة في علم البوليس بالحادث . فاذا كان النوتي يخشى عنت الشرطة حقاً ، فان لمدام كلاداكيس اسرة تفتقدها وخدماً ينتظرونها . فاذا تغيبت بعد المساء قالوا مضت الى السينما ، فاذا تغيبت الى الصباح قالوا لعلها كانت في سهرة حمراء أو في خلوة من خلوات الغرام . فاذا لم تعد مع الضحى ، طلبوا الاسعاف بالتليفون ،وخاطبوا المستشفيات وترددوا على المعارف يسألون . ثم يكون البوليس ، فاذا كان البوليس بدأ البحث وانتشلت الجثث الطافية ، وكانت المشرحة ،وكان التحقيق وكان التعرف على كلاداكيس. اما هذا السيد القصير الأسمر النحيل ذو الاسنان البارزة ، فمن يكون ؟ ان غرفته بالبنسيون ليس بها الا بيجامتان وثلاثة قمصان وبعض الملابس الداخلية وشبشب وفرشتان للاسنان وفوطة ثم آلة كاتبة افرنجية رمنجتون خفيفة . اما حافظته فليس بها الا خمس ورقات من اوراق البنكنوت مجموعها خمس وعشرون جنيهاً ، يشك في انها ادرجت بين مخلفات الفقيد في محاضر البوليس . والخادم والخادمة يعرفانه حق المعرفة . فقد رأياه جملة مرات في العام الماضي ويعرفان عنه بعض التفاصيل . يعرفان مثلاً انه من القاهرة ، وانه من المقربين الى المدام ، وانه يشرب القهوة بشراهة والشاي بشراهة والسجائر بشراهة وانه سخي مع خادميه يداعبهما باستمرار . غير هذا لا يعلمون عنه شيئاً . وقد كان يمكن الاهتداء الى شخصيته عن طريق مفكرته التي تحمل من ارقام التليفون عدداً عظيماً ، لولا ان اربعاً وعشرين ساعة من البلل الملح قد افسدت كل ما في المفكرة من كتابة ، ولولا ان كل كلمة في المفكرة قد كتبت بالشفرة. لقد دخل حسن مفتاح في مجهولات هذا الوجود ما في ذلك شك . فالصحف لا ريب قد تحدثت عن غرق مجهول . واللجنة المركزية لم تتحدث عن غرقه بتاتاً . فانقطاع اخباره ليس بمستغرب عند اصدقائه ، ولكن لا داعي الى الانزعاج « الآن » . لقد كان حسن مفتاح يؤمن بانه ما من جريمة الا وتركت وراءها

أثراً ولعل في هذه السلسلة الطويلة من الحوادث العجاب التي بدأت باغتياله، وانتهت برده الى الحياة حلقة لم ينتبه اليها قد فضحت هويته وملأت الصحف بنعيه اسبوعاً أو يزيد . ولكنه كان يصرف تفكيره عن كل ذلك بقوله : لا داعي الى الانزعاج « الآن » . سوف يتضح كل شيء حين يعود الى رقم ١٣ شارع سليمان باشا . ثم ان محض ظهوره بعتبة الباب سوف يكذب ما عسى ان يكون قد شاع بين الناس .

وفي غضون الشهر الأول سطر حسن مفتاح كراستين : الأولى تشمل تقريراً للجنة المركزية عن برنامج الاصلاح كما يتصوره هو . اما الثانية فقد كانت نشرة يثبت فيها ان الشعب المصري شعب مادي نموذجي لتطبيق النظام الشيوعي عليه .

فمادية الشعب المصري هي التي حمته من غيبيات الغاندية المريضة في اطوار كفاحه المختلفة ،وهي التي تحميه الآن من غيبيات الفاشية واحلام التوسع الامبراطوري ،وتصرفه عن كل ما يخرب الكفاح الشعبي الصميم من أجل حقوق الانسان الاولية الملموسة أو يطمس الواقع المفجع في غبار كثيف من المجردات الغيبية . ومادية الشعب المصري هي التي تقرب اليه فهم الواقع الاجتماعي فهماً علمياً ، وتعلمه ان الف باء السياسة المصرية هي ان الكفاح الوطني كفاح شعبي قبل كل شيء ، وان القلة المالكة في تفاهم كامل مع المستعمرين بحكم ارتباط المصالح مهما اصطنعت لغة الوطنية والجهاد : فالمستعمرون يثقون بالقلة المالكة ويؤازرونها لأن في بقائها دوام الفقر وتابعيه الجهل والمرض بين المصريين ، والقلة المالكة تحتمي بالمستعمرين وتوطد لهم لأنهم يحمونها من غضب الشعب ، ويلهون الشعب عن التفكير في مشكلاته الداخلية بايجاد مشكلة خارجية دائمة تمتص كل فائض من النشاط الشعبي . فمادية الشعب المصري هي التي تعلمه ان الكفاح الوطني في صميمه ، كفاح من لا يملكون ضد من يملكون ، وتجعله يدرك ان التخلص من الاعداء الداخليين ضرورة للتخلص من الاعداء الخارجيين .

غير هذا لم يحدث شيء . لم يحدث شيء في ٢٢ شارع الملكة فريدة ما يقرب من شهرين الا زيارات الحلاق بين الفينة والفينة ، حتى لقد اختلطت على حسن مفتاح التواريخ ثم الايام ثم كف كذلك عن الاهتمام بالساعات ولم يعد يجد من النشاط ما يدفعه الى الخروج من بيجامته ، واتصل ضده الزمن ، ولكنه كان بين حين وآخر يعود الى صحفه ليقف منها على التواريخ . كذلك لم يحدث شيء في ٢٢ شارع الملكة فريدة ما يقرب من شهرين الا ان النهار طال والليل قصر وطارت عصافير كثيرة لا يعرف حسن مفتاح لها اسماً قرب نافذته وزقزقت ، اما الهواء فقد اعتدل وبدأت جماعات الشباب من الاجـــانب المحليين تجوب الشوارح بعد منتصف الليالي تغني السيريناد باليونانية والايطالية والفرنسية تحية للربيع ابن الغرام . وفي نهاية الشهرين لم يكن بين حسن مفتاح واللجنة المركزية الا قليل من الشجاعة ، فقد نما شعر رأسه حتى بلغ نصف عهده الأول ، ونام الى الخلف ناعماً املس . كذلك اوشكت لحيته الصغيرة وشاربه ان يكتملا ، وقالت المرآة الطويلة الصافية لحسن مفتاح ان في وسعه ان يخرج مطمئناً الى التجربـة الاولى ، ولكن حسن مفتاح فوجىء بزيارة لم يكن يتوقعها .

فقد جاءته ذات مساء مدام ماريكا تعلن ان سيدة بالباب تطلبه ، فاضطرب قلبه وأرسل صاحبة البنسيون تستقبلها في المدخل حتى يتهيأ . وتهيأ بعد خمس دقائق لاستقبال عايدة علم واستفسارها عن علة مجيئها . ولم يعبأ بربطته فترك قميصه مفتوحاً حول العنق . ولم تكن حيرته من هذه الزيارة بأقل من رهبته منها . فقد كان شديد الاحساس بما اصابه من تغير ، ولم ينسَ ان يتطلـــع الى المرآة قبل خروجه من غرفته . ولم يحاول ان يرجم بالغيب بما عساه ان يكون دافعها الى المجيء ولكن خطر له انها لا بد قد جاءت لتجدد العهد القـــديم او لتحذره من خطر محدق . وخرج الى المدخل انفاسه معلقة ، غير انه ثبت في مكانه لا يدري أيتقدم ام يتأخر . فقد رأى امامه مونا ربيع ، واقفة وراء المائدة المستديرة الصغيرة تدخن فيما يشبه الهياج العصبي ، وتتناول بشفتيهـــا

سيجارتها بسرعة تلفت النظر ، وتنفث منها الدخان بقوة تلفت النظر ،وتنفض الرماد على البساط الساذج بتوتر يلفت النظر ، وامتدت يد حسن مفتاح وراء ظهره تتحسس مقبض بابه حتى استقرت عليه ، فارتاح بجسده كله على حافة الجدار مخافة ان تخونه ساقاه . وقد أحس فعلاً بما يشبه الخدر يدب في لحم فخذه وما دونه ،ويتجمع حول الركبتين . وكان اول خاطر معقول في ذهنه : كيف علمت مونا ربيع بمقره ؟ ان عايدة علم كانت « المرأة » الوحيدة التي تعرف مسكنه . وكانت مونا ربيع تشخص ببصرها اليه طول الوقت اما هو فلم يقوعلى شيء من ذلك فغض بصره الى أقرب كرسي اسيوطي منه . فلما طال الصمت حتى بلغ مبلغ الحرج ، رفع حسن مفتاح بصره وقال مبتسماً :

ـ أهلاً مونا .

وحين وقع بصر مونا ربيع على حسن مفتاح في صورته الجديدة عجبت أشد العجب ولكنها قالت تعتذر :

- لم يكن بد من مجيئي .

وتقدم حسن مفتاح منها واراد ان يحتويها بين ذراعيه وينهال عليها تقبيلاً ، ولكن قوة ما ردته عن ذلك . وأدركت هي من تقطع حركاته ما كان يجول بخاطره فضرج خدها دم كثير ، وأغمضت اهدابها الثقيلة السوداء لحظة ثم صحت اليه وقد تناول يدها اليمنى في يديه وذهب يعبث بها عبثاً اراده ليناً رفيقاً فجاء قوياً موجعاً . وأحست بالماسة الكبيرة في خاتمها تدورحول اصبعها قليلاً فتؤذي اصبعها المجاور ولكنها تحملت . أما هو فقد فهم بما يشبه الوحي الحائل الذي يصده عنها ، فقد كان الحائل بداخله . ان حياته قد اتخذت سبيلاً غير مألوف . وهو لا يرضى لمونا ربيع ان تتبعه الى الهاوية . وكانت رغبته في احتضانها قوية لا تحتمل . وكانت القوة التي ترده عنها قوية لا تحتمل ، فتجمع في رأسه شقاء فوق طاقة البشر وأحب ان يبكي ، ولكنه لم يكن ممن يبكون . وفي تلك

اللحظة وحدها استطاع ان يدرك مبلغ حبه لها ، ففي تلك اللحظة وحدها اتخذ حبه حجماً يحس ولا يقاس ووزناً يحس ولا يقدر وعمقاً يحس ولا يسبر . فقد كان حبه قبل ذلك اما راقداً في رأسه على كومة من الهشيم المجرد الجاف او راقداً في قلبه على فراش أملس من أطلس الاحلام ، أو مستيقظاً في عروقه متدفقاً مع دمه المجنون تدفق الاشواق . أما الآن فقد غدا موجعاً يصدم كأنه حرف مائدة ثقيلة ، موجعاً يؤلم كأنه منشار يجري على عظام خبيثة لم تمت بعد ، موجعاً بقوة اليأس كأنه هاوية بغير قرار . ورأى ان في زيها شيئاً غير مألوف، وسرعان ما ادرك انها تلبس لأول مرة حريراً مخططاً من أعلى الى أسفل، فيه لونان نبيذي وبرتقالي ، وقد الفها فيما مضى لا تحب مزخرف الالوان . وقال انه الربيع ما في ذلك شك . وكان الحرير على صدرها رخواً بدت منه رخاوة ثدييها كأنها لا تلبس تحت ثوبها شيئاً . ولم يسألها ان تجلس ، ولم تجلس هي من تلقاء نفسها . واحتار ثانية فيما يقول وتحرج الصمت حتى اضطرب له ، وكان يعلم انها تنتظر منه كلمة فقال متلعثماً وهو لا يفهم ما يقول تماماً :

– هل اغضبك اني تخلفت ؟

قالت :

– نعم .

وكان لا بد ان يفسر . وكان لا بد ان يكذب ، ولكن شق على نفسه ان يفعل ذلك فلاذ بالصمت وترك يدها تسقط الى جنبها . وأوشك الصمت ان يتحرج مرة ثالثة ، ولكنها بدأت :

– اتأذن لي في الجلوس ؟

فابتسم حسن مفتاح وجلس دون ان يجيب فجلست مونا ربيع كذلك ، ثم اطفأت سيجارتها ، وعادت تقول :

– ارى ان صحتك قد تحسنت .

فانتفض حسن مفتاح ، فقد ذكرته هذه العبارة بكل ما جرى تحت الجرف العميق وأحس بجسده احساساً ، وغلبه شيء أكثر من الخجل ، غلبه شعور المذنبين، فأراد ان يخفي عنها وجهه ولكنه كان مطرقاً فلم يدر أين يشيح بوجهه. وأخيراً رفع رأسه وقال :

– ولكن صحتك قد ساءت .

فهزت مونا ربيع كتفيها ثم قالت :

– ارى انك اطلقت لحيتك .

فأجاب بصورة آلية :

– ضرورة من ضرورات اللجنة المركزية .

وقالت وهي تبتسم :

– تقصد انها عدة الشغل ؟

فضحك وأجاب :

– انا الآن سكرتير اللجنة المركزية ، وأعتقد اني سأشغل هذا المنصب فترة طويلة . والاعضاء بحاجة الى لحية تسكتهم من وقت لآخر .

قالت :

– فهمت .

ثم لمع في عينيها بريق شديد واضافت :

– لقد جئت لأتبرع لكم بمبلغ من المال . أتقبل مني مائة جنيه ؟

فبدا عليه الجد وأجاب :

– نعم .

ولكنه كان يعلم انها تكذب ، فاضطرابها العام قد دله على ان في الأمر شيئاً جللاً .

قالت :

– وما اسم أمين الصندوق ؟

أجاب باختصار :

– اكتبي الشيك باسمي .

وفيما هي تفتح حقيبتها وتستخرج دفتر الشيكات ، دخلت مدام ماريكا بشأن غير مطلوب ثم توارت في مطبخها كعادتها . قال حسن مفتاح وهو يصب لها الشاي :

– أرجو ان تفهمي اننا لا نعطي مقابلاً ، الا الشكر طبعاً .

فضحكت وناولته الشيك وأجابت :

– هذا واضح ، والشكر لربيع بك فهذا ماله . أرجو ان تفكر فيّ كلما احتجتم الى مال .

وارتجف حسن مفتاح حين تذكر ربيع بك ثم قال :

– شكراً . ولكن لا ترسلي شيئاً دون اتفاق سابق . سأكتب لك بالتفاصيل .

عندي اقتراح آخر .

– نعم .

- انا أملك بيتاً موقوفاً من طابقين في شارع الساحة بالقرب من اوروزدي بك ، ومكاتب الدائرة تشغل جانباً منه الآن ، فان كنتم بحاجة الى دارجديدة فبيتي تحت تصرفكم . استخدموه بلا مقابل . أما الدائرة فيمكن ان تنقل الى عمارة اخرى .

- وقانون المساكن ؟

- نستطيع ان نوقع عقد صورياً قديم التاريخ أو ان احجز للدائرة ركناً صورياً .

- العقد انسب ، ولكن اتعلمين ان هذا يعرضك للخطر ؟

- تقصد لمجرد التحقيق .

- وماذا يمنع من اعتقالك ؟ اتحسبين ان حرم عبد السلام بك ربيع فوق القانون ؟

- انا راضية بالمجازفة .

فضحك وقال :

- كنت احسب انك الفوضوية الوحيدة في وادي النيل ، ولكني ما عرفت انك تعطفين على الشيوعيين .

فأجابت ضاحكة :

- ان ديالكتيك الحياة قد علمني اموراً كثيرة .

قال :

- انا طبعاً شاكر لك هذا السخاء ، ولكني لا أملك القبول أو الرفض في جسام الامور ، فأذني لي أن اعرض الأمر على اللجنة المركزية .

- بكل تأكيد .

وساد صمت قصير ، وجعلهما الصمت يحسان باقتراب الظلام ، فقد انتشر في المدخل المساء الثقيل الذي ضاعت فيه معالم المنازل في الخارج ، واختفى السابلة الابعدون ، وأحب حسن مفتاح ان يضيء النور ولكنه لم يجد الهمة للنهوض . وكان حسن مفتاح يعلم ان مونا ربيع انما تراوغ وتخلق المناسبات خلقاً لتؤجل ما جاءت لتقوله . واراد ان يقترب بهـــا من الدائرة التي كانت تتحاشاها فقـــال :

- وكيف حال ماجدة ؟

فانتبهت مونا ربيع الى الموقف الجديد ، وآثرت ان تواجهه هـــذه المرة لتريح صدرها نهائياً وأجابت :

- انها بخير وهي الآن معي في القاهرة .

ومشت الحيرة في وجه حسن مفتاح ، فـــلم يفهم كيف يفسر كلماتها ، وسألهـــا :

- وربيع بك :

- هو في القاهرة كذلك .

فزادت حيرة حسن مفتاح وقال :

- متى عدتم من الاسكندرية ؟

- انـــا وماجدة منذ شهر تقريبـــاً ، أما ربيع بك فلا علم لي بتاريخ رجوعـــه .

- لست افهم . ألستما معاً في فيلا الزمالك ؟

- كلا ، فهو يقيم الآن وحده في فيلا الزمالك . أما انا فأقيم في اوتيل

متروبوليتان مؤقتاً حتى اضع يدي على شقة في الايموبيليا ، وقد دفعت فعلاً خلو رجل ولكن يبدو ان في الأمر اشكالاً ، لأن بعض الجهات العليا تريد الاستيلاء على المكان . أترى ان الأمر يحتاج الى رشوة ؟

وكان حسن مفتاح يتوقع شيئاً ما ، يتوقع نبئاً عظيماً وان لم يستطع ان يتكهن بشيء على التحديد . فلما جاءه النبأ العظيم أحس بمغزى هذه الزيارة أكثر من أي وقت مضى ، وتنبهت كل حواسه . قال :

– لست افهم ماذا جرى ؟

– جرت اشياء كثيرة أود ان اعفيك منها ، ولكن خلاصتها انما قد انفصلنا .

– مؤقتاً ؟

– بل نهائياً . فقد قبل ربيع أخيراً ان يسرحني بعد ان نزلت له عن مؤخر صداقي . كذلك قبل الا يطالب بكفالة ماجدة لقاء بعض الأسهم والسندات . واوراق الطلاق تسير الآن في الدور النهائي .

وضحكت مونا ربيع ضحكة عصبية . وأوشك حسن مفتاح يقول : « يا له من وحش . يا له من نذل . » ولكنه لم يفعل ، بل نهض واضاء النور وعاد الى مكانه وصب لها ولنفسه فنجاناً من الشاي ثانياً ، وناولها سيجارة ، وسألها قائلاً :

– هل جد شيء ؟

– نعم ، جدت أشياء . فقد عدت الى داري يوم موعدنا في بنسيون رويال فوجدت ورقة منه تقول ان عمته قد انتهت وانه سيعود نحو التاسعة بعد اجراء اللازم . وتملكني ضيق شديد ، وأحسست ان في البيت روحاً خبيثاً يقبض على كل شيء بقوة من حديد ، ويمتد الى عنقي كذلك ، ويقبض عليه بقوة من حديد .

ومشيت الى ماجدة لعلي أصرف عني هذا الاختناق ، ولكني خشيت ان اوقظها بقبلاتي ،فعدت الى المدخل ونظرت الى الكراسي فقالت الكراسي : اقتليه . ونظرت الى الجدران فقالت الجدران : اقتليه . والابواب قالت اقتليــه ، والسقف المنخفض والباركيه العاري وكل ما في الغرفة قال : اقتليه . وسألت نفسي فقالت نفسي اقتليه . وكانت الجريمة ترفرف في هواء المدخـــل . فأمسكت بيبة له ملقاة على المائدة الصغيرة وقذفت بها في المدفأة الجائعة بأقوى ما املك من العنف فتحطمت البيبة . ولكن اختناقي لازمني ، فعلمت ان راحتي لن تكون الا بموته . وأحسست بغيبتك وبموت عمته . وامتلأ البيت بارواح الموتى وان كنت لم ادرك لذلك سبباً . فقالت نفسي : اذن فالموت للجميع . وأحسب انك لو كنت في متناولي لقتلتك كذلك . نعم لقتلتك لأنك تركتني عزلاء اجـــابه اهوالي بمفردي . كنت كالنمرة المفترسة . وخرجت فوجدت الليل ساجياً ،نجومه زهراء، حببت اليّ الحياة لحظة ولكنها ارتدت بعد حين حمراء كأنما يعلوها غبش وردي . فعلمت ان السماء تأمر بقتله كذلـــك . وعدت الى داري ومعي من الزرنيخ ما يقتل اسرة ربيع كلهـا ، وفتحت دولابـه واستخرجت منه الويسكي ، ومضيت اشربه في اسراف، حتى عاد ربيع بك الى الدار ودخل متهللاً كأنه لم يفقد عمة وانما ربح ورقـة يانصيب ، وطفق يلغو عن الميراث العظيم الذي اصاب شيئاً منه ، وهو عمارة في حليمونوبولو بها ست عشرة شقة تدر كل منها عشرة جنيهات شهرياً الى جانب الفيلا التي كنا نقيم فيها . وحين فرغ من حديثه شتمته قائلة ان امثاله لا يستحقون البقاء ، وكان قد ادرك لأول وهلة اني في حالة سكر شديد ولكنه لم يقل شيئاً . وحين اهنته لم يقل شيئاً كذلك . وبحث عن بيبته فلم يجدها ، فلما انبأته باني قـد حطمتها بيدي لزم الصمت . ولم يبدُ عليه اي اكتراث بما انا فيه . حتى الحيرة لم اقرأها في وجهه . وألهب صمته ثورتي ففتحت حقيبتي واستخرجت منها السم وصحت فيه قائلة : « اتعرف هذا ؟ » فنظر الى السم وقال : « نعم ، هـذا زرنيخ » ثم عاد الى صمته فقلت : « اتعرف لم جِئْتُ به ؟ » فهز كتفيـه

واجاب : « ومن أين لي أن اعرف ؟ لعلـك كنت تفكرين في الانتحار. »
قلت : « كلا ، وانما كنت افكر في قتلك . ولولا اني سكرانة للحقت الليلة بعمتك ، واخذت ميراثها كاملاً . انا اعرف انك كنت تحب عمتك حباً جما وهي تحب منك ان تؤنس وحشتها » . ثم انهرت على المقعد وعدت الى الشراب ، فجلس هو كذلك ورأيت في وجهه الانزعاج الشديد وأخذ يعض اسنانه كأنه يعض بيتبته . ويبدو لي انه حسب كل شيء بطريقته الخاصة الواضحة الباردة ، فوجد ان الأمر قد تجاوز حدود المشاحنات المتقطعة والفتور المتصل ، ودخل في دور عملي ..فقد دخلت الخادمة تقول ان العشاء معد فصرفها وفي عينيه مـا ينبىء بانه يخاف العشاء . وأخيراً قال : « اتفضلين ان ننفصل ؟ » فأجبت ؟ « انا لم ارَ اوقح منك انساناً . كيف تسألني هذا السؤال ؟ هبني قلت لا ، انا لا استطيع الحياة بغيرك يا حبيبي ، فلست اشك في انك ساعٍ الى الطلاق منذ هذه اللحظة ، ولن يهنأ لك بال حتى تتخلص مني تماماً . انك لن تتناول بعد الآن كوباً من الماء او فنجاناً من الشاي او لقمة من الخبز مخـــافة ان تكون مسمومة ، بل انا اعلم انك لن تنام الليلة في هذا البيت مخافة الا تستيقظ في الصباح . ولكنك تريد ان تجعل من هذا الموقف موضوعاً للمساومة . لمـاذا لا تختصر الطريق وتقول : تنازلي عن مؤخر الصداق ، اعطني كذا وكذا ، او اخطر البوليس ؟ لقد فهمتك يا صاحبي ، فهمتك . لقد علموك في اكسفورد ان تلبس هذا القناع الزائف : البرود المصطنع . علموك ان تدخن البيبة لتتحاشى الكلام ، ان تعض على البيبـــة كلما اضطربت نفسك . علموك ان تجلس على الفوتيلات الكبيرة وتغوض فيها وتحس بالراحة الموجبة ، فتعتقد انك الموجود الوحيد في هذا الوجود وترفض ان تزعج طمأنينتك العظيمة باوجـــاع الغير . علموك ان تقيم حفلات الشاي وحفلات الكوكتيل والمآدب لا لتدفىء قلبك برأى اصحابك ، ولكن لتنهي العلاقات وتعقد الصفقات بكم تبرعت للترفيه عن الجنود البريطانيين الذين يأكلون الزبد والمرملاد، ويسكرون ليل نهار، ويقاتلون

لاستعباد الشعوب ؟ بثلاثة آلاف جنيه . بكم تبرعت للترفيه عن الجنود المصريين الذين يتقاضون ستين قرشاً كل شهر يدخل فيها ثمن السجائر ونفقات الأم او الأخ أو الزوج في الريف ؟ بلا شيء . لقد وهبت للاتحاد المصري الانجليزي بليارد و كلفك ثلثمائة جنيه ، وأطعمت على مائدتك البريجاديرات البريطانيين واعضاء مجالس الشركات من كل ملة على وجه الأرض ، وخصصت دارك الكبرى بالدقي مستشفى للجرحى الانجليز دون مقابل . فكم جنيهاً وهبت لضحايا الغارات من المصريين وكم طالباً مفصولاً أعدت الى المدرسة بسداد رسومه ، وكم جائعاً اطعمت وكم مريضاً من عبيد عزبتك شفيت بمالك المغتصب ؟ لا أحد . كل ذلك لتحصل على العقود . العقود . العقود . لا شيء يملأ حيـــاتك الا العقود . لا عجب ان الشيوعيين يسمونكم بالنخاسين . ولا شك ان اعظم عقد ظفرت به في حياتك كان عقد زواجك بي . اتحسب اني لا افهمك ؟ انت تنظر اليّ ، انا زوجتك ، نظرك الى صفقة رابحة . قل لي متى احببتني ؟ قـــل لي . لمَ لم تطلقني حين طلبت اليك الطلاق في العام الماضي؟انك تستبقيني لا حباً فيّ بل لأني سيدة لا حُبّاً فيّ بل لأرفه عن البريجادير كريستول وعن الخربوطلي باشا وعن المسيو حنوكة وأخدمهم بالويسكي واحدثهم عن قصص بلزاك وأعزف لهم موسيبى شوبان ، فيقول البريجادير كريستول والخربوطلي باشا ومسيو حنوكة : يا لهـا من امرأة مثقفة . يا لها من سهرة ممتعة . وفي الصباح توقع انت العقود . اتذكر سرهنك بك ، دون جوان الطبقة الراقية ؟ ماذا كنت فاعلاً لو انك رأيته يقبلني قبل ان توقع مع الحكومة عقد ترميم وزارة العدل ؟ لا شيء . اذن فاعلم هذا . لقد حاول سرهنك ان يقبلني على التراس في الزمالك ، ولولا اني احتقره من اعماق قلبي لاستسلمت له . كلا يا صديقي . لن تعرضني في سوق النخاسة بعد اليوم . لن تعرضني » .

وبعد ان فرغت مونا ربيع من هذا الكلام تكاثرت عليها احزانها فاجهشت بالبكاء . واطل رأس مدام ماريكا يستطلع الخبر ثم اختفى ثانية . وكان حسن مفتاح يستمع الى حديثها باضطراب تام فلما بدأت تبكي ، قال معنفاً :

– ما هذا يا مونا ؟ لقد كنت مثالاً للشجاعة وقوة الاحتمال فلا تضعفي الآن .

– انما أبكي على السنوات السبع التي ضاعت من حياتي مع هذا الرجل .

– وكيف انتهت الليلة ؟

– انسحب الى غرفته في سكون ، ولولا انه انسحب لقذفته باناء الازهار فشججت رأسه . انا أنصح كل امرأة شقية ان تدس السم لزوجها حتى تتساوى النساء بالرجال في حق الطلاق . ان اكثر صديقاتي شقيات في زواجهن ، ولكنهن تعلمن ان يتخذن عشاقاً يهونون عليهن مرارة الحياة ، ولكم زين لي ذلك ، ولكن شيئاً في طبعي ردني عنه .

– ولكن كيف انتهت الليلة ؟

– خرج الى بعد قليل حاملاً حقيبة صغيرة جمع فيها متاعاً قليلاً وفي فمه بيبة قديمة وجلس على حرف المقعد الكبير وقال : « انت حرة منذ الان . ولكن ماجدة باقية معي . » فهببت اليه أحمل كوب الويسكي متوعدة واجبت : «وما اهتمامك الآن بماجدة ؟ اختصر الطريق وقل كم تريد ثمناً لها » . فلم يتزعزع بل قال : « ماجدة باقية معي ، فان خرجت بها غداً طلبت ردها ، والمحكمة بغير شك لا تأمن امرأة اوشكت ان تسم زوجها على تربية بنت صغيرة . ولكني سوف اسمح لك ان تترددي عليها مرة كل اسبوع» . قلت : « بل سأخرج بها غداً ، فان نزعت مني ماجدة ضربتك بالرصاص في وسط المحكمة . اطلب ثمنك الان » . وقد كان ما توقعت ، فان بيبة أكسفورد قد سقطت من فمه ،

وحين رأى اني رأيت اضطرابه ازداد اضطراباً ، واختلج خداه واصفر وجهه غضباً ، ونهض قائلاً بصوت مختنق متقطع : « أرجو ان تردي لي سندات قناة السويس . اتركيها عند الافوكاتو رفاعي . اما الكرايسلر فأنا في غنى عنها . متى تحبين ان أعود ؟ » قلت : « غداً ظهراً تتسلم بيتك » . وانصرف فلم أرَه الا ليلة الأمس في الأوبرا مع نفر من اصدقائه الانجليز .

– الحمد لله على هذه النهاية ، فزجاجة الويسكي قد انقذت حياتين .

– نعم ، ولكن حبه للهدوء هو الذي انقذ كل شيء في الواقع ، فلولا وعيدي لأدخلني في اشكالات ما لها نهاية ، ولجردني من كل قرش املكه . ان التجارة في دمه كما تعلم ، ولولا علمه بشراستي لما تراجع بهذا الانتظام .

– السر في كلية فكتوريا وفي اكسفورد .

– والان وقد فرغنا منه فلنعد اليك .

– انا اعد نفسي مسؤولاً عن بعض ما حدث .

– كلا فمسؤليتك انتهت حين اخلفت موعدك معي . فقد فهمت عندئذ انك تفضل ان تنفض يدك .

وتذكر حسن مفتاح كل ما كان . تذكر النهار الأسود والزمهرير الموجع . تذكر ركن الغرفة الذي قبع فيه حتى المساء . وتذكر كيف تسلل الى قدميها وخديها فقبلها . لا بد انها اقشعرت لبرودته . وأصابه دوار ، دوار الذكرى ، وأوشك أن يقول : « انا لم اتخلف » ، أوشك ان يقول : « انا انتظرتك يا مونا طول اليوم ، انتظرتك في الظلام في الزمهرير ، في ظلام لم ارَ له مثيلاً وفي زمهرير لم ارَ له مثيلاً . لقد قبلت قدميك يا مونا . » ولكنه غالب ضعفه وزالت عنه حاجته الى الاعتراف . غير ان محياه كان في صفرة الكركم . قالت منزعجة :

– ماذا دهاك ؟

– اجاب :

– لا شيء . دوار خفيف .

– اتحب ان تستريح ؟

– كلا ، ولكني احب مزيداً من الشاي .

– هل أزعجتك قصتي ؟

– كلا يا مونا . اتثقين فيما اقول ؟

– في كل كلمة .

– انا لم أخلف موعدك .

– اكنت هناك ؟

– نعم، كنت معك ... بالروح .

– في هذا بعض العزاء . هي الظروف اذن قد ابعدتك عني ؟

– نعم ، هي الظروف ، ولكني كنت معك بالروح .

– وما هذا الظرف الجلل الذي عوّقك عني ؟

– موعد سابق . عند السلسلة . كان لا بد من الوفاء .

واتسعت مقلتا مونا ربيـع حين جاء ذكر السلسلة . قالت :

– ولِمَ لم تترك ورقة ؟

لم اكن أعلم اني سأتخلف .

– اكنت تفكر فيّ ؟

ـ كل ثانية .

ـ مالك شارد كأنك تخاطب روحاً ؟

ـ أشارد انا ؟

ـ نعم ، كأنك تخاطب روحاً .

ـ اتؤمنين بالارواح ؟

ـ طبعاً لا .

فازداد شحوب حسن مفتاح ومضى يردد فيما يشبه الهمس :

ـ طبعاً لا . طبعاً لا . طبعاً لا .

فنهضت مونا ربيــع مذعورة وقالت :

ـ ماذا أصابك ؟

فأفاق حسن مفتاح قليلا وقال :

ـ آسف . لا تنزعجي . محض نوبة عارضة ارجو الا تتكرر .

ـ انتبه الي يا حسن .

ـ اجلسي يا مونا .

ومشت مونا ربيــع الى المطبخ وطلبت شيئا من الماء الساخن ، ثم عادت الى مكانها وجلست فيه . قالت :

ـ أتحس بتحسن ؟

ـ نعم يا مونا .

ـ والآن انتبه الى كل كلمة اقولها .

ـ نعم يا مونا .

ـ لقد كنت في الماضي تريدني .

ـ نعم يا مونا .

ـ الا تزال تريدني ؟

ـ نعم يا مونا .

ـ ومعي ماجدة .

ـ طبعاً يا مونا .

ـ اعني لن تقول بعد سنوات : ادخليها مدرسة داخلية ، او ارسليها الى سويسرا .

ـ كلا يا مونا .

ـ اتفهم ما تقول يا حسن .

ـ بالطبع يا مونا .

ـ الا تخاف مني ؟ انا اسم الازواج .

فضحك وقال :

ـ وأنا أعبد النساء اللائي يسممن الازواج . ثم اي امرأة لم تفكر في ان تسم زوجها ولو مرة في حياتها ؟ كل ما في الامر انك اقتربت بالفكر قليلاً من الحياة .

ـ اتقصد انه ما من رجل لم يفكر في خنق زوجته ولو مرة واحدة في حياته ؟

– ان منطقك صارم لا يرحم .

– ان طبيعتك صارمة لا ترحم .

– اذن فقد اتفقنا في شيء ما ، وفي هذا كل العزاء .

– قبلني اذن .

فضحك ثانية وقال :

– فيما بعد يا مونا .

ولكنة تناول يدها اليسرى وذهب يتأملها كأنه يقرأ خطوطها . قالت :

– لا تقل انك هجرت السياسة واحترفت قراءة الكف .

وضحكا . وضحكت مدام ماريكا وهي تضع امامهما شاياً جديداً ، ثم توارت في مطبخها كالعادة .

واجاب حسن مفتاح :

– كيف عرفت مكاني ؟

– في اليوم التالي قصدت الى بنسيون رويال ، ولكني وجدته موصداً . ولما لم يفلح الجرس نزلت الى بنسيون منرفا في الطابق الأسفل ، واستفهمت فقيل لي ان صاحبة البنسيون قد غرقت عند السلسلة مع أحد سكانها المدعو احمد أمين من ابناء القاهرة كما يقول سجل البنسيون ، فعلمت انك قد رحلت الى مكان آخر . وقد قضيت اليوم التالي كله ابحث عنك في بنسيونات المدينة وفنادقها فلم أقف لك على أثر ، فعلمت انك قد عدت الى القاهرة . ويئست من العثور عليك فقضيت شهراً في الاسكندرية لاجدد اعصابي فلم تتجدد . ومنذ شهر عدت الى القاهرة لعل الصدفة تجمعنا كما جمعتنا امام المونسنيير . وأكثرت من الخروج

فترددت على جميع الأماكن العامة التي رجحت انك تغشاها، ولكن دون جدوى. ثم اصابني اليأس فانصرفت عن البحث جملة .

– ولكن كيف اهتديت الى مكاني أخيراً ؟

– سوف تغضب ان اعترفت لك بالحقيقة .

– هل سألت احداً في اللجنة المركزية ؟

– انا لا أعرف احداً في اللجنة المركزية .

– كيف عرفت عنواني اذن ؟

كنتُ ليلة الامس في الاوبرا فالتقيت بضابط كان يتردد احياناً على زوجي ، ولكنه لم يكن في ملابسه الرسمية فتذكرت قول زوجي عنه انه يعمل في البوليس السياسي . وعرفني الرجل فتقدم اليّ وصافحني وسألني عن زوجي فأجبته بأنه في خير حال ، وفهمت منه انه قد جاء ليحرس رئيس الوزراء من اخطار متوقعة . وفيما نحن نتحدث لمع برأسي خاطر غريب هو ان هذا الرجل لا بد يعرف عنك شيئاً بحكم عمله ، فسألته عن اسمه الكامل وعن مقر عمله ، ثم زرته صباح اليوم فأعطاني عنوانك .

– وما اسم هذا الضابط ؟

– ممدوح الشربيني .

– أوه .

– هل افسدت كثيراً ؟

– كلا . كلا.

– الغريب انه قال ان اخبارك قد انقطعت منذ شهرين ، وهو يرجح انك

أما مريض في مستشفى او مختفٍ في قرية . ولكنه حائر على كل حال .

– وممَ أختفي ؟

– لا ادري وانما اردد ما قاله .

– هل أشار الى شىء ؟

– كلا . كلا .

– أذكر لك اين فقد اثري ؟

– كلا . كلا .

كل ما في الأمر اني لزمت داري شهرين كاملين حتى تنمو لحيتي . انا لست مختفياً .

– أأنت في خطر يا حسن ؟

– قلت لك اني لست مختفياً . وكيف شرحت له علاقتنا ؟

– قلت انك قريب بعيد ، واني أود دعوتك الى بعض الحفلات .

– لا أظن انه صدق شيئاً مما قلت . فالمدعوون لا يبحث عن عناوينهم عادة في ملفات القلم السياسي. ثم ان أمثال ممدوح الشربيني مدربون على الشك في كل ما يسمعون . . فان قلت لأحدهم صباح الخير فكر في تحيتك لعلها تحمل اشارة الى عمل سري ، وقد بلـــغ من شكهم في كل شيء انهم يشكون في انفسهم . ولكن ما كان كان. انما خوفي عليك يدفعني الى هذا الاستقصاء . اما انا وزملائي فقد تعودنا الاضطهاد . ثم ان التجارب قد علمتنا كيف نتقي من آذاهم ما يمكن اتقاؤه . ونحن نرثي لهم من اعماق قلوبنا ، فبعضهم لا تزال له بقية من ضمير ، وصاحبنا ممدوح الشربيني واحد من هؤلاء .

– لا بد ان انصرف الآن .

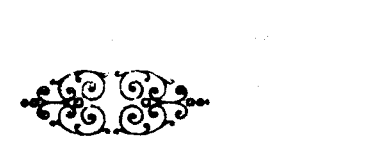
– وكيف اتصل بك .

– ٤١٦٠٠ غرفة ٧٥ .

ونهضا . وتقدم منها واحتضنها تحت النور رأساً ، وانتشرت السعادة في وجهها ، واحست بقوة ساعديه اكثر من اي وقت مضى ، فأحبته أكثر من اي وقت مضى ، وقبلها فلم تغمض عينيها بل ذهبت تملأ بصرها من محياه . والتقت عيونهما تحت النور . التقت العيون الاربع ما يقرب من نصف دقيقة . ورغم ضيق عينيه رأت مونا ربيع البريق الغريب . وكان البريق غريباً . وخيل اليها ان انسانيْ عينيه اقوى من المألوف ، واشتبه عليها الأمر . وخيل اليها ان وراء انسانيْ عينيه انسانين آخرين . ثم توارى هذا الوهم واحست ببرودة عينيه. وكان جسده دافئاً كله ، ولكن نظرته كانت باردة قاطعة كأنها خنجر من الصلب البارد . ولكنها رأت وراء ذلك كله اعماقاً من الحزن ما لها قرار . وأغمضت عينيها في استسلام ، كأنها وقعت تحت سيطرة ساحر لا يرحم . واستقرت في رأسها صورة واحدة هي صورة كلب من الكلاب الهائلة السوداء في « الف ليلة وليلة » ، الكلاب التي سجن فيها السحرة أرواح البشر . ولم يكن في عيني حسن مفتاح الضيقتين ما يشبه عيون الكلاب واسعة الحدقات ، ولكن مونا ربيع رأت وجه الكلب الأسود. ولم تعرف مونا ربيع بعد ذلك أين رأت وجه ذلك الكلب الاسود ، كذلك لم تعرف مونا ربيع لمَ حضرتها صورة ذلك الكلب الاسود بعد ان قبلها حسن مفتاح تلك القبلة الطويلة ، لم تذكر أنها رأت ذلك الكلب الاسود في حداثتها بين صفحات « الف ليلة وليلة » . ولم تذكر مونا ربيع « الف ليلة وليلة » ، وانما ذكرت الكلب الاسود . كذلك ذكرت انها ارادت ان تقشعر بين ذراعيه فخافت ان تقشعر . ولم تتجاوز هواجسها هذا المقدار وهي تفتح الباب الخارجي وتدخل في نور السلم الشاحب . بل لم تكن لها هواجس البتة وانما كانت فيها حيرة هائلة كأنها امام لغز هائل . ان

حسن مفتاح لم يقبلها الا ليلة المونسنيير . وقد كان ذلك في ظل الكرايسلر السوداء تحت قبة الليل المطفأ بأمر الحاكم العسكري ، ولعلها كانت لتشاهد هذا البريق العجيب لو انه قبلها في وضح النهار قبل الآن . انها مـــا اقتربت منه قط الى هـــذا الحد قبل الآن ، ولو قـــد اقتربت لـكانت شاهدت هذا البريق العجيب . ثم ما هذه الاعماق الحزينة التي رأتهـــا مونا ربيـــع وراء نظراته الباردة كانهـــا خناجر الفولاذ ؟ انها تعرف في عيني حسن مفتـاح الثبات والذبول معاً ، وقد وجدتهما على حالهما طول هذا المساء حتى كانت القبلة . انه البعد والقرب ما في ذلك شك . ثم ان هناك شيئاً آخر لم تستطع ان تفهمـــه . لقد كانت تنتظر منه ان يطير فرحاً حين يعلم انها قد استردت حريتها . ولكنه لم يطر فرحاً بل ترنح حين وقعت عيناه عليها لاول مرة في مدخل البنسيون كأنما هي آخر شخص في الوجود كان يتوقع ان يراه . لم يطر فرحاً وانما استمع الى قصتها زهاء الساعة في أدب جم كأن بينهما حائلاً . اما حبه لها فلم تشك فيه لحظة . ترى ماذا حدث ؟ لعله فقد شيئاً عزيزاً ؟ ام تراه مطارد ؟ ثم فيم اعتكافه شهرين او يزيد ؟ ترى هل اختلف مع اللجنة المركزية ؟ كلا . لا بد ان شيئاً ما أصابه في شخصه . انه لم يداعبها مرة واحدة طوال زياراتها . ثم انها قدتجاوزت معه الحدود المألوفة وعرضت نفسها عليه ، فكيف كان استقباله لها ؟ « الا زلت تريدني ؟ » « نعم يا مونا » . هذا كل ما هنالك . « نعم يا مونا » . لمـــاذا لم يقل : « نعم يا مونا ، ولكن ... » كان ينبغي ان يقول ذلك ، لانه اراد ان ان يقول ذلك . اما حبه لها فلم تشك فيـــه لحظة ، ولكنها احست بأن بينهما حائلاً لا تفهمه ، احست بأن قوة خفية تجذبه عنها ، هي القـــوة التي سمرته في مكانه حين اندفع اليها بعد ان أفاق . هي القوة التي اطفـأت مرحه وكسته وقاراً في حضرتها . هي القوة التي ردته عن تقبيلها . لقد صح بدنه حقاً منذ رحلة الاسكندرية ، لكن ماذا حدث له ؟ اما حبها له فلم تشك فيه لحظة . ولكن كل هذه الخواطر لم تجد شيئاً ، فقد كان هناك شيء لا تفهمـــه ، شيء لم

يزعجها الا لحظة واحدة ، حين اغمضت عيليها في احضانه ، ولكنه حيّرها طول الوقت . حيرها في الطريق . حيرها وهي تقبل ماجدة النائمة كأنها الملاك المحروس . حيرها وهي تقرأ رمزية رامبوا « فصل في الجحيم » للمرة الرابعة وتستظهر بعض سطورها . حيرها وهي تدخل في بيجامتها الحريرية السمنية اللون وتدخل تحت لحاف المتروبوليتان الوردي المغشى .



٧

في الشهور الثلاثة التي توارى اثناءها حسن مفتاح عن اللجنة المركزية حدثت احداث جسام . وكان اجسم هذه الاحداث عند حسن مفتاح ان حادثاً جسيماً لم يحدث ، اذا ان احداً لم يشك في هوية هذا العائد بعد غيبة . فقد اطعم حسن مفتاح اعضاء اللجنة المركزية اثناء غيبته بخطابات مجموعها اربعة ، لا تقول شيئاً بالذات ولا تطلب شيئاً بالذات ، ولا تحمل عنواناً ولكن عليها اختاماً بريدياً كلها من الاسكندرية . فقد أرسل الخطاب الاول منها من الأسكندرية بعد اسبوعين من سفره اليها ، وأرسل الثلاثة الاخرى وكلها بعنوان عنايات ممدوح من القاهرة الى صديق له بالاسكندرية داخل مظروف اكبر منها حجماً ، ليحولها الى القاهرة من جديد . وقد فعل هذا الصديق ولم يسأل الاسئلة ، وانما فهم ان حياة حسن مفتاح النسائية قد تعقدت الى حد جعله يفر من النساء، ويوهمهن بأنه على سفر . اما الصحف فلم تنشر شيئاً الا نبذة وجيزة تشير الى هذا المجهول احمد امين . وقد تعب حسن مفتاح من تفسير ذلك فهو لم يترك في بنسيون رويال اسماً صحيحاً أو اسماً زائفاً . واخيراً هز كتفيه وقالت نفسه : لعل الساكن السابق له قد ترك وراءه ظرفاً فارغاً وقع في يد النيابة . كل هذا عرفه حسن مفتاح بعد ان عاد الى اللجنة المركزية ، وعرف أكثر منه .

ففي المساء الاول خرج حسن مفتاح من داره كأنه فأر يخرج من جحره بعد

طول اختفاء او سجين يفرج عنه بعد عزلة مديدة . فكان اول مـا أحس به تجدد احساساته القديمة . واتسعت عيناه تلتهمان كل شيء برغم البلاكاوت . وأحس بطراوة المساء فاستخفه الطرب . وسعى الى « نادي البعث » فوجده لا يزال موصداً ومختوماً بالشمع الأحمر . وفيما هو نازل رأى عم عبدون يكنس ما ما تحت السلم، فصافحه وسأله فعلم منه ان البوليس قد زار النادي مرة أخرى منذ ثلاثة اسابيع زيارة قصيرة ، وقبض على سي نعيم وصادر ما في المكتبة من مطبوعات ، فتمتم لنفسه : طبعاً، طبعاً . ومن اين له ان يعرف شيئاً مما حدث؟ ان رقابة النشر تحرم على الصحف اذاعة اي نبأ يخرج عن انتصارات الانجلـيز وعن انتصارات الوزراء . فمشى الى قهوة ايزافتش ليقرأ الأخبار الحية فيوجوه الاحياء ، فرأى الزبائن قد لزموا كراسيهم التي لزموها منذ سنوات . ورأى المحامي الشاب انور وجـدي الذي أفلسه الشعر يأكل مهلبيته ورأى محمود ابو سحلى المهندس الشاب الذي أجنه الغرام يشرب قهوته العشرين ، ورأى الصحفي الشاب عصمت يلتهم عيش السراي التهاماً ويقرأ صحف المساء . ولم يكن بينه وبينهم معرفة مباشرة فاومأ اليهم في أدب ، ورأى الجاسوس الخالد يجلس وراء صحيفته الخالدة التي لا يقرأ فيها حرفاً واحداً ، رآه على حاله لا جديد فيه الا مونوكول مضحك . ثم انطلق الى ركنه حيث كان ثلاثـة من اعضاء نادي البعث ليس فيهم واحد من اعضاء اللجنة المركزية .

وعلم منهم أن ادارة الأمن العام قد اغلقت « جماعة التطور » و « جماعـة الأحرار » و « الاتحاد الديمقراطي » كما اغلقت صحيفة « المساء » ، فعـلم حسن مفتاح ان كل ما بقي من البناء الضخم هو الصحيفة السرية « الشرارة » وخشي أن يكون قد أصابها مكروه كذلك . كذلك عرف حسن مفتاح أن الربيـع فصل الأخصاب قد جدد في اصفيائه الحب والحياة : فعنايات ممدوح قد تزوجت من الجاسوس الجميل احمد عزمي، وبطرس قلادة قد اعتنق الاسلام ووقف أمام المأذون مع سعدية الطويل . وعلم ان اللجنة المركزية لا بد وأن تكون في نوم مؤقت. وفيما هو يسمع الى انباء القاهرة أبصر علي عبدالله يدخل ايزافتش ويقف

ببابها متردداً . وتقابلت انظار حسن مفتاح وانظار علي عبد الله ، وابتسم علي عبدالله ، وهم بأن يتقدم لتحية حسن مفتاح . ولكن حسن مفتاح تملكه فزع عظيم واضطرب قلبه ايما اضطراب ، حتى لقد نفح وجهه ماء . ولم يدرِ كيف السبيل لرده . انه يخشى اقتراب هذا الرجل . وقد خشي حسن مفتاح ان ينصرف عنه ببصره فيحسب علي عبدالله أن حسن مفتاح لم يتبينه جيداً ، وبذلك يتقدم علي عبدالله من حسن مفتاح ليصافحه . فشخص حسن مفتاح ببصره لعلي عبدالله ما يقرب من نصف دقيقة وعبس لمقدمه عبوساً شديداً حتى اضطربت خطوات علي عبدالله، وأبطأت وقصرت فوقف في منتصف الطريق ولم يدرِ كيف يتراجع دون حرج فقد اتضح له أن حسن مفتاح لا يرغب في استقباله . ولكنه انصرف آخر الأمر الى مائدة بعيدة، وأخذ مكانه منها حيث لا يرى حسن مفتاح ولا يراه حسن مفتاح ، وانتهى الاشكال ، ولكن الجماعة لاحظت هذا الجو المكهرب . وعجبت لاضطراب حسن مفتاح . وقال احدهم : «من يكون هذا الرجل ؟ » فاجاب حسن مفتاح بانزعاج « لست أعرفه » . وضاع انزعاجه الجديد بانزعاجه الأول . وسأل آخر : « اتشكو شيئاً ؟ » فاجاب حسن مفتاح : « نعم ، اصابتني نوبة ، ولكنها انتهت الآن » ثم ضحك وقال : « لقد خرجت من القاهرة لأجدد اعصابي ، ولكن يبدو اني لم استرح بما فيه الكفاية . تعال يا كيريانتي » وخف اليه الخادم فأمره بأن يعود اليه بقهوة جديدة . وانتهى الموضوع . ولكن حسن مفتاح كان لا يزال يفكر فيما حدث . لو كان يعلم ان الرجل هو علي عبدالله لا سواه لما تردد في استقباله . ولكن من اين له ان يعلم ؟ اليس جائزاً ان فؤاد منقريوس قد عاد الى الحياة ؟ انه ترك علي عبدالله في الامريكين معلقاً بين الحياة والموت ، حياته بيده وموته بيده . ترى هل حدث خطأ ؟ ان حسن مفتاح كان يستبعد ذلك . ولكنه كان يعلم ان كيد الارواح عظيم . وكيف يعرف حسن مفتاح حقيقة هذا الرجل ؟ كلا . ان حسن مفتاح لا يريد ان يعرف حقيقة هذا الرجل . ان الأمر لم يعد يعنيه . فليكن هذا الرجل علي عبد الله أفؤاد منقريوس او اي انسان آخر ،

فالأمر لا يعنيه ، لسوف يقابله في الشوارع بين حين وآخر فينتقل في كل مرة إلىالرصيف المقابل . فان حيّاه لم يرد عليه التحية ، وان تقدم اليه ازوزّ عنه . فهذا الرجل قطعـــة من ماضيه المنطوي الحزين ، وهو يكره ان يعود ماضيه الى الحياة .

وفيما هو جالس يشرب قهوته ويسوّي لحيته الصغيرة الناعمة السوداء ، وقف الجيار بباب ايزافتش وأجال في الجالسين بصره . فلما تبين حسن مفتاح فيصورته الجديدة خفّ اليه وعانقه عناقاً طويلاً وعاتبه على ندرة خطاباته وداعبه متفكهاً بلحيته ، ثم انصرفا الى الشوارع يتنزهان ، وما كانت بغيتهما النزهة وانما كانـا يبحثان عن خلوة يتحدثان فيها . واستقرا اخيراً بباب جروبي الحديقة . ورأى حسن مفتاح الجاسوس الخالد يشرب الغازوزة على البـار ، ويحدث الشاربين في السياسة فامتعض ايما امتعاض . انه لا يدخل قهوة الا وجد فيها القلم السياسي ممثلاً خير تمثيل . ولكنه كان يعرف اكثر الجواسيس ، وقد وجد في هذا بعض العزاء . وفي بار جروبي اخذا يتبادلان الذكريات حول البراندي والجوزيفين بيكر . وقص حسن مفتاح على الجيار موجزاً عن رحلته اكثره مزيف . ثم سكت ونظر الى الجيار مبتسماً فادرك الجيار ان حسن مفتاح ينتظر تقريراً شفويا عن اللجنة المركزية اثناء غيبته ، فقال :

– اين تحب أن ابدأ ؟ طبعاً بلغك أن نعيماً في السجن منذ أسابيـع .

– في السجن ام في المعتقل ؟

– في المعتقل .

– هل هناك قضية ؟

– نعم ، والتحقيق قد بدأ فعلاً .

– نعم بلغني . ولكن ما التهمه هذه المرة ؟

وشرد الجيار قليلاً ، واذا بالريس احمد البارمان النوبي يتقدم من حسن مفتاح ويشد على يده ويعبر عن اشواقه بفرنسية فصيحة ، جعلت الجيار يحملق في وجهه الاسود عاجباً . ثم ينحني وينصرف الى عمله . وادرك حسن مفتاح ما كان يجول بذهن الجيار فقال ضاحكاً :

– ان الريس احمد يتقن خمس لغات الى جانب لغته الأصلية .

– ومن اين له كل هذا ؟

– السفر يا عزيزي ، السفر . في العشرين بارمان « الاوزونيا » . في الثلاثين بارمان الاوتيل دي لوفر . في الأربعين بارمان الادلفي بليفربول . في الخمسين بارمان جروبي مع مغامرات متقطعة في الانتردن ليندن وبارات اثينا ، وزوجة من مونمارتر .

– لا بد انه واسع الاختبار .

– هذا طبيعي ، ولكن العجيب انه يعرف عن السياسة اكثر مما يعرفه وزير الخارجية . ان عبقرية القاهرة في بارماناتها وخدمها . فطنطاوي بارمان الاتحاد المصري الانجليزي ديمقراطي من الدرجة الأولى والميتردوتيل الريس حسين وطني من الدرجة الاولى ، وريشار خادم لوك خبير بشؤون السباق يستفتيه الباشوات ، ومخالي خدّام الريتس كان يقرض الشعر باليونانية . ولعل السر في طبيعة عملهم . فاحساسك كل ليلة انك الوحيد المالك لحواسه بين جماعة الشاربين يولد فيك الثقة بالنفس .

– وهل حاولت استخدام عم احمد .

– نعم ، منذ ستة أشهر جسست نبصه بمنتهى الحذر ففهم مرادي ، وبدا عليه الأسف الشديد وقال اني جئت متأخراً فهو في سن المعاش . ثم اما رأيت اسنانه الذهبية ؟ ان بقشيشاته الضخمة قد تحولت جميعها الى أراض في أسوان ، وعما قريب سوف يزرع فيها الكرمب مع زوجته الباريسية على طريقة الفرنسيين . ولكن فلنعد الى نعيم . ماذا كان من أمره ؟

– اتذكر يوم تنحى نعيم عن عضوية اللجنة المركزية ؟ انه رفض ان يبدي الأسباب . وقد عجبنا جميعاً لتنحيه ، فقد كنا نعلم انه لو شاء لبقي بفضل مظاهرتك له . ولقد عودنا الاعتداد بالنفس بل وفظاظة المعاملة احياناً ، فلما لم نجد تفسيراً لانسحابه الاختياري ،ذهب بعضنا الى ان في الأمر سراً لا علم لنا به وذهب آخرون الى ان نعيماً قد تملكته اريحية مفاجئة ، كما يحدث احياناً أن يقدم رجلٌ لا ينتظر منه الخير على انكار الذات لغير ما سبب الا الرغبة الخالصة في الخدمة العامة . ولكن الايام اثبتت ان نعيماً قد تنحى لأنه كان يمر في عاصفة نفسية هزت جهازه الماركسي هزاً عنيفاً ، وردته الى ما كان عليه قبل أن تروضه انت بطول التهذيب . فقد تقدم الى « نادي البعث » بمحاضرة موضوعها « التفسير الفرويدي للمجتمع المصري » ، وحسبنا جميعاً انه سيربط ما بين حياة المجتمع الجنسية وحياته الاقتصادية على طريقتنا فلم نتدخل . فلما كانت الليلة المحددة غص النادي بالحاضرين . وارتقى نعيم المنصة فبدا في اجمل حلة ، وكان في عينيه بريق غريب لا أعرف كيف اصفه لك ، ولكن نظراته كانت نظرات من يوشك أن يعترف أو ان يدلي بسر خطير . ثم بدأ فقال بتواضع لم نتعوده فيه ان ما سيقوله الليلة كشف جديد لو قبله علماء النفس لقلب فهمنا للتاريخ رأساً عقب. قال: نحن تعودنا ان نسمع المثاليين يصورون التاريخ تصويرهم لصراعات فردية يقوم بها أبطال فرادى فيغيروا عقائد الناس وسلوكهم وأنظمتهم، وتعودنا ان نسمع الماديين يصورون التاريخ تصويرهم لصراعات طبقية تولدها ظروف مادية تتغير فتغير عقائد الناس وسلوكهم وانظمتهم ، ولكننا لم نسمع بعد عن التغير التاريخي انه نتيجة لصراعات جنسية داخل المجتمع الواحد . وهذه الصراعات الجنسية لا تكون بين الفرد والفرد ولا بين الطبقة والطبقة ولكنها تكون بين الجيل والجيل . فالثابت المحقق ان الانسانية اجيال واجيال ، والثابت المحقق ان الانسانية آباء وابناء . وما من شك في ان للافراد دورهم في التاريخ ولكن الفرد جزء من المجتمع

فهو اتفه من ان يصنع التاريخ . ومـــا من شك في أن للطبقات دورها في التاريخ ولكن الطبقة جزء من المجتمع فهي أضعف من أن تصنع التاريـخ . والجزئي لا ينبغي أن يعمينا عن رؤية الكلي . والكلي هو المجتمع في مجموعـه والمجتمع انساني قبل أن يكون فردياً أو طبقياً . فلنجرب إذن أن ننظر الى المجتمع نظرة انسانية . فإن فعلنا وجدنا أن أقوى دافع في المجتمع هو الاخصاب. والاخصاب هو عمل اجتماعي قبل أن يكون عملاً فردياً، وهو عمل اجتماعي لأنه يديم للمجتمع الحياة برغم فناء الأفراد . فبالاخصاب نعود الى الينابيع الأولى في النفس الانسانية ، ونتخلص مؤقتاً من جزئيات الحياة. والاخصاب أول عمل اجتماعي لأن بقاء المجتمع أهم من بقاء الفرد ، والاخصاب أقوى دافع اجتماعي لأن الوجود اجتماعي قبل أن يكون فردياً ، بل لأن الوجود اجتماعي بطبيعته، وأما الوجود الفردي فمرحلة متأخرة . فالقطرة لا وجود لها في الطبيعة وانما الموجود البحر ، والرملة لا وجود لها في الطبيعة وانمـا الموجود الصحراء ، والشجرة لا وجود لها في الطبيعة وانما الموجود الغابة ، والنملة لا وجود لها في الطبيعة وانمـا الموجود النمل، ومحمد وعلي وزيد لا وجود لهم وانما الموجود المجتمع. والانفصال المشاهد في الاجسام عضوية وغير عضوية مرحلة متأخرة للوجود ، والحيـــاة الاجتماعية بكل معنى أسبق من الحياة الفردية . فالاخصاب وهو أداة البقـــاء الاجتماعي أقوى عامل في الحياة . بل ان الاخصاب هو نقطة التضاد بين الحياة الفردية والحياة الاجتماعية . والكائن إذ يخصب بقوة اجتماعية لا تقهر يسمونها الغريزة النوعية انما ينفي ذاته ويكتب على نفسه الموت . فما تعريف الاخصاب؟ الاخصاب خروج جيل من جيل لا أكثر ولا أقل . والحياة لا تتسع الا لجيل واحد ، فالجيل الاب اذ ينسل الجيل الابن انما يعطيه مكانه في الحيـــاة . والجيل الاب اذ ينسل الجيل الابن انما يحفر قبره بيـــده . ولقـد يستمر في الحيـــاة ،ولكن استمراره في الحيـــاة محض خطأ زمني لم تتداركه الطبيعة الا في حالة العقارب التي تموت بعد أن تنسل مباشرة . فالجيل الاب اذ ينسل

الجيل الابن انما يفعل ذلك على كره منه وبقسر من نواميس الطبيعة التي تقدم الوجود الاجتماعي على الوجود الفردي . والجيل الاب يبغض الجيل الابن بغضه للموت ، بغضاً غرزياً أسود كالموت ، لأنه يعلم أن الاخصاب عمل انتحاري ، ولأنه يعلم ان الحياة الاجتماعية لن تتم الا على حساب حياتـــه الفردية . وفي أبسط صورة للحياة الاجتماعية : الاب والام والابن ، يتجلى هذا الصراع في تنافس الاب والابن على حب الأم ، والاب قوي يملك كل شيء والابن ناشىء لا يملك شيئاً . لذلك ينتصر الاب على الابن في هذه المعركة الكبرى . وفي المجتمعات البربرية يكلل الأب انتصاره على الابن باخصائه ، حتى ينفرد الأب بحب الأم وفي المجتمعات المتحضرة يكتفي الاب بختان الابن من باب الرمز لما يجب أن يفعله من شل قوة الاخصاب فيه . وينمو في الابن جزع باطني من الاخصاء قد يلازمه حياته ويسبب له عقـــدة نفسية هي عقدة الاخصاء . كل هذا مقرر في فرويد وثابت والذي ينبغي ان نفهمه الآن هو أن الصراع بين الجيل الاب والجيل الابن لا يفسر حياة الاسرة وحدها ، وانما يفسر حياة المجتمع كله . فالجيل الاب يغـــار من الجيل الابن ويحقد عليه ويكيد له ويعمل على اخصائه . وطريقته في ذلك الاخصاء هي ان يشل فيه كل قوة خالقه ، فهو يفرض عليه نظاماً من حديد يسمونه التربية ، وهو يعكف عليه حتى يسويه على غراره باسم التقاليد ، وهو يقمع فيه كل ميل الى الاستقلال في التفكير ، أو في السلوك باسم التراث العظيم ، ان بالزجر وان بالعصا وان بالتعاليم والتقاليد الغيبية . وهكذا يخصي الآباء البنين حتى يموت البنون وتقف الحياة عند الآباء ، فلا يبقى فيهـــا الا سلطاتهم وآثارهم . ولو استطاع الا باء ان يخلدوا اجسادهم كذلك لفعلوا . فالتاريخ اذن هو قصة الصراع بين الجيل القديم والجيل الجديد ، وأمّنا الأرض وما عليها من وسائل الانتاج هي العذراء الأبدية التي يتنافس في حبها الا باء والبنون ، ويضطهد فيها الآ باء البنين ويخصي من اجلها الآ باء البنين . والتفسير الانساني للتاريخ هو انه سلسلة من الكفاح الجيلي لا سلسلة من الكفاح الطبقي كما يقول الماركسيون . وحيثما تحرك التاريخ فالكفاح بين الجيل الاب والجيل الابن لا يزال دائراً ، والابناء لا يزالون

صامدين أمام الآباء ، والاخصاء لم يتم ، والتقدم هو النتيجة ، لأن كل جيل يولد يحتفظ بقوته على الخلق ، ويجدد بقوته الحياة رغم أنف السلف. وحيثما وقف التاريخ فالكفاح بين الجيل الاب والجيل الابن قد وقفت رحاه ، والابناء قد استسلموا للآباء فتم الاخصاء وعقمت الاجيال فامتنع التقدم . واوضح مثل لهذه الحالة المجتمعات المتحجرة في الصين وفي الهند وفي مصر حيث نجد ان احدث شيء فيها عمره أربعة آلاف سنة ، حيث البشرية محنطة والحضارات متاحف . والمجتمع المصري بالذات لا تاريخ له منذ مينا . فمينا ليس مبدأ التاريخ المصري كما يقول المؤرخون ولكنه نهاية ذلك التاريخ . فكل ما له مغزى في الحياة المصرية تم قبل مينا : الحيوان روض قبل مينا . الزراعة نشرت قبل مينا . الادوات اخترعت قبل مينا . الكتابة عرفت قبل مينا . الآلهة اكتشفت قبل مينا . وما كان شيء من ذلك ليتم لولا عجز الآباء عن اخصاء الابناء ، لولا احتفاظ كل جيل بقوة الخلق فيه . وبعد مينا لم يتم شيء له مغزى ، واشتغل المصريون بتخليد انفسهم فحنطوا اجسادهم ، وبنوا القبور التي تتحدى الدهر . بنوا الاهرام . وبعد أن كان المصريون اجيالاً قوية خلاقة تتعاقب فتجدد الحياة وتصنع التاريخ ، صاروا إلى جيل واحد متكرر ، تكرر من مينا الى فاروق . فقد حدث شيء لم تروه أوراق البردي. لقد اخصى الآباء الابناء فوقفت عجلة التاريخ وخرج المصريون من ثبت الاحياء وبلغتنا عبر القرون اشاعات مشوهة محرفة عما قد حدث في الوادي السعيد ، فقالوا لنا ان الاله ست فتك بالاله اوزيريس دون سبب معلوم واخصاه والقى بجهازه في النيل أو دفنه في بطن الوادي . ولم يقولوا لنا ان ست هذا كان اسماً من اسماء تحت كبير الآلهة وابو الآلهة وانه الأساس في فكرة الشيطان لفظاً ومعنى . ولم يقولوا لنا ان ست انما قتل اوزيريس في حب امنا ايزيس . فالحرب اذن لم تكن بين الخير والشر ولا بين الصحراء والخصب كما زعم بلوتارك وانما كانت الحرب بين الاب والابن وفي رواية أخرى بين الاخ الاكبر والاخ الاصغر ، من أجل الام العذراء التي تتجدد

بكارتها لكل زوج جديد . وتشبه البشر بالآلهة ففعلوا ما فعلوا ، وأخصى الاباء الابناء وعقّم السلف الخلف فجفت ينابيع الحياة . أما المظهر الجزئي هـذا الاخصاء فكلنا نعرفه . فما بيننا واحد لم يكد له أبوه فيسحق شخصيته سحقاً منذ اليوم الاول ، يوم خرجت القابلة تعدو متهللة لتعلن للأب الجبار المتعطش للدماء أن المولود ذكر ، وعندئذ يفرح الاب الجبار المتعطش للدماء لا لأن الحياة قد تجددت وزينت بقدم الابن ، بل يفرح لأنه سيجد من يخصي وقد أخصاه أبوه من قبل. ثم يجمع الاب الأهل والأحباب في حفل بهيج يسميه حفل الختان ، وبعد أن يقدم لهم المرطبات يقدم لهم حشفة الابن رمز الاخصـاء وعربون الإنتصار . وعندئذ تصدح الموسيقى ويتقبل الاب تهاني المهنئين . كل ذلك يفعله الاب بالابن في طفولته وهو يعد اعزل لا يملك من نفسه دفاعـاً . الاب يلقن الابن كل معتقداته الاساسية وهو بعد طفل اعزل وكلما سأل الابن الاب : « لماذا ؟» نهر الاب الابن وزجره عقلاً وجسماً . كل هذا يفعله الاب في طفولته وهو بعد أعزل لا يملك من نفسه دفاعاً . فالاب لا يتريث حتى يرفع الابن رأسه ويقوى جنانه ويشتد ساعده ثم يعرض عليه ما يريد أن يعرض من آراء ، والاب لا يتريث لأن الاب جبان بوصفه اب ، بلغ قمة عنفوانه حين أخصب ثم انحدر في طريقه الى الزوال ، والاب لا يتريث لان الاب جبان يخشى الفتوة الجديدة من عقل وجسد ويعجز عـن المجابهة فيطعن من الخلف . انا الألف ، انا الياء ، انا البداية انا النهاية ، انا الحياة ولا حياة الا انا . هكذا يجري منطق الاب ، فاذا كان للابن ان يعيش فليكن نسخة مني في كل شيء . لحمه لحمي . دينـه ديني . ماله مالي . وهو ما وجد الا ليخلدني فان أبى استحق الاخصاء بـل والموت اذا لزم الأمر . والاب ينسى أن نصيبه في الحياة الجديدة لا يتجاوز ذرة ميكروسكوبية ولا فضل له في البناء الجديد الا بقدر ما لعجول الوادي ونبته من فضل . أما المظهر الكلي لهذا الاخصاء فهو ما نراه في المجتمع المصري من تحجر في كل مرافق الحياة المادية منها والفكرية على السواء . فكما تخاصم

ست واوزيريس كذلك تخاصم الجيل الاب والجيل الابـــن في حب خيمى العذراء ، أرضنا السمراء التي تتجدد بكارتها لكل زوج جديـــد . واخصى الآباء الابناء . والوضع السياسي كما نجده اليوم أساسه أن الملك يخصي الوزراء والوزراء يخصون أعضاء البرلمان وأعضاء البرلمان يخصون الشعب بدورهم. والذي ينبغي أن ندعو اليه هو عكس هذا النظام ، أن يخصي الشعب أعضاء البرلمان وأن يخصي أعضاء البرلمان الوزراء وأن يخصي الوزراء الملك بدورهم . نعم ، هذا ما ينبغي أن ندعو اليه ، وهو أحدث تعريف للديمقراطية وأضمن طريق لتحقيقها ، فبه وحده تعود الى الأمة سلطاتها . والاخصاء لا مفر منه ، فليعلم كل مواطن أنه إمّا خاصٍ أو خصي . بلغة الواقع . مفكرونا كانوا كلهم مجددين وكلهم كرهوا الرجعية فلما تم اخصاؤهم سكت كرامهم ومجد الرجعية لئامهم . وهكذا تمت خيانة الكتبة التي يحدثنا عنها جوليلين بندا . وهكذا انتحر الفوج الاول ، فوج الديمقراطيين الذين اظهرتهم الحرب العالمية الاولى . وقد جـــاء الفوج الثاني ، فوج الاشتراكيين الذين اظهرتهم الحرب العالمية الثانية . واخصاء هذا الفوج يجري بمنتهى الحزم والدقة ، يجرى على قدم وساق . وهم الآن بين مسجون ومفصول من عمله . ترى كم من الزمن يصمدون ؟ لقد خان منهم واحد هو كمال القيرواني وهم بعد في فجر الجهاد فبـــاع فنه في سوق السينما السوداء، وانسلخ تماماً من زمرة المكافحين . لقد خان آخر هو أحمس القلعاوي وهو بعد في فجر الجهاد فرحل عن الديار واغلق ماركس وفتح سارتر وتسكع بـــين كافيه فلور وكاباريه التابو . فكم يدوم ايمان الماركسيين ؟ فلتكن الدعوة اذن : لا اخصاء بعد اليوم . العقم للجيل القديم . الحياة للجيل الجديد . وليثر الجيل الابن على الجيل الاب وليثر العبيد على النخاســـين ؛ وليخص اوزيريس ست ويظفر دونه بخيمى السمراء ،بالأم العذراء التي تتجدد بكارتها لكل زوج جديد، وليرث مصر الشباب. فان لم يبادر الابناء الى اخصاء الا باء اخصى الا باء الابناء وعاش السلف دون الخلف ، وامتنع الخلق وعزت الحركة ، ولم يحدث في الوادي،

جديد ، وظلت مصر كما كانت منذ ميتا بمعزل عن التاريخ . هذا جملة ما قاله نعيم . كذلك قال كلاماً آخر كثيراً يبشر فيه بحقوق الانسان ولكن على النهج الجنسي الجديد ، وكان الناس يستمعون اليه في ذهول وقد حدث هرج كبير .

قال حسن مفتاح :

– وكيف بدأ الهرج ؟

– نهض احمد عزمي وقاطعه .

– احمد عزمي ؟

– نعم احمد عزمي .

– طبيعي . استمر .

– قال ان نعيماً يهذي ، وإن الماركسية لا تقر من كلامه شيئاً .

– احمد عزمي يتحدث عن الماركسية ؟

– نعم ، وقد بدأ الهرج بذلك كأنما كان هناك تنظيم سابق . ولولا أن عنايات ممدوح حسمت النزاع لما أتم نعيم حديثه . وكان رجال البوليس السياسي متفرقين في انحاء القاعة كأنهم شبكة تبحث عن صيد كثير . وأفسدت عنايات عليهم الخطة . ومضى نعيم في حديثه حتى أتمه . ثم وقفت عنـــايات ممدوح واعلنت أن آراءنعيم لا تقيد الجماعة في شيء،وان نعيماً يبلبل الأذهان اذ يدعو الى لون جديد من الكفاح البروليتاري . وشـــاء كثيرون أن يعلقوا ولكنها أقفلت باب المناقشة وأعلنت انتهاء الاجتماع . وفي تلك اللحظة ظهر الصـــاغ ممدوح الشربيني بالباب وجمع كل ما وجد من أوراق ، ثم اقتاد نعيمـاً إلى سجن المحافظة ، وترك وكيلاً من وكلاء النيابة وضابطاً آخر يجمعان المطبوعات من المكتبة ويختمان الشمع الأحمر على باب النادي .

وضحك حسن مفتاح وابتلع بعض الزيتون الأسود بحركة سريعة مضحكة، وقال :

ـ ان الحكومة لم تضيع وقتاً في إخصاء نعيم .

قال الجيار ؟

ـ سوف يتألم نعيم كثيراً ، فهذه أول مرة يسجن فيها .

أجاب حسن مفتاح :

ـ نعم فهو دائم الهياج كأنه إعصار حي .

ـ اتعتقد انه انحرف ؟ ان اللجنة المركزية ثائرة عليه .

ـ جائز أنه انحرف . ولكن اللجنة تبالغ في ثورتها . ونعيم لا يزال أقرب إلى الشيوعيين منه إلى الباشاوات .

ـ والا ن ؟ ماذا تقترح ؟

ـ من يتولى ارسال الطعام لنعيم في السجن ؟

ـ انا .

ـ حسناً فعلت . وهل اتفقتم مع محامٍ .

ـ كلا .

ـ دع هذا لي . لقد جئتكم بمائة جنيه دفعة أولى من سيدة جميلة .

ـ كنا نفضل ان تجيئنا بالسيدة الجميلة .

ـ خطوة خطوة . هل طبعتم شيئاً ؟

ـ كلا ، فالجماعة نائمة منذ شهر أو يزيد . ولكن جماعة رامز مـــلأت جدران القاهرة بالطباشير منذ عشرة ايام. «الأرض للفلاحين والمصانع للعمال».

« يسقط الباشاوات أعداء الشعب » . يسقط الباشاوات وكلاء الاستعمار » . وبعد ذلك بيومين القوا قنبلة على نادي محمد علي، وقنبلة أخرى على الاتحاد المصري الانجليزي .

– وما اسم بطرس قلادة الان ؟

فالتفت اليه الجبار فجأة وبدا عليه العجب وقال :

– اذن فقد عرفت ؟

– نعم ، إن اخبار القاهرة كلها في ايزافتش .

– اسمه محمد راغب .

– هذا أقرب إلى الذوق .

– انا اخترته له .

– اكنت شاهده في المحكمة ؟

– نعم ، انا وصفوان . طبعاً بلغتك مسألة عنايات ممدوح .

– نعم ، وهي لا تترك لنا اختياراً . هل قررتم شيئاً في شأنها ؟

– كلا ، فقد أرجأنا ذلك حتى عودتك .

– كان ينبغي أن تفصلوها فوراً . ماذا يقول رامز والاخرون ؟ انكم تعتمدون علي في كل شيء . انا اشكركم على هذه الثقة ولكنها لا تقوي مركزي في اللجنة ، فسينظر الي جماعة الأحرار نظرهم الى مستبد صغير . اجمع اللجنة بعد غد في داري بعد الثامنة مساء . واين اوراق اللجنة الان .

– معي .

– وكيف وصلتك ؟

– في الصباح التالي لمحاضرة نعيم زارتني عنايات ممدوح وسلمت الي كل

الاوراق ، وانبأتني بما انتوت أن تفعله .

ـ انها بنت طيبة تعرف بالغريزة ما ينبغي عمله . ولكن فصلها لا بد منه .

ـ اقترح ان تزورها انت وأن تستكتبها استقالة بدل الفصل .

ـ ربما كان هذا انسب ، فخدماتها لا تنسى .

ـ قال الجيار ببلاهة :

ـ انا ما زلت عاجزاً عن فهم السلوك الانساني . كيف تخطيء عنايات ممدوح هذا الخطأ الفاحش ؟ كيف تقبر مبادئها وكفاحهامن أجل أفاق تافه كأحمدعزمي .

ـ ان احمد عزمي قد يكون أفاقاً ولكنه ليس تافهاً . تجرد من اللجنة المركزية قليلاً وانظر الى الناس نظرك إلى أفراد أحياء . إن عنايات ممـــدوح بنت جميلة . وجمالها ليس بالجمال الذابل الذي يحبه المراهقون في الفترة الفرترية بل الجمال الناضج الذي يذكر بخد التفاح . فمن حقها اذن أن تتزوج من رجل قوي وسيم ، ومن حقها إذن أن تبحث عن هــــذا الرجل في كل مكان . فهل في اللجنة المركزية واحد ترشحه الطبيعة لأن يكون زوجاً لعنايات ممدوح ؟ كلا . انظر حولك فماذا ترى ؟ رامز يشبه مسيحاً لم يصلب بعـــد . صفوان يشبه عملاقاً أشقر نحيلاً هزيلاً . انا بلحيتي القصيرة السوداء أشبه شيطاناً صغيراً خبيثاً . انت تشبه فيلا رشيقاً خفيف الحركة . نعيم ، اقربنا الى فكرة الانسان السوي ولكنه أرعن ، ومظهره يدل على انه ليس بحاجة الى زوجة بل بحاجة الى حريم كامل أو بيت للدعارة أو فرقة من الباليرينات يرقصن له وحـــده . والمسألة ليست مسألة حقوق نظرية ، فالجسم يعرف حقوق بالغريزة ، والنهد الناضج يحن إلى الصدر العريض بلا تلقين . كلا . ان احمد عزمي ليس تافهاً . انا لا اقول انه ابولو بلفيدير ، ولكنه على كل حال يوحي بالصحة والحياة حتى في الشتاء . لقد تفتح الربيع في قلب عنايات ممدوح ، والربيع لا يعرف المبادىء ولا اللجنـــة المركزية . الربيع يمزج المركيزات بالشوفيرات ويثني آلافاً كل عام عن الانتحار .

كلا يا عزيزي ، ان احمــد عزمي ليس تافهاً . ان البقرة لا تشترط في الثور ان يتذوق سوناتات بيتهوفن ، أو ان يقرأ كتاباً جديداً كل اسبوع . واذا كنت تحب الصراحة ، فانا كنت اعجب لعنايات ممدوح كيف تضيع كل هذا الجمال بين المضابط وبين الحفاة الذين لا يستحمون ، وكيف تنسى أفراح الحياة بـين مظاهرالشر والدمامة في المجتمع . انا اقول إن وجود عنايات ممدوح بيننا ولوالى حين لدليل على أن البشرية في تقدم ، على أن الاشتغال بالحياة العامة ليس الضريبة الأبدية على من أفلست حياتهم الخاصة دون سواهم . والخطأ الوحيـــد الذي اخطأته في نظري انها لم تستطع التوفيق بين حياتها العامة وحياتها الخاصة .

قال الجيار :

ـ وكيف توفق بينهما ؟

ـ ان الأمر يحتاج الى شجاعة . فقد كان في امكانها أن تخالل احمد عزمي ، بل وأن تحمل منه سفاحاً اذا كانت تصر على حقها في الأمومة ، دون أن تضطر إلى التنحي عن اللجنة المركزية . إن الممثلات والمغنيات والراقصات وهن يعشن داخل القوالب الفكرية التقليدية قد اهتدين إلى هذا الحل بالتجربة ، ليجمعن بين الحياة الخاصة والحياة العامة . ولكن الماركسيين والماركسيات في مصر قـــد تحرروا نظرياً ولم يتحرروا عملياً . ولعل في هذا بعض الكسب لنا كجماعة ودعوة ، فالمجتمع المصري مجتمع منافق لا يقل دعارة عن غيره من المجتمعات ، ولكنه رغم ذلك لا يزال شديد التزمت قاسياً في احكامه على من تفتضح دعارتهم للعيان ، ولقد يأخذنا الناس بجريرة الزملاء المتحررين .

ثم سكت حسن مفتاح وقبل أن يفتح الجيار فمه للكلام كان يقـــول مبتسماً :

ـ والآن استأذن منك لأرعى حياتي الخاصة قبل ان تتراكم من حولنـــا الأعمال .

وسلم حسن مفتاح ما معه من الاوراق الى الجيــار ليحملهــا الى صفوان ، وانطلق الى فندق المتروبوليتان مفكراً في المفاوضات التي سيقوم بها لدى حزب الوفد للتعاون السياسي بين الشيوعيين والوفديين. ان العاصفة المقبلة سوف تكون في اللجنة المركزية . ان اعضاء اللجنة المركزية أكثرهم نظريون لا يعرفون عن التاكتيك الحزبي كثيراً . سوف يعرض عليهم مبدأ التعاون مع حزب الوفــد لاسقاط وزارة أحمد ماهر باشا ، ولكنهم سيحتجون قائلين ان نقــاء الحزب الشيوعي أضمن سبيل الى بقائه ونموه . ولكن الحرب قد أوشكت ان تنتهي . واذا كان الحزب الشيوعي لن يخرج الى سطح الأرض بعد الهدنة فلا بد من العمل السريع في أوسع نطاق ممكن. ان في حزب الوفد شباباً كثيرين يعدون بعشرات الآلاف أكثرهم متعلم وأكثرهم ساخط على الوضع الاقتصادي في البـلاد ، وهم يتحدثون الآن عن أنواع من الاشتراكية لا يفهمونها ولا يفهمها أحــد . وهم يتحدثون عن العدالة الاجتماعية ، عن الضرائب التصاعدية عن تحديد الملكيـة الفردية ، عن صيانة الحريات العامة ، عن استفتاء الشعب ، عن تقييد الملكية . كل هؤلاء تمكن الاستفادة منهم اذا تغلغـل الشيوعيون بين صفوفهـم وعلموهم فوائض القيمة والمادية التاريخية والمادية الجدلية في حدود الامكان . ان حزب الوفد الآن خارج الحكم وقد تورطت قيادته في نداءات شعبيــة وحديث عن حقوق الانسان الغرض منه احراج الوزارات القائمة واحراج الاقليات السياسية الرجعية ، لا لشيء الا لأن قيادة حزب الوفد خارج الحكم . ولكن هــذه النداءات كان لها أعمق صدى في قلوب الملايين ، لأنها عبرت عن رغبات كامنة في نفوس الملايين . ان حزب الوفد مرن القيادة شعبي السند ، وقيادته تتورط في برنامج به اشتراكية مزيفة اذا لزم الأمر لتؤلب على الرجعية الجماهير وتعود الى الحكم . أما طليعة حزب الوفد فانحرافها الى اليسار لا شك فيه ، وانما ينقصها الوعي السياسي ، وهي الآن في قبضة الوصوليين من ابناء المدرسة القديمــة ، فلماذا لا يجرب الشيوعيون حظهم مع هذه الطليعة ؟ ان حزب الوفد أقرب الأحزاب الى فكرة الديمقراطية فالتعاون معه لا يشين . ان صفوف الشيوعيين

متماسكة فلا خوف من ان يفسدها التعـــاون المؤقت ، حتى تفضح الأيام زيف القيادة الوفدية ، فتسلخ من حزب الوفد الجماهير ولا تجد لها قبلة الا الشيوعيين. ان تعاون الشيوعيين مع الوفديين سوف يعطي الشيوعيين فرصة لعرض آرائهم على الوفديين . فان لم يخرج الشيوعيون بكسب من هذا التعاون فهم لن يخسروا شيئاً ، واسوف يخرجون من هذا التعاون كما دخلوا سالمين . كل هذا سيقوله بعد غد للجنة المركزية ، فان أمكنه اقناع الزملاء فقد دمغ انتصاره الأول بانتصار جديد . التعاون من بعيد . هذا هو النداء الجديد . ان رامز أو رجاله المتطرفين سوف يعرقلون هذا التعاون . ولكن حسن مفتاح سيلعب أول لعبة مسرحية منذ اشتغاله بالسياسة ، اذ لا بد من ارضاء المتطرفين . فلو ارفض اجتماع اللجنة المركزية دون قرار حاسم ، فسوف يدعو حسن مفتاح الى اجتماع عام يحشد فيه المئات من كل الصفوف ، وحين يكثر اللجاج سوف يقف حسن مفتاح ويقول : أيها الزملاء ، ان الخطر الأوحد من السياسة التي اقترحها هو ان يكون الحزب الشيوعي تحت قيادة متهادنة . فاذا كنتم تشكون في صلابة قيادتكم وفي عمق ايمانها بالماركسية ، فاني اتخلى منذ اللحظة عن السكرتارية للزميل رامز حتى يشرف بشخصه على التطبيقات العملية ، ويضمن للحزب الشيوعي نقاءه وتماسكه. ليس منا من لا يثق في الزميل رامز ويؤمن برجاحة عقله واقدامه . فليقدنا الزميل رامز الى مصيرنا العظيم . أما ان نعرقل نمو الحزب تخوفاً من اشباح لا وجود لها فهذا قد يكون نزاهة واخلاصاً ولكنه كذلك جمود وانكماش . ان الفرصة لا تعوض أيها الزملاء . فحزب الأكثرية خارج الحكم ، واذا لم نستفد من سخط كتله الشعبية فأين فرص النماء ؟ ان البروليتاريا التي كرستم حياتكم لخدمتها في صميمها وفدية أو ننتظر حتى يعود حزب الوفد الى الحكم فيخدر جموع الشعب بالفتات ويلهي الجماهير بالبهلوانيات ويسكت الشيوعيين لا بقوة الجند وحدها ولكن بقوة الرأي العام كذلك ؟ انكم أيها الزملاء امنـاء على حركة تاريخية كبرى ، وجماعة ترجو ان تضطلع يوماً باعباء الحكم لا ينبغي ان تبدي كل هذا الجمود . ان الحرب قد أوشكت ان تنتهي فماذا أعددتم للمستقبل ؟ اني

أقسم أمامكم بالثالوث المقدس : ماركس وانجلز ولينين ، انه ليس منا من يقل تطرفاً أو تعصباً عن الزميل رامز . فالمسألة اذن مسألة ثقة في القيادة ،وأنا أول المتخلين ، فثقتي برامز لا تحد بحدود : أأتمر بأمره على طول الطريق ، فمن رأى غير ما أرى فاني أحمله كل التبعات . وعندما يفرغ من كلامه ينتهي الصمت العميق بصمت أعمق . عندئذ تكون اللحظة الحاسمة. هي لحظة واحدةولكنها حاسمة . ففي هذه اللحظة تتحول الأفكار . ثم يبدأ اللغط من جديد ، ولكن الجلبة لن تعود . وسيأمرونه بالبقاء ، وسيكون رامز أول من يأمره بالبقاء . فان حدث ما لم يتوقع فلن يندم على شيء . ان ظهر بين المجتمعين من يقول: « نعم تخلّ ، فنحن لا نثق بقيادتك » فعزاؤه ان يرى سياسته منفذة منتجة . وان أعرض المجتمعون عن رأيه ، ثبت في مكانه ولم يخسر شيئاً إلا أن تعود اللجنة المركزية الى حالها الأولى .

كان كل شيء واضحاً في ذهنه حين بلغ باب فندق المتروبوليتان ونفذ بين الضباط الانجليز وبغاياهم المصريات من الخادمات القدامى والعاملات الاجنبيات المستوطنات ، وبين نفر من المجندات وقفن في شارع القاضي الفاضل ينتظرن ضباطهن ليدخلن الى الدجاوت حيث يرقص الجميع على نغمات الجاز ويشاهدون فتحية سامبا شبه عارية تعرض رقصاتها الشرقية الشديدة ، الروحانية التي تتألف من هز ما تحت بطنها ومن هز عجزها . وكان موعده بداخل الدجاوت في التاسعة تماماً . وقد وجد المكان غاصاً بالبدل العسكرية والعيون الزرقاء ووجد مونا ربيع تنتظره فعلم ان ماجدة لا بد نائمة .وما ان اخذ مكانه الى جوارها حتى جاءهما ضابط بريطاني يترنح سكراً وطلب مونا ربيع للرقص فنظرت مونا ربيع الى حسن مفتاح تستنجد به، ولكن حسن مفتاح لم يشأ ان يتدخل بل أخرج من جيبه مسدساً صغيراً وراح يعبث به . واعتذرت مونا ربيع عن الرقص ، فهم الضابط البريطاني بأن يتناول ذراعها ويقودها قسراً الى حلقة الرقص ، ولكنه لمح المسدس الصغير فتردد قليلاً ثم انصرف لحال سبيله

وهو يترنح. ودس حسن مفتاح المسدس الصغير في جيب بنطلونه الخلفي ضاحكا، ونظر الى مونا ربيـع وقرأ الارتياح في وجهها فطمأنها قائلاً :

– لا تنزعجي فالمسدس فارغ .

قالت وهي لا تزال على اضطرابها :

– اتحمله دائماً :

– فضحك ثانية واجاب :

– نعم ، بقدر الامكان ، ولكني لا احمل رصاصاً الا نادراً .

– قد كنت أحسبك آية في الوداعة .

– بلى . انا الوداعة ذاتها .

قالت ضاحكة :

– كم مرة استخدمت هذا المسدس ؟

وأوشك ان يتجهم لما قالت ولكنه غالب نفسه وأجاب ضاحكاً :

– لم استخدمه اطلاقاً .

وبدأ ضحكه مفتعلاً ، ورأت مونا ربيـع بللاً من العرق يلمع على جبينه . وأدرك حسن مفتاح حراجة موقفه فقال :

اترقصين .

فنهضت . وأخذا في الدوران السريع . وكان اللحن قطعة من فيبر لم تجد الفرقة عزفها ولكنها رضيا بها اعظم الرضا . ولم يكن في الحلقة الا زوجان آخران ، فوجدا متسعاً للحركة الحرة ، واراد حسن مفتاح ان يبثها حبه ولكن سرعة الفالس لم تترك لة مجالاً لذلك ، فاكتفى بتقبيل شعرها خلسة كلما وصل الى ركن من اركان الحلقة . وكان لا يجيد الدوران الى الميسرة فظـل يدور في

اتجاه واحد الى اليمين ، الى اليمين ، طول الوقت • حتى انتهت القطعة وبدأت قطعة اخرى كانت من باليه يعرفه ولا يذكر له اسماً . ولم يغير حسن مفتاح من اتجاهه طول الوقت حتى اوشكت مونا ربيع ان تتهافت داخل ذراعه من فرط الدوار . أما هو فقد ارتفع به الدوار الى ما يشبه النشوة وسبح كل شيء حوله ، ولكن احساساً يشبه العناد اصابه فأتم الرقصة الثانية برغم كل شيء . وما ان عادا الى مائدتهما حتى كان البراندي القليل الذي شربه في أول المساء قد تبخر من رأسه . قالت ،

– اتحب الفالسات السريعة ؟

– بل اعبدها . اتحبينها انت ؟

– نعم ، احبها . حدثني . كيف حال اللجنة المركزية ؟

– انها الآن فيما يشبه النوم ، وقد عرفت اليوم ان ثلاثة من اعضائها قد تزوجوا ، بنتان ورجل . كذلك عرفت من « الاهرام » في الصباح ان عايدة علم قد تزوجت . انه الربيع يا مونا .

– هل احزنك ذلك ؟

فامسك حسن مفتاح بيدها وقال :

– كلا يا مونا ، أما شرحت لك الأمر ؟

– نعم ، ولكن عايدة علم قطعة من ماضيك .

– هذا صحيح ، وانا اتمنى لها كل سعادة في الحياة .

كان ينبغي ان ترسل لها باقة من الازهار .

– سأفعل ذلك غداً صباحاً .

— ومن زوجها ? اتعرفه ؟

— « الاهرام » تقول انه مدرس بالمدارس الثانوية .

— لا شك انها ستسعد معه .

— انها لا تفكر في السعادة يا مونا . انها تطلب الاستقرار . وقد جاءها الاستقرار بشخصه ، وسيعيش معها الاستقرار نصف قرن كامل حتى تتخم به . سوف تعود من المدرسة فتجد الاستقرار جالساً على أكبر فوتيل في المدخل . سوف تتهيأ للنوم فتجد الاستقرار ذا الارداف الثقيلة جالساً الى مكتبه يصحح كراسات التلاميذ . فان ارادت الخروج الى السينما تذكرت انها مستقرة ، وان بيتها لا تحدث فيه حركة الا مساء الخميس . ان الاستقرار لا يدخن ولا يشرب الخمر ولا يكسر روتين الحياة ولكن عايدة علم لن تفكر في الانتحار ، بل سترضى بالاستقرار لانها ضعيفة ولأنها لا تخلو من الغباوة الخفيفة . وسوف تكون أكبر مشاكل حياتها ان حماتها تستمرىء اهانتها أو ان الولد « ٣٨ وشرطتين » . وبعد قليل سوف يكثر من حولها الاطفال، فتستقيل من المدرسة وتقطع آخر صلة بينها وبين العالم الخارجي وتستقر نهائياً ، بين جدران اربعة . وكلما ثارت على الاستقرار ضربت اطفالها أو تذكرت عزيزاً راحلاً فبكت ، وهي لا تعرف انها تضرب اطفالها وتبكي راحليها قلقاً وتمرداً . وحين ترى وجه زوجها عشرين عاماً متصلة سوف تزهد في الحياة وتتمنى لنفسها الموت . ولكن الموت لن يأتي ، وانما يأتي ضغط الدم . هذا اذا كانت بها بقية من خيال، والا فهي صائرة الى اوتوماتون . انا لا افهم حرص البشر على الاستقرار ، فغداً يستقرون تماماً ، يستقرون الى ما لا نهاية . لقد انقذتني المقادير يا مونا .

— الست آسفاً على ضياعها ؟

– كلا ، ان عايدة علم بنت طيبة حقاً ، ولكنها تبحث عن حامٍ ، وأنا لا أملك ان احمي قطة . وكما اني لا اصلح لها فهي لا تصلح لي ، فانا بحاجة الى بنت مثلي تؤمن بكليات الحياة وتنسى جزئياتها ما أمكن ذلك . وعايدة علم ملتصقة بالأرض أكثر مما ينبغي . ولكن لقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية .

– لعلك على حق . اتراها كثيراً ؟

– مصادفات . أكثرها في الطريق . اتعرفينها شخصياً ؟

– ماذا تقول ؟ ان الموسيقى عالية تغرق كلامك .

– أقول : اتعرفينها شخصياً ؟

– كلا ، وانما أعرف عنها كثيراً لطول ما حدثتني عنها .

– انرقص الآن ؟

– كلا ، فانا بحاجة الى مارتيني .

– مالك ساهمة هذا المساء ؟ انا لست مسلياً بما فمه الكفاية . ولكن من يعرف في يوم واحد ان اربعة من اصدقائه قد تزوجوا لا يمكن ان يكون مسلياً .

ثم سكت قليلاً واضاف :

– وفيم انتظارنا نحن يا مونا .

فتنبهت مونا ربيع الى هذا التحول الجديد في حديثه ، ولكنها لم تقل شيئاً بل ضغطت على يده وارتسم على وجهها حزن بالغ أكدته الأنوار الزرقاء المشربة بالأشعة الوردية المسلطة على الراقصين من وراء الفرقة الموسيقية . وكان حسن مفتاح يبغض هذا النور لانه يعزل الاحياء عن الحياة ويدخلهم في ملكوت خرافي من الخيال المفتعل الذي لا يتفق مع البدل الكاكية الملطخة بدماء البشر ،

البدل المنتشرة في القاعة المقبضة. كذلك كانت مونا تبغض الجو الرومانسي الذي وضع تصميمه مدير الفندق ذو الكرش الكبير والخدين الغليظين ليبتز قروش الزبائن ، وتتمنى لو ازيحت جميع الأزهار من ورق الحائط وحلت محلها عيون كثيرة زجاجية وماسية وزبرجدية وبشرية من عيون سلفادور دالي . ولكنها كانت في شغل عن الجو بما يقوله حسن مفتاح . واعاد حسن مفتاح سؤاله قائلاً :

– وفيم انتظارنا نحن يا مونا ؟

وحملقت فيه وقتاً طويلاً ولكنها لم تقل شيئاً ، وانما ادرك بفطنته ان احشاءها تتمزق ، وقرأ في عينيها كلاماً كثيراً مختلطاً لا سبيل الى استيضاحه ، بعضه استفهام وبعضه حيرة وبعضه جزع وبعضه ألم . ولم يعجب لما رأى ، وانما اضطرب. ثم لام نفسه على اضطرابها وابتسم لمونا ربيع فابتسمت وقالت :

– انا أعلم انك تحبني .

– وأنت ، الست واثقة من نفسك ؟

– بل وأعلم كم تحبني .

– أنا واثق من ذلك .

– انا أعلم انك تترك اللجنة المركزية وتهجر الشيوعية لو سألتك ان تفعل ذلك .

فضحك حسن مفتاح برغمه واجاب :

– الحق اني لم افكر في ذلك قط .

– أأخطأت التقدير ؟

فسكت حسن مفتاح قليلاً وقال :

ـ اتصرين على جواب ؟

ـ نعم . أتهرب من الواقع ؟

ـ كلا وانما أخجل من الحقيقة .

ـ اتراك بحاجة الى وقت تفكر فيه ؟

ـ كلا . وانما هذه قسوة يا مونا .

ـ اجب بصراحة .

ـ اذا كان لا بد من الصراحة فانا مبلبل .

ثم اضاف حالماً :

ـ أرضك أرضي وبلادك بلادي .

ـ ثم انتفض من احلامه وقال بصوت غليظ :

ـ كلا . كلا . كلا . هذا مرض . هذه خيانة . مرض خبيث . الحب مرض.

ثم اكفهر وجهه واضاف بصوت صاغر لم تسمع منه مونا ربيع شيئاً لشدة الجلبة :

ـ ألهذا مات سيد قنديل ؟ ألهذا مات ؟ لماذا مات سيد قنديل ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

وعندئذ ضحكت مونا ربيع وقالت :

ـ ماذا بك ؟ لا تجزع يا حسن ، فلن أطلب اليك ان تكف عن نشاطك أو ان تتخلى عن مبادئك . على العكس من ذلك . لقد كنت أفكر في ان أضع الكرايسلر تحت تصرفكم اذا كنتم بحاجة اليها .

ـ نحن بحاجة الى اي شيء ولو كان دراجة ، ولكن كرمك قد تجاوز كل

الحدود ، وأنا لا أقبل هذه التضحية .

– انا لم اعد بعد بشيء ، فالأمر يحتاج الى تفكير .

– لا تفكري البتة . لو كنت منا لهان الامر ، ولكنك تعطفين على البعد ، ثم اني احس بأنك تفعلين بعض ما تفعلين من أجلي .

– فلنرجىء هذا الكلام الى حينه .

– والآن وقد عرفت كم احبك ..

فرفعت مونا ربيع اصبعها الى فمها قائلة :

– اسكت . ألست واثقاً من حبي لك ؟

– بلى . ففيم انتظارنا اذن ؟

وعادت الى عينيها الحيرة وعاد القلق . وكانت تحب ان تقول : « اذن فاكتف بهذا مؤقتاً » . ولكنها أحست بأن هذا غير ما تريد أن تقول. وندمت على انها طرحت عليه هذا السؤال . لقد جدت في الدنيا أمور كثيرة أحست مونا ربيع أنها تحول بينها ، أمور لم تفهمها مونا ربيع ولكنها أحست بها احساساً باطنياً . ثم ان ذهنها الآن مهوش . ان ذهنها مهوش منذ أن قبلها حسن مفتاح تحت النور في مدخل البنسيون . وهي تحاول ان تفهم لحيرتها سبباً فلا تهتدي الى شيء . والى جانب الحيرة كان هناك الخوف ، الخوف البسيط الذي لا تعرف له مصدراً . وتأملته من جديد بحزن فوجدت وجهه حزيناً ولم تجد فيه ما يخيف ، بل لم تجد فيه ما يدعو الى الحيرة . وقال حسن مفتاح : « ماذا بك يا مونا ؟ » فلم تسمعه . كذلك لم تسمع الموسيقى . وشربت كأسها الثالثة من المارتيني . وعاود حسن مفتاح اضطرابه ولكنه كبت من جديد ، وترك نفسه لرحمة التيار كما كان يفعل كلما حاصرته قوى لا يستطيع ردها . ودعكت مونا ربيع عينيها ثم أطرقت . وارادت ان تتحدث فلم

تعرف كيف تبدأ الحديث . قال :

ـ بصراحة . أأنت في شك من عواطفك يا مونا :

ـ كلا يا حسن .

ـ اذن فيمَ صمتك !

ـ ألا ترقص ؛

ـ كلا . أفضل ان أسمعك تتحدثين .

وبدا عليه انه ينتظر تفسيراً . ولم يكن بد من الكلام فتكلمت :

ـ انت تقول يا حسن : «ارضك ارضي وبلادك بلادي » اما انا فأقول أكثر من ذلك . أقول انك تجري مع دمي . اقول انك لو سألتني ان اترك ماجدة لفعلت . ولكنك لن تسألني ان أفعل من ذلك شيئاً . أقول ان حبي لك يدمرني تدميراً . او يرضيك هذا ، ام تطمع في أكثر منه : انا لا أدعي انك أول من احببت ، فقد احببت قبلك شاعراً ايطالياً علمني كيف تكون الحياة ربيعاً دائماً وكيف أناجي الله بالانغام . ولكن حبي لك قد تجاوز كل ذلك . فهو أسود كالموت ، لا براعم فيه ولا ألوان . وهو قوي النداء كأنه الموت فيه الراحة الأبدية . وهو يلغي وجودي الى جوارك ويدمجني فيك ، ويجعلني أمس بك سقف السماء . هذا هو حبي لك يا حسن ولو انك قلت لي ليلة المونسينيير : هيا نتزوج يا مونا في التو واللحظة لتبعتك الي آخر الارض . اما الآن . الآن؟ نعم ، الآن قد حدثت أحداث كثيرة . ماذا أقول : لا تسلني يا حسن عما حدث فلن أستطيع الاجابة . كذلك لا تسلني عن الزواج بعد الآن ، فهناك أمور كثيرة ينبغي تسويتها بيني وبين نفسي قبل أن أستطيع البت نهائياً . وحين أسوي كل شيء ، سوف اسعى اليك يا حبيبي قائلة : « انا الآن لك فأصنع بي ما تشاء » ، أو قائلة : « كلا ، يا حبيبي ، كلا ، فالمقادير لم تكتب لنا السعادة . وأنا لا أحب ان تغبن في شيء ، فأنت منذ اللحظة في حل من عهودك ، فافعل بقلبك

ما تشاء . فما اعدك بشيء ، وما أنتظر منك ان تعدني بشيء . ولكن احب ان تفهم عني شيئاً واحداً : فكيفما كانت النتيجة ، فان حبي لك لن يتغير . »
ماذا أقول ؟ ان في الوجود اموراً غريبة لا تدور بخلد احد . تعال غداً يا حبيبي . تعال في الصباح تعال في المساء . كن بجانبي في كل لحظة من لحظات حياتي ، فأنا اظمأ اليك كأنك الشراب السحري الذي يرد الروح الى جسدي ويملأ عيني بالألوان . تعال ارقص معي يا حبيبي ، تعال قبلني حتى تهدأ نفسي وتتخم بالاحلام . لا تفكر الآن يا حبيبي ، وهيا بنا نرقص قبل ان ينقضي المساء .

وتهيأ حسن مفتاح للنهوض وهو أشبه بالذاهلين ، ولكنه لاحظ ان مونا ربيع لم تتحرك من مكانها او تبدِ ما يدل على انها تتهيأ للرقص . فأدرك انها في بحران ، تقول ما لا تعي . فثبت في مكانه ، وذهب يعض شفته السفلى عضاً متتالياً موجعاً . غير ان هذا لم يفد شيئاً فقد برزت اسنانه بروزاً شديداً كشف عن اضطرابه العميق . اما هي فلم تكن في بحران ، بل كانت تفكر تفكيراً واضحاً منتظماً وتستعرض كل احساساتها وعواطفها وخواطرها ، علها تقف على مغزى هذا الحائل الجديد الذي ارتفع بينهما منذ أيام فلم توفق الى شيء مفهوم . ترى كيف يفهم كلامها ؟ لا شك انها تتحدث كالمخبولة . ماذا تقول ؟ اتقول : « انا أحبك يا حسن ، ولكن حواسي تحدثني عنك بأقوال عجاب ؟ » تقول : « ان صوتاً في نفسي غامضاً يهتف قائلاً ان هذا الذي تحبينه ليس بشراً كالبشر ، ولكنه ساحر من اولئك السحرة الذين يحكمون الرياح ويغيرون مسالك الافلاك ، او جني صغير خبيث ، أو شيطان من تلك الشياطين الكثيرة التي افلتت من عرصات جهنم ونزلت الى الارض بعد الطوفان ، واندست بين البشر ، او روح ملعونة خالدة ، ملعونة لانها خالدة ، تسكن بيوت اللحم لتنتقل بها عبر القرون ، أو روح يائس حائر كتب عليه الا يهدأ في قبر او ينام في تابوت ، أو جسم مسكون ، ان كان يمكن للاجسام أن تسكن ؟ » . ماذا

تقول ؟ ان كل هذه الاشياء لا معنى لها خارج الخيال المحموم ، ومع ذلك فحسن مفتاح يوحي اليها بشيء من ذلك . يوحي اليها بشيء قريب من ذلك لا تستطيع تصوره ولكنها تتمثله هكذا في خواطرها لتعطيه رسماً واسماً . انها لم تفكر في هذه الصور من قبل الآن . بل لم تفكر قبل الآن في صور أصلاً ، لأن ما أحسته عن حسن مفتاح لم يكن ليسجن في صورة . وهي تعلم ان هذه كلها من ترهات خيالها المحموم ، فحسن مفتاح امامها الآن لا يوحي بجزع او قلق او حيرة ، وهو أمامها الآن لحم ضعيف ودم مضطرب ونفس تتمزق وطرف كسير كأنه كلب حزين . انه احاطها بساعده منذ هنيهة واسند خده الى خدها وقبل شعرها وقبل اكثر من موضع في وجهها اثناء الرقص ، فلم تجد فيه ما يخيف او يقلق او يحير بل وجدت في أحضانه الشفاء . وليلة المونسنيير كذلك أحاطها بساعده واسند خده الى خدها . وقبل يدها وجيدها وشعرها وشفتيها اثناء الرقص وبعد الرقص فما وجدت فيه ما يخيف أو يقلق او يحير بل وجدت في احضانه الشفاء . وعما قليل سوف يستصحبها الى باب غرفتها بالطابق الثالث كما فعل أكثر من مرة ويقبل يدها على قارعة الدهليز الطويل ثم ينظر اليها راجياً فتأذن له بالدخول . وحين يرد الباب وراءه سوف يأخذها بين ذراعيه ويقبلها قبلة طويلة تنشر في جسدها الخدر وتملأ قلبها بأحلام الزواج ، ثم يداعبها بكلمة ضاحكة وينصرف . وهي تعلم انها تحبه حباً لا نظير له الا في خيال الشعراء وأوهام المراهقين . ولكم عنفت نفسها على هذا الاسراف العاطفي بعد ان تجاوزت زمن الصبابات . ومع ذلك فهي لن تنسى ما قد رأته في عينيه ليلة ان قبلها تحت النور رأساً في مدخل البنسيون . انها حتى هذه اللحظة لا تعرف ما هو . ولكنها تعرف ان ذلك الذي رأت كافٍ لأن يفرق بينهما الى الأبد . واجترأت مونا ربيع على التفكير قليلاً . هبه ابليساً من الأبالسة المعذبة التي اندست بين البشر ، اوهبه جسماً مسكوناً ، فماذا يمنع أن تتزوج به . إن بعض من تعرف من النساء قد يتزوجن ملاكاً ذا جناحين اذا جاءهن الملائكة خاطبين: نعم . ماذا يمنع أن تتزوج شيطانا من الشياطين اذا كانت تحبه ؟ لسوف تنسحب

من العالم وتسكن في قصر من تلـك القصور المسحورة ، او في برج من الأبراج الخرافية عند بحيرة قارون، أو قرب الاهرام بين اشباح الماضي أو تبني لنفسها كوخا صغيراً على شاطىء البرلس ذات الملح والأعشاب وتقضي بقية حياتها الى جوار حبيبها في بنطلون من بنطلونات البلاج وحذاء من الكاوتشوك . بل ماذا يمنع ان تسكن معه في قلب القاهرة وفي المتروبوليتان بالذات مـا بقي من العمر وان تستصحبه الى الحفلات وان تزهو به على سائر الناس . نعم ، انها تستطيـع ان تفعل ذلـــك ، فهي لا تخاف شيئاً . وممَ تخاف ؟ من الناس ؟ لو ان أمره افتضح لاشار الناس اليها بسباباتهم كلما عبرت طريقاً او ظهرت في مجتمع قائلين: « هذه هي المرأة التي تزوجت شيطاناً » . ولكن مونا ربيـع لن تحفل بالناس ولا بسباباتهم فهي تعلم انهم في مخادعهم يتزوجون ما هو أشنع من الشياطين ، فكلهم مراء وكلهم لا يملك ان يدين . ممَ تخاف ؟ انأقصى ما قد يحدث هو ان حسن مفتاح قد يصحو ذات صباح فاذا به قد ارتد الى معدنه الخبيث ، فتسقط عنه صورته الانسانية وتتجلى شيطانيته الشريرة الأولى . وعندئذ ؟ ماذا يحدث عندئذ ؟ ان أقصى ما قد تصل اليه شيطانيته هو ان يدب الى فراشهـــا دبيب عطيل الىفراش ديدمونة ويتلو عليها بصوت رهيب قائمةمن جرائم لم ترتكبها ، أو يتلو عليها بصوت رهيب سلسلة من اللعنات القديمة التي يكتبها القضاء فيسجل الانام، ثم تمتد اليها يداه وقد كساهما شعر غزير وخرجت منهما الاظافر الجارحة وتطبقان على عنقها بقوة من فولاذ حتى تختنق ، ثم يحطم نفسه ندماً بعـد ذلك اولا يحطمها ويعود من حيث أتى ، الى مساكن الجان بـين التلول أو حتى الى عرصات الجحيم . انها لا تخافان يفعل بها ذلك فهي لا تقيم للموت وزناً. ولكنها تخاف ، رغم ذلك ، تخاف . ممَ تخاف ؟ مم ؟ مم ؟ انه الآن يلتصق بها اثناء الرقص ويقبلها ويخلط انفاسه بأنفاسها فيسحرها برقية لا تفهمها . ولكنه سوف يطلب غداً ما هو أكثر من ذلك . فلو انه دخل غرفتها زوجاً لأغلق البـــاب وقبلها القبلة الطويلة التي تنشر في نفسها السعادة وتملأ كينونتها باشراق الجسد ، ولكنه لن يداعبهــا بكلمة ضاحكاً ثم ينصرف ، بل سيبقى . سيبقى طويلاً .

سيطفىء النور ويستبدل ملابسه ثم يدخل في فراشها . وسترى هي كل ذلك ولا تجرؤ ان تقول لا . كلا . كلا . لسوف يقشعر جلدها كأنها تلمس شيئاً ناعماً رطيباً . انها لن تحتمل ان يمس لحمها لحمه الا اذا عرفت من هو . انها لا تعرف من هو . انها لا تستطيع ان تسأله : من تكون ؟ ومن اي ارض اتيت . ولم جئت الى وادي البشر . كلا . كلا . انها تحب ان تلتصق به ، ولكن لا بد من حاجز بينهما . فليكن حاجزاً رقيقاً . فليكن غلالة من حرير شفاف . بـــل فليكن وشاحاً من نسيج العنكبوت . ولكن لا بد من حاجز . انه من عـالم وهي من عالم ، والعالمان لا يمتزجان . لعله من سكان كوكب آخر . انه زوجها والازواج ليست بينهم حواجز . ترى ماذا يحدث لو انها استسلمت ؟ ان ماجدة لن ترضى بذلك . وكيف تعطي ماجدة اخاً نصفه بشر ونصفه من عالم المجهول . كلا . كلا . ان الموسيقى تشبه الضوضاء القريبة . ان حسن مفتاح لا يزال الى جوارها يتفوه بكلام متقطع لا تسمعه . انها لم تعد تسمع شيئاً الا قلبها الهاجس .

وكف قلبها عن الهجس فترنحت في مقعدهـــا ثم سقطت على الارض . واكتسحت ذراعها ما كان على المائدة الصغيرة من كؤوس بعضها فارغ وبعضها ملآن ، فتناثرت الكؤوس ثم سقطت وتهشم بعضها وكان لها دوي . وسقطت علبة السجائر على وجهها ثم ارتدت بعيداً وطاحت بين اقدام الراقصين . وهب حسن مفتاح مذعوراً ، وجثا على الأرض ورفع رأسها بيده ، وحاول ان يجذبها بعيداً عن أرجل المائدة ليحملها ان كان يستطيـع . واخذ يدلك خديهـــا الباردين وتجمهر من حولة الراقصون وبعد قليل ترامى النبأ فكفت الموسيقى . واختلطت في اذن حسن مفتاح استفسارات ونداءات بمختلف اللغات ، وعجيج اقدام وصرير كراسي تتحرك وموائد تدفع وصيحات سيدات يرددن بالفرنسية « لقد اغمي عليها » . « لقد اغمي عليها » . واخيراً وصل كبير الخدم ومعه خدم كثيرون وأعانوا حسن مفتاح على رفعها ، ثم نزعوها من يديه تماماً وحملوها خارج القاعة . وتقدمهم حسن مفتاح حتى بلغوا غرفتها فمدوها على فراشها .

وكانت ماجدة تنام على فراش صغير في الركن الأيمن بأقصى الغرفة يستخدم أريكة في الصباح وسريراً اذا اقبل الليل . ولم تصل اليها جلبة فلم تستيقظ . وصرف كبير الخدم كلاً الى عمله فلم يبقَ في الغرفة الا هو وحسن مفتاح ، ثم قال :

لا تجزع يا سيدي ، فالطبيب سوف يصل بعد دقائق .

ولم يكن امامهما الاّ التدليك فعكفا عليه . وحين دخل الطبيب كانت مونا ربيع تفتح عينيها في ذهول . وبعد قليل ادركت الموقف ، فابتسمت لحسن مفتاح وقالت بهدوء :

– انا بخير حال . لا تجزع .

ووقع بصرها على الطبيب وعلى كبير الخدم فقالت :

– لقد ازعجتكم .

ولم يجب الطبيب بل ابتسم ودنا منها وجس نبضها وسألها بعض الاسئلة التافهة ثم انطلق الى التسريحة وعاد منها بماء الكولونيا ، ومسح به وجه مونا ربيع وقال :

– انت بحاجة الى الراحة . هذا كل ما في الامر . فالزمي فراشك اربعاً وعشرين ساعة على الاقل . ثم حيا وخرج ، ومن بعده كبير الخدم انحنى وخرج . وجلس حسن مفتاح على حافة السرير وأمسك بيد مونا ربيع وقبلها ثم اعادها الى مكانها . وظلا صامتين زمناً . هو ذليل مسحوق وهي شاردة تفكر في كل شيء ولا تفكر في شيء . وخشي كل منهما ان يكسر الصمت ، وتحولت عيونهما فجأة واستقرت في وقت واحد على ماجدة النائمة ، ثم عادت فالتقت . واراد ان يبتسم فلم يستطع ، وتدلى فكه الأسفل فبدا آية في البلاهة . اما هي فابتسمت وذهبت تعبث في شعرها باصابعها كأنها تمشطه ، وأخذت تتأمل حسن مفتاح وهو يتأمل خشب السرير البندقي العريض . قالت : « انا

اسبب لك شقاءً عظيماً » . اجاب هادئاً : « انا لم يغمَ علي ... بعـد » قالت : « الا تزال تريد ان تتزوج امرأة ضعيفة مثلي ؟» فلم يجب ، بل نظر اليها نظرة معناها : « كفي هذه الحماقات ؟ فالكلمة الآن لك وحدك ، ولكنه قال بغضب : « لماذا اغمي عليك . » ثم تذكر انه لا حق له في الغضب فخجـل من نفسه . ورفضت مونا ربيع ان تتذكر شيئاً مما كانت تفكر فيه . وكان لا بد من جواب فتكلفت العبث وقالت : « اليس لي الحـــق في ان اصاب بدوار ؟» وأراد حسن مفتاح ان يلحف في السؤال ، ولكنه خشي ان تقول ما يحرج ، بل ندم على سؤاله ، وذهب يتأمل صفحة وجهها ليستشف فيها شيئا ، فوجدها هادئة أتم الهدوء ، بل وجد فيها شيئا من الرضى يوحي بمـــا يشبه السعادة ، فازداد عجبه . انها لا شك وعكة عارضة كما تقـــول . ولكن ماذا يجدي التفكير . وطفقت هي تتامل وجهه فازداد حبها له . لقد كان في سذاجة طفل يتعذب . ولامت نفسها على كل ما كان . قالت : « اتغفر لي اني ازعجتك كل هـــذا الازعاج ؟ » فهز كتفيه ولاذ بالصمت لان الكلام يحدد الأمور وهو الآن في دوامة من المتناقضات . قال : « أأعود غداً ؟ » فاحمر وجهها خجلاً وقالت : « وبعد غد ، وكل يوم ، وكل يوم مرات » . واطمأن حسن مفتاح لكلامهـا ، ولكنه عجب لنظرتها المفاجئة .

وبعد صمت قليل أدرك سر هذه النظرة . قالت مونـا ربيـع : « قبلني يا حسن » وقدمت له شفتيها فقبلهما ذاهلاً ، ثم سمعها تقول : « والان قبـــل ماجدة » . فاتجه الى فراش ماجدة وقبل جبينها بخفة متناهية . ثم قالت مونا ربيع : « والان انصرف يا حسن » . فسعى حسن مفتاح الى الباب كأنه نائم يمشي في سباته ، وخرج وأغلق دونه الباب ، وقد نسي حتى ان يقول : « اتمنى لك نوماً هنيئا » .

٨

عادت الى القاهرة انوارها باعلان الهدنة . ومضت الشهور . سبعة شهور مضت لم يحدث فيها شيء في العالم المكشوف ، ولكن حدثت معجزات تحت الارض . اما العالم المكشوف فلم يخلُ مع ذلك من تافهات الحوادث . فلقد اغتيل رئيس الوزراء قبيل الهدنة . وبعد الهدنة بسبعة شهور ا[illegible] وزير خط[illegible]ن هاتين الفقاعتين كان سطح الماء الهادىء يخفي تيارات سفلى متضاربة . فالرجعية غدت اكثر رجعية والتقدمية غدت اكثر تقدمية ، واتضح لرجـــل الشارع ان وقت الاختيار بين اليمين واليسار قد أزف . وكان التعبير العملي عن هذه الحالة ان حزب الوفد انفضت معاليقه وتشققت وحدته فتكشف عن جناحـــين ميمنة سافرة وميسرة سافرة لولا قوة الوسط والرأس لتفر بدداً . اما حسن مفتـاح وكوكبته فقد كانوا يعتقلون تحت ذمة التحقيق ثم يخلى سبيلهم بانتظام يوشك ان يكون رتيباً .

كل ذلك كان يقدره حسن مفتاح حين دعا للتعاون مع حزب الوفد وهو في المعارضة . وقد كان له كل ما اراد ، فالمسرحية الصغيرة التي وضعهـا لاحراج رامز والمتطرفين على مشهد من المجتمعين مثلت على ادق وجه وأصابت ما توقعه من نجاح مكتسح . وبعد ان اطمأن الى الخطوط العامة نفذ رجاله في ميسر حزب الوفـد نفاذ السكين في الزبد . وكلما اشتد الطغيان اشتد بينهما التعاون ،

وكلما ظهر تواطؤ الدكتاتورية المصرية مع الاستعمار الانجلو امريكي تكتلت ميسرة حزب الوفد حول اعضاء اللجنة المركزية ، واقتربت المعركة الفاصلة . وأحصى حسن مفتاح رجاله وعتاده فماذا وجد . وجد نحو ثلاثـة آلاف رجل كلهم ماركسيون وكلهم مخلصون . واسترسل في احلامه فأحصى عشرة آلاف آخرين كلهم مخلصون . وبدأت احلامه تتسع في اتجاه جديد . بـدأ يحصي ما معه من المال ثم بدأ يحصى ما معه من السلاح . وحين فرغ من ذلـك عبس للكراسي الاسيوطية الفارغة من حوله ، وعبس للمائدة المستديرة الخضراء قبالته ، وعبس للأوراق المبسوطة امامه . ولم تكن هذه بأول مرة تنصرف فيها افكاره على هذا النسق الجديد ، فقد فعل ذلك مراراً ، ولكنه كان يطرد هذه الافكار طرد الوساوس . ولم يعبس حسن مفتاح هذه المرة لان الارقـام خانته ولكنه عبس لأنه رأى النجاح لحظة ثم فقده . ولو أنه ما رأى النجاح لحظـة لانصرف الى التفكير فيما يجدي ، ولكنه رأى النجاح لحظة فاسترسل في أحلامه. وحملق في هواء المدخل وفي السقف وفي الدهليز الصغير الذي يفصل المطبخ عن غرفة مدام ماريكا كأنه يبحث عن النجاح الذي طار منه ، واخيراً استقر بصره على فنجان القهوة الكبير فأفرغ بقية ما فيه في جوفه . ثمانية آلاف جنيه او على وجه التحديد ٨٢٢٣ جنيهاً تبعـاً لتصريح روزنشتاين في آخر اجتماع للجنة المركزية . وماذا يجدي هذا الرصيد التافه ؟ وتذكر حسن مفتاح قول نعيم وهما يمران ذات مرة امام عمارة الايموبيليا : « اعطني الايموبيليا اضرم لك الثورة بعد غد » . وابتسم . ترى ما حال نعيم الآن ؟ لقد كانت له قضية فعلاً وحكم عليه بالحبس سنة مع الشغل والسنة قد اشرفت على النهاية . ولكن نعيماً غليظ التفكير ، يفسد بنزقه كل ما يمسه ، ولا شك انه سيضرب الحراس او يهين مأمور السجن او يحرض السجناء على الثورة قبل اطلاق سراحه بيوم واحد فيتجدد حبسه . ترى ماذا يفعل الآن : لعله يشذب حديقة فلان باشا او يرمم قصر فلان باشا فالسجناء مجندون لخدمة الباشوات بالمجان . ان الباشوات قـد غدوا لا يطاقون ، ففي كل صباح يستحدثون وسيلة جديدة لنهب الدولة . ولكن نعيماً

كان على حق في تقديره فبمليون جنيه وعشرين الف مجاهد يستطيع حسن مفتاح ان يقول للثورة اشتعلي فتشتعل . وربما بأقل من ذلك . ولكن لا جدال في ان ٨٢٢٣ جنيهاً لا تكفي للاستيلاء على قرية واحدة . وانصرف تفكير حسن مفتاح الى الاسلحة ، فأحصى منها نحو ستمائة مسدس وسبعة مدافـــع رشاشة والف قنبلة يدوية ، وبنادق لا تزيد على العشرين . ولكنه كان يعلم ان ميسرة حزب الوفد تملك نحو الف مسدس وعشرين مدفعـــاً رشاشاً والف قنبلة يدوية ومثيلها من البنادق اكثرها موزع في الريف . وأوشك حسن مفتاح اكثر من مرة ينصرف عن التفكير في هذا الاتجاه احساساً منه بعقمه ، ولكنه كان يعود الى التشبث به في اصرار شديد . ان اللجنة المركزية تملك بالفعل ٨٢٢٣ جنيهاً ولكن الحزب في مجموعه يملك نحو مليون من الجنيهات . فروزنشتاين وحده يملك نصف مليون وهناك نصف مليون آخر موزع بين احمد حمدي وابراهيم صابر وبشارة السبع ومونا ربيع والسيد مبروك وعلي أدهم . ثم هناك كوارتز الذي لا يملك الآن شيئاً ولكنه يستطيع بعملية جراحية بسيطة ان يرث عن ابيه مائتي الف جنيه ، هذا عـــدا الضريبة التي يمكن مضاعفتها على الاعضاء العاديين ، ولن تقل حصيلتها عن ثلاثين الف جنيه . غير ان كل هذه الامـــوال موظفة اما في الارض واما في العمائر واما في الاسهم والسندات . وكل هذه التقديرات لا يعول عليها حتى يتبين استعداد الجماعة للتضحية بأموالها . انه لن يأذن لنفسه ان يفكر ثانية في هذا الاتجاه الا اذا اعلـن روزنشتاين ان في صندوق اللجنة المركزية مائة الف جنيه نقداً وعداً . ولسوف يمهل الجماعة ستة اشهر لجمع هذا المقدار ، فان وجد الضمانات التي ترضيه تحـــول بسياسة الحزب الى الكفاح الاخير الذي يضع حداً لكل كفاح ، وسعى بالجميـــع حثيثاً نحـــو المعركة الفاصلة .

واستهلك حسن مفتاح في هذا الصباح خمسة فناجين من القهوة كلها ضخام حتى ذعرت مدام ماريكا وظنت به الظنون ، فوقفت تجادلــــه في الفنجان

الخامس جدال الام الرؤوم المشفقة على صحة ولدها ، وحين يئست من الجدل ارسلت اليه فهيمة بالفنجان . وتلكأت فهيمة وقتاً ما فيما يشبه المغازلة، ولكنه صرفها الى غرفته صرفاً . وبعد قليل وجد حسن مفتاح نفسه يخط على أوراقه ما يأتي :

اليوم الأول

٢٠٠٠ مسدس .

٣٠٠٠٠ بندقية (والباقي ينزع من العدو)

٥٠٠ متراليوز (مائتان للقاهرة ومائة للاسكندرية والباقي للأقاليم) .

٢٠٠٠٠ قنبلة يدوية .

٣٠٠ لوري (والباقي ينزع من الاهالي والعدو)

؟ طناً من البترول .

؟ مصانع ذخيرة صغيرة .

١٢١٩/٢٧ ه / ١٦٠ ه . ج . ب/ ٢٣ وخلايا لنسف مستودعات الذخيرة بالجيش المصري .

١٣٢ ، ج ، د وحدات الانصار بالماظة والداخلية والعريش لتخريب سلاح الطيران او الاستيلاء عليه .

تشكيلات محلية للاستيلاء على مكاتب التليفون والتلغراف والاذاعة والكباري والبنوك ولقطع الخطوط الحديدية .

تشكيلات محلية للاستيلاء على اقسام البوليس والوزارات والمحافظات والمديريات وتجريد الشرطة من السلاح حتى تتفرغ الاورطة رقم ١ ب ج د ٣ مشاة لاحتلال المدينة . ان البكباشي السندوبي والصاغات خيري وزايد وسرحان

رغي خليل كيلون ان يشلوا برجالهم الاورط الثانية والسابعة والثامنة مشاة اسبوعاً كاملاً حتى تستقر الأمور . فاذا أمكن الاعتماد على فتنة تدوم اربعاً وعشرين ساعة من جنود الاورطة رقم هـ و ز ٤ والاورطة رقم ح ط ى ٥مشاة اقتربت اللجنة المركزية من النصر كثيراً . ولكن الأمل كله معقود علىالاورطة رقم ك ل م ن ٦ فرسان ، فهي رأس الحربة في جميع العمليات الحربية . ولا بد من اعادة تنظيم هذه الاورطة . فاذا أمكن شراء اللواء موسى باشا أمين امكن تجريد الاورط رقم س ع ف ص ٧ إلى رقم ق ر ش ت ٨ مشاة من السلاح في ٤ ساعات . وإذا استحال ذلك فلا مفر من نسف مستودعات الذخيرة . ان موسى باشا اجبن جنرال في تاريخ الجيوش واجشع مجاهد في تاريخ الشيوعية . وعندئذ لا يبقى الا المدفعية وفلول البيادة وهي مبعثرة مبعثرة مبعثرة .

ولسوف يكلف حسن مفتاح الجيارباالحصول على الخرائط اللازمة منمصلحة المساحة ،ومن دواوين وزارةالدفاع . وسوف يكون الصاغ الشماشرجي قائد عام وجه بحري والسندوبي قائد عام وجه قبلي . ان حسن مفتاح لن يسمح بنشوب حرب اهلية ، فالهجوم ينبغي ان يكون خاطفاً . لا بد ان تسقط جميع النقط الاستراتيجية في اليوم الاول . ينبغي ان يقتصر القتال على الشوارع فلا يمتد الى الارض المكشوفة . ينبغي ان ينتهي كل شيء في ثلاثة ايام على اكثر تقدير . نعم بعد ثلاثة ايام لن يكون هناك قتال ، فلو طالت الحرب السجال لزحف الانجليز من القنال وكرروا ١٨٨٢ . كلا . كلا . فليوضع الانجليز امام الامر الواقع . فلئن زحفوا فلن يجدوا ابن امرأة من رجال العهد البائد على قيد الحياة . سوف ينتهي كل شيء في اليوم الاول . فلنعدّ القوائم منذ الآن ،فأعداء الشعب كثيرون فاذا اختفى هؤلاء فمع من يتآمر الانجليز ؟ ولكنهم لن يتجاوزوا ثلاثة آلاف سوف يقبض عليهم جميعاً في اليوم الاول . تبدأ الاعتقالات من الواحدة صباحاً قبل بدء الهجوم . سوف يجتمعون في عربات الكلاب إذا امكن. سوف يشنقون جميعاً في اليوم الاول . كلهم بلا استثناء . كلهم . كلهم . بلا محاكمة ،فلا متسع

للشكليات. كلا. كلا سوف يحاكمون . سوف يشنقون توفيراً للرصاص . الرصاص للشرفاء والمشانق للمجرمين . المشانق لأعداء الشعب . في كل ميدان مشنقة . ان نعيماً هو الجلاد الاول .نعيم لا يعرف الرحمة لانه رضع لبان نمرة . غدا يخرج نعيم او بعد غد . لسوف يتنكر له بعض اعضاء اللجنة المركزية من الاغرار ، ولكن نعيماً سوف يفحمهم في اليوم العصيب . وسوف يخيفهم كذلك . وسوف يجعلهم من وقت لآخر يتحسسون اعناقهم . ان نعيماً لا يعوض . عشرة منه ينظفون البلاد لا بد ان له نظائر بين المغمورين ولسوف تكشف عنهم الشدائد . ان حسن مفتاح كان يتمنى ان يتاح له هذا الشرف ولكن مهمته كبرى . ولئن فاته الشرف فلن تفوته اللذة ، فلسوف يطوف الميادين في صبيحة اليوم العظيم ليملأ انفه برائحة الدماء . الدماء ؟ من قال دماء ؟ سوف تكون ثورة بلا دماء. لقد قلنا الف مرة انها سوف تكون ثورة بلا دماء . لن يذبح في الثورة احد ، ولن تسيل من احد دماء . فحقناً للدماء سوف تستخدم المشانق . ان روبسبير وميبيروسان جوست ومارا كانوا يذبحون الاشراف ليثبتوا للعامة ان دمهم ليس ازرق ، ولكن اشراف مصر لم يدعوا يوماً ان دمهم ازرق . لا مقاصل ، لا مقاصل . ان كل شيء رهين بروزنشتاين وبشارة السبع وحمدي وادهم وصابر كذلك ومبروك . سوف يسأل حسن مفتاح مونا ربيع غدا أن تبيع مائة فدان وان تبقي المائة الاخرى . يالها من ملاك ناري . عشرة منها يغيرون وجه الارض . وسوف تصدع مونا بأمره في التو واللحظة . ولكنه لن يأذن لها بالبقاء في اليوم العصيب . سوف يرغمها على الخروج بماجدة الى سويسرا أو الى باريس عشية الانقلاب . ان مونا يجب ألاّ ترى كل هذه الجثث . ثم هب اللجنة المركزية قد فشلت في رسالتها ؟ كلا . كلا . الأمان لمونا قبل كل شيء . فان لم تخرج مونا فلن تكون هناك ثورة . ان مونا عنيدة وفيها من نعيم شيء كثير . ولكن شعرة من رأس مونا تساوي عمال العالم متحدين . ما هذا الهذيان ياحسن مفتاح ؟ ما هذا الضعف ياحسن مفتاح ؟ ان مونا سوف ترفض مستكبرة ان تتخلى عن واجبها . واذا شاءت مونا ربيع ان تبقى ،

فليكن لها ما تشاء . ان نساء الشعب الفرنسي كن يتجمهرن حول المقصلة كل صباح في ميدان الجمهورية ويتسلين بشغل الابرة والرؤوس تهوي . سوف تجتمع نساء الشعب المصري حول المشانق ويقزقزن اللب كلما تدلى من الحبل باشا . سوف يكون اللب بالمجان في الأيام العشرة الأولى بأمر من كوميسارية الشعب . ولكن ينبغي أن توضع خطط الدفاع على أساس حربي لا على اساس ثوري . فمن يدري ؟ اليس جائزاً ان يتدخل الانجليز ؟ بل مؤكد ان يتدخل الانجليز . وعندئذ يرى العالم كله ان الانجليز يحولون بين الشعب المصري والنظام الذي يريد . اليس جائزاً ان يتدخل الانجليز ؟ ان الشعب المصري لجيش لا يخاف المصري . ثلاثة ايام لن تسمع في البلاد طلقة . ان جنود الجيش المصري من ابناء الشعب . وسوف ينضم جنود الجيش المصري الى الشعب . ترى ماذا يحدث لو تدخل الانجليز ؟ الموت للانجليز فليكن خط الدفاع الاول التل الكبير . فلتوضع خطط الدفاع على اساس حربي لا على اساس ثوري . فليكن خط الدفاع الاول التل الكبير . وليكن خط الدفاع الثاني منطقة القاهرة . وليكن هناك خط ثالث ورابع وخامس للدفاع ولو اقتضى الامر التراجع الى صحراء العطمور . اما التسليم فمحال . ان الشعوب لاتسلم وانما يسلم الخونة . لا بد من بنادق . لا بد من ضمانات . ان سلاح القطر لايكفي . وعندئذ سوف تقف احقر قرية وقفة جرنيكا . ضمانات ؟ نعم . نعم . لا بد من مؤتمر . في بيروت . في الشهر القادم . ان مفتاح مصر في بغداد . لقد قلنا الف مرة ان حركة التحرير القومي هي حركة التحرير الشعبي . وكيف ننتصر ؟ الامل في بيروت . الامل في دمشق . الامل في بغداد . الامل في الخرطوم . ان البروليتاريا المصرية عزلاء امام الانجليز . نعم . لامفر من الكفاح المشترك . ان سلاح القطر لايكفي . لقد قلنا . لو استمعت اللجنة المركزية لما اقول اقمت حكومة الشعب يوم ١١ يوليو « لو » ، « لو » « لو » . غدا اثبت لهم كل شيء . نعم ، ١١ يوليو يوم ملائم ، فهو عيد ميلاد مونا ربيع وهو أول يوم عرفها فيه بمعرض الفن التكعيبي في الكونتنتال فغرست اهدابها الطويلة السوداء في قلبه فالهمته عظائم الامور . انه يوم خالد ومذكور . لسوف يهدي حسن مفتاح الى

مونا ربيع القاهرة في عيد ميلادها القادم . ولكن لا . ان ١١ يوليو يوم ملائم فهو بعد محصول القمح . نعم ، ١١ يوليو يوم ملائم فهو قبل محصول القطن . من يستولي على القطن يستولي على مفاتيح المملكة . اذا امتلك الشعب القطن فبماذا يحارب اعداء الشعب ؟ ولكن لا بد من تنسيق الثورة الشعبية في جميع بلاد الشرق الاوسط حتى يحصر الانجليز من كل جانب وتردم القنال بجثث الانجليز . بدقة كرونومترية اذا امكن . لقد قلنا ان الكفاح مشترك . فاذا انتشرت في الهند القلاقل اتسع الخرق على الواقع . وايران ؟ ان الخير كله في رامز ورجاله ولكن رامز أهوج لايفهم معنى الصبر . فلتحطم جامعة الدول العربية ولتبنَ جامعة الشعوب العربية . لقد قلنا .. التنسيق . التنسيق . التنسيق . لا بد من مؤتمر . فليجر التدريب منذ الآن . في عزبة مونا ربيع . في سنتريس . في صحراء المقطم عند بحيرة قارون . ان البرد شديد ، وقد كان ينبغي ان يشرب حسن مفتاح فناجين لاعدد لها من الشاي بدلاً من فناجين القهوة التي لاعدد لها . ثم ان شعور الغثيان يمسك بحلقه . اتراه الافراط في القهوة ؟ ان هذا الشعور اقرب الى الاختناق منه الى الغثيان . انه يعرف هذا الشعور من قبل . ان هذا الشعور كان يجعله يرفع يده كل دقيقتين ليتحسس عنقه . وهو يفعل ذلك الآن ونهض حسن مفتاح وفتح باب غرفته قاصداً المرآة . ووقع بصره على الكومودينو فلم يرَ ، القط الاسود ولا صورة البنت العارية . وغضب لذلك قليلا . كان ينبغي ان تضع مدام ماريكا قطاً جديداً اسود مكان القط الذي تهشم . ان هذه المرأة لا تعرف كيف تدير البنسيون . لماذا لم تأته بتمثال من البرونز مكان القط الذي تحطم ؟ سوف يسألها ان تأتيه بقط من البرونز ،وسيتولى هو دهنه بالطلاء الأسود . ان غرف النزلاء ينبغي ان تزود بالسلاح . السلاح ضد الاحياء والسلاح ضد الاشباح . ثم ندم حسن مفتاح على غضبه . انه دخل الغرفة الف مرة قبل الآن وكان بصره يستقر من وقت لآخر على الكومودينو العاري فيفكر في القط الاسود الناقص لحظة ثم ينصرف تفكيره الى ما هو اجدى . وبعد قليل نسي القط الاسود وصورة البنت العارية ونسي كل ما كان . ترى ما سر امتعاضه هذا الصباح ؟ أعاد اليه خوفه من الاشباح ؟ ولكن أي اشباح يخاف ؟ ان روح فؤاد

منقريوس سجينة في شجرة الجميز ، وهو منها في أمان الف سنة اخرى . ثم هب المحظور قد وقع ، هب روح فؤاد منقريوس قد افترست علي عبد الله ولبسته بعد ان تركه حسن مفتاح في الامريكين. ان عشرين فؤاد منقريوس أو علي عبدالله لا يخيفون حسن مفتاح . ثم ما حاجة حسن مفتاح الى قط اسود أو قط أبيض ان الارواح تخاف منه اينما حل وتفر فرارها عند مقدم السحرة ؟ ولو شاء حسن مفتاح ان يصطاد مائة روح من الارواح الهائمة في الهـواء ، وان يسجنها في مطبخ مدام ماريكا لفعل . ان حسن مفتاح لطول ما مثل دور البشر قد نسي انه ليس بشرياً . ولكن كيف ينسى حسن مفتاح هذه الحقيقة الرهيبة ؟ ترى هل حدث اندماج تام بين روحه وجسد سيد قنديل حتى خرج منهما كائن واحد لا خدش فيه ولا اثر للازدواج ؟ هذا جائز . ولكن كيف يفسر خوفه الآن من الكومودينو العاري ؟

وانصرف حسن مفتاح الى الدولاب ، ولم ينسَ ان يتحسس عنقه . كان في الظاهر يصلح رباط رقبته ولكنه كان في الواقع يتحسس عنقه . وتطلـع الى وجهه في المرآة فارتاح الى مرأى لحيته القصيرة الناعمة السوداء ، فذهب يسويها بأنامله . وارتاح الى تحسن صحته . ولكنه لم يرتح الى شيء رآه . فقد خيل اليه ان نواجده قد نمت قليلا . نواجده الأربعة ، نمت قليلا جـداً ، ربما مليمتراً واحداً ، ولكنها نمت على كل حال . وأجاد النظر الى اسنانه فرأى ما كان قد رأى . فارتاح ولكنه هدأ نفسه . ان كل هذه اوهام . لو ان نواجده قد طالت حقاً لازداد منظره شراسة ، لاقتربت هيئته من هيئة الذئاب . ولكن هيئته اليوم هي هيئتـه بالأمس ، وهي هيئتـه قبل عام ، وما هو بأشرس منظراً مما كان .

ولكن أني له ان يحكم ؟ ان لاصدقائه ان يحكموا ، اما هو فـلا سبيل له الى المعرفة . واصدقاؤه ما زالوا يأنسون اليه كما كانوا يفعلون . ولقد غاب عنهـم وعاد اليهم فلم يشك في هويته أحد . يا لهم من أغبياء . نعم ، ان اعضاء اللجنة

المركزية كلهم اغبياء ليس بينهم واحدتفرس في وجه حسن مفتاح قليلاً وسأله:
« لم اطلت الغياب يا حسن ؟ » « من اين لك كل هـــذه الحيوية يا حسن ؟ »
« أحدث لك حادث في الاسكندرية يا حسن ؟ » ليس منهم واحـد تفرس في
وجهه طويلا ثم اقشعر لما رأى او اقشعر لما لم يرَ ، أو جمـد في مكانه من فرط
الحيرة ، او ازورّ عنه ببصره لسبب لا يعلمـه . ليس بينهم واحد شهق وقرأ
الفاتحة . ومدام ماريكا والخادم فهيمة وبائع السجائر في ملتقى شارع الشواربي
بشارع الملكة فريدة ، وعم حمدون، وزبائن ايزافتش وجرسونات القاهرةواعضاء
« البعث » كلهم . كلهم . ما من احد منهم بدا عليه الارتباك او بدا عليه انه
يريد أن يسأل سؤالاً . يالهم من اغبياء . يالهم من بسطاء . ولكن مونا ربيع
وحدها هي التي كشفت سره ؟ من قال ان مونا ربيع كشفت سره ؟ ان سره
في قمقم مختوم راقد في أعماق المحيط ، ولسوف يبقى هناك حتى تلفظ الارض
اسرارها إلى السماء . ولكن مونا ربيع وحدها هي التي تفرست في وجهه طويلا
فرأت اشياء كأنها الطلاسم التي ضاعت مفاتيحها. ولكن اعضاء اللجنةالمركزية
ومدام ماريكا وبائع السجائر والحلاق والجرسونات وزملاء الدراسة ومعارف
القهوة وفهيمة وكل هؤلاء ليسوا بأغبياء بسطاء . انهم لم يشكوا في امره فما كان
فيه ما يدعو إلى الشك . ان مونا ربيع ذاتها قد جاءته في المساء الاول تذكره
بوعده وتعرض نفسها عليه . ان مونا ربيع قد جالسته ساعة أو يزيد وشربت
معه من الشاي أقداحاً عداداً ، واستمعت الى حديثه طويلاً فلم تشتبه في شيء .
ترى ماذا حدث حتىتنكرت له مونا ربيع؟ انه لايذكر انه اتى مايثير الشبهات
ولكن مونا ربيع لم تتنكر له ، فهي لم تكف عن حبه لحظة واحدة ، وانمـــا
جدت في نفسها هواجس مدمرة . وهل ينسى حسن مفتاح ليله المتروبوليتان ؟
انه لاَيذكر انه اتى ما يثير الشبهات . ترى ماذا بدل موقفها منه ؟ لقد كانت
من قبل تقبل على قبلاته بقوة ، ولكنها أمست لغيرها ما سبب معلوم تستقبل
قبلاته وهي صاغرة . لقد كانت من قبل متفتحة الحواس تكاد ان تلتهمه التهاماً
كلما اخذها بين احضانه ، ولكنها امست لغـير ما سبب معلوم تسترخي بين

ذراعيه وتغمض عينيها كأنها لا تقوى على النظر اليه ، وتترك نفسها جملة لرحمته.
ترى ماذا حدث ؟ انها لاتعرف عن حقيقته شيئاً . وهذا لا يقبل الجدل ، فلو قد عرفت عن حقيقته شيئاً لفرت منه فرارها من مجنون هائج يلوح بخنجر في الهواء ، لانطلقت الى غرفتها وايقظت ماجدة وحملتها بين ذراعيها وفرت من المتروبوليتان ومن القاهرة بل ومن مصر كلها . انها لاتعرف عن حقيقته شيئاً، فكل ما يقرؤه في عينيها هو الحيرة ، الحيرة الشديدة . وهو لايقرأ الحيرة في عينيها دائماً ، فقد تمر الاسابيع دون أن يبدو في سلوكها انها تشك في حقيقته.
وهي مع ذلك تشك في حقيقته . مونا ربيع وحدها تشك في حقيقته . ترى ماذا فعل ؟ كلا . انه لم يفعل شيئاً . ان حسن مفتاح قدابدى غباوة ليس بعدها غباوة . كيف خفي عنه ذلك قبل الآن ؟ ان مونا ربيع تشك في حقيقته لأنها تحبه . اما الآخرون فكيف يشكون في حقيقته ؟ إنهم لم يعرفوا حسن مفتاح القديم فكيف يعرفون حسن مفتاح الجديد ؟إنهم يأتونه بأباريق الشاي ويبيعونه السجائر ويجادلونه في السياسة ويقصون شعره ولكنهم لايعرفون من هو . بل ان منهم فتيات يعرفنه أكثر مما يعرف الناس الناس ولكنهن رغم ذلك لايعرفن من هو . كل هؤلاء لم يعرفوا حسن مفتاح القديم فكيف يعرفون حسن مفتاح الجديد ؟ أما مونا ربيع فهي تعرف من هو . وهي تعرف من هو لأنها تحبه .
وقد كشف الحب عن بصيرتها فالحب يكشف عن البصائر وعرفت هويته .وقد عرفت هويته منذ يوم الكونتنتال ، أو لعلها عرفت هويته ليلة المونسنيير ؟ من يدري ؟ هي تدري . سوف يسألها . ولكن كيف يسألها ؟ انه التقى بعايدة علم بعد عودته الى اللجنة المركزية مراراً في الطريق العام وفي المجتمعات بمفردها وبصحبة زوجها ولكنها لم تشك لحظة في حقيقته بل قدمته لزوجها والى صاحباتها وثرثرت وثرثرت ولم تشك لحظة في حقيقته . ان عايدة علم لم تشك في حقيقته لأنها لم تكن تعرف حقيقته . إن عايدة علم لم تعرف من هو حسن مفتاح في يوم من الأيام ، فكيف تشك في هويته ؟ ان عايدة علم لم تحب حسن مفتاح في يوم من الأيام فكيف تعرف هويته ؟ ولكن مونا ربيع وحدها قد شكت في

في حسن مفتاح الجديد لانها كانت تعرف حسن مفتاح القديم . تعرف من هو . هو الحب . نعم هو الحب . وهل يهتك الحجب الا الحب ؟ إن في العالم الفي مليون نسمة ، وهم يستيقظون ويتلاقون ويتسامرون ويشتركون في العمل ويتراقصون ويتواقعون ، وربما يتزوجون لكنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً ، إلا نادراً . ماهذه الآراء السخيفة يا حسن مفتاح ؟ ربما . من يدري ؟ نعم ؛ لا شك انه الحب ، وإلا فكيف شكت مونا ربيع من دون خلق الله في حقيقته ؟ ولكن كيف شكت مونا ربيع في هويته ؟ إن الكلاب تعرف بوجود أصحابها دون أن تراهم إن الكلاب تشم رائحة أصحابها . من يدري ؟ لعل للمحبين حاسة يحسون بها أحباءهم غير الحواس الخمس . من يدري ؟ ان مونا ربيع كانت في المساء الاول مضطربة ، فلم تشك في شيء ، فلما هدأت نفسها وقفت على الحقيقه أو وقفت على أعتاب الحقيقة .

ولكن حسن مفتاح فكر في كل شيء إلا في القبلة الكبرى تحت النور القوي في مدخل البنسيون ، حين التقت عيناها بعينيه ثواني قليلة رأت فيها مونا ربيع ما جعلها تقشعر وتعرق . ومن بعد ذلك صارت مونا ربيع كالمذهول زمناً . وما كان لها أن تشك في أمر حسن مفتاح لولا أنها رأت وراء انسانية انسانين آخرين خيل اليها انهما لرجل آخر . وكانت في كل مرة تنتهي من الحيرة بالحيرة حتى يئست من التفكير . ولكنها علمت ان بالأمر لغزاً لا بد من حله . فان لم يكن بالأمر لغز فلا أقل من ان حبيبها هذا فيه عنصر لا يدخل في تركيب البشر .

لقد وصلا منـــــذ ليلة المتروبوليتان إلى سكة مسدودة . والايام مضت والاسابيع والشهور ، وهما يلتقيان في اليوم الواحد جملة مرات ، ولقد يلتقيان في أوقات لم يألفهـا الناس ، فإن غاب حسن مفتاح أياماً بحكم عمله طرق باب مونا ربيع قبل أن يطرق باب اللجنة المركزية . وكانت الشهور الأولى عصيبة حقاً لأن مونا ربيع كانت تقوم بأربعة أدوار أو خمسة كلها مرهقة . فهي تلعب دور الأم التي تسهر على ماجدة وتلاعبها وتعلمها مبادىء القراءة والكتابة حتى

يبدأ العام الدراسي الجديد . وهي تلعب دور المطلقة التي تدخل مع زوجها السابق في حرب سجال من أجل ابنتها ، ولقد رأت من بيبة ربيع بك ألواناً من العنت تهد الجبال الرواسي . وهي تلعب دور التلميذة ذات الفضول الشديد التي تريد أن تقف على ذلك السر الخطير الذي يجعل أمثال حسن مفتاح من الرجال المعقولين يعرضون أشخاصهم لألوان من العذاب دونها عذاب الصوفيين . ولقد كان هذا أشق الأدوار على نفسها ، فقد ذهبت تزدرد ماركس وانجلز ولينين بالفرنسية ثم تزدرد أدب المنشقين وأدب المنقحين وأدب المنحرفين حتى عرفت كل ما يعرفه حسن مفتاح أو أوشكت ، ولكنها رغم ذلك لم « تفهم » مما قرأت شيئاً بل ظلت على عجبها الأول من « فناء »هؤلاء الفتيان المساكين في « الانسانية » . لقد كانت مونا ربيع تطيل النظر إلى حسن مفتاح ثم تقول لنفسها : « أنا أفهم أن يكون حب الانسانية حرفة ومستقبلاً ، أما هذا النوع من التفاني فيقصر عن ادراكه فهمي » . ولم يكن حسن مفتاح يجادلها في الشئون العامة ولا في الافكار العامة خشية أن يترجم اعتراضاتها بأنها احتجاج على سلوكه في الحياة . ان عالمها لا يزال عالم اندريه بريتون ولويس اراجون وسلفادور دالي والباليهات ذات الاجنحة الوضاءة وأقدام الحور ، وهي راضية بهذا العالم كل الرضا . أما « الانسانية » فقد رأت منها مونا ربيع ما فيه الكفاية منذ أن تزوجت من عبد السلام بك ربيع ، وقد دلها اختبارها على أن الانسانية لا يمكن أن تنقذ ولا تستحق أن تنقذ . ولم تكن مونا ربيع تكره الرعاع بل كانت في صميمها تأنس إليهم وتقرأ في عيونهم آلامهم وقلة حيلتهم وسذاجتهم ، ولكنها كانت في نهاية الأمر تهز كتفيها وتنتهي إلى فلسفة « انج بجلدك » . غير أنها كانت كذلك تجزع أمام الجماهير جزعاً مسرفاً فقد كانت تحس في قرارتها بأن الجماهير تتآمر بها وتكيد لها وتحاول أن تسرق منها عالمها الجميل كما سرقته من حسن مفتاح . وكلما لعبت في صدرها هذه الخواطر كانت تنهض من مكانها وتقبل على ماجدة تدللها في افراط شديد وتغمرها بقبلاتها وتعبث بشعرها عبثاً جنونياً وتهذي أمامها بما لا تفهم من الكلام ، أو تقصد الى البيكب وتضع

« سيرناد » شوبرت أو « دراسات »شوبان ، فيعود الى نفسها السكون . وكانت من حين لآخر تتعذب عذاباً واضحاً حين تقرأ عن الاوبئة التي تحصد الفلاحين ، أو تسمع بأن كاتباً من كتبة دائرتها قد اخرج ولده من المدرسة لعجزه عن سداد الرسوم ، أو يقع بصرها على الآلاف من أسمال القاهرة طريحة على أرصفة الشوارع أو محتكة في المارة تشحذ الملاليم ، فيستيقظ في قلبها إحساس بأنها شريكة في الجريمة يتحدث عنها حسن مفتاح ويساعدها على لبس سترتها ويخرج بها الى الزحمة الكبرى أو الى النسيان في السينما .

ولكن مونا ربيع كانت في أكثر أوقاتها في حال سوية ، لا تأذن لهذا الصراع بأن ينخر قلبها ، بل كانت راضية تقترب كل يوم من السعادة . وكانت تجلس أمام مرآتها كثيراً تتأمل وجهها وتطليه وتفكر .تفكر في أنها قد عثرت أخيراً على غرفة لا يستطيع ربيع بك أن يقتحمها ،فتغبط بالحياة كأنها عصفور سجين قد انطلق الى الرحاب الزرقاء . نعم ، لقد فرت في الوقت المناسب قبل أن يحطمها ربيع بك نهائياً . وهكذا التأمت جراح الماضي أو كادت . لقد تعلمت ألا تطلب من الحياة كثيراً،ولقد اوتيت كل ما تطلب . إنها لا تظفربالمتع الكبرى ، ولكن هذا لا يهم .إن ربيع بك وجوّه القاتل بعيدان عنها . وهذا نصف السعادة . أما نصفها الآخر فهو ماجدة . وحسن مفتاح ؟ كلا . إن حسن مفتاح لا يدخل فيحساب السعادة . الرجال لا يدخلون في حساب السعادة . إن للرجال عند مونا ربيع حساباً آخر . لقد جربت حظها ثلاث مرات . الشاعر الايطالي ستيفانوتيرا مات فجلب من الهم أكثر مما جلب من السعادة . جلب عبد السلام ربيع فيما جلب . وعبد السلام ربيع كان ينبغي أن يموت ، ولكنه لم يمت ؟ وقد جلب من الهم أكثر مما جلب من الأوراق المالية . وهذا الثالث حسن مفتاح . ماذا جلب ؟ انه لم يجلب سعادة ولا هماً ، ولكنة جلب الثقة بالحياة . والآن ، بعد أن وثقت مونا ربيع بالحياة ... والآن ، أين هي الحياة . انها ظنت يوم زارت

٢٢ شارع الملكة فريدة انها قد اقتربت من السعادة الدائمة ، من النضرة الدائمة ، من المرح الدائم ، من اللذة الدائمة . ولكنهـــا خرجت من ٢٢ شارع الملكة فريـدة بالحيرة الدائمة . شيء رأته في عينيه ، ذكرها - لا تدري كيف - بالكلاب المسحورة في « ألف ليلة وليلة » أوفي « فاوست » جوته ، فأقام بينهما حاجزاً . ولكن كان ينبغي أن تنتظر شيئاً من هذا منذ البداية . كيف تنتظر السعادة من مثل حسن مفتاح ؟إنه عبقري ،والعباقرة قطع من الجحيم .إن حسن مفتاح بطل من أبطال التاريـخ ، وابطال التاريخ تلمع حولهم الخناجر ويمشي الموت في ركابهم . الثقة في الحياة . ها ، ها . ولكنها لن تسمح لحسن مفتاح أن يشقيها . لقد شقيت بما فيه الكفاية . ومع ذلك فهي سعيدة . أشقية هي ؟ انها سعيدة ما في ذلك شك . قد لا تعرف انها سعيدة ، ولكنها لا شك سعيـدة . ان البقر والانعام والطواويس والحيات لا تفكر في السعادة ولا تطلب السعادة، وهي مع ذلك راضية . من قال ان السعادة حق من حقوق البشر ؟ ان حسن مفتاح لا يدخل في حساب السعادة لأنه لن يملك إشقاء مونا ربيـع . نعم ،سوف تتعلم كيف تحب في يأس ، وقد تعلمت ، فينبغي ألا تنسى أبداً ما قد تعلمت . حتى حين يأخذها حسن مفتاح بين ذراعيه ويقبلها ينبغي أن تيأس . الأمل ممنوع . لا أمل . حتى حين يناجيها حسن مفتاح بأعذب الكلام . وكيف تستسلم له ؟ انها تحب أن تقول أولاً : « من تكون ؟»فيجيب : « أنا حسن بن يقظان. جئت من وادي الجـــان أو من أرض النار أو من جزائر البنجوين . مهمتي سحرية ، وسوف أعود من حيث أتيت على متن رخ عجوز . بل أنا العنقاء . ومنزلي في معبد الشمس بين أحراش النخيل ، هناك تحت شمس الشروق » . أما هذا فلا . انها تقبل أن تتزوج أميراً من امراء الجان إذا عرفت حقيقته . ولكن انى لها أن تعرف حقيقة حسن مفتاح ؟ انها لثلاثة أشهر خلت قد ضعفت أمام حبها وقررت أن تستسلم له فذهبت تهذي طول المساء عن الزواج والأزواج ، فرأى حسن مفتاح منفذه وجدد العرض القديم . وحين جـــدد حسن مفتاح العرض القديم لم تجب مونا ربيـع بلا أو نعم بل ضحكت بمـــا جدد في نفسه

الأمل . ولم تدخن طول ذلك المساء . انها تذكر جيداً أنها لم تدخن طول ذلك المساء . وحين عاد بها الى بابها دخل كالمعتاد ، وامتـــد بصره الى فراش ماجدة فلم يجدها فقال : « غداً نزورها معاً في المدرسة بالشكولاته » ، واقتادته مونا ربيع حيث وقفت به تحت النور الكهربائي مباشرة بجوار الفراش الكبير . وفي الخطوات القليلة بين الباب والنور الكهربائي شحب وجهها ايما شحوب ، ولكنها تكلفت ما كانت فيه من مرح سابق.ورأي حسن مفتاح شحوبها ورأى أسنانها الجميلة المبتسمة فحار بين الشحوب والابتسام ، وبدت الحيرة على وجهه غباوة كالعادة ، وانقطع الكلام قليلاً ، ولكنه عاد يهرف بألفاظ متقطعة عن ناظرة المدرسة ومعرفته بها ثم أخذ يهرف بقبل متقطعة على يد مونا ربيع . أما مونا ربيع فقد كان قلبها يدق دقاً عنيفاً رغم اطمئنانها الظاهر ، فقد اعدت كل شيء للتجربة الكبرى . انها لا شك كانت مخدوعة فيما رأته يوم زارت ٢٢شارع الملكة فريـدة ، لأن ما رأته لم يرد حتى في الأساطير . ولكن قبل أن تستسلم له ، قبل أن تقول : « نعم » لا بد أن تطمئن . ولقد كانت مطمئنة ومع ذلك فقد كان قلبها يدق دقاً عنيفاً.محض وهم ما رأت لأن ما رأت لم يرد فيالأساطير . ومع ذلك فلا بـــد أن تطمئن لقد قادته تحت النور رأساً لتكرر ظروف التجربة . ولم يكن حسن مفتاح يعلم أنه سائر الى الفخ وقال عابثاً : « كل يوم في تحسن . كلا يوم نقترب من السرير قليلاً . » وقدمت لهشفتيها وضمته اليها ،فقبلها قبلة طويلة . ولكنها لم تغمض عينيها هـــذه المرة . وكان لا بد من الشجاعة فتشجعت . والتقت عيونها طول الوقت .وكان النور منشوراً على وجهه متجمعاً عند عينيه . وتفرست مونا ربيع في انسانيه طولالوقت كأنها تتفرس في كرتين من البلور البني الشفاف ، ولم تختلج أهدابها ثانية واحدة وبدا على مونا أنها منومة مغناطيسياً . ولكنها لم تكن نائمة . وحين رأت ما فيه الكفاية كانت يده اليمنى تدلك ظهرها برفق . وأبعدته عنها بابتسامة حزينة ومشت به الى الباب فخرج ثم أغلقت الباب بالمفتاح ، وسعت الى فراش ماجدة وتمددت عليه تدخن ، وخلعت حذاءها وقذفت به بعيداً . كلا . هذه المرة لا مجال فيهاللشك.

وراء كل حدقة حدقة . بل إن الحدقتين الداخليتين بلون البندق الثقيل وحدقتا حسن مفتاح بلون البندق الخفيف . ثم هناك الحزن العميق في قاع عينيه . يا له من حزن عميق . ان حسن مفتاح ليس في عينيه حزن وإنما في عينيه هدوء ووداعة . كلا . كلا . هذه المرة لا مجال فيها للشك . وفي تلك الليلة لم تنم مونا ربيع قبل الفجر العريض .

كل ذلك حدث منذ ثلاثة أشهر . وبه عرفت مونا ربيع ان اليأس مفتاح السعادة . ان حسن مفتاح وكل ما في العالم من رجال لايدخلون في حساب السعادة فهي لن تأذن لأحد أن يفتت قلبها بعد كل ما كان . ولم يكن يسيراً على مونا ربيع ان تقبل هذا الوضع نهائياً . فكثيراً ما كانت تنهار امام حسن مفتاح وتوشك ان تأذن له بالبقاء طويلا ، طويلاً جداً . وكثيراً ما كانت تقضي الليالي مؤرقة الجفن فتدفن أحزانها وأشواقها في احصاءات فارجا وفي كتب بتلهايم وجبران . ثم تحولت مشكلاتها العاطفية الى مشكلة واحدة محدودة في الجنس فكانت سياط الجنس تلهبها دون ما رحمة كلما خلت الى نفسها بعد منتصف الليل ، فكثر سهرها في الفراش وامتد نومها الى العاشرة صباحاً وما بعدها . وبعد قليل أدركت ان هذا الشبح الجديد أشد فتكاً بها من الشبح القديم فحنت الى الحب القوي الغامض الذي تحولت به أشواق الجسد الى دفء خفيف متصل ولون من الغيبوبة المقيمة التي اشتملتها اشتمال السحابة السحرية الملونة واقامت بينها وبين الاشياء حائلاً من الزجاج الوردي . حنت الى الحب القوى الغامض الذي كان من قبل يجعلها تذوب ذوباناً كلما سمعت « تريستيس » شوبان ولو من أردأ العازفين وتسهم سهوماً كلما سمعت الصندوق الموسيقي يلعب في الشارع « السماوات الزرقاء » و « ساعابو » . وكانت تغني . فلما تكدست في جسدها احساسات الجنس المحروم وخرجت واضحة لاذعة لاسبيل إلى اسكاتها ، لم تعد تنام على الاحلام بل باتت تتقلب في فراشها . واكتشفت فجأة ما للأرقام من قوة سحرية فأقبلت على الوان من الدراسة اجف من الهشيم اليابس . وهدأتها تقارير

الشركات وصفحات الدليل العام ، ولكن بمقدار . وكانت تفكر في المستقبل بجزع عظيم . انها كانت تعرف الحب الذي كان يخرجها من الفندق في رابعة النهار ويسوقها إلى المعارض أو السينمات أو إلى كوبري قصر النيل حيث الشمس والنهر وبسطاء الناس يستمتعون ببساطة الحياة . اما هذا الغول المفترس فقد كانت تخافة ولا تدري ايان يسوقها أمامه . لقد كان يجثم على صدرها كأنه الكابوس المفزع كل يوم ، وخاصة بين الثالثة والخامسة وبعد منتصف الليل . لقد كان يملأ انفاسها ضيقاً وينشر الظلمة امام عينيها . واشتدت به شراستها حتى اشتكى منها الخدم فصارت تعتذر اليهم في كل يوم مرات ، ويشتد به قلقها فلم تعد تستقر به على شيء طويلا . وأخذت تراجع ما في رأسها من القيم بسرعة جنونية وشكت في الحياة . ولمَ حسن مفتاح ؟ ان حسن مفتاح ليس الرجل الوحيد في هـذا الوجود . وما عيب عامل المصعد إن عامل المصعد قوي وجذاب وهو مؤدب إلى حد متعب . إن عامل المصعد ليست له حكاية وليست له اطماع وليس في عينيه بريق مخيف. نعم، ما عيب عامل المصعد ؟ انه نظيف ولا شك انه يستحم كل يوم ، فان لم يكن كذلك امكن تعويده على ذلك . ان عامل المصعد قوي وجذاب ، وهو فوق كل شيء مؤدب كأنه جنتلمان . او النشار محامي دائرتها النشار لاعيب فيه . متزوج ؟ وماذا يهم ان يكون متزوجاً ؟ ان غير المتزوجين يحملون في عيونهم بصيصاً غير مألوف . كلا . انها لاتطيق ان تعاشر رجلا غبياً . كل شيء يغتفر الا الغباوة . عامل المصعد يبتسم كأنه . . . ان حسن مفتاح يقف عثرة بينها وبين السعادة ، ولكنها رغم ذلك تحبه . لماذا تتزوج من حسن مفتاح ؟ ؟ ان كآبتها •• ولم الكآبة ؟ ان بعض النبيذ كالعقيق المذوب وفيه تغرق الأحزان ولكنه لم يعد ينفع . النبيذ للمحبين المعاميد • أما هذا الضيق الخانق فلاسبيل الى اغراقه الا في الجن الكريه أو بمرارة الويسكي الأشقر الطروب • ان « تريستيس » شوبان قد غدت تافهة غير ذات موضوع • والبلهوان الغبي الذي يعزف بصندوقه في الشارع اسخف التانجوات العاطفية ينبغي ان يتعلم ان السوينج الحامي هو لغة الحب الحقيقية • ولكن حسن مفتاح لا يحب

السوينج الحامي . ترى ماذا يفعل حسن مفتاح ؟ انه لا شك يجوع كما تجوع سوف تسأله في اول مرة تراه : « وماذا تفعل يا حسن حينما تجوع ؟ » وسوف يجيبها في صراحة . يا له من سؤال . انها تعرف ماذا يفعل حسن مفتاح حينما يجوع. تليفون لبدرية او رسمية اوفوزية. كلا . تليفون لعايدة، فكل بنات الهوى اسمهن عايدة . كل ذلك لقاء خمسة ويسكي وهدية آخر الشهر . قوانين للرجال وقوانين للنساء من هذا الذي وضع للنساء شريعة غير شريعة الرجال ؟ ان نظريات انجلز قد تحل مشكلات الانسانية ، ولكنها لا تحل مشكلة مونا ربيع. التاريخ. التاريخ التاريخ . كل هذا سيزول في النظام الشيوعي . النظام الشيوعي آتٍ لا ريب فيه . سنة التاريخ . يا لحسن مفتاح من معتوه ! واين تكون مونا ربيع حين يأتي هذا الذي لا ريب فيه . الموت للانسانية . الموت للاغبياء . أمن أجل هذا يسميني حسن مفتاح بالفوضوية ؟ من هذا الاحمق الذي كتب لحن « كاتاري » ؟ ان مذكرات اللجنة المالية اقرب الى الحياة من هذه النوستالجيا الرخيصة . ان عامل المصعد يحرك فيها نوازع الجنس كلما انفردت به داخل المصعد. لماذا لا ينكسر المصعد نصف ساعة لتجد المناسبة للتحدث اليه ؟ سوف تكف عن قراءة التقارير الجافة وتعود إلى قراءة « الكوليكسيون جولواز » كما كانت تفعل ايام ان كانت في مدرسة الميردي دييه فتقترب بذلك من الحياة اشواطاً . وبعد أن تقرأ « الكوليكسيون جولواز » كما كانت تفعل أيام أن كانت في مدرسة الميردي دييه فتقرب بذلك من الحياة اشواطاً . وبعد ان تقرأ الكوليكسيون جولواز ؛ سوف تعرف ما ينبغي ان تقوله لعامل المصعد . سوف تعرف كيف تدعوه في يوم راحته إلى نزهة في عزبتها . فان لم تفعل ذلك ... نعم ان قراءة الأدب المكشوف خير من قراءة مضبطة مجلس النواب . لكن حسن مفتاح هو المسئول . حسن مفتاح هو الذي وجه افكارها الى عامل المصعد ياللعار . كيف تفكر في عامل المصعد ؟ وماذا يقول الناس ؟ ولكن حسن مفتاح هو المسئول . انها ظلت تصعد مع عامل المصعد شهوراً وشهوراً ، تصعد كل يوم مرات ، ولم تلتفت لحظة الى وسامته . لم تلتفت الى قوته الصريحة التي

تعلن عن نفسها في كل جزء من اجزاءجسمه تحت اليونيفورم الزرقاء . ولكن حسن مفتاح هو الذي لفت نظرها إلى ذلك . الم يقل في ذلك المساء الغريب بعد ان هبطا معاً الى الصالون الكبير : .ان عاملالمصعد وسيم ؟ لقد اجابت : «اظنك على حق . انا لم الحظ ذلك قبل الآن . » قال : « وما اسمه ؟ » لقد اجابت : « عباس » . قال : « الا تعتقدين ان عامل المصعد وسيم »؟ فنظرت اليه عاجبة لهذا الالحاح ، وخيل اليها ان صوته النفاذ كان انفذ من أي وقت مضى ، وخيل اليها ان نبراته كانت تتهكم . واوشكت ان تغضب ، ولكنها قرأت في عينيه شيئاً من الألم والهدوء فأجابت : « اعتقد انه اوسم من رأيت من الرجال » . وذهب حسن مفتاح يلغو بعض الوقت حتى كادت ان تنسى الموضوع . ولكنه عاد اليها يقول : « لا شك انك ترتاحين الى عامل المصعد يامونا ؟ » فأجابت عاجبة : «نعم ،يا حسن » .قال،وكأنه يحدثنفسه : « إنعامل المصعد وسيم؟» فأجابت مونا ربيع وهي تكتم عواطفها : « نعم » وهو مؤدب كأنه جنتلمان ان الابتسامة لاتفارق شفتيه » . وتمنت أن ينتهيالحديث عند هذا الحد .ولكن حسن مفتاح نظر اليها نظرة فيها تهكم واضح وقال : لا بد ان تكافأ الوسامة . ان المجتمع الرأسمالي لا يكافىء الوسامة » .فأجابت متهكمة :« وهل ستكافئون الوسامة في المجتمع الشيوعي ؟ » قال حسن مفتاح وكأنه لم يسمع كلماتها : « ان المجتمع الرأسمالى يقيم المعارض للثيران ويعطي الجوائز لأقواها . لماذا لايقيمون المعارض للرجال النموذجيين ؟ لماذا لا تكافأ الوسامة » ؟ قالت مونا ربيع متهكمة : « ولكنها تكافأ فعلاً . المرأة الجميلة للرجل الوسيم » وكأنما احس حسن مفتاح بأن المعركة قد بدأت فقال بلهجة لاذعة : « أنا لا اشك ان نصف ساكنات المتروبوليتان يتمنين قبلة من عباس » . فأجابت على الفور مونا ربيع : « وهل يغضبك ذلك ؟ ان عباس فخر البروليتاريا » . ونفذت الطعنة إلى قلب حسن مفتاح فأجاب متحدياً : « رجال البروليتاريا لنساء البروليتاريا » .وصبت مونا ربيع القهوة مع اللبن فهدأت وهدأ معها حسن مفتاح ، وقالت مداعبة : « هذا ما ينبغي ان يكون ، أما الواقع فمر . أترى السيدة الانجليزية الجالسة

هناك » ؟ قال : « نعم » قالت : « كم تظن عمرها » ؟اجاب : « سبعين » قالت : « اقل قليلا » قال : « وما خطبها » ؟ اجابت : « لو ان هذه السيدة استغنت عن الخاتم الذي تلبسه لجاءتها البروليتاريا ، اقصد لجاءها عباس في غرفة نومها ولم يفارقها حتى الصباح » . وتكهرب الجو من جديد فقال متهكماً : « انت تغالين في ثمن عباس » . فأجابت : « انه زعيم البروليتاريا » . ونفذت الطعنة الثانية في قلب حسن مفتاح . ولم يجد ما يقوله فأجاب : « اليس هذا نظامك الرأسمالي ؟ » قالت : « نظامي ؟ انت تنسى اني فوضوية » . ولم يتركه غضبه فاضاف : « ان حديقة الحيوان لا ينقصها الا قفص واحد للانسان . وسوف نختار له أعلى نموذج للانسانية » . سألت : « وما أعلى نموذج للانسانية ؟ » قال : « اوسم الناس » اجابت ساخرة دون ان تعي ما تقول : « أو اذكاهم . » ولكن مونا ربيع سرعان ما أدركت انها قست عليه بأكثر مما يحتمل ، وندمت على ما بدر منها فمدت اليه يدها وتناولت اطراف أصابعه قائلة بالفرنسية : « اصفح عني . اصفح عني . ان من يسمعك يحسب انك تتهمني يا حسن . قل انك صفحت » ولكن حسن مفتاح لم يقل انه صفح . وانما ابتسم رغم ألمه وقال : « انا المخطىء . ان اعصابي في حالة توتر دائم منذ شهر . أنا المخطىء . فلننسَ كل ما كان بيننا . لا تغضبي مني يا مونا . ان في هواءاغسطس سماً ينتشر في الصدور . اتعلمين أين رامز الآن ؟ ان رامز منزوٍ في الفيوم . كل هذا بسببي . انا لا أفهم ماذا اصابني في الفترةالأخيرة . انا احطم كل شيءامسه . حتى الجمادات . لقد حطمت قلم الابنوس هذا الصباح لا لشيء الا لأنه لم يكتب بالبلاغة التي اردت . ومنذ اسبوع كنت ازور سرهنك لأقترض منه بعض المال . اتعلمين ماذا فعلت ؟ وجدته في الحمام فصاح بي من الداخل ان افتح حافظته وآخذ منها عشرين جنيهاً ان كنت على عجل . ووقع بصري على اناء خزفي ملوّنفي مدخله ، اناء هائل . لا افهم ماذا اعتراني ، ولكني دنوت منه وحملته بين يدي وألقيت به الأرض فتهشم الى الف قطعة . وسمع سرهنك الصوت فصاح بي من الحمام : « ماذا حدث ؟ » فأجبت : « لا شيء » . وكنت علىعجل

فعلاً ولكني لم انسَ نفسي ولزمت داره حتى يخرج من الحمام فأعتذر له . ولما خرج ورأى ما كان ضحك وقال : « لا تبتئس . وهل وجدت الآنيـة الا لتكسر ؟ » قلت : كم دفعت فيه ؟ قال بحسرة خفيفة : « كل ما في خزانـة اللجنة المركزية لا يعوض عنه . انه من عصر صلاح الدين » ، ولكنه عادوضحك وقال : « هذه لعنة زكية حنين لأني طردتها منذ ساعة . اتكفيك عشرون جنيهاً ؟ » وعقد الخجل لساني فلم اعتذر بما فيه الكفـاية وانصرفت . رامز . رامز . ماذا كنت أقول عن رامز ؟ نعم ، انه معتكف الآن في الفيوم ، بـين الفلاحين . وأنا الذي الزمته بذلك . لقد احسست بان نفوذه في الحزب يقوى ، وخاصـة بين رجـال الصف الثـاني . قولي يا مونا . هل اخطـأت ؟ انا متطرف بما فيه الكفاية واللجنة المركزية ليست بحاجـة الى المتهوسين . لو تركت الأمر لرامز لقطع الصلة بيننا وبين حزب الوفد منذ شهرين ، ونحـن لا نزال بحاجة الى هؤلاء الوفديين . اتعلمين ماذا حدث ؟ في أكثر من مناسبة ادعو اللجنة للتصويت بيني وبينه فيفوز رامز أو يكاد ان يفوز . يفوز أو يـكاد ان يفوز لا فرق بينهما في لغة السياسة يا مونا . ان اللجنة المركزيـة لا تتسع الا لحسن مفتاح واحد . وقد شككت ان رامز يتآمر لإقالتي . انه الآن يصطاد السمك في بركة قارون أو لعله ينظم الشعر الرديء الذي اقلع عنه حين اشتغل بالسياسة . لقد أعطته اللجنة المركزية مائتي جنيه لينفقهـا على بعض الامور وكان له أخ يوشك ان يدخل السجن في شيك بلا رصيد . فلما اطلعني على الأمر أشرت عليه بان يفك بمال اللجنة قيد اخيه ثم يدبر المال على مهل ، وقد فعل . ثم اصطدمت به في اللجنة مراراً . انا أقول ١١ يوليو وهو يقول ١٠ فبراير . انه احمق لا يفهم دائماً ما يقول . وحين رأيت انه يكاد يسيطر على الموقف في اجتماع اللجنة انتحيت به جانباً وهمست في اذنه قائلاً : « اسمع يا رامز : اذا لم تسحب اقتراحك في هذه الجلسة بالذات اتهمتك علناً باختلاس أموال اللجنة » ، فاصفر وجهه وزاغ بصره ولم يقاوم ، وسعى الى مكانه من المائدة ثم قال بصوت

شاحب انه قد تذكر بعض الامور التي تجعله يشك في سلامة اقتراحه فهو لذلك يسحبه ويؤيد السكرتير العام . وشخص الجميع اليه عاجبين . ولكنه أضاف بهدوء ان الأمر خاص باستعداد بعض الخلايا ، ولسوف يضع أمام اللجنة تقريره في مدى اسبوع . ثم استأذن وانصرف فانهارت المعارضة ، وأخذت اللجنة برأيي . وهو لا يزال متوارياً في الفيوم الى هذه اللحظة . ترى هل اخطأت ؟ كم كنت نذلاً . لقد ندمت على ما كان مني بعد ان فرغت الى نفسي ، ولكن الأمر كان جد خطير . ترى هل اخطأت ؟ . قالت مونا ربيع : هذا يتوقف على خطورة الأمر . أما انا فلا أجد في الدنيا كلها خطورة تبرر النذالة . ان من يسمعك يقول انك حددت ١١ يوليو ليكون يوم القيامة . ولكن حسن مفتاح عض على شفته السفلى وأجاب مضطرباً : « مجرد مؤتمر ، ولكنه مؤتمر كبير » . قالت : « ان أكبر المؤتمرات لا يبرر ما فعلت يا حسن . لا ريب ان اعصابك متوترة من كثرة العمل» . اجاب : اعصابي ؟ نعم ، اعصابي متوترة . هو كذلك . نعم يا مونا من كثرة العمل . قالت : لا بد ان تعتذر لرامز . أجاب : « انه لن يثق بي بعد الآن . الخطابات لا تكفي ، ثم ان مصلحة البريد قد بدأت تسلم خطاباتنا الى القلم السياسي . ان البلاد في طريقها الى الجحيم يا مونا . اسمعت بهذا ؟ ان مصلحة البريد تسلم خطاباتنا الى القلم السياسي . ان الشفرة لم تعد تنفع فالخطابات لا تصل . سوف اذهب بشخصي الى رامز وأعتذر له بما فيه الكفاية . ان القانون يحرم فتح الخطابات الا بأمر القاضي ، ولكن القلم السياسي يفتح خطاباتنا . ولكننا اقمنا مصلحة بريد خاصة بنا » . ثم نظر الى السقف وأضاف ساهماً : يا الله . جحيم . جحيم . جحيم . قريباً سنخرج من هذا الجحيم . قالت مونا ربيع : انسَ السياسة قليلاً يا حسن . الا يذكرك ١١ يوليو بشيء ؟ اجاب : بلى . عيد ميلاد الحبيبة . قالت : « وما هديتي ؟ » وأوشك ان يجيب : « مفاتيح المملكة » ولكنه أجاب : « مفاتيح الجنة » . وأوشكت ان تقول : « لست على عجل لدخول الجنة » ولكنها ضحكت وقالت : « وهل للجنة الا مفتاح واحد ؟ » قال : « اهذا رأيك ؟ » اجابت : « نعم ، وأنا املكه فعلاً » .

قال : « أهذا رأيك حقاً؟» قالت : «وهل تشك في ذلك ؟ » اجـاب : « كلا . كلا . لست اشك . لست اشك » . قالت : « لمَ تطيـــل النظر الى السقف؟ » أجاب كالحالم : « مفتاح الحياة . انا مفتاح الحياة . ماذا تقول الآية في الانجيل ؟ انا البداية انا النهاية . انا الالف انا الياء . انا الكلمة . اتفهمين معنى هذه الآية في الانجيل ؟ انا البدابة انا النهاية . انا الالف انا الياء . انا الكلمـة . اتفهمين هذه الآية» . ؟وسمعت مونا ربيع كل كلمة فاه بها ، فاعتراهـــا جزع شديد ، واستفهمت : « ماذا تقول ؟ » قال : « الا ترين التصميـم المتكرر في مصيص السقف » ؟ قالت : «نعم اراه . انه حلية لا معنى لها » قال : « بل هذا مفتاح الحياة . والدائرة في وسط السقف هي الحياة . انه صليب رأسه حبل مشنقة . عجيب ان يهتدي اجدادنا الى مفتاح الحياة . لقد وجدوه مدفونـــاً في الهرم الأكبر . ان الحياة لم تتغير كثيراً بعد اجدادنا . عجيب . ان المشنقة لا تزال مفتاح الحياة ، اما الصليب فقد انقرض . صليب اسبارتكوس انقرض» .ورأت مونا ربيع بعض القطرات تلمع على جبينه . وسالت على لحيته من خده قطرة . وتملكها الجزع ولكنها ذهبت تستوضحه قائلة : « لست أفهـم . كيف تكون المشنقة مفتاح الحياة ؟ » . أجاب حسن مفتاح : « و كيف يكون الصليب مفتاح الحياة كما يقول المسيحيون ؟ » قالت : « هذه نظرية الفـداء في المسيحيـــة » أجاب : « وهذه نظرية الفداء في الشيوعية » . قالت : « المسيحي يقول : لولا صلب المخلص لما دخل المسيحيون الجنة » . أجاب : « وأنا أقول : ولولا شنق المخلص لما دخل الشيوعيون الجنة » . وامتدت يد حسن مفتاح الى رباط رقبته فجذب عقدته الى أسفل ثم فك أزرار ياقته ، ومسح شيئاً من البلل تجمـع حول عنقه وعاد يقول : « ألا تفهمين يا مونا ؟ ان هذه لعنة قديمة كتبت على البشر . الا تفهمين ؟ أين نكون الآن لولاأن سقراط شرب السم؟ لولا ان جيوردانوبرونو أحرق حياً ؟ لولا ان روسو مات شريداً ؟ ان الانسانية تلعق جراح ابطـالها . أين نكون الآن لولا الفداء ؟ ألم يقولوا ان الموت باب الحياة؟ الا تفهمين ؟الفداء.

بل ان هذه اللعنة كتبت على الآلهة كذلك . أين كان الآلهة حين استبد جوبتر في السماء لولا ثورة بروميثيوس ... لولا ان بروميثيوس غلل الى صخرة في جبال القوقاز وأكلت كبده النسور ؟ أما مفتاح الخلاص فيتغير مع الزمن . كان الصليب ، ثم كان جب الأسود ، ثم كان الزيت المغلي ، ثم كان سيف الجعماء ، ثم كان الخازوق والنار وهو اليوم المشنقة . وفي أمريكا يستخدمون الكرسي الكهربائي فهم يسيرون مع الزمن . ولكن الذي لا أفهمه ان أجدادنا جمعوا بين الصليب والمشنقة كما ترين . انظري» . ونظرت مونا ربيع الى المصيص النقي في السقف العظيم ولكنها لم تبصر غير تصميم معقد متكرر لم تستطع استبانته. وأرادت ان تجيب ولكنها لم تعرف بمَ تجيب فهزت رأسها مراراً . ان حسن مفتاح لا شك مريض. انه بدأ الحديث بالغيرة الحمقاء وانتهى أخيراً الى المشانق . انه يقول انه أقصى رامزاً عن اللجنة المركزية ، وهي تسمع أن رامزاً ليس كونه اخلاصاً للحركة . ولكنه يشك في رامز وهذا من حقه . السياسة لا مجال فيها للعبث فهو فيها إما قاتل أو مقتول . فاذا كان شكه في رامز كشكه في عامل المصعد فهو مريض لا جدال في ذلك . انه بحاجة الى الراحة . ولكن اليس حسن مفتاح على حق في ريبته بعامل المصعد ؟ ان مونا ربيع تتذكر فعلاً انها كانت تتلطف مع عامل المصعد تلطفاً ملحوظاً ، وتعطيه تذاكر السينما الفائضة والشكولاته الفائضة بل وبدر المال من حين الى آخر . فلعل حسن مفتاح قد لاحظ كل ذلك . ولكن حسن مفتاح معتوه . بل هو معتوه . انها لم تفكر في عامل المصعد الا كعامل للمصعد . انها تحب الخدم والخدم يحبونها . كيف يجوز لحسن مفتاح ان يغار من عامل المصعد ؟ بل كيف يجوز لحسن مفتاح ان يهينها على هذا النحو . ولكن حسن مفتاح على حق فالاجساد لا تميز بين عامل المصعد وأصحاب المصاعد ، وهي ترتاح فعلاً الى عامل المصعد . وانما ينبغي ان ينزوي حسن مفتاح . فلينزوِ في الفيوم مع رامز . فلينزوِ في عزبتها في الفيوم. كم هو متعب ، ترى ماذا اصابه ؟ انه غدا كثير الشكوك في الشهر الأخير . انه يصر

على ان السفرجي النوبي المجوز يتجسس عليه لحساب القلم السياسي . انه يصر على ان السيد اللبناني الذي لم يدخل الصالون الا مرتدياً « البلسفورز » يتجسس عليه لحساب السفارة البريطانية . وساوس . وسـاوس . لعـــله على حق في وساوسه . قالت : « اسمع يا حسن ، انت بحاجة الى الراحة فسافر الى الفيوم . انت لم ترَ بركة قارون . سوف تجدد بركة قارون حياتك » . فانتفض حسن مفتـاح وصاح غاضباً بصوت مسموع : « كلا . كلا . انا لست بحاجة الى الراحة . بركة قارون ؟ ماذا تقصدين ؟ لماذا تريدين ارسالي الى بركة قارون ؟ بركة قـارون ؟ مستحيل » . ثم حملق فيها واضاف : « حتى انت يا مونا ؟ مـاذا تقصدين ؟ انا لست متعباً . نعم سوف تجدد بركة قارون حياتي . انا راضٍ بحياتي . انا لااريد ان أتغير . لماذا تريدين ارسالي الى بركة قارون ؟ » ثم انخفض صوته كأنه يحدث نفسه : « لقد تعبت مرة ودفعت الثمن غاليـــاً . وكانت بركة . أكبر من بركة قارون . أكبر . أكبر . لن أتعب ثانياً . لن أتعب قبل ١١ يوليو . لقد طلبت الراحة مرة .. أتذكرين أيام المونسينير ؟ لم أكن قـد رأيت السلسلة . قلت : لماذا لا ترى السلسلة ؟ ورأيت السلسلة ، وعند السلسلة تجـددت حياتي . كلا . كلا . انا لا أريد أن اتجدد . الا تفهمين ؟ ألم أقل لك اني اصاب بدوار كلـــما اجتزت كوبري قصر النيل ؟ ان منظر الماء يصيبني بالدوار . كلا . كلا . انا لا أريد ان اتجدد » . وفيما كان يقول كل ذلك رأت مونا ربيع اسنانه تبرز كأبشع ما يكون ، ولقد رات بروز اسنانه من قبل في حالات الهياج ، ولكنها لم تخف منه قط بقدر ما خافت هذه المرة . وخيل اليها ان نوراً داخلياً قوياً ينبعث من حدقتيه ، بل خيل اليها انها ترى انسانيه يشفان عن الانسانين الآخرين . ولكن سرعان مـــا اغمض جفنيه وأسند رأسه الى ظهر الفوتيل وظل ساكنـــاً دقائق طويله حتى استرد هدوءه كاملاً ففتح عينيه وابتسم لها أعذب ابتسامـة ونهض فنهضت ، وأمسك يدها في يده وقال مطرقاً : « مونا ، انا لا أطلب الا شيئاً واحداً » قالت يائسة : « وما هو » ؟ أجـاب وهو مطرق : « ان تغفري لي » . قالت يائسة : « غفرت لك » . قال وهو لا يزال مطرقاً كأنه لا يقوى على

مجابهتها : « انا متعب . آه لو عرفت يا مونا . سوف تعرفين كل شيء يوماً ما . بعد .. سوف تعرفين كل شيء يوماً ما . أما الآن فلا . وعندئذ سوف تغفرين لي . بل سوف تبكين من أجلي . وان كنت تجيدين الصلاة فسوف تصلين من أجلي . أنا رجل ملعون يا مونا . ملعون أتفهمين ؟ ابتعدي عني . اهربي مني . اتفهمين ؟ كلا يا مونا . لو هربت مني قتلت نفسي . ان حبي لك ... لا داعي للحديث فأنت تعرفين حبي لك . كل ما أطلبـه ان تغفري لي . ان تصبري . اصبري يا مونا . الا ترين اني رجل مريض ؟ غداً تعرفين كل شيء ، اما الآن فلا . ما كان ينبغي ان ازورك اليوم» . ثم مال على يدها وقبلها قبلة عنيفة ، وخيل الى مونا انه ترك بعض روحه في يدها . وانصرف تتبعه نظراتها اليائسة. وفيما هو خارج من الباب الكبير انحنى له عامل المصعد بأدب وقال : « طاب مساؤك يا مفتاح بك . » فتوقف حسن مفتاح عن السير وحملق فيه طويلاً ثم ابتسم ، ومد يده الى جيبه فلم يجد الا جنيهاً ممزقاً بالياً فناوله اياه وأجـاب : « طاب مساؤك يا عباس » ثم اختفى قبل أن يفيق عامل المصعد من ذهوله لهذا الكرم المفاجىء .

ذلك هو المساء العجيب الذي لم تنسه مونا ربيع . وقد جاءها التليفون في أواخر الليل باعتذارات جدد من حسن مفتاح . وبنجوى الحب كذلك. وفي تلك الليلة بالذات اشفقت عليه ايما اشفاق . فقد كانت تعلم ان في حياته سراً خطيراً من تلك الاسرار التي تتساوى امامها الحياة والموت . وأحست احساساً قوياً بان سر حسن مفتاح مدفون في بنسيون رويال الذي اخلف فيه موعده بعـد ليلة المونسينيير . وذكرت كيف اضطرب حسن مفتاح من قبل لذكر السلسلة وكل ما له صلة بالماء . ولكن يأسها من الوقوف على هذا السر كان تاماً فلم تطل التفكير فيه . كانت الخيوط التي تهدي اليه قليلة مفككة مبعثرة. فلم تجد نفعاً في التفكير فيه . ذلك هو المساء العجيب الذي لم تنسه مونا ربيع . ولم تنس معه فورات الغيرة الحمقاء التي لازمت حسن مفتاح بقية الصيف وما بعده. ولقد كانت فوراته

أقرب الى الشكوك الكريهة منها الى غيرة المحبين ، فقد كان يرتاب في كل شيء . وصار يتلفت حوله بلا انقطاع . وصار يتوهم بلا انقطاع . وصار يجادل بلا انقطاع . ولكن سرعان ما كانت تغفر له حين يجلس بين يديها مهدلاً بعد كل مشاجرة ، صاغراً وقد ارتاحت لحيته على قميصه المفتوح وتدلت ذراعاه بجانبي الفوتيل كأنهما ذراعا شبح مفلوج . انها كانت تحب ان تراه في ذلك الوضع المستأنس بعد كل شجار وتجد في منظره ما يذكرها بالخالدين . لقد كان يتعذب. ولقد كانت تعلم انه يتعذب . لقد كان يستسلم صاغراً لقوة رهيبة سوداء تتملكه وتوحي اليه بان يحطم كل ما يدخل في متناوله . وكان يحس بقدوم هذه القوة من مقدمة جمجمته فيما بين عينيه ويتتبع انتشارها على مراكز مخه حتى تستولي عليها جميعاً ، وكلما حاول ردها استبدت به أضعافاً . فاذا ما تملكته هذه القوه الرهيبة السوداء كان بصره يشتد نفاذاً، وكانت حواسه تتفتح باكثر مما تتفتح الحواس وكان نشاطه يفيض وكان يرى أشياء كتلك التي يراها من يصرعهم الصرع . ولكنه بعد ذلك تعلم كيف يقلع عن الشجار وكثر صمته وعادت اليه مرونته الأولى بعد ان أسرف في العناد . وعاد يتحدث في هدوء . . . ويحلم في هدوء . ولم تدر مونا ربيع ان كانت السحابة السوداء التي جللته قد انقشعت حقاً أم انه لا يزال يكابد لابعادها . وانقطع عن الرقص وانقطع عن التدخين . ولكنه أفرط في الشراب .

أما مونا ربيع فقد تنبهت الى وجود عامل المصعد . وكفت منذ ذلك المساء عن اهدائه تذاكر السينما وقطع الشكولاته ، ولكنه دخل في افكارها دخولاً صريحاً . دخل في افكارها في أوقات غير مألوفة . دخل في افكارها في أماكن ما كان ينبغي أن يدخل فيها . وجزعت هي لذلك بعض الشيء ، لا لأن مقام حسن مفتاح في قلبها قد تضاءل أمام هذا الحيوان الجميل كما كانت تسميه ، بل لأن جسدها الجائع كان يزيل الحوائل بينها وبينه يوماً بعد يوم ، وجعلها تفكر في الانتقال من فندق المتروبوليتان الى فندق ميناهاوس ، وان لم تجد

الهمة قط لتنفيذ هذه الفكرة .

ثم حدث حادث زلزل كيانها ، فقد جاء ذات صباح تليفون من ناظرة روضة الأطفال يقول ان ماجدة طريحة في فراش صغير بجناح منعزل وبجوارها الطبيب يقول : « احتقان في اللوزتين » . وكانت ماجدة تتكلم بعسر شديد وكانت انفاسها متحرجة . فلما انصرف الطبيب الحت مونا ربيع حتى عادت بماجدة الى مكانها على الأريكة ذات الغطاء التيلي الأخضر بغرفتها في المتروبوليتان. ولزمت مونا ربيع ماجدة بقية النهار تناولها الدواء وتقص عليها الحكايات ولزمتها طرفاً من الليل حتى نامت . فلما كان الصباح استيقظت مونا ربيع على انات صغيرة مكتومة . ووقفت تتطلع الى ابنتها فقرأت في عينيها دلائل خلعت قلبها خلعاً ، وكانت ماجدة تتحدث بيديها وتستنجد بعينيها وكان رأسها يتلوى من فرط الألم ، واقتربت باصابعها من عنقها ، واستطاعت ان تقول بعد جهد شديد : « ماما ... ماما ... الشوك . » فأدركت مونا ربيع لوهلتها أن ماجدة مصابة بالدفتريا لا باحتقان اللوزتين ، فبادرت الى التليفون تدعو كل من تعرف من الأطباء . وعادت الى ابنتها فوجدت انفاسها أشد اضطراباً من ذي قبل ووجدت عينيها تستنجدان بالجدران الصماء . وبعد قليل هدأت الأنفاس دون ان تنتظم وثبتت العينان فكأنهما زجاج معقد نادر الوجود ، وشابت الوجه خضرة خفيفة . وأمسكت مونا ربيع بيدها فاذا هي باردة ولكن النبض البطيء دل على الحياة . فخرجت الى الدهليز حافية القدمين فلم تجد الا البساط النبيذي المفروش بطول الممشى ووجدت صحف الصباح . وعادت الى غرفتها كالمجنونة . وقصدت الى النافذة بحركة آلية وأطلت منها كأنما تريد ان تستغيث بالمارة ولكنها لم تفعل بل عادت تدق الجرس وتقطع ما بين سريرها ومائدة الزينة جيئة وذهاباً ،ثم انكفأت على سريرها مجهشة بالبكاء. وهنا دخل طبيبان كلاهما في الثلاثين وسعيا في صمت الى فراش ماجدة ، وبعد ان القيا عليها نظرة عجلى تبادلا النظر وما قال أحد شيئاً . وخرج احدهما مسرعاً أما

الآخر فجلس على حافة الفراش يجس النبض ويحاول التنفس الصناعي . ومرت دقائق عشر كأنها الدهور وعاد بعدها الطبيب الآخر يحمل بعض الأدوات ومن ورائه خادم نوبي يحمل ماء مغلياً . قال الطبيب الأول بالانجليزية : « لا أمل » . قال الطبيب الثاني : « فلنجرب » . وسمعت مونا ربيع هـــذا الهمس الخشن ولكنها لم ترفع رأسها عن الفراش . قـال الطبيب الأول بالانجليزية : « لقـــد انتهت » . وسقطت الحقنة من يد الطبيب الثاني . وسمعت مونـــا ربيع كل شيء ، ولكنها لم ترفع رأسها عن الفراش . ودب الطبيب الثاني خارجاً . أمـا الأول فقد أخرج من جيبه مذكرة سطر فيها شيئاً ثم نزع الورقة وتركهـــا على حافة الفراش ذي الغطاء الأخضر حيث كان يجلس . ثم تسلل خارجاً ليتـــم الاجراءات .

وكانت كل الاجراءات قد انتهت ، انتهت تماماً ، حين دخل حسن مفتـاح من الباب الدائر نحو التاسعة مساء . ووقف تحت شباك الاستعلامات في فندق المتروبوليتان ينتظر مونا ربيع . ورآها تهبط السلم ببطء شديد . ورآها تتهادى في اسراف شديد . ورآها في ثوب من الكريب دي شين بسيط عليـــه طيور صغيرة حمراء مطبوعة تطير . ولم يكن على علم بشيء مما كان . وابتسم وابتسمت . وقادها من يدها الى الصالون فانقادت . وحين ودعها بعد ساعة عند البـــاب الدائر لم يبتسم ولم تبتسم ، وانما افترقا دون كلام .

ولم يبدُ على مونا ربيع بعد ذلك حزن أو تفجع ، ولكن بدا عليها ذهول شديد . وكثر ابتسامها ولكنه كان ابتساماً لا يفهمه راؤوه . وكثر وقوفها مع اطفال الشوارع فكانت تربت على رؤوسهم وتفرك لهم شعورهم وتسألهم عن ذويهم وتجزل لهم العطاء . وعادت اليها بعض احساساتها الدينية الأولى الـــتي غرستها في قلبها راهبات المدرسة ثم اقتلعتها الأيام والليالي . وفكرت مرتين أو ثلاثا ان تنزوي في دير من أديرة المسيحيات ولكنها عدلت عن ذلـــك .

واتجهت بقلبها الى القديسات ، وأحبت ان تزور مقـــام السيدة زينب ولكن قذارة الحي صرفتها عن ذلك . واستبدت بها الرغبـــة في الخلوص ذات عصر فخرجت الى الشوارع تهيم هيماناً حتى انتهت الى ترام رقم ٨ فقفزت فيه من محطة شيكوريل دون ان تعرف لذلك سبباً . ولم تكترث لفعلتها كثيراً . وسعى بها الترام حتى بلغ سينما دولي ، وبعد سينما دولي فقط أدركت انها تقصد كنيسة سانت تيريزا . وعجبت لنفسها كيف تدخل كنيسة سانت تيريزا . ودخلت كنيسة سانت تيريزا ، وقرأت بين الأسماء اسماء مسلمين . واشتغلت افكارها فترة بميكانزم الشفاعة ، وبنت وراء كل اسم قصة من قصص الحياة . ص . ع . يشكر سانت تيريزا ولكنه لا يبدي الأسباب . ترى لماذا لم يكتب ص . ع . اسمه كاملاً ولماذ لم يبدِ الأسباب . ؟ لا شك انه خجلان أمام نفسه أو خجلان امام الناس . ولكنه لم يخجل ان يقول لسانت تيريزا الحقيقة كاملة . لعل زوجته المحبوبة فرت مع صديقه المحبوب فصلى ونذر لعودتها لوحة من الرخام و«دستة» من كبار الشموع ، أو لعل بنته سارت في طريق الغواية فصلى ونذر لتوبتها ، او لعل زواجه لم يثمر خلفاً بعد عشرة أعوام وهو يطلب الخلف . لعل . لعل . جرجس سيدهم يشكر سانت تيريزا لأنها شفت وحيده البرت جرجس سيـدهم من التيفود وقد كان حرياً به ان يشكر الطبيب لا سانت تيريزا لأن القديسات لا يتدخلن الا في الأمراض المعجزة . وبمناسبة الأطباء ماذا فعلت مونـا ربيع لطبيب المدرسة الذي قضى على ماجدة . انها لم تفكر حتى في ارسال خطاب الى الجهات المختصة . ولكنها فكرت – فكرت فقط – في الاقتصاص منه بيدها . في ضربه بالرصاص . ولكنها لم تفعل بل قصدت الى سانت تيريزا . وعبدالسلام بك ربيع حين تسلم خطابها كان كريماً جداً فمر بالمتروبوليتان وعزاها كأن الأمر لا يخصه شخصياً . ومن يدري فلعله قد ابتهج في قرارة نفسه لموت ماجدة لأن موت ماجدة قد وضع حداً لكثير من الاشكالات المدنية في قابل الأيام . ومهما يكن من شيء فقد احست مونا ربيع وهي جالسة امام المذبح تتأمـــل

الصليب الجسيم وصور القديسين الملونة انها مرتفعة عن مستوى البشر ، فهي ما جاءت لتطلب شيئاً ، وانما جـــاءت لمحض الزيارة . ولا شك ان سانت تيريزا سوف تفرق بين الزائرين الذين يطلبون والزائرين الذين لا يطلبون . ولكنها رغم ذلك لم تصلِّ . فقد كانت لا تعرف كيف تصلي . ثم ان افكارهـــا كانت مشتتة ، ولعل تفاهة العمارة شتت افكارها . وحاولت ان تقرأ الفاتحة ولكنها خجلت ان تقرأ الفاتحة في دار المسيحيين . وحاولت ان تتلو ابانا الذي ،وكانت تعرفها في حداثتها باللاتينية عن الراهبات الفرنسيات فلم تتذكر الا عبـــارات ممزقة ، ثم خجلت أمام نفسها لتلاوة فاتحة المسيحيين . واجتهدت بعد ذلك ان تنصرف عن الصور والتماثيل والقديسين والقديسات والانبياء والصلوات المعروفة وان تتجرد بروحها أمام الله ولكنها لم تستطع فخرجت من الكنيسة لا تدري اتلوم نفسها ام تلوم سانت تيريزا . وما ان بلغت المتروبوليتان حتى كان لها ما ارادت من الاستغراق الكامل في « اخلاق » سبينوزا .

ولكن فترة الذهول انجلت بعد اسابيع واعقبتها وتلتهـــا فترة النشاط العجيب الذي لفت نظر حسن مفتاح . فقد عادت مونا ربيع الى الحياة العامة، وكان لظهورهـــا في المجتمعات ضجـــة كبرى كتبت عنها « روزاليوسف » و « المصور » و « الاثنين » ، واشتركت في أكثر نوادي القاهرة . وسرت بهـا صديقاتها القديمات والتف حولها الرجال . وتجددت عنها الاقاويل بعد ان نسيها الناس زمناً . ولم يكن في المدينة واحد يجهل صلتها بحسن مفتاح، فقيل تخاصما، وقيل هي تبحث عن زوج ، وقيل ان الشيوعيين خيروا حسن مفتاح بين اللجنة المركزية ومونا ربيع ، وقيـــل بل أوفد الشيوعيون مونـــا ربيع لتبلشف الارستقراطية المصرية ، وقيلت اشياء اخرى كثيرة تشبه القصص البوليسية منها ان مونا ربيع مجنونة سمت ماجدة بعد ان حاولت ان تسم زوجها السابق لأن ماجدة كانت الحائل الوحيد الباقي بينها وبين حسن مفتاح ، فلما ان رأى حسن مفتاح مونا ربيع توزع السموم باليمين واليسار خشي على حياته ووضع حـــداً

لصلته بها . ولكن هذه الاشاعة لم يصدقها الا نفر قليل من اصدقاء عبد السلام بك ربيـــع . . وقيـــل ان مونا ربيع فنـــانة كبرى ارادت ان تختبر الحياة اختباراً مباشراً فنزلت الى البروليتاريا واستأجرت لها استوديو بحي بولاق كان في ذات الوقت مكاناً للرسم ومباءة للفجور الذي لم يسمع بمثله انسان، فلما أخذت من الحياة المادة التي تشتهي عادت الى قواعدها غير سالمة .

ولكن الناس لم يلحظوا شيئاً واحداً هو كثرة ترددها على الصحفية الغامضة صفية غندور وجماعات الخدمة الاجتماعية التي بلغ عدد البنات بهـــا نحواً من خمسمائة بنت أكثرهن يشرفن على المشاغل ومراكزالعاملات . كذلك كانت مونا ربيع تتردد على اوجيني جرس سكرتيرة المعلمات وعلى جماعات متفرقـــة من الممرضات . ولم تشغلها كل هذه الاتصالات عن الظهور في الحفلات الخيرية الـتي تقيمها مبرات الارستقراطية في اوبرج الاهرام وحفلات العدس في الزمـــالك حيث يباع الورد لمصلحة ابناء السبيل . ولكن مونـا ربيع كانت تستتر وراء جماعات البر لتكتيل العاملات والمعلمات في مراكز مترابطة تشرف عليها هيئة تحت الأرض . ولم يكن حسن مفتاح يعلم عن نشاطها الخفي شيئاً الا انها تطلب منه آلاف النسخ من كراسات اللجنة ومنشوراتها . ولم تدلِ هي اليـه بشيء ولم يتطفل هو بالسؤال ، ولكنه أحس احساساً واضحاً انها تشتغل بالسياسة لا بالبر،حتى كان يوم١٥ اكتوبر فخرجت صحف الصباح تعلن اضراب الممرضات في القاهرة والاسكندرية والمنصورة بين ذعر الخاص والعام . واذا بصحيفـــة «السلام» تنشر صورة قديمة لمونا ربيع تحت علامة استفهـــام كبرى وتتساءل : أهي وراء الاضطراب ؟ ونحو العصر كانت مونا ربيع مع حسن مفتاح وصفية غندور في مطعم « البلفيو » على طريق الاهرام يتباحثون فيما ينبغي عمـــله اذا اعتقل البوليس مونا وصفية ، وتم الاتفاق على ان تتم اللجنة المركزية الاضطراب حتى تخفض ساعات العمل الى اثنتي عشرة ساعة على أكثـر تقدير ،ويعترف بحق الراحة الاسبوعية ويضاعف أجر العاملات بالليل . ولكن البوليس لم يعتقل

مونا ربيع وصفية غندور وانما أعتقل حسن مفتاح وسعدية الطويل اسبوعاً كاملاً ظناً منه ان الاضراب تديره اللجنة المركزية . وانتهى الاضراب باستسلام المستشفيات على طول الخط رغم تدخل رجال الأمن العام .

بعد ذلك لم تصب مونا ربيع بصداع واحد ، ولا تقلبت في فراشها بعد منتصف الليل ولا خرجت الى الشوارع بعد الظهيرة مختنقة جوعانة الى شيء تعرفه حق المعرفة وتنكره كل الانكار. بعد ذلك لم تشكُ مونا ربيع من الفراغ الكئيب الذي كان يجثم على صدرها وينتشر في رأسها الدقيق.بعد ذلكاستردت مونا ربيع توازنها الذهني واقتربت من الصفاء درجات . وكانت ماجدة آخر دعامة في صرح حياتها الخاصة . وانهارت الدعامة فانهار الصرح . وأحست مونا ربيع ان ماجدة قد ماتت في الوقت المناسب ، فلو لم تمت ماجدة بالدفتريا لماتت مونا بالميلانكوليا . وكانت مونا ربيع تعلم ان حسن مفتاح هو الحل الوحيد . وبعد ان خافت من حسن مفتاح علمت ان عامل المصعد هو الحل الوحيد .وبعد ان خابت من عامل المصعد علمت انها لا تصلح للحياة . فلم يكن في مقدورها ن تجلس في تراس الكونتننتال وعيناها تقولان : ايها الرجال ، هل من يريد ان يعشق . وتتمشى في بهو شبرد وعيناها تقولان : أيها الرجال ، هل من يريد ان يتزوج . أما ماجدة فقد وقفت في حياتها كما يقف عمود وحيد من المرمر الصافي وسط الطلل الخرب شاهداً على ما كان . ولقد هوى العمود الوحيد فأراحها من صيانة هذا الأثر الثمين . ولقد تعلمت من حسن مفتاح ان الفعل الماضي وحده لا سبيل الى محوه من كتاب الوجود فلم تحزن على موت ماجدة الا بما تمليهاللاارادة. وبعد ان ذهلت شهراً أفاقت لتتأمل حياتها الجديدة فلم ترَ امامها الا ان تتزوج من حسن مفتاح فوراً ، فوراً ،فوراً ، فتستأنف ما كان لها من حياة خاصةاوان تنزل جملة عن حقها في الرجال وتبدأ حياتها العامة . وقد سلكت السبيلالأخير دون أسف عظيم . ومنذ ان بدأت مونا ربيع حياتها العامة لم تصب بصداع واحد ، ولا تقلبت في فراشها بعد منتصف الليل ولا خرجت الى الشوارع بعد

الظهيرة مختنقة جوعانة الى الشيء الذي تعرفه حق المعرفة وتنكره كل الانكار. وبعد ذلك لم تشك مونا ربيع من الفراغ الكئيب الذى يجثم على صدرها وينتشر في رأسها الدقيق . بعد ذلك استردت مونا ربيع توازنها الذهني واقتربت من الصفاء درجات .

واندمجت مونا ربيع في اللجنة المركزية يوم خرج نعيم من السجن . وكان أول ما فعلته ان عادت برامز من عزلته في الفيوم بعد ان اقرضته سبعين جنيهاً يكمل بها المال الذي اختلس . واجبرت حسن مفتاح على الاعتذار اليه كتابة وشفاهاً . ولكن رامز الثاني لم يكن رامزاً الأول ، فقد غاضت حيويته وطال صمته في اجتماعات اللجنة، وأدركت مونا ربيع ان فجيعته في الطبيعة الانسانية كانت ابلغ من ان ترام . وحين رأت مونا ربيع ذلك اشتد عطفها عليه وأقسمت له ان تكون الى جانبه بالحق او بالباطل لو استخدم حسن مفتاح هذا السلاح مرة اخرى . ان حسن مفتاح ليس بالرجل الكامل ، ولكم اشتبهت مونا في سلامة عقله . ولسوف تقف بين اعضاء اللجنة المركزية وتقول : « ايها الزملاء! ان زعيمكم مجنون . اتفهمون ؟ مجنون . وعندي الدليل على ذلك. لقد انتخبتم مجنوناً ليقود جموع الشعب الى مصيرها . لقد انتخبتم مجنوناً ليصنع التاريخ . اعزلوه قبل ان يقودكم الى الهلاك المحقق . اعزلوه قبل ان يجعل من التاريخ مسرحاً للمجانين » . انها كانت تحب ان تحتقر حسن مفتاح من صميم فؤادها لأنها كانت تؤمن بكود الجنتلمان حتى في السياسة . ولكنها ارجأت احتقاره لأنها لم تكن تعلم فيم كان الخصام حول ١١ يوليو . فلما دخلت اللجنة المركزية وعرفت ما سوف يكون في ١١ يوليو اقشعر بدنها وأكبرت حسن مفتاح . ولكنها لم تفقد عطفها على رامز رغم ذلك . وحين قلبت مونا ربيع مضبطة اللجنة المركزية في تلك الجلسة المشهودة وقرأت فيها قول حسن مفتاح: « ايها الزملاء، ان الخطأ جريمة . ايها الزملاء ، ان الفشل انتحار ، ايها الزملاء ان سوء التقدير والخيانة سواء . ان التاريخ لا يبنيه الهواة . ولسوف أقف ما بقي من حياتي على تطهير صفوفنا من عناصر الفشل ومن الانتحاريين ومن الخونة العابثين » ،

حين قرأت مونا ربيع هذا الكلام أكبرت حسن مفتاح ، وعلمت انه انقذ الحركة للمرة العشرين بما جبل عليه من قسوة لا حد لها .

ولم تمضِ الا اسابيع حتى كانت فصائل من الشيوعيين تتردد على عزبتها بالتناوب للتمرن على الرماية . ولم تمضِ الأسابيع حتى كان بيتها الريفي مكدساً بالأسلحة واللوريات المسروقة . ولم تمضِ الا أسابيع حتى تشققت سحب فبراير وظهرت تباشير الربيع . وعاد حسن مفتاح ورامز وبطرس قلادة من مؤتمر بيروت في الرابع من فبراير ليشرفوا بعد أيام على التجربة .

٩

حين دخلت مدام ماريكا على حسن مفتاح للمرة الثالثة تحمل زجاجة البيرة المثلجة وساندويتشات الانشوجة لم تره بوضوح ،لأن الباب الفاصل بين المدخل وغرفة النوم كان شبه مغلق مما حجز عن المدخل بقايا نور النهار التي كانت تتدفق من الرحاب خلال نافذة غرفة النوم قبل الغروب . وحين اضاءت نور المدخل رأت حسن مفتاح جالساً على الكرسي الاسيوطي الضخم مفتوح القميص وقد قذف بسترته على الأرض في غير نظام ،ووضع قدمه اليسرى على اوراقه الكثيرة المتداخلة فوق المائدة الصغيرة المستديرة . وشمت مدام ماريكا في المدخل رائحة غريبة ورأت طرف البساط يشتعل اشتعالاً بطيئاً وبجواره بقية سيجارة نصف مشتعلة ، فولولت ولولة غير مفهومة . وجرت الى المطبخ وعادت منه بكوز صبت منه الماء على البساط فأخمدته . ثم توجهت الى حسن مفتاح لتعنفه فوجدته مسترخياً على مقعده مغمض العينين وقد تهدلت ذراعاه على جانبي الكرسي . وخيل اليها انه في غيبوبة فلوت شفتيها وحدثت نفسها بصوت خفيض ثم انصرفت الى مطبخها تحمل البيرة المثلجة وساندويتشات الانشوجة .

ولكن حسن مفتاح لم يكن في غيبوبة وانما كان شديد الصحو يتنفس تنفساً مسموعاً كأنه يختنق .وجرت حرارة المساء وقيظ يوليو وأكواب البيرة والضيق النفسي على جبينه وخديه قطرات لمعت تحت النور . وكان ينتقل برأسه المرفوع المسند على ظهر الكرسي الأسيوطي الضخم بين محتويات اوراقه وبين ذكريات الماضي السحيق وبين اشجان الحاضر الرهيب ، ويستعرض في خفة كل من عرف

من الرجال وكل من عرف من النساء ، ويستعرض في خفة كل ما اصابه في حياته من متعة ومن مكروه كأنه يضع الحساب الختامي لحياته .

وكان رغم صحوه الشديد يحس بالاجهاد ، فقد ظل على حاله هذه بين اوراقه هذه منذ الصباح الباكر . وخيل اليه انه يرى القديس نيقولا أمامه ففتح عينيه ولكنه تذكر ان المصيص قد تهشم منذ عامين ، فأغمض عينيه من جديد ، وعاد الى صوره وتأملاته . ان كل شيء قد انتهى . لقد انتهى كل شيء . العمل موزع . الخرائط معدة . العتاد موجود . الخطة موضوعة . ان كل شيء قد انتهى . لقد انتهى كل شيء . حتى قوائم الباشوات الذين سوف يرسلون الى المشنقة ، كلها معدة ، وهي امامه الآن ومعها قوائم الاتهام وقد فرغ من مراجعتها جميعاً . حتى قوائم ألزملاء الذين سيديرون البلاد كلها معدة ، وهي أمامه الآن ومعها قرارات التعيين وكلها مذيلة بالتوقيع ح . م .

كل شيء معد . بعد غد اليوم العظيم . واسترسل حسن مفتاح في احلامه : مع الفجر تزحف طلائع النور . مع الفجر يزحف جنود الحق . واذا زحفت طلائع النور عمرت الربى واقتحمت الفجاج . واذا زحفت جنود الحق اعطت الخبز والحرية للجميع . الجميع ؟ كلا . لا خبز لمن اجاعوا الشعب . لا حرية لأعداء الحرية . بل الموت لأعداء الحرية . مع الفجر يبدأ التاريخ . وكما بنى مينا مصر القديمة كذلك سوف يبني حسن مفتاح مصر الحديثة . حسن البناء يبني مصر الحديثة . حسن مفتاح المملكة . جسن مفتاح المهندس الأعظم ، الحسن منه والفتح منه . حسن مفتاح يخرج بعد غد مع الفجر الوليد شاهراً سيفه ليقتل كل التنانين ويحرر الشعب الى أبد الآبدين . ورأى حسن مفتاح بين جفنه المطبق وقرنيته الشاخصة الى الملكوت ملايين الأقفال كلها مستديرة وكلها سوداء وكلها لامعة ورأى فيها ملايين المفاتيح كلها ضخمة وكلها بيضاء، وكلها لامعة . ورأى ملايين المفاتيح تدور في ملايين الأقفال في وقت واحد واصم الصرير اذنيه فأوشك ان يصرخ ولكن اللوحة تبدلت ورأى حسن مفتاح

الفردوس الأرضي .

ولم يبتسم حسن مفتاح حين رأى الفردوس الأرضي ، وانما رأى مونا ربيع تقف على منصة عالية غطاها علم أحمر في ميدان العتبة الخضراء ، ومن حولها اثنا عشر محلفاً من ابناء الشعب الحقيقيين كلهم حفاة وكلهم في اسمال وكلهم متجبرون ، منهم عامل ميكانيكي ومنهم فلاح ومنهم غسالة ومنهم حلاق ومنهم سائق ترام ومنهم شرطي ومنهم جندي ومنهم ممرضة ، وآخرون اختلطوا في الرؤيا ، وقد وقف تحتهم على أرض الميدان المغربي باشا وحوله وزراؤه ، وصادق باشا وكامل باشا وفاضل باشا وعاكف باشا وعاطف باشا وعامر باشا وعادل باشا وفهمي باشا ولمعي باشا وشوقي باشا وعزمي باشا وحلمي باشا وعدلي باشا وعوني باشا وعمار باشا ونصار باشا ونجار باشا وستار باشا وعواد باشا وحماد باشا ومدحت باشا وعصمت باشا وشوكت باشا ورأفت باشا وبهجت باشا وحشمت باشا وحكمت باشا وحشد عظيم من عتاة البلاد خانعة رؤوسهم يطلبون الغفران وحولهم آلاف مؤلفة من رعاع القوم رجالهم يقزقزون اللب ونساؤهم يمضغن اللبان ومونا ربيع من كل ذلك قد وقفت تقرأ على الجموع بصوت قاطع كأنه السيف المسنون قوائم الاتهام. ولم يكن للجناة محامٍ. وفي وسط الميدان كانت مشنقة عالية تؤدي اليها درجات من الخشب العاري وبجوار المشنقة وقف الجلاد . وكان الجلاد قزماً أعرج له شارب اسود كثيف وفم لئيم وعينان ضيقتان . وحين بدأ الحرس الشعبي يقتاد الجناة الى المشنقة اذا بالسماء ترعد من كل جانب واذا آلاف الخيول عليها آلاف الفرسان شاكي السونكي مصفحة صدورهم يتدفقون من شارع محمد علي ومن شارع عبد العزيز ومن شارع الأزهر ومن شارع الأزبكية ومن شارع البوستة العمومية ويحاصرون الميدان ويوغلون قتلاً وتذبيحاً في الجموع المولولة المذعورة .

وعندئذ تنهد حسن مفتاح وقال كأنما يحدث نفسه : « لقد انذرتك يا مونا فلم تنتذري . لقد سلمتك التذكرة فلماذا تخلفت عن الطائرة ؟ » ثم رأى حسن

مفتاح لوحة بيضاء كأنها ستار فضي . ورأى فيها مونا ربيع ملقاة على الأرض في بركة من الدماء وقد هشمت جمجمتها حوافر الخيل ، فصرخ وأجهش بالبكاء العالي ودفن وجهه في كفيه . وخرجت مدام ماريكا من مطبخها حين سمعت زحار حسن مفتاح فوجدته على حاله مستلقياً على الكرسي الاسيوطي مهدل الذراعين على جانبي الكرسي وقدماه ترتاحان على المائدة الصغيرة المستديرة ، ولكن صدره كان يعلو ويهبط في عنف أليم . ولم تشأ ان توقظه من غيبوبته فانسلت داخل مطبخها من جديد وهي ترسم علامة الصليب وتتلو باليونانية « أبانا الذي في السموات » .

وسمع حسن مفتاح بالباب الخارجي قرعاً يشبه قرع العصا على الزجاج ، فنهض من الكرسي وذهب يجمع اوراقه بسرعة ولهفة معاً وأطل رأس مدام ماريكا الفضي من باب المطبخ وتوجهت اليه بنظراتها فأشار اليها بألا تفتح الباب . وتقدمت اليه فناولها ثلاثة ملفات انصرفت بها الى المطبخ وأخفتها بين اوراق قمر الدين في الدولاب العظيم . وعاد حسن مفتاح الى مكانه . وسعت مدام ماريكا الى الباب وفتحته فدخلت منه هبة من هواء فأغلقته ودخل منه قزم اعرج عاري الرأس له شارب أسود كثيف وفم لئيم وعينان ضيقتان . وانزوت مدام ماريكا في مطبخها واجتاز الرجل الدهليز المؤدي الى المدخل حتى اشرف على المدخل . وحين أحس حسن مفتاح بوجوده نهض ليستقبله ، فلما وقعت عيناه عليه اقشعر طويلاً دون ان يعلم لذلك سبباً ، وحملق فيه طويلاً فخيل اليه انه رآه من قبل . وأراد ان ينصرف عنه ببصره فلم يستطع كأن قوة سحرية ثبتت عينيه في مكانها ، ولم يقشعر فزعاً ولكنه ادرك لوهلته ان تياراً كهربائياً يخرج من هذا الرجل فيسري في جسده هو بلا انقطاع . وفيما هو يقف لاستقبال الزائر حاول ان يتذكر اين رآه من قبل ، فتدلى فكه الأسفل وبدا عليه البله الكامل ، ولكن سرعان ما تذكر انه رآه في احلام يقظته منذ هنيهة وسط ميدان العتبة الخضراء بجوار المشنقة ذات الدرج الخشبي العاري

ومن حوله الآلاف المؤلفة من رعاع القوم ، فعلم انه جلاد الثورة . وأوشك ان يكذب ما تراه عيناه وثبت في مكانه لايدري ماذا يفعل . ان الثورة لا تزال قيد الاوراق وفي أعماق السرائر فمن أين جاء هذا الرجل ؟ انه لم يره من قبل بين صفوف الشيوعيين . انه لم يره من قبل حتى بين المتفرجين على الشيوعيين ، فمن ذا الذي اقامه جلاداً للثورة ؟ ثم ان ما رآه في ميدان العتبة الخضراء لم يكن الا من هجس الخيال المحموم . كلا . كلا . لا بد ان يكون هذا الرجل من البوليس .

وتقدم الرجل من حسن مفتاح يزك في سيره معتمداً على عصاه ، وبسط له يده يريد أن يصافحه ، فالتقطها حسن مفتاح بسرعة دون أن يفكر فاهتز جسده هزة عنيفة واحدة ثم هدأ هدأة كبرى كأنه قد أمسك بسلك عارٍ فيه تيار مميت . وكان الرجل يبتسم ابتسامة عذبة فوق فمه اللئيم الكريه . وكانت عيناه تطفحان ببشر لا يعرف أحد مصدره . ولم يدعه حسن مفتاح الى الجلوس بل سأله بصوت خشن ؟

— بوليس ؟

— وأصلح الرجل رباط رقبته ذا الألوان الكثيرة الزاهية وأجاب مبتسماً :

— بل صديق قديم .

قال حسن مفتاح بلهجة أقل خشونة :

— تفضل .

فجلس الزائر وجلس حسن مفتاح . وانصرف حسن مفتاح حائراً الى تأمل رباط الرقبة ذي الألوان الكثيرة وقال في أدب ولكن شارد اللب :

— سيجارة ؟

— شكراً ، لا ادخن .

وبعد صمت قليل عاد حسن مفتاح يقوم بواجب الضيافة . قال :

ــ فنجان من القهوة ؟

ــ أشكرك ، لا أشربها .

ــ عندنا بيرة مثلجة . أأدعو لك بها ؟

ــ كلا ، مع ألف شكر ، فأنا لا أحب المسكرات .

ــ ولكن لا بد أن أقدم لك شيئاً

ــ لا داعي لذلك فلست بحاجة الى شيء ، ويكفيني ما رأيته من كرمك . والواقع أني جئت اليك أطلب شيئاً بوصفي صديقاً قديماً . صديق قديم لا أكثر . أتفهم ؟

أجاب حسن مفتاح متحيراً ؟

ــ صديق قديم . صديق قديم .

ــ نعم ، صديق قديم .

ــ ان كنت أملك التصرف في شيء فهو لك . ماذا جئت تطلب ؟

ــ لا داعي للعجلة ، وستعرف كل شيء في حينه . يبدو أن رباط رقبتي يعجبك .

أجاب حسن مفتاح حالما وهو لا يزال شاخصاً ببصره الى الحرير الكثير الألوان :

ــ نعم . هذا اغرب رباط رأيته في حياتي .

قال الزائر مبتسماً :

ــ إن شئت فهو لك .

فأجاب حسن مفتاح بسرعة آلية قاطعة :

– كلا ، كلا .

ثم مضى يتحسس عنقه وعاد إليه شعور الاختناق . إن هناك شيئاً لا يفهمه. فهذا الزائر القزم الاعرج يزعم أنه صديق قديم وهو ما عرفه قط قبل الآن ، ولكن مرآه مألوف لديه على كل حال كأنه رآه في الاحلام . ترى من يكون ؟ وهذا الرباط الحريري الكثير الألوان فيه رسوم عجيبة حقاً ، فهو يبدأ بصورة مشنقة ذهبية من خيوط القصب قرب العقدة ونحو منتصفه تقاطعت عظمتان فضيتان صنعتا من خيوط بلاتينية لامعة تذكر بالعظام المتقاطعة على قوارير السم بالصيدليات أو العظام المتقاطعة في أعلام القرصان ، وفي أسفل الرباط تناثرت جماجم كثيرة متداخلة كلها صفراء مزعجة للناظرين ، أما أرض الرباط فقد كانت حمراء داكنة لطختها برك صغيرة من الدم الأزرق . وخيل الى حسن مفتاح أنه رأى في خياله كل هذه الأشياء متفرقة وان لم يكن قد رآها مجتمعة . وبدا له أن ما يراه ليس رباطاً وانما راية قرصان رهيب في بحار لم تمخرها إلا سفائن الجان . قال مخاطباً زائره :

– أهذا التصميم من عملك ؟

فأجاب الزائر ضاحكاً :

– بل من عملك أنت ؟

وظن حسن مفتاح أن هذه دعابة ثقيلة من زائره فأوشك أن يغضب ولكنه راجع نفسه فلم يدر فيم الغضب . إن القزم الاعرج لم يقل إلا حقاً . فقد ملأت هذه الرموز خيال حسن مفتاح منذ زمن طويل . وسمع الرجل يقول وهو يعبث بالحرير الأحمر :

– أنت بحاجة الى رباط كهذا .

وأراد حسن مفتاح أن يكرر رفضه القاطع ، ولكن الزائر رفع يسراه مشيراً عليه بالسكوت فسكت ، على حين اندست يد الزائر في جيب سترته السوداء وخرجت منه برباط حريري مشابه وامتدت به الى حسن مفتاح فقبله صاغراً . وشخص حسن مفتاح ببصره الى جيب الرجل كأنه ينتظر أن تخرج منه كذلك الأرانب والحمام والأشرطة الملونة وأوراق اللعب ، فقد بدا له أنه في حضرة ساحر عجيب . ولكنه لم ير شيئاً.قال الزائر بصوت فيه أمر واضح:

– ألبس الرباط .

وغلا الدم في عروق حسن مفتاح الذي لم يتعود ان يتلقى من احد امراً ،ورفع بصره الى الزائر فرأى ابتسامته العذبة لاتفارقه ، فاطمأن وذهب يعقد الرباط حول رقبته . وما ان فرغ من ذلك حتى عاد اليه احساسه بالاختناق .وامتدت يمناه الى عنقه تريد حل العقدة فأحست اصابعه بأن العقدة قد تجمعت تحت ياقته واحست اصابعه بأن حول عنقه طوقاً من حديد . فهب واقفاً وأراد ان يصرخ في الزائر قائلا ان اغرب عن وجهي أيها اللعين ، اغرب عني ايها الشيطان الماكر اللئيم . وامتدت يده اليسرى الى عنقه تعاون اليد اليمنى في حل العقدة ،وسقط بصره على الزائر فاذا به اهدأ ما يكون ، وإذا ابتسامته تزداد عذوبة ، فخجل من نفسه وايقن انه قد فقد سلطانه على اعصابه فعاد اليه هدوءه واستعاد مكانه على كرسيه ، وتكلف عدم المبالاة . وشخص ببصره من جديد الى وجه الزائر الغريب واستقر به على جبينه فرأى لطختين سمراوين من يرهما يقل انهما بقايا قرنين قد انقرضا . وفهم حسن مفتاح ان النهاية قد اقتربت . ولكنه مع ذلك كان آيه في الهدوء . ان الزائر صديق قديم حقاً ، فهو لم يقل كذباً . وقالت نفس حسن مفتاح : ما أغباني . كان ينبغي ان افهم منذ اللحظة الأولى ، منذ ان صدمني تيار الكهرباء ، منذ ان اعتذر الزائر عن التدخين وعن التدخين وعن تناول القهوة وعن تناول البيرة . لقد كان اوضح مايكون ان هذا الرجل لا يأكل ولا يشرب البتة ، وانما يعيش على الهواء ، ولعله يعيش بلا هواء اذا لزم الأمر .

لقد كان اوضح ما يكون ان هذا الرجل القزم الاعرج الغزير الشارب اللئيم الفم قديم ،قديم جداً، لعله عاصر الطوفان ،وان بدا في نحو الاربعين . لقد كان اوضح ما يكون انه لايملك الا هذه البدلة السوداء التي لا تبلى وانه يسير ابداً عاري الرأس يعتمد على عصا من الخرتيت في رحـاب الارض وفي دهاليز الزمن يندس بين الجموع الصاخبة ويقتحم مخادع الابطال . غـير ان حسن مفتاح لم يضطرب لذلك وانما فهم وسكت . وأراد ان يفتح باب الحديث فقال جاداً رزيناً :

ـ ومن يكون السيد ؟

قال الزائر بوداعة لا حد لها :

ـ رسول من السماء العظيمة . انا عزرائيل ، ملك هاديس وجابو والظلمات والابراج الخمسة المنطفئة .

ـ هذا ما ظننته .

ـ اتغتفر لي هذا الازعاج ؟

فلم يجب حسن مفتاح على سؤاله وإنما قال :

وفيم مجيئك الآن ؟

ـ وهل يخفى على ذكائك ؟

وخطر لحسن مفتاح خاطر غريب فتملكته سورة من الغضب لا حد لها ، وخيل اليه انه يرى مشهداً قرأه في الانجيل ، جبل الزيتون ومن فوقـه يسوع يجادل ابليس ، وذكر كل ما كان قد قرأه من حوار بين فاوست ومفستوفوليس. قال :

ـ لقد جئت تساومني .

وتطلع عزرائيل الى وجه حسن مفتاح فقرأ ما يجري في سريرته واجاب ضاحكاً :

– كلا يا حسن مفتاح .

ولم يسمع حسن مفتاح كلمه مما قال عزرائيل ومضى في صخبه الحالم يقول :

– إذن فاغرب عن وجهي . قل لسيدك العظيم لاكنوز قارون ولاقيان سليمان ولا ملك السموات والارض ولا ابالسة الجحيم ولا الغفران الالهي ليهز قلب حسن مفتاح . قل ان الثورة آتية لا ريب فيها . وهل يعفو الشعب عن حسن مفتاح انخان العهد الأعظم؟ بعد غد مع الفجر تخرج الفيران من جحورها وتزأر الليوث الحبيسة وتهشم قضبانها وتغرد البوم ويتآخى البشر مع الافاعي وتطير الأفيال الثقال بجناح الحرية ،ويرقص العبيد حول اجداث السادة ويشنق كل نخاس زنيم . بعد غد تستوي أصابع اليد الواحدة وتحدث المعجزة . ان ١١ يوليو يوم الشعب : كتب في السجل الأعلى قبل ان يكتب في اوراق ابناء الفناء. بل تحت كاتب الآلهة الذي ينقش الغياب في الكتاب الجديد ويحفظ كل ما كان وكل ما سيكون . لقد قال حسن مفتاح : « بعد غد مع الفجر تحدث المعجزة »، والقول ماقال حسن مفتاح . لقد قال حسن مفتاح : «بعد غد مع الفجر تنكسف عدالة السماء امام عدالة الأرض ويعلم الآلهة انهم فسقوا في الوادي الأمين ».

واستمع عزرائيل إلى كل ذلك صابراً . فلما فرغ حسن مفتاح من كلامه سمع عزرائيل يقول بصوت وديع خفيض :

– الهدوء ياحسن مفتاح . الهدوء يا حسن مفتاح .

وهدأ حسن مفتاح قليلا ، ولكنه مضى في هذيانه يقول :

– الم تصعد من قبل الى قمة القوقاز حيث بروميثيوس ذو الجراح الكثيرة، وتعده بالراحة الابدية ؟

– نعم فعلت .

– الم تصعد من قبل الى جبل الزيتون وتنشر جناحيك حول عيسى بن مريم

وتعده ملك السموات والأرض ؟

ـ نعم فعلت .

ـ الم تتسلل من قبل التي تخدع فاوست وتهمس في اذنه قائلا . . .

ـ نعم فعلت .

ـ اذن فاغرب عن وجهي يا مفستوفوليس . اغرب عن وجهي . اغرب . اغرب . اغرب ان حسن مفتاح لايساوم .

ولكن عزرائيل لم يتحرك من مكانه وانما اختفت ابتسامته . وبدأ عليه الرثاء لحماس حسن مفتاح ، ومضى يقول في صلابة :

ـ الهدوء يا حسن مفتاح . الهدوء يا حسن مفتاح .

ـ وماذا يريد عزرائيل من حسن مفتاح ؟

ـ أنا جئت أطالب بدين قديم .

ـ أنا ما اقترضت من أحد شيئاً .

ـ بلى .

ـ ممن ؟

ـ من سيد قنديل .

فارتعدت فرائص حسن مفتاح واغمض عينيه لحظة كأنه يتذكر حلماً مرعباً كان قد نسيه ، وأخيراً قال مضطرباً :

ـ وماذا اقترضت من سيد قنديل ؟

ـ اقترضت جثته .

فارتعدت فرائص حسن مفتاح مرة اخرى، وأدرك مراد عزرائيل فتصبب عرقاً وطاش بصره وامتقع وجهه ،فاذا به من وجوه الأموات وأوشك أن يخر مغشياً عليه . فقد أدرك أن صرح حياته يوشك أن ينهار . ولكنه جاهد حتى استرد سلطانه على نفسه وذهب يتلمس لنفسه مخرجاً :

– وما شأنك بهذا ؟

– جئت أتسلم الجثة .

وأصاب حسن مفتاح دوار جديد ولكنه تماسك مرة اخرى . وأحس بأن روحه تنشق عن جسده، وكاد أن يسمع لها صرير داخل صدره .ولكنه تكلف الهدوء التام . ان هذا المخلوق الشيطاني الشائه قــد جاء يطلب شيئاً عسيراً ، وحسن مفتاح لن يسلم له صاغراً . لسوف يجــادل . لسوف يقاوم إذا اقتضى الأمر . وهو بحاجة الى الطمأنينة الـكاملة حتى يرد كيده الى نحره . قال بجزم :

– انصرف . فلن اسلمك شيئاً .

– العارية ترد يا حسن مفتاح ؟

قال حسن مفتاح وفي عينيه بريق الانتصار :

– العارية ؟ نعم . العارية . العارية ترد . أنا لم اقترض من أحد شيئاً . أنا لم اقترض جثة سيد قنديل . وانما أخذتها قوة واقتداراً .

أجاب عزرائيل متهمكاً :

– أليس هذا في لغتكم اغتصاب ؟

– نعم .

– وما جزاء الاغتصاب في شريعتكم .

– كلا . كلا . كلا .

ـ ألم تخطب في الناس قائلا : « الموت للمغتصبين » .

ـ نعم ، الموت للمغتصبين . الموت لأعداء الشعب (حالما) لا زلنا نقول : « الموت للمغتصبين . الموت لأعداء الشعب » . يا شعوب الأرض هيا . .
(يوشك أن يغني نشيد الانصار)

ـ يا حسن مفتاح .

ـ نعم .

ـ أفق .

ـ ماذا جرى ؟

ـ لقد بدأت تخطب .

ـ عفواً .

ـ الجثة يا حسن مفتاح .

ـ ايه جثة ؟

ـ جثة سيد قنديل .

ـ آه ، تذكرت .

ـ أآخذها الآن ؟

ـ كلا . كلا . كلا .

ـ الوفاء يا حسن مفتاح . سلم الجثة يا حسن مفتاح .

ـ وبماذا أفي ؟ قلت لك اني لم اقترض الجثة ، وانما أخذتها قوة واقتدارا .

ـ أأستردها قوة واقتداراً ؟

ـ كلا . كلا . كلا .

ـ سلم الجثة يا حسن مفتاح .

ـ ومن تكون حتى اسلمك الجثة .

ـ قلت أنا عزرائيل ، ملك هاديس وحابو والظلمات والابراج الخمسة المنطفئة . أنا ملك الجيف والقبور والديدان والصديد .أنا ملك الدموع والعويل والنيران التي لا تطفئها مياه .

وكأنما أراد اثبات شخصيته لحسن مفتاح فأخرج من جيبه حجراً أسود يلمع نخرته براكين من غير براكين الأرض عليه نقوش لا يقرؤها إلا أهل العلم ، فامتحنه حسن مفتاح ثم رده إليه وقد اقتنع بصحة دعواه ، واطرق ملياً ، ولكنه لم يلبث أن عاد يجادله قائلاً :

ـ اليّ بسيد قنديل اسلمه جثته .

ـ ألم يكفك الدليل ؟

ـ بلى . ولكن إليّ بسيد قنديل يسترد جثته .

ـ أتردها إليه راضياً مرضياً ؟

ـ لقد أخذتها منه قوة واقتداراً ، فليأخذها مني قوة واقتداراً .

ـ هذه عدالة الأرض .

ـ (متهكماً) وهل في السماء عدالة ؟

ـ في السماء عدل ظالم وظلم عادل وعدل عادل وظلم ظالم .

ـ لست أفهم . نعم اني افهم . كلما سألنا : « لماذا ؟ » خاطبتمونا

بالاحاجي .

– السماء ليست فيها عدالة ولا ظلم ولا خير ولا شر ولا حق ولا باطل ولا جمال ولا قبح . ليس في السماء أشياء ولا صفات وإنما فيها قوانين .

– وبأى قانون أموت الآن ؟

– القانون الذي أماتك عند السلسلة واحياك تحت الجرف العميق يميتك من جديد بين هذه الجدران الأربعة .

– أحي أنا إذن ؟

– نعم ... ولا .

– ان كنت حياً كان هذا الجسد جسدي وان كنت ميتاً ففيم اماتتي من جديد ؟

– أنت ميت حي أو حي ميت . ليست هذه بأول مرة تحدث فيها هذه المعجزة . انها تحدث مرة كل ألف عام كلما أحرقت العنقاء الجديدة . ولكن لا تجادل يا حسن مفتاح . أأدعو إليك سيد قنديل .

– كلا . كلا . كلا .

– اخائف أنت ؟

– (مستكبراً) ان حسن مفتاح لا يخاف ، ولكن الخجل يقتلني . خذني . خذني قوة واقتداراً . خذني إذا استطعت . انهض أيها الوغد، ودافع عن نفسك.

وأراد حسن مفتاح أن ينهض ليثب على عزرائيل ، ولكنه عجز عن الحراك كأن أيدياً من فولاذ تشده الى مكانه . وفيما هو يختنق تحت أنفاسه المكتومة إذا به يسمع عزرائيل يضحك ضحكاً رقيقاً . قال حسن مفتاح بصوت متحشرج :

– مهلاً . مهلاً .

– ماذا تطلب الآن ؟

– هبك أخذت الجثة فما نفعك بها ؟

– يحرق حولها الجان انتن البخور فينعمون بأطيب العبير .

– إبقها لي واطلب ثمنك يا عزرائيل .

– هذه جثة لا تباع وتشرى .

– وكيف كان ذلك ؟

– صاحبها يطلب القصاص .

– نعم القصاص يا حسن مفتاح .

– حسبتك تطلب الوفاء .

– أنا أطلب الوفاء وهو يطلب القصاص .

– القصاص للجريمة يا عزرائيل .

– نعم ، القصاص للجريمة يا حسن مفتاح .

– وهل هناك جريمة ؟

– نعم . هناك جريمة .

– أنا لم ارتكب جريمة .

– لقد قتلت نفساً .

– أجل .

– والقاتل يقتل .

– أهذا هو القانون ؟

– أجل ، هذا هو القانون .

– هذه شريعة بالية .

– هذا هو القانون .

– ومن وضع القانون ؟

– اخيار الأرض واخيار السماء .

– وأين ورد ؟

– في الميثاق الأعظم بين الأرض والسماء : اقرأ صفحة العدل في باب الجريمة والعقاب .

– قلت اغرب عن وجهي يا عزرائيل .

– قلت تأدب يا حسن مفتاح .

– هذه مطلقات وأنا لا اؤمن بالمطلقات .

– هذه أزلية .

– هذه شريعة الحمقى . إنما قتلت ليحيا الشعب . إنما قتلت لانقذ الملايين . حسن مفتاح يقول :

« هاتوا أكاليل الغار . أقيموا التماثيل . اكتبوا التواريخ . مجـــدوا حسن مفتاح .» ولكن عزرائيل يقول :

« نعم ، هناك جريمة » . ولكن الميثاق يقول . « القاتل يقتل » ان عدالة

الارض وهي عرجاء تميز بين قاتل وقاتل . يا عدالة السماء أين كان الشعب لولا حسن مفتاح ؟ أين كان حسن مفتاح لولا سيد قنديل ؟ ولكن عزرائيل يقول : « نعم ، هناك جريمة » . لكن الميثاق الأعظم يقول : « القاتل يقتل» . القانون القانون . القانون . مزقوا الميثاق . مزقوا الميثاق . اشهدوا يا عبيـد الأرض : حسن مفتاح مجرم . زعيمكم قاتل ياعبيد الأرض . والقاتل يقتل . ها . ها . ها اتحسب اني أخاف الموت يا عزرائيل ؟ كل ما في الكون من عزاريل لا يخيفون حسن مفتاح . ولكن حياتي ملك الشعب . فلتكن دينونتي امام محكمة الشعب، وأنا أصيح : « اجل ، أنا قاتل ، أنا حسن مفتـــاح قتلت سيد قنديل بجوار الجرف العميق . أما هذه الساحة الالهية فأنا اصرخ فيها : كلا . كلا . انا لم اقتل احداً ، انا لم اقتل احداً . انا وهبت الحياة . ان عدالة السماء عميـاء معصوبة العينين تحمل سيفاً ذا حدين . الينا بالعدالة البصيرة . انا لم اقتل . انا لم اقتـل احداً . انا وهبت الحياة .ماذا تقول يا عزرائيل ؟ نعم ، انا القاتل . انا القاتل الذي يقتل القتلة . أنا القضاء . انا يد العدالة ان يد العدالة مشـلولة ، ولكن سوف تجري الحياة في يد العدالة بعد غد . نعم ، انا يد العدالة . انا العشماوي . العشماوي ؟ نعم العشماوي .

وارتعش حسن مفتاح حين ذكر العشماوي ،وتخيل وجهاً عظيماً كان قد رآه في إحدى الصحف تركي العينين لامعهما الى حد مخيف جامد القسمات شواربـه الكثة تخفي شفتيه تماماً ، وتواردت في خاطره المشانق ، الواحدة بعد الأخرى ورأى بعين خياله اجساداً معلقة فيها ترهل عظيم ، وبقيت من هـذه المشانق الكثيرة في نفس حسن مفتاح مشنقة واحدة ، مشنقة كبيرة واحدة ، وثبتت هذه المشنقة الكبيرة زمناً في نفسه ، خشبة رأسية عالية في أعلاها خشبة أفقية اقصر منها ، ثم نمت الخشبتان في خيال حسن مفتاح فاذا المشنقة تصير صليباً ، ان حسن مفتاح لم يعرف قبل الآن ان المشنقة نصف صليب ، ثم انطفأ الصليب وعاد مشنقة ثم نمت المشنقة فعادت صليباً ، ما هذا الرمز الجديد ، ان حسن

مفتاح يفهم الرمز الجديد . ان الصليب يفتح باب الحياة الثانية والمشنقة تفتح باب الحياة الأولى .وسيعبد الناس الرمز الجديد كما عبدوا الرمز القديم .وسترفع بائعات سليمان باشا وفؤاد الأول وقصر النيل الصليب الذهبي المرتاح على صدورهن ويلبسن مكانه مشنقة من ذهب . سيكون رمز البروليتاريا من الآن فصاعداً مشنقة من ذهب بأمر من اللجنة المركزية . الحياة الأولى تأتي قبل الحياة الثانية المشنقة على صدور الأحياء والصليب على صدور الأموات . سيحمل العبيد في جميع بقاع الأرض على صدورهم مشانق من البرونز ، وعلى ظهورهم مشانق من الخشب حتى يتم الخلاص . وعاد حسن مفتاح يصرخ في وجه عزرائيل قائلا :

—« انا العشماوي . نعم ، حسن مفتاح عشماوي المجتمع .ان الناس لا يمجدون العشماوي ولكنهم سوف يمجدون حسن مفتاح . لماذا لا تمجد الناس العشماوي ؟ انه يد العدالة القوية لا يد العدالة المشلولة . والوادي بحاجة الى عشماوي ينفذ امر ... امر من ... ؟ امر الله ؟ امر الشيطان ؟ امر من ؟ أمر الروح المطلق الناقص الصائر إلى الكمال ؟ أمر المادة الناقصة الساعية الى الكمال ؟ امر من ياعزرائيل ؟أمر الشعب . عشماوي ينفذ امرالشعب في نخاسيه. أنا لا اعرف عن الله شيئاً كثيراً . انا لا اعرف شيئاً كثيراً عن الروح او المادة ولن انفذ امرا لشيء من هذه الأشياء يا عزرائيل . انما ينفذ حسن مفتاح امر الشعب . ان حسن مفتاح ينفذ امر الشعب لأنه يعرف الشعب ، ويعرف أنه حقيقة موجودة لافرار لها من ذلك ، ويعرف انه اجدر الحقائق بالاهتمام . هذا يكفي . الا يكفيك يا عزرائيل هذا ؟ انا ابغض العنف . ان القدر قداستخدم العنف حين اغرقني عند السلسلة . فرتزمولر . آختونج . عند الفجر تتقدم او عند الرابعة ان لم تكن هناك غيوم . عشرة ملايين فرتزمولر . عشرة ملايين ايفان ايفانوف .خمسة ملايين جون سميث وجان ديبوا وبيترو روسو و كوجنسكي وكريشنا كراناماان . اسمع يا عزرائيل . أين هؤلاء يا عزرائيل ؟ انا أعرف من هؤلاء توم وود ، كابورال يحب زوجته وتحبه . لم يؤذِ مخلوقاً . لاذنب له .

آرثر كرونين ملازم اول من تحت السلاح ، يقرض شعراً لابأس به ،ولم يقتـــل ذبابة قبل سبتمبر ١٩٣٩ . فريد ستارك ، وليم جوتلي ، ستيفن بريد جوورتر كلهم برتبة كابتن وكلهم يحبون البشرية او يقولون انهم يحبون البشرية ، الطيار رينيه شامار ، سقطت رجله اليمنى في بير حكيم والرجل الأخرى في الضبعة . أعرفهم . كلهم تناولوا معي الشاي ، وكلهـــم ماتوا في سبيل الواجب . أي واجب ؟ ان الاوراق الرسمية تقول انهم ماتوا في سبيل الواجب ، والاوراق الرسمية لاتكذب . خمسة وعشرون مليوناً ماتوا في سبيل الواجب . ولكن دمهم مهدر يا عزرائيل ، وسوف يموت الابناء كما مات الآباء ، لان حربهم غير مقدسة ، لانهم يحاربون من اجل شاي الساعة الخامسة وبيرة الساعة الثامنة ولا يحاربون من أجل البشرية .انا لم ارَهم يا عزرائيل حين كانوا حول دير كاسينو ينظفون الجيوب ويسقطون في سبيل الواجب كما تقول الاوراق الرسمية . ولا أيام طبرق وكابوتزو يا عزرائيل . ولكني شممت على البعد دمهم المعجون في الاوحال وفي الرمال . شممت عرقهم الذي تجمد على صدورهم شهوراً . شممت رائحة جواربهم التي لم يخلعوها اسابيع . أين هم الآن يا عزرائيل ؟ أين عدالة السماء ؟ انهم لم يموتوا . انهم قتلوا . ومن قتلهم ياعزرائيل ؟ أجب . من قتلهم؟ نعم يا عزرائيل : القاتل يقتل . أنت قلت ذلك . القاتل يقتل . اين عدالةالسماء لسوف اقتلهم يا عزرائيل . أعداء البشرية اقتلهم كما تقتل الكلاب المسعورة . انهم لايزالون أحيـــاء يدخنون السيجار . ولكن عدالة الارض خير من عدالة السماء . نعم . القاتل يقتل ؛ انا أقول ذلك . أنا القاتل الذي يقتل القتلة . أنا القضاء . أنا يد العدالة . ان يد العدالة مشلولة يا عزرائيـــل ، ولكن بعد غد تجري فيها الحياة .

– الزم حدودك يا حسن مفتاح .

- هل تجاوزت ؟

– نعم تجاوزت •

– ألم تقل أن القاتل يقتل ؟

– أجل . أجل . لهذا جئتك يا حسن مفتاح •

– لمَ جئتني اذن . أولى بك أن تذهب الى تجار الحرب ،أولى بك أن تذهب الى النخاسين . أولى بك . .

– لا تراوغني يا حسن مفتاح .

– بأي كيل تكيل يا عزرائيل .

– الكيل واحد يا حسن مفتاح •

– أهذه ارادة السماء ؟

– نعم هذه ارادة السماء

– اذن فانصرف . لسوف أنفذ فيهم ارادة السماء . بعد غد يا عزرائيل . تعال بعد غد . بعد أن أنفذ فيهم ارادة السماء . القاتل يقتل يا عزرائيل . أنا أقبل حكم السماء . اقتلني بعد أن اقتلهم يا عزرائيل. تعال بعد غد يا عزرائيل .

– لقد جئت اصفي حساب الماضي .

– الماضي ؟ الماضي مضى يا عزرائيل . ان كوميسارية الشعب لا تنظر الى الماضي . لا تلتفت الى الوراء يا عزرائيل . انظر الى المستقبل يا عزرائيل • الى الامام • الماضي • ما قيمة الماضي •

– الماضي يعيش يا حسن مفتاح •

– لم يحدث شيء في الماضي . هيا انصرف •

– لقد قتلت سيد قنديل .

ـ هذه مسألة فيها نظر .

ـ أتنكر انك قتلت سيد قنديل ؟

ـ أنا لا أنكر شيئاً .

ـ أتعترف أنك قتلت سيد قنديل ؟

ـ أنا لا اعترف بشيء . أنا لا أعرف شيئاً . لا أعرف شيئاً البتة . نعم أنا قتلت سيد قنديل . كلا ، أنا لم أقتل سيد قنديل ؟ وكيف أقتل سيد قنديل ؟ ان سيد قنديل ابن عمي . ان سيد قنديل لم يسيء الي بشيء . كيف أقتل سيد قنديل أنا لم أقتل سيد قنديل. إن هذا الذي تراه سيد قنديل . إن هذا الذي تخاطبه سيد قنديل . فكيف تقول اني قتلت سيـــد قنديل أثبت العكس يا عزرائيل . ما دليلك على اني حسن مفتاح ؟ ها .. ها ... نعم ، ما دليلك على اني حسن مفتاح ؟ أنت تتهم يا عزرائيل . أقم الدليل يا عزرائيل . (يعري ذراعه ويعضها بجنون حتى يسيل منها الدم) ماذا ترى يا عزرائيل ؟ أجب . ماذا ترى ؟ دم . أهذا دم حسن مفتاح ؟ كلا . ان دم حسن مفتاح في بطون الاسماك والحيتان . كلا . انه دم سيد قنديل . (يعض ذراعه مرة اخرى) انظر . هذا دم سيد قنديل . ويعض ذراعه مرة اخرى) انظر . هذا دم سيد قنديل . انه كثيف . انه أحمر ما يكون . انه يتدفق. أتنكر هذا يا عزرائيل؟ انكر إذا استطعت انه دم سيد قنديل . اكذب إذا استطعت فباب السماء الآن مفتوح ولسوف ترجمك السماء بالصواعق على أجنحة الزوابع ان فعلت . فكيف تقول اني قتلت سيد قنديل ؟ أليس هــذا اللحم لحم سيد قنديل ؟ (يتحسس صدره بعـــد أن يعريه) انظر . ماذا ترى ؟ أين حسن مفتاح ؟ من أين لحسن مفتاح هذا الوشم ؟ أجب يا عزرائيل . « أنا » سيد قنديل . كذّب هذا يا عزرائيل . كذّب هذا يصرعك رسول من السماء في غمضة عين .

ـ حذار يا حسن مفتاح .

– وممّ تحذرني ؟

– أما قلت إن باب السماء مفتوح .

– أجل . اشهد ولتشهد معي السماء اني سيد قنديل .

– حذار يا حسن مفتاح . في المرة الثالثة تستجيب السماء . لا شيء ببعيد على السماء . أتفهم ما أقول ؟ في المرة الثالثة تكن لك الجثة . في المرة الثالثة تمسي سيد قنديل إذا شئت فأنت سيد قنديل . اصرخ من جديـــد : « اشهد أمام السماء اني سيد قنديل » مالي أراك ترتعد ؟ لا تخشَ شيئاً .سوف انضرف عنك الى الأبد . إنما جئت لاحاسب حسن مفتاح . فيم انتظارك ؟ لماذا لا تشهد السماء على أنك سيد قنديل ؟ أخائف أنت ؟ امضِ فيما بدأت . ألست تقول « أنا البروليتاريا » ، « أنا الشعب » ؟ ليس في الأمر لغز . روح عبقري تدخل في جسد خنزير . الروح منك . الجسد ليس لك . ان شئت فهو لك . قلها ثلاثاً يكن لك . تكن له ويكن لك . ولكنك ترفض أن تكون له وتقبل أن يكون لك . قصة معادة . نسمعها كل جيل .

– اغرب عن وجهي أيها اللعين . لقد فهمت الآن . لقد فهمت لـماذا يمقتك الناس . فهمت كيف يرتعب لذكراك الاطفال الأبرياء . اغرب عن وجهي أيها المخاتل . (يتهدل على كرسيه) اغرب عن وجهي . اغرب عن وجهي .اغرب.

ـ (ضجراً) الهميني الصبر أيتها السماء .

ـ (مصلياً) الهمني القوة يا الله .

ـ والآن من تكون ؟ حسن مفتاح أم سيـــد قنديل ؟ العبقري القاتل أم الأبله المقتول ؟

ـ (تسقط لحيته على صدره ويهمس) أنا حسن مفتاح . (يرفع رأسه في كبرياء ويتأمل النور الكهربائي كالحالم) أنا حسن مفتاح . أنا الألف أنا الياء .

أنا البداية أنا النهاية . أنا الكلمة . أنا حسن مفتاح ، وبعد غد سوف ترى من يكون حسن مفتاح . أنا الشعب . أتفهم ما أقول ؟ أنا الشعب . وكلمة الشعب فوق كل كلمة . بعد غد تفتح السجون . بعد غـد نرقص في الشوارع . بعد غد نحطم الأصنام . بعد غد ننثر الرياحين فى طريق الحرية من أرض الأرز الى أرض الزنوج . لقد قلنا مع الفجر . مع الفجر تبدأ الحياة . أوّاه . ما أبطأ الفجر . لماذا لا يبزغ .ولكن الفجر آت لا ريب فيه .

ـ إذن هيا يا حسن مفتاح .

ـ أنا أعلم من تكون . ايها المخاتل . أنت لست بعزرائيل . ان عزرائيل يعبد انهار الدموع وجداول الدماء . بعد غد تجري الدموع انهاراً . بعد غد تفيض جداول الدماء . بعد غد تصطك اسنانك فرحاً لمرأى العذاب . ومع ذلك فأنت تبيع كل هذا . بماذا ؟ بجثة سيد قنديل . ما أبخس الثمن . اليك الجثه . خذها ، ولكن الثورة لن تكون . الثورة باذن من حسن مفتاح . لقد قلنا ١٢٣٠ رأساً تهوي في اليوم الأول . ٥٦٦ في اليوم الثاني . صرعى المعارك لا يدخلون في الحساب . لو كنت عزرائيل لطار النوم من جفنيك حتى تشهد الفجر العظيم . لو كنت عزرائيل لسال لعابك شوقاً . لو كنت عزرائيل لطار النوم من جفنيك حتى تشهد الفجر العظيم . لو كنت عزرائيل لعانقتني وقبلتني وأقمت من نفسك ديدباناً يسهر على سلامتي حتى ترى الجبال تميد ،والبارود يلطخ وجه الأرض ، والشعب يرفع رأسه الاشعث ويبصق في وجه السماء . كل هذه الجماجم لك يا عزرائيل ، تلعب بها . على درج القصور وبين أحراش النخيل . ولكنك تركل كل هذا بقدمك لقاء جثة سيد قنديل . ان شئت فالجثة لك . انا أعلم مَن تكون . انت لست بعزرائيل . انت رسول البورجوازية جئت لتعطل الثورة . ان الاقدار ترتشي .ان الاقدار تحب الذهب . اخرج أيها المخاتل. اخرج ايها البورجوازي القذر . اخرج .

ـ دعك من هذا العناد يا حسن مفتاح وارضَ بنصيبك .

ـ اليك عني انا لم اقتل احداً .

ـ الم تقتل سيد قنديل ؟

ـ سيد قنديل ؟

ـ نعم سيد قنديل .

ـ انا لم أقتل سيد قنديل . انا وهبته الحياة . لقد اتحت له افراحاً لاتحصى. لقد اتحت له العلم الغزير . اتسمع هذه الموسيقى يا عزرائيل ؟ انها الايرويـكا . انها تنتشر في الهواء من تلك النافذة البعيدة .

ـ نعم ، اسمعها .

ـ جميـلة هي . اليس كذلك ؟

ـ نعم ، هي جميلة .

ـ الا يطرب جسدك لها ؟

ـ نعم ، جسدي يطرب لها .

ـ كذلك يطرب لها جسد سيد قنديل (يتحسس جسده) اكان جسد سيد قنديل يطرب لها وهو يقطع القصب في ارباض دماريس . (مشيراً الى المائدة الصغيرة) اترى هذه الفتات يا عزرائيل ؟

ـ ما شأنها ؟

ـ انها بقايا كافيار روسي أصيل . اتفهم ؟ كافيار . من أين لسيد قنديل بالكافيار الروسي الاصيل ؟ أترى هذا الكتاب ياعزرائيل ؟

ـ نعم أراه ، واعرف كل كلمة وردت فيـــه . اعلم انك اصبت منه متعة ومعرفة .

ـ ان سيد قنديل أمي لايقرأ ولا يكتب ، ولولاي فمن اين له المتعة والمعرفة انت تقول اني قتلته ، وانا أقول اني وهبته الحياة . ألم يحيَ قبل حياة الخنازير لا يعرف جسده الصابون ولا يأكل إلا الفجل والمش والكراث ، فأصبح بفضلي رجلاً من الرجال . ان سيد قنديل لم يكن له عقل وإنما كان له مخ خشن غليظ فأصبح بفضلي رجلاً نابهاً جسوراً يتحدى الطغاة ، ويرسم للجماهير طريق الخلاص ، انت تقول اني قتلته وانا اقول اني وهبته الحياة . اجل انا قتلته . قتلته . واكلته كما نقتل العجول ونأكلها . ألسنا نقتل العجول ونأكلها ؟ لماذا لاتطلب للعجول القصاص ؟ لماذا لا تغضب السماء من أجل العجول ؟ أجب . لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا لاتغضب السماء للنبت والفاكهة وهي جميلة عزلاء لم تؤذِ احداً ؟ اليك بالجواب اذن ياعزرائيل . لأن الانسان ارقى من العجول ومن النبت ومن الفاكهة . لان العجول والنبت والفاكهة لاتموت حين يأكلها الانسان وانما يكتب لها اجل جديد . لأن العجول تتحول الى افكار ماركس والنبـت يتحول الى انغام تشايكوفسكي والفاكهة تتحول الى قصائد الشعراء . انها السلسلة العظمى ياعزرائيل سلسلة الوجود . ما بالك لا تجيب ؟ اخلي سبيلي اذن وامضِ لحالك يا عزرائيل . لو ان البهائم والنبت والفاكهة علمت بمصائرها لمجدت الانسان وسعت اليه زلفى ترجو فداءه . الفداء ؟ نعم . الفداء . لمَ لم أفكر من قبل في الفداء ؟ الفـداء يا عزرائيل . الفداء دين الجيل الجديد . انت تقول : « لقد جـاء في الميثاق الأعظم بين أخيار الارض واخيار السماء ان القاتل يقتل » . وانا اقول : « لقد جاء في الكتاب الجديد الذي لايصدأ أبد الآبدين ان الكائنات السفلى تموت لتحيا الـكائنات العليا » . لقد جاء في الكتاب الجديد الذي لا يصدأ ابد الآبدين ان الفداء سنة الوجود . انظر اليّ يا عزرائيل . انا اطلب الموت من اجل الشعب . لماذا ؟ لأن الشعب كل وحسن مفتاح جزء ، لأن حياة الشعب اثمن من حياة حسن مفتاح . اجل ، غداً يموت حسن مفتـاح والشعب باقٍ يلد المفاتيح والقناديل . نعم ، الفداء . هذه كلمة السر بين الجيل الجديد . وكما يموت حسن مفتاح فداء الشعب كذلك يموت سيد قنديل فداء حسن مفتاح . افهمت يا عزرائيل ؟ قل

انك فهمت .

ـ نعم يا حسن مفتاح . انت لم تأتِ بجديد . اعلم كل ذلك واكثر منه . اعلم ان قبلة واحدة من مونا ربيع اثمن من جيش محشود من الاسياد القناديل .

ـ صمتاً . لاتلفظ اسمها الطاهر في هذه الحضرة اللعينة .

ـ عفواً ، يا حسن مفتاح (كأنما يحدث نفسه) نعم ، يكفيه ما هو فيه من عذاب . ولكن انتظاره لن يطول . انما ولدت مونا ربيع ساعة المحاق ، فهي ملعونة كذلك . وحين يمضي معي سيجدها تستحم بالسحاب الأبيض في حوض اللازورد . انك تقترب من اعدائك يا حسن مفتاح . انك تخون يا حسن مفتاح. اليس هذا ما تقوله الفاشية ؟

ـ خسئت .

ـ بل انك تخون يا حسن مفتاح .

ـ ها . ها . ايها الشعب . دار الزعامة وكر الخيانة . ايها الكادحون احرقوا بيت الشعب ، ارجموا حسن مفتاح ، ارجموه قبل ان يرجمكم . (يسترسل في ضحك هستيري طويل) .

ـ الهدوء يا حسن مفتاح .

ـ لقد اضحكتني يا عزرائيل .

ـ الا تخجل مما قلت ؟

ـ وهل قلت ما يخجل .

ـ الخيانة يا حسن مفتاح . الا تخجل من الخيانة ؟

ـ وأي خيانة فيما قلت ؟

ـ اعد ما قلت امام الجماهير .

ـ انا انادي بالفداء .

ـ انت تنادي ببقاء الاقوى .

ـ انا انادي ببقاء الأصلح .

ـ انت تقول ان السمك الكبير يأكل السمك الصغير .

ـ كلا . كلا . كلا .

ـ بل انت تقول ان السمك الصغير لو علم بمصيره لجد السمك الكبير وسعى اليه زلفى يرجو فداءه .

ـ كلا . كلا . كلا .

ـ اما قلت ان البهائم والنبت والفاكهة لا تموت حين يأكلها الانسان ؟

ـ نعم .

ـ اما قلت ان القناديل ينبغي ان تموت فداء المفاتيح ؟

ـ نعم .

ـ إذن فالسمك الكبير يأكل السمك الصغير .

ـ كبير ؟ صغير ؟ كلا . كلا . كلا . لا كبير ولا صغير . حسن مفتاح يقول ان الكبير يأكل الصغير ؟ كلا . كلا . كلا . هذا ما يقوله أعداء الشعب . هذه خيانة . لقد عاهدنا الشعب على الا يأكل احد احداً . انا لم أقل إن الكبير يأكل الصغير . إذا لم يكن من الأكل بد فليأكل الصغير الكبير .

ـ الم تقل ان القناديل ينبغي ان تموت فداء المفاتيح ؟

ـ اقلت هذا ؟

ـ اجل .

ـ انا قلت ان المفاتيح ينبغي ان تموت فداء القناديل .

ـ انك تهذي يا حسن . اتعرف لمَ تهذي ؟ انك تهذي حرصاً على الحياة . انفض عنك هذه الغيبوبة . حسن مفتاح يموت فداء الشعب . سيد قنديل يموت فداء حسن مفتاح . وماذا يكون الشعب اذا لم يكن حشداً من الأسياد القناديل؟ الشعب يموت فداء حسن مفتاح وحسن مفتاح يموت فداء الشعب . أي هذيان هذا ؟ الم تمد عشرين مليوناً من الاسيـــاد القناديل بالحياة ؟ عشرينَ مليوناً من الاسياد القناديل علمتهم بالحق او بالباطل انهم زبدة هذا الوجود ، انهم يرثون الارض وما عليها ، انهم اشرف الطبقات ، ان صوتهم من صوت الله . والآن ماذا تقول ؟ تقول ان الكائنات السفلى تموت لتحيا الكائنات العليا . تقول ان سيد قنديل يموت فداء حسن مفتاح . من قال انك عـالٍ وهو سافل ؟ انت . لسانك هذا . واطربا ! حسن مفتاح يعود الى صوابه . واطربا ! حسن مفتاح يخون العهد . (يرفع وجهه الى علٍ)ارقصي يا زبانية الجحيم . حسن مفتاح يخون العهد . الجثة لك ياحسن مفتاح . خذها فهي لك . عش بها حتى يأتي أجل سيد قنديل . عمر الى المائة فقد جاء في السجل الأعلى ان سيد قنديل يعمر الى المائة (يخرج من جيبه ورقة) ولكن وقع على هذه الوثيقة . وقع على هذه الوثيقـة يكن لك ما تريد . الجثة لك يا حسن مفتاح اذا وقعت هذه الورقة . ان دمك لم يجف بعد . اليك الريشة . اغمسها في دمك قبل ان يجف . مالك ترتجف .

ـ وماذا تحتوي الورقة ؟

ـ كل كلمة فهت بها . ليس في الورقة الا كلماتك . الورقة لا تقول أن السمك الكبير يأكل السمك الصغير ، فهذه كلماتك . خذ . لماذا لا تأخذ الورقة فيم تفكر ؟ اخائف انت ؟ ان عزرائيل لا يزيف على احد شيئاً . (يقف ويقرأ)

« انت تقول اني قتلته وانا أقول اني وهبته الحياة. اجل انا قتلته . قتلته . قتلته قتلته وأكلته كما نقتل العجول ونأكلها . السنا نقتل العجول ونأكلها ؟ لماذا لاتطلب العجول القصاص ؟لماذا لاتغضب السماء من أجل العجول؟ أجب ؟ لماذا؟لماذا؟ لماذا لا تغضب السماء من أجل النبت والفاكهة وهي جميلة عزلاء لم تؤذِ أحداً ؟ اليك بالجواب إذن يا عزرائيل . لأن الانسان أرقى من العجول ومن النبت ومن الفاكهة . لأن العجول والنبت والفاكهة لا تموت حين يأكلها الانسان . لأن العجول تتحول الى أفكار ماركس ، والنبت يتحول إلى انغام تشايكوفسكي والفاكهة تتحول إلى قصائد الشعراء . انها السلسلة العظمى يا عزرائيل ، سلسلة الوجود . ما بالك لاتجيب ؟ اخلِ سبيلي اذن وامضِ لحالك يا عزرائيل . لو ان البهائم والنبت والفاكهة علمت بمصائرها لمجدت الانسان وسعت اليه زلفى ترجو فداءه . الفداء ؟ نعم ، الفداء لمَ لم افكر من قبل في الفداء ؟ الفداء ياعزرائيل . الفداء دين الجيل الجديد . انت تقول : لقد جاء في الميثاق الأعظم بين اخيار السماء واخيار الأرض ان القاتل يقتل . وانا أقول : لقد جاء في الكتاب الجديد الذي لا يصدأ أبد الآبدين ان الكائنات الفلى تموت لتحيا الكائنات العليا ، لقد جاء في الكتاب الجديد الذي لايصدأ ابد الآبدين ان الفداء سنة الوجود . انظر يا عزرائيل . انا أطلب الموت من اجل الشعب . لماذا ؟ لأن الشعب كل وحسن مفتاح جزء لأن حياة الشعب اثمن من حياة حسن مفتاح . اجل . غداً يموت حسن مفتاح والشعب باقٍ يلد المفاتيح والقناديل . نعم . الفداء . هذه كلمة السر بين الجيل الجديد . وكما يموت حسن مفتاح فداء الشعب كذلك يموت سيد قنديل فداء حسن مفتاح » .

ـ هاتها . هاتها . (يهجم حسن مفتاح على عزرائيل يبغي تمزيق الورقة فيرده عزرائيل الى مكانه خائر القوى) .

ـ انك تعود طفلاً يا حسن مفتاح . اليك الريشة . وقع الورقة بدمك انصرف عنك الى الابد .

ـ (يدفن وجهه في راحتيه) كلا • كلا • كلا •

ـ وقع الورقة او سلم الجثة .

ـ دعني افكر . دعني افكر .

ـ الوقت ازف يا حسن مفتاح .

ـ وماذا انت فاعل بالصك ؟

ـ اضمه الى الكتاب الجديد الذي لايبلى ابد الآبدين . اتحسب ان الاقوال المأثورة تؤخذ عن الآلهة وحدها ؟ سوف اضعه عندمخادع العظماء . سوف اهمس به في مسامع الابطال . سوف اثقف به الاحرار يوم يولدون •

ـ وسوف تقف به في الاسواق والميـــادين وتقرؤه على الجماهير المتجمهرة صائحاً : « أيها الشعب ! ان زعيمكم قد خـــان • ايتها الكائنات السفلى موتوا لتحيا الكائنات العليا » .

ـ كلا يا حسن مفتاح • لن افعـــل من ذلك شيئاً • الغدر ليس من سجايا عزرائيل • هذا الصك سوف يحفظ بين مواثيق الخالدين شاهداً عليك ودليلاً • فلئن خرجت من جديد الى الجماهير تمجدها وتعدها بالمساواة نزلت انا الى الارض ونسخته بحروف كبيرة حمراء لاتمحى على جدران البلاد ، حتى يعرف الناس حقيقة حسن مفتاح . أتجد غبناً فيما أقول •

ـ كلا يا عزرائيل •

ـ اذن وقع الميثاق •

ـ مهلا . مهلا • (يحدث نفسه) سوف اخدعه • ماذا يحدث لو وقعـت الميثاق ؟ان كل ما اطلبه ثمان واربعين ساعة • انا لا أطلب الحياة لنفسي • ترى ماذا يحدث لو أبيت ؟ سوف ينصرف عزرائيل ومعه الجثـة • وعندئذ من ذا يقود الجماهير ؟ ان اللجنة المركزية تتخبط بغير حسن مفتاح • لسوف يفشل كل

شيءلسوف يتناحر الجيار ورامز وروزنشتاين على السلطة . لسوف يفر بطرس قلادة من المعركة . لسوف تنتحر مونا ربيع . لسوف يعود حسن مفتاح روحاً مجردة لا حول لها ولا قوة ، تؤم مواقع الجثث وتندب النصر الذي لم يكن . لسوف يعود العبيد الى اغلالهم بعد ساعات . وهل يغفر الشعب عندئذ لحسن مفتاح ؟ كلا ، لن يغفر الشعب عندئذ لحسن مفتاح . ان « هذه » هي الخيانة . نعـم . « هذه » هي الخيانة . ان الشعب ينتظر . كيف يتخلى حسن مفتاح ؟ أفي اللحظة الأخيرة يتخلى حسن مفتاح ؟ محال . محال . ما أيسر الجريمة . ما اقسى العقاب . ثمانٍ واربعين ساعة . انا لا اطلب الا ثماني واربعين ساعة . التاريخ ينتظر . شعوب الارض تنتظر . جماهير مصر تنتظر . بعد ثمانٍ واربعين ساعة ينتهي كل شيء . الوقت عصيب . الفجر قريب . أكاد ان أراه . كل شيء رهين بهذه الساعة . أأوقف عجلة التاريخ من أجل هذا الزائر الابله ؟ ما اعجب السماء لم امهلتني السماء حتى اللحظة الحرجة ؟ هذه احـاجٍ لا يفهمها البشر . ولكن حسن مفتاح لن يتراجع . لن يخون . لن ينقاد . الأقدار تكيد لك يا حسن مفتاح . الأقدار تغار منك يا حسن مفتاح . لاشك أنهـا تكيد . لاشك انها تغار . ماخطبها ياترى ؟ آه ، فهمت . غداً تلمع في السمت يا حسن مفتاح ، فيحجب نورك الآلهة . غداً تلهـج بذكرك الألسنة والآلهة في غمرة النسيان . اجل . القدر يطارد الابطال منذ فجر التاريخ كلا . كلا . ان السماء ليست غيرى لكنها غضبى . الكلمة لك يا حسن مفتاح . سلم الجثة تخن الشعب . ولكن حسن مفتاح سيقاوم . سيرواغ . سيوقع الصك إذا لزم الأمر . اليس كذلك ياحسن مفتاح . التاكتيك . الم نقل ان التاكتيك سبيل الثورة ؟ يا عزرائيل .

— هل وصلت الى قرار ؟

— ثمانٍ واربعين ساعة .

— محال يا حسن مفتاح .

– يا عزرائيل •

– ماذا قلت •

– الي بالصك •

(يبادر اليه عزرائيل بالصك والريشة • يغمس حسن مفتاح الريشة في ذراعه الجريحة ويقترب بها من الصك ، وما ان تمس الريشة الصك حتى يقصف رعد هائل يزلزل جنبات الدار ، فتسقط الريشة من يد حسن مفتاح وتسمع أصوات ملائكة تتحدث ، :

الملاك الأيمن – الحذار يا حسن مفتاح •

الملاك الأيسر – الحذار يا حسن مفتاح •

– اغرب عن وجهي أيها اللعين •

– هات الجثة يا حسن مفتاح •

– لن تظفر مني بشيء •

– وقع الصك يا حسن مفتاح •

– كلا • كلا • كلا •

– وقع الصك او سلم الجثة •

– صبراً يا عزرائيل • الملائكة غضبى • الغفران • الغفران • كلا • لن اوقع الصك • (يكلم نفسه) ولكن عزرائيل يقف بالمرصاد • اصرعيه ايتها الملائكة اصرعيه • اصرعيه • لمَ لا تصرعيه ايتها الملائكة ؟ ما أضعف البشر • انقديني يا رُسُل الخير . فليقتل الخير الشر • لمَ لا يقتل الخير الشر؟ الى الملحمة الكبرى • هيا • هيا • هيا • الخير يقتم الشر • ايها الناس ، تعالوا واشهدوا • لقد ازفت

ساعة الخلاص . سوف يقتل الخير الشر . ولكن الملائكة لاتتقدم . لمَ لايقتل الخير الشر؟ لم لايقتل الله الشيطان ؟ ايها الناس ، ان الملائكة خائفة . ماأضعف الخير . لم يبقَ الا ان اخدعه . اذا كانت الملائكة ترتعد فحسن مفتاح لايرتعد . نعم ، لسوف اخدعه . لقد قلنا ان التكتيك سبيل الثورة . لسوف اخاتـله . انالا أطلب الا ثماني واربعين ساعة .الأسد والثعلب . قوة الاسد ومكرالثعلب . هذا جاء أيضاً في الكتاب الجديد : اذا أعوزتك قوة الاسد فليكن لك مكر الثعلب . لسوف اوقع الصك . ترى ماذا يكون لو وقعت ؟ لسوف ينصرف . نعم ، ينصرف . هذا كل ما أرجوه . ان ينصرف . امهليني ايتها الزبانية .المهلة. المهلة . المهلة . وبعد ذلك يسير كل شيء طبقاً للخطة الموضوعة . لسوف اكسر الميثاق . لسوف اختار خلفي . الأحمق رامز . وهل غير رامز- للعهد الجديد ! رامز شعلة من نار . رامز فولاذ مسبوك في جوف الشمس . لسوف اكتب بياناً للناس . ماذا يكون عنوانه : « الى السلاح ايها المواطنون » كلا . « الى السلاح ايها الكادحون » . « الحرية للعبيد » . لسوف اترك وصيتي للجنة المركزية . ومع الفجر اخرج الى الشارع استنهض الكادحين . وليفعل عزرائيل ما يشاء . هبه نشر الصك بحروف كبيرة حمراء لا تمحى على جدران البـــلاد ، ترى ماذا يحدث ؟ لن يصدقه احد . بلى . بلى . سوف يصدقه فريـق . اواه . حروف لاتمحى . العار الابدي يا حسن مفتاح . ياله من ماكر لعين . ولكن لن يصدقه احد . سوف يصيح الشعب : « دسيسة بورجوازية » . سوف يحطـــم الشعب الجدران . ولكن كيف يحطم الشعب ملايـين الجدران . ولكن الحروف لن تمحى . نعم . لسوف اكتب بياناً للناس . لسوف اشرح الحقيقة . ولكن كيف يصدّق الناس الحقيقة ؟ لسوف يصيحون : « لقد جن الزعيم . لقد جن حسن مفتاح . لسوف يسود الذعر الجوع . لسوف تتفكك اللجنــة المركزية .لسوف تخمد الثورة قبل ان تشتعل . كلا . لن اكتب بياناً للناس ، ولتمت الحقيقــة معي . ولكن لا بد من المجازفة . ان حسن مفتاح لا يفر في اللحظه الحاسمة . انه تـكليف من سر الوجود . التاريخ ينتظر. نعم، لا بد من المجازفة . التكتيك

سبيل الثورة . (ينادي) .

- يا عزرائيل .

- لبيك .

- إليّ بالصك (ينحني ويلتقط الريشة ويغمسها في ذراعه المجروح من جديد ويقترب بها من الصك .

وما ان تمس الريشة الصك حتى يقعقع رعد هائل فيزلزل جوانب الدار وتسقط الريشة من يد حسن مفتاح ويسمع اصوات ملائكة تتحدث) :

الملاك الأيمن ـ الحذار ياحسن مفتاح .

الملاك الأيسر ـ الحذار يا حسن مفتاح .

ـ صمتاً ايتها الملائكة .

(ينحني ويلتقط الريشة على عجل ويقترب بها الى الصك للمرة الثالثة فيتابع قصف الرعود وتظلم الدنيا امام عينيه وتعوي في اذنيه رياح رهيبة ويسمع الملكين يناشدانه الحذر في ذعر عظيم فيحطم الريشة ويقذف بها بعيداً ويخرج من فمه لسان من النار يأكل صك عزرائيل . وحين ينجلي الدخان يسترخي حسن مفتاح في مقعده ، ويستسلم لغيبوبة طويلة هدوؤها كامل . وفي هذه الغيبوبة يسمع موسيقى الهية تعزف اجمل من كورال بيتهوفن ويسمع كوراس الملائكة تغني : « هللويا . هللويا ») .

ـ يا حسن مفتاح

ـ . . . .

ـ انه في رؤيا . لقد عذبته عذاباً لم اعذبه احداً من قبل . لقد اوشك ان يقع في الفخ ، ولكنه نجا منه بأعجوبة . كلما أمسك بالريشة شلت يده . ترى

ماذا يشل يده ؟ المجد لك يا حسن مفتاح . انا عزرائيـــل انكس الرأس أمام حسن مفتاح ، ولولا خشيتي من مولاي العظيم لسجدت امامه. لك المجد يا حسن مفتاح . لقد عاش بطلاً وسوف يموت بطلا . ولكن لا بد ان يموت . نعم ، لا مفر من الوفاء . لامفر من القصاص . وحين تمثل روحـــه العظيمة في المحكمة العليا امام الديان الاكبر ، عندئذ يستطيع حسن مفتاح ان يصيح في الملأالأعلى: « لقد قتلت ليحيا الشعب » فتجلجل كلماته في كهـوف السماء . سوف يعرف حسن مفتاح كيف يدافع عن نفسه يومئذ ، ولقد يستمع الديان الى دفاعه . انه لن يطلب لنفسه الرحمة . انه لن يطلـب إلا العدالة . (يشم الدم في الهواء كأنه ذئب مفترس) واحسرتاه . كل هـذه الرؤوس تهوي : ١٢٣٠ رأساً في اليوم الاول ، ٥٦٦ رأساً في اليوم الثاني عدا صرعى المعارك . (يصمت قليلا)ولكن الخطأ خطؤه ، فهو لا يقتل الا عدلاً . لقد راجعت بنفسي قوائمه فما وجدت فيها واحداً لايستحق غضب الشعب . يا للخسارة . لو ان حسن مفتاح كان يقتـــل الناس ظلماً لخف ابليس الى نجدته ، لغضب له ، لظاهره بجند وعتاد ، بل لخرج في الف الف ملاك ممسوخ واشعلها في السماء حرباً ضروساً دونهـا حربه الأولى . من اين لابليس بجبار جديد ؟ ولكن هكذا شاء حسن مفتاح . ان فيه شرارة الرحمن . فليمت وحيداً كما عاش وحيداً . نعم ، لابد ان يموت. ياحسن مفتاح .

ـ (يستيقظ) لبيك يا عزرائيل .

ـ سلم الجثة .

ـ (ينهض) أنا لك جسداً وروحاً . أنا لك . عجل يا عزرائيل . (يرفع وجهه الى السقف ويصلي وكأنه نائم)يا سر الوجود . سدد خطاهم. اقهر عداهم . يا سر الوجود . بارك الوادي . بارك مونا . بارك مونا . بارك مونا. أواه .

ـ يا حسن مفتاح .

ـ عجل يا عزرائيل .

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ الغروب يا عزرائيل : (يدق ناقوس بعيد سبع دقات)

ـ أنت بطل كريم .

ـ أنصفت يا عزرائيل .

ـ لن آخذك الآن .

ـ متى يا عزرائيل .

ـ أتحب أن ترى مونا ؟

ـ نعم يا عزرائيل .

ـ أتحب أن تودع الزملاء ؟

ـ نعم يا عزرائيل .

ـ لقد عشت كريماً فلتمت كريماً (ينظر الى يديه الشائهتين ثم ينظر الى عنق حسن مفتاح) حرام أن تمتد هذه الأصابع الشائهة الى هـذا العنق الكريم. أنا لا آخذ إلا سفلة الناس يا حسن مفتاح •

ـ أما الأبطال فيسعون إليك بأقدامهم •

ـ هو كذلك يا حسن مفتاح •

ـ فهمت . أتحب أن أشكرك ؟

ـ كلا ، يا حسن مفتاح .

ـ هل اتفقنا ؟

ـ نعم اتفقنا .

ـ وأين موعدنا يا عزرائيل ؟

ـ أتعرف وادي الخفافيش الحمر ؟

ـ أجل يا عزرائيل .

ـ موعدنا في وادي الخفافيش الحمر يا حسن مفتاح .

ـ غداً عند الغروب يا عزرائيل .

ـ الى اللقاء يا حسن مفتاح .

ـ الى اللقاء يا عزرائيل .

ونهض القزم ذو الشارب الأسود الكثيف والفم اللئيم والعينين الضيقتين ووقف عاري الرأس ينتظر . وأوشك أن يبسط يده مصافحاً ولكنه لم يفعل . أما بصره فلم يتحول عن وجه حسن مفتاح وهو مسترخٍ على مقعده وطفح قلبه بالرثاء لهذا الطلل المجيد فانحدرت من عينيه دمعة حجرية . وكأنما استحى الزائر العجيب أن تفضحه أشجانه فانصرف مسرعــاً يزك في الدهليز تتبعه نظرات حسن مفتاح وهي جامدة ، حتى بلغ الباب . ورأى حسن مفتاح مدام ماريكا تخرج إليه وتضم ثوبها الى جسدها كأنما هبة من الهواء تلطمها ثم تلطم الباب ، ثم رآها تفتح الباب والزائر يبتسم لهــا أعذب ابتسامة في الوجود ويحني رأسه بالتحية ، ولكن مدام ماريكا لا ترق له بل توشك أن ترتجف . كذلك رأى مدام ماريكا تغلق دونه الباب ولكنها تقف حيرانة بضع ثوان ثم تحك شعرها الأشيب المنفوش . ودخلت مدام ماريكا الى حسن مفتاح فوجدته مسترخياً على الكرسي الأسيوطي وقد جحظت عيناه واشتبكتا بسقف المدخل . ورأت كل ما تخلف من الآنية الصينية ومن زجاجات البيرة الفارغة محطماً على البساط ، وأرادت أن تحتج ولكنها لم تقل شيئاً . وأخيراً قال حسن مفتاح :

ـ مدام ماريكا .

ـ نعم مسيو يا مفتاح .

ـ هل خرج ؟

ـ مين اللي خرج ؟

ونظرت إليه عاجبة وحملق هو فيها وأوشك أن يسألها قائلا : « ألم تفتحي الباب منذ لحظة ؟ » ولكنه عدل عن ذلك وعاد يقول :

ـ مدام ماريكا ؟

ـ نعم يا مسيو مفتاح .

ـ كم الحساب ؟

ـ أنت مسافر يا مسيو مفتاح ؟

ـ نعم ، في رحلة طويلة ، طويلة ، طويلة .

كل ذلك وبصره لا يتحول عن مصيص السقف . وخطر له أنه كان يحلم ثم أفاق من حلمه . ولكنه طرد هـذا الخاطر ، وبدا عليه أنه يرى شيئاً بعيداً . وحملقت فيه مدام ماريكا زمناًثم عادت الى مطبخها تبحث فيه عن سلة تجمع فيها حطام الصيني ونتف الزجاج المكسور .

١٠

بعد ان انصرف القزم ذو الشارب الأسود الكثيف والفم اللئيم والعينين الضيقتين ، دخل حسن مفتاح غرفته ، وأغلق بابها بالمفتاح على غير عادته . وحين دقت مدام ماريكا بابه لم يفتح لها فوراً بل سألها غاضباً عما تريد ، فلما علم انها تريد ان تسلمه أوراقه فتح وتناول الاوراق دون ان يشكر ، ثم ادار المفتاح في الباب من جديد . واتكأ على سريره يفكر تحت النور مباشرة . وسقط بصره على مرآة الدولاب ، ورأى فيها وجهه فعبس قليلا ثم انصرف الى تأملاته مرة أخرى .

انه يفهم الآن . هذا ما تريده السماء . بالحق او الباطل ؟ انه لم يحسب حساب عزرائيل . ولكن لمَ انتظرت السماء حتى اللحظة الحاسمة ؟ ان منطق القدر يحير العقل . اهذا جزء من الجو المسرحي الذي تحيا فيه الخليقة ؟ ولكن كان ينبغي عليه ان يقدر كل ذلك ، فهو يعلم ان كلف القدر بالمسرحيات قديم . وتذكر حسن مفتاح جاره القديم الخواجة طناش الذي دخل المستشفى لتبتر ساقه وظل طول العلاج يجأر كالمجنون ويبكي بكاء الاطفال ، وما ان تم علاجه وخرج الى الشارع حتى صدمته سيارة قتلته لوهلته . ان منطق القدر يحير العقل . ولكن من قال ان للقدر منطقاً ؟ نعم . ان للقدر منطقاً ، وهذا المنطق يحير العقل . ولكن ماذا يحيّر العقل في منطق القضاء ؟ القاتل يقتل . هناك جريمة وهناك عقاب . كل هذه قوانين يعرفها الاطفال الصغار ولا شيء فيها يحير العقل . وقد كان ينبغي على حسن مفتاح ان ينتظر شيئاً من هذا القبيل . انه يعلم عن

الابطال القدامى انهم كلما ارتفعوا حتى مست السماء هاماتهم جاءهم النذير من عرافة منف يقول : « احذروا الآلهة . احذروا » . لاجديد يا حسن مفتاح . لقد تذكر حسن مفتـــاح كل ذلك وهو متكىء على سريره يفكر تحت النور مباشرة . ولكن لمَ قتل الخواجة طناش بعد ان تعذب عذاباً اليماً ولم يقتل قبل ان يتعذب؟ لمَ انتظرت السماء حتى اللحظة الحاسمة ؟ ان للقدر منطقاً يحير العقل ترى ماذا تظن به مدام ماريكا ؟ ولكن مدام ماريكا نستطيع ان تذهب الى الجحيم . ترى كيف تجد مدام ماريكا موضعاً بين افكاره في هـــذه اللحظة العصيبة ؟ ولكن البيرة التي قدمتها اليه كانت مثلجة ، وهو يرغب فيمزيدمنها. كلا . انه لا يجرؤ ان يفتح بابه وينادي ؟ « مدام ماريكا . زجاجة بيرة » . اذن فلا بد من الوفاء ؟ اذن فلا بد من القصاص ؟ انه لايخشى القصاص . وهو يعلم انه روح ملعون ، وهو يرضى بالسفود ان كان هناك سفود . ولكنه يخشى الوفاء كلا . كلا . انه لا يخشى الوفاء . انه لايخشى الموت . هو يؤمن بالوفاء . ولكنه يطلب الامهال . فليأت عزرائيل وليحمل الجثة وينصرف بها ، ولكن بعد غد وفيما العجلة ؟ ليرقص حولها الجان ويحرقوا انتن البخور ؟ نعم . فيمَ العجلة ؟ فلتؤجل الجان رقصها ثماني واربعين ساعة . انتن البخور ! انه لم يكن يعلم ان السماء تبغض البشر الى هذا الحد . الشعب يطلب جثة حسن مفتاح ليصنع التاريخ والجان تطلب جثة حسن مفتاح لتحرق انتن البخور . ولكن أعداء الشعب يطلبون جثة حسن مفتاح كذلك . يا لها من جثة ثمينة . ولكن ماجـــدوى التفكير . انه جادل عزرائيل بما يستطيع فأخفق في اقناعه . انه قاوم . الم يقاوم ؟ وفي كل مرة قاوم كان يحس بالاختناق ويوشك ان يسعل دماً . أجل . لا بد من الوفاء . الم يعد عزرائيل بالوفاء ؟ انه لم يخلف من قبل وعداً ، ولا بد من الوفاء . لماذا يفكر فيما لا ينفع ؟ لقد تم الاتفاق . الاتفاق ؟ انه لم يتفق على شيء . . انه قبل الشروط . ولكن عزرائيل لايخلو من الشهامة . لقد امهله اربعاً وعشرين ساعة ، لعلها الآن ثلاث وعشرون . عليـــه ان يرى مونا ربيع ويضرع اليها ان تركب الطائرة . لسوف يصارحها بكل شيء . لسوف يسر في

اذنها بأن الثورة فاشلة . انه لايجرؤ ان يقول ذلك للجنة المركزية حتى لايقال خائن او مجنون . ولكن مونا ربيع ستفهم كل مايقول . نعم . ستفهم مونا ربيع كل مايقول . احقاً ان مونا ربيع ستفهم كل مايقول ؟ لابد ان يكتب بياناً للناس .لا .لا . لابد ان يكتب وصية للجنة المركزية . ثم هناك القوائم السوداء ولا بد من تسليم القوائم السوداء . ماذا تفعل اللجنة المركزية لو احرق القوائم السوداء ؟ لقد كشف عن عينيه الغطاء وهو يرى الآن ما لايرون .القاتل يقتل . الجريمة تحمل العقاب في احشائها . نعم . نعم . لسوف يدمر القوائم السوداء . لاعنف بعد اليوم . لاعنف . لاعنف . لاعنف . انهم بسطاء لايفهمون ماذا يعملون . آه لو انهم رأوا بعض ما رأى . ولكنهم لا يعلمون ماعزرائيل لأنهم لم يختنقوا . انهم لم يختنقوا حتى تطفح افواههم دماً . انهم لم يتحسسوا اعناقهم . انهم لم يلبسوا أطواق الحديد . أما هو فقد فعل كل ذلك . أين ذهب الرباط والألوان الكثيرة ؟ لاشك ان عزرائيل طار به . العنــف ؟ من قال العنف ؟ انهم لايفهمون ما يعملون . انها لعنة قابيل . كلا . كلا . ان اللجنة المركزية تحلم الآن اعذب الاحلام . انها تحلم بالرؤوس الهاوية. انها تحلم ببرك الدماء. انها تعاليم حسن مفتاح ، ولسوف يكفر عنهــا باحراق القوائم السوداء . ان نعيماً كان يقترح ان تنشر اللجنة المركزية أعداء الشعب بالمناشير : من اسفل إلى أعلى ، درجة درجة ، بلا مخدر ، ليموتوا موتاً مقسطاً . ولكن اللجنة المركزية قالت انها كانت تود ان تفعل ذلك لولا خوفها من كتب التاريخ ، فأجاب نعيم بأنه يقترح ذلك بالذات ليدون في كتب التاريــخ . ثم تدخل حسن مفتاح قائلاً : « سابق لأوانه . سابق لأوانه » . وعادت الجماعة الى جدول الاعمال. ولكنهم لايفهمون ما يعملون . انهم لايعلمون ماعزرائيل . انهم لم يلبسوا أطواق الحديد اما هو فقد فعل ذلك . آه لو رأوا بعض مارأى . ولكنهم سيرون كل مارأى واكثر منه . ليته علم بما كان سيكون . اذن لحلقت روحه اربعين يوماً ثم انطفأت وتوارت في العالم المجهول . ولكن من اين له ان يعلم هذا ؟ ان فؤاد منقريوس لم يخبره بهذا المصير . ان فؤاد منقريوس لايزال حبيساً في شجرة الجميز ، وسوف

يظل حبيساً فيها الف عام اخرى . التاريخ . التاريخ . لماذا لم تأتِ نذر السماء من قبل وتحذر . ان اللجنة المركزية تحلم الآن اعذب الاحلام . ان اللجنة المركزية ستفيق من أحلامها العذبة حين لا تجد القوائم السوداء . فلتعد اللجنة المركزيه قوائمها السوداء مرة اخرى ، أما حسن مفتاح فلن يشترك في التبعة . سيقولون ان حسن مفتاح خرب الثورة . فليقولوا . ما أكثر ما يقولون . اما هو فيغسل يديه من المجزرة . لقد قتل مرة ولن يقتل مرة اخرى . لن يقتل باسم القانون او باسم الشعب او باسم الشياطين . لقد قتل مرة وهو الآن يدفع الثمن . لسوف يقصد الى اللجنة المركزية ويصيح في الجماعة قائلاً : « لقد رأيت عزرائيل . احذروا عزرائيل . ان عزرائيل بالمرصاد . » لسوف يقص عليهم كل ما جرى . ترى لماذا لا يختنق الآن كما كان يختنق أمام عزرائيل؟ انه هادىء. ترى ما سر هذا الهدوء ؟ لسوف يقص عليهم ما جرى . ويترك لهم الخيار . ان هذا واجبه فهو الذي دفعهم الى العنف دفعاً . لا يزال في الوقت متسع للتراجع. ولكنه لم يعد سيد الموقف . لن يطيعه احد . سيسخر منه الجميع . كلا . لن يقص عليهم ما جرى . ولكنه سيدمر القوائم السوداء . سيقول: « ايها الزملاء ، صدقوا ما جاء في الميثاق الأعظم . ان العنف لا يجدي . لا تكتبوا التاريخ بالدماء . لا تبنوا مصر بالجثث . انشروا السلام على وجه الأرض » . كلا . لن يقول من ذلك شيئاً . سوف يودعهم في صمت . وفيم الوداع ؟ سوف يختفي في صمت . سيقال جبان . فليُقل . . ما أكثر ما يقال . انه نادم على كل ما فعل . ولكن من أين له ان يعرف ؟ لماذا لم ترسل السماء من قبل نذراً تحذر ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ آه لو عرف من قبل . انه نادم على كل ما فعل . وفي اللحظة الحاسمة . لماذا في اللحظة الحاسمة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ان للقدر منطقاً يحير العقول . ولكنه يقبل هذا المنطق راضياً ، فان لم يقبله راضياً قبله صاغراً . انه نادم على كل ما فعل . آه ، لو عرف من قبل . من اذن له ان يقتل سيد قنديل؟ الشعب. بأي حق ؟ حق ؟ حق ؟ انها الضرورة . هي الضرورة . من يدري ؟ ان ضميره قال له : « اقتل سيد قنديل ليحيا الشعب » . ولكن السماء على صواب.

الشعب يأمر والسماء تنهي . اقتل . لا تقتل . اقتل . لا تقتل . ثم من قال ان هذا صوت الشعب ؟ ولكن السماء على حق . السماء دائماً على حق حق ولو اخطأت . وماذا تعرف الهوام التي تدب على قشرة الأرض وتأكل وتتناسل وتقتتل في الخطأ وفي الصواب ، في الخير وفي الشر . لا بد ان تكون السماء على حق وان كان منطقها يحير العقل . انه نادم على كل ما فعل . لا ثورات بعد اليوم . المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام . فليكتب التاريخ بريش الحمائم . فلتهطل الأمطار ولتغسل الدماء عن وجه الأرض . فلينزع السلاح من ايدي الاحياء . لا قتال بعد اليوم . فلتنزع من العقارب اذنابها ومن الأفاعي انيابها ولتنزع من الوحوش الاظافر والمخالب والاظلاف . فلا قتال بعد اليوم . أمر يومي من حسن مفتاح سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري الى الكادحين في وادي النيل : على الأرض السلام . سوف يطبع هذا بالبنط العظيم ويعلق اللوحات على جدران القاهرة . آه لو عرف من قبل ، لما فعل شيئاً مما فعل . انه نادم على كل ما فعل . ولماذا يخدع نفسه ؟ انه لا يخجل من ذلك . نعم ، انه خائف من الموت . اليس طبيعياً ان يخاف الموت ؟ ان كل الناس تخاف الموت . الموت ؟ انه كان يكابر عزرائيل لا أكثر . انه كان يخدع نفسه حين قال لعزرائيل شامخاً . « ان حسن مفتاح لا يهاب الموت » . الموت ؟ ما معنى الموت؟ انه ميت فعلاً ، فكيف يهاب الموت ؟ ألم يمت عند السلسلة ؟ ان المرء لا يموت مرتين . نرى ماذا سيفعل عزرائيل به في الغد عند الغروب . سيعطيه الموت . سيأخذ منه الحياة . ولكنه رغم ذلك يهاب الموت . ولكن بأي حق يهاب الموت ؟ ان ما سيموت هو جسد سيد قنديل فما دخله هو في الموضوع ؟ ان روح حسن مفتاح باقية على كل حال ، فما دخله هو في الموضوع ؟ ولكنه رغم ذلك يهاب الموت . ترى هل سيتألم . انه لا يعرف اذا كان سيد قنديل قد تألم ام لا حين خرجت روحه تحت الجرف العميق . لا شك انه تألم كثيراً . ان الورقة تصرخ حين تتمزق . ان الصخرة تعول حين تكسر . لا بد ان سيد قنديل قد تألم حين خرجت روحه تحت الجرف العميق كثيرا . تماما كما تألم حسن مفتاح

حين خرجت روحه عند السلسلة . ان سيد قنديل لم يتوجع ، ولكن الفلاحين لا يتوجعون حتى امام الموت . ولكن من يدري ؟ غداً عند الغروب يتضح كل شيء . ثم انه قال لعزرائيل انه يعرف وادي الخفافيش الحمر ، وهو لايعرف وادي الخفافيش الحمر . ترى لما فعل ذلك ؟ لعله اراد أن يخدع عزرائيل . كلا . انه كان يعرف وادي الخفافيش الحمر ، يذكره بصورة غامضة . انه يذكر انه زاره من قبل . ترى اين يكون وادي الخفافيش الحمر ؟ يا له من اسم عجيب . ترى ماذا يحدث لو ضل الطريق الى وادي الخفافيش ؟ لا شك ان عزرائيل سيظن به الظنون . ولكنه لن يضل الطريق الى وادي الخفافيش الحمر . سوف يتذكر غداً عند الغروب ، ما في ذلك شك . ولو نسي فعزرائيل سيقتاده بقوة سحرية الى هناك .

ونهض حسن مفتاح وسعى الى النافذة المفتوحة واتكأ عليها ، وانكشفت أمامه العمائر الرازحة والشارع النظيف فرآها بوضوح تحت الليل السنجابي على مصابيح الطريق وعلى انوار الكهرباء المتألقة داخل الحجرات . ومن تحته كانت محطة البنزين بانوارها الكبيرة الحمراء تضج ضجيج المصانع ، ولكنه لم يلتفت الى وجود هذه الأشياء . كذلك لم يلتفت الى السابلة السائرين في حلل لونها واحد او متشابه تحت بصره في الشارع النظيف ولا الى السموات الشهباء التي لا يلمع فيها لا نجمان صغيران بلون الزئبق القذر . لم يلتفت الى شيء البتة لأنة كان يصلي . ولكنه لم يكن يصلي في الواقع بل كان يحاول الصلاة. انه نادم على كل ما فعل ، ولم يبقَ الا ان يعلن ندمه جهاراً امام الله . ولم يجد من العبارات ما يريح صدره فعدل عن الصلاة . ثم انتفض فجأة كأنما عضه خاطر موجع ، وانصرف من النافذة وحملق في اثاث الغرفة ، ومضى يهز رأسه هزاً متواصلاً .

كلا . كلا . ان هذه حماقة . حماقة ؟ كلا . كلا . ان هذا ضعف . ضعف ؟ كلا . كلا . ان هذه خيانة . انه لن يفي بالموعد . الموعد ؟ انه لم يعد بشيء . انه . كيف يسلم على طول الخط ؟ انه لم يعد بشيء . ان عزرائيل املى شروطه فقبلها هو صاغراً . انه لم يعد بشيء . يا للحماقة . اين عزرائيل الآن؟ لقدمضى

لعله يحاسب رجلاً آخر . مضى ولم يترك وراءه أثراً . حتى صوته المعدني الواضح النفاذ قد انصرف وراءه على متن الهواء ، وحسن مفتاح الآن بمأمن . كيف يسلم على طول الخط ؟ ان حسن مفتاح قد نسي انه حسن مفتاح . ثم انه الآن بأمن . لسوف يهرب . لا بقاء له في هذه الدار بعد الآن . ان الجدران تقول : « اهرب ايها الرجل » . ان مدام ماريكا تقول : «اهرب ايها الرجل». كل ما في الغرفة يقول : « اهرب ايها الرجل » . حتى الغطاء الأحمر يقول : « اهرب ايها الرجل » . ان هذه ليست بالتخيلات لأن حسن مفتاح يسمع أرض الغرفة تتكلم ومرآة الدولاب تتكلم . كل شيء يقول : «الفرار يا حسن مفتاح.» ثم هبه وعد بشيء . ان عزرائيل شيطان ، فكيف يكون حسن مفتاح جنتلماناً مع الشيطان ؟ نعم ، شيطان . اي مغضوب عليه من السماء . ماذا يعرف عزرائيل عن الميثاق الأعظم ؟ ألم يتواتر الرأي بان الشياطين كائنات خداعة مخاتلة ؟ فكيف يكون حسن مفتاح جنتلمان مع الشيطان ؟ أحقاً ان هذه ارادة السماء ؟ كلا . ان عزرائيل شيطان ، اي مغضوب عليه من السماء ومحال ان تكون ارادته ارادة السماء . ثم ان حسن مفتاح لم يقاوم بما فيه الكفاية . انه سلم على طول الخط . ترى كيف ضعف الى هذا الحد ؟ اين هو عزرائيل الآن ؟ لا اثر له . ثم ان مدام ماريكا قالت عاجبة : « اي رجل ؟ » اي رجل ؟ الرجل القصير ذو الشارب الأسود الغزير والفم اللئيم والعينين الضيقتين . الرجل الذي خرج منذ هنيهة . لا يا مسيو مفتاح انا لم ارَ رجلاً بهذه الأوصاف . كلا ، يا مسيو مفتاح ، انا لم ارَ رجلاً يخرج منذ هنيهة . الرجل الذي زارني يا مدام ماريكا ؟ كلا ، يا مسيو مفتاح لم يزرك أحد اطلاقاً . ولكنك فتحت له الباب بيدك يا مدام ماريكا ؟ كلا يا مسيو مفتاح ، انا لم افتح الباب الا لبائع الثلج . اتشكو شيئاً يا مسيو مفتاح ؟ كلا يا مدام ماريكا . قليل من الهذيان . لا شك انها البيرة . نعم لا شك انها البيرة . ان هذه البيرة مسمومة . هل سمع احد بعزرائيل يزور الأحياء ؟ الاحياء ؟ نعم ، هل سمع أحد بقزم أسود الشارب

كثيفه لثيم الفم ضيق العينين يتردد على بيوت الناس ؟ هل سمع احد بعزرائيل يلبس جاكتة وبنطوناً ؟ ان الشياطين تلبس المسوح البيض وتتجول بين القبور. نعم لا شك انه كان يهذي . لا شك انها البيرة . كيف تقدمين الي بيرة مسمومة يا مدام ماريكا ؟ ولكن من كسر الزجاجات والأطباق يا مدام ماريكا ؟ ضربتها برجلك يا مسيو مفتاح . ولكني رأيته . رأيتة بزك في سيره متكئاً على عصا من الخرتيت يا مدام ماريكا . كذلك سمعت صوته وجـادلته. ساعة أو بعضها . كذلك أمسكت بخناقه وأمسك بخناقي يا مدام ماريكـا . لا شك انه دخل مع بائع الثلج دون ان تراه مدام ماريكا . ولكن كيف يدخل مع بائع الثلج دون ان تراه مدام ماريكا ؟ لا شك ان جسده من زجاج شفاف تراه بعض العيون ولا يراه بعضها الآخر . أو لعله تقمص في زي فأر وتسلـل الى الدهليز دون ان يلمحه أحد . نعم . ما من شك في ان عزرائيل زاره مع العصر ولم ينصرف الا مع الغروب . ثم ان مدام ماريكا لم تنكر انها رأته . ان كل ما قالته مدام ماريكا هو : « أي رجل ؟ » لعلها لم تفهم مراده على التحقيق . لعل بابها طرقه رجال عديدون . بائع الثلج وبائع الزبد وبائع الخبز وبائع الفجل والمكوجي والطعمجي والعربجي والقهوجي والنجار والجزار والحمار والزمار . وعزرائيل . نعم . انه لم يكن يهذي . لا شك انه رأى عزرائيل وجادله ساعة أو بعضها . ولكن القوة مع الأقوياء والختل مع المخاتلين . بل الختل مع الاقوياء والختل مع المخاتلين . الختل ؟ أي ختل ؟ ان حسن مفتاح لا يخاتل . ولكنه لا يسلم بهذه السهولة . انها أمانة في عنقه . انه لا يخشى الموت ولكن الحياة امانة في عنقه حتى يكتب النصر لعبيد البلاد . فليأتِ عزرائيل ويأخذه أما هو فلن يسعى الى حتفه بظلفه . ولكن عزرائيل لن يجده. ان يقفـله على أثر عزرائيل. لأنه سيهرب . سيتوارى . سيختفي في مكان ما . وسيبحث عنه عزرائيـل دون جدوى . وسيدير الثورة. وسيبحث عنه عزرائيل دون جدوى. وسيصدر البلاغات الرسمية عن سير القتال من بدرون مهجور بعمارة مهجورة بحي مهجور بمدينة مهجورة . لماذا لا يختبيء في مخدع الملك بالهرم الأكبر ؟ نعم . ويوصـد

دونه الباب الصواني الأعظم . هناك يكون بمأمن من عزرائيل . ولو شاء عزرائيل ان يقتحم عزلته لما استطاع . ولو استطاع عزرائيل ان يقتحم عليه عزلته لمات مجاهداً . ان الأصوات في رأسه كثيرة وكلها تقول : «اهرب أيها الرجل . اهرب ايها الرجل . »

واندفع حسن مفتاح الى الدولاب كالمجنون وشب على قدميه كثيراً حتى أمسكت يده بحقيبة صغيرة صفراء رفعها ثم حطها على ارض الغرفة وجلس بجوارها القرفصاء . وفتح الحقيبة وفتح الدولاب. وذهب يجمع أشياءه في لهفة، وسرعان ما ملأ الحقيبة بالملابس الداخلية البيضاء . ولكنه عاد واستخرج بعض الأشياء وأعادها الى مكانها . وشرع يفكر بسرعة. انه ليس بحاجة الى كل ذلك. انه بحاجة الى لباسين وفانلتين وقميصين وأربع جوارب وحافظه فيها ما يكفي. وتأمل أحذيته قليلاً ثم انصرف عنها . وأغلق الحقيبة. ونهض . ألم ينسَ شيئاً؟ نعم . لقد نسي أشياء . وجلس القرفصاء مرة اخرى وفتح الحقيبة ثم انطلق الى بابه وفتحه ونفذ منه الى المدخل . ومن المدخل نفذ الى الحمام . لقد نسي الفوطة والصابونة وأدوات الحلاقة وفرشة الاسنان والمعجون . وحين دخل الحمام أحس برطوبته الخارجة من الجدران الصينية ومن الأنابيب الكثيرة فانتعش كثيراً . وحين أنار الحمام وقف يجيل بصره فيه كأنه يبحث فيه عن شيء . ثم انتبه . فقد وقع بصره على المربعات الصينيـة اللامعة التي تكسو الحائط ورأى ما عليها من رسوم . ولم تكن على المربعات اللامعة رسوم ولكن كان عليها رسم واحد متكرر . وكان هذا الرسم صورة خفاش أحمر مد أطرافه في الاتجاهات الأربعة فملأ بجسمه وسط القوالب . وحين تنبه حسن مفتاح الى مئات الخفافيش الحمر تحاصره من كل جانب حملق في الهواء وسقط فكه الأسفل وعجز عن الحركة كأنة فأر مسحور . وأحس بأن منيته قد دنت . وأدرك ان هذا مكان اللقاء . ولكنه أفاق لفوره. وهجم على الحوض وعلى الحامل وانتزع منها اشياءه انتزاعاً ، وخرج من الحمام يعدو بعد ان اغلق بابه بعنف رج أركان الدار،

واعتصم في غرفته واغلق الباب بالمفتاح . وذهب يسوي كل شيء في الحقيبة . وبعد ان سوى كل شيء في الحقيبة تذكر اوراقه فسواها في الحقيبة ، كل ذلك دون ان يفكر . وكلما هم بأن يفكر هز رأسه هزاً متواصلاً كأنه ينفض من عقله الرؤى المزعجة ، ولكنه فهم برغمه ان هذا موعد اللقاء . ولم تكن هذه أول مرة يرى فيها حسن مفتاح الخفافيش الحمر ، ولم تكن هذه أول مرة يتنبه فيها الى وجودها ، ولكنه فهم مراد عزرائيل . انه لم يكن مخطئاً ولا كاذباً حين قال لعزرائيل انه يعرف وادي الخفافيش الحمر . لقد نسي ان هذه الرسوم تملأ جدران الحمام . ولكنه يفهم الآن مراد عزرائيل . كلا . انه لم يفهم بعد مراد عزرائيل . انه موعد عجب في مكان عجب . ولمَ اختار عزرائيل الحمام مكاناً للقاء ؟ ان للشياطين منطقاً يحير العقل . ولكن الخفافيش الحمر كانت دائماً تملأ الحمام . ترى لمَ لم يتنبه الى مغزاها من قبل ؟ لا بد ان لها مغزى . عزرائيل قال ان لها مغزى فلا بد ان لها مغزى . نعم . لم يكن هناك مجال للشك . ان زيارة عزرائيل لا شك فيها رغم ما ابدته مدام ماريكا من عجب لسؤاله . أليست هذه هي الخفافيش الحمر التي تحدث عنها عزرائيل ؟ ولكن حسن مفتاح لم يشك لحظة في زيارة عزرائيل مهما يكن من شيء فلا بد من الهرب . ان كل شيء معد والحقيبة ليست ثقيلة . سوف يركب القطار فراراً من عزرائيل اذا لزم الأمر . كلا . لا بد من زيارة مونا ربيع . لعل مونا ربيع تخفيه في غرفتها . ربما اخفته في الدولاب . كلا . ان عزرائيل ماكر وهو يعلم ان حسن مفتاح لن يغادر القاهرة قبل ان يستودع مونا ربيع ، ولعله قد سبقه اليها فعلاً . لعله يمشي الآن جيئة وذهاباً أمام باب المتروبوليتان هوتيل . كلا . ان زيارة مونا ربيع مقامرة كبرى . ولكن كيف يغادر القاهرة دون ان يرى مونا ربيع ، دون ان يقول : « الوداع يا مونا » ؟ محال . محال . محال . ولكن ما ضرورة القطار ؟ ان عزرائيل يطير بأجنحة ، وهو يستطيع ان يطارده الى اقصى المعمورة . لماذا لا يختفي في القاهرة ؟ وراء الباب الصواني الأعظم بمخدع الملك في الهرم الأكبر كما قال ؟ أو في بدرون مهمل ؟ كلا . لا بد من القطار . أي

قطار يركب ؟ قطار الصعيد ما في ذلك شك . لماذ لم يفكر في هذا قبل الآن ؟ سوف يركب قطار الصعيد وينزل في سمالوط ثم يعبر النيل في المعدية الى دماريس. القطار الذي جاء بسيد مفتاح يعود بحسن قنديل . وهكذا تكتمل الدائرة . المهم هو الخروج من شارع الملكة فريدة . لقد أصبح شارع الملكة فريدة عنواناً معروفاً للبوليس وللشياطين . نعم . المهم هو الفرار من شارع الملكة فريدة . وفي دماريس يسير قنديل مفتاح وراء المحراث ويعاشر مقصوفة الرقبة ويدير الثورة الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً . ولكن ماذا يحدث لو كشف عزرائيل مخبأه ؟ لسوف يلاحقه . ولكن أليست هذه خطة عزرائيل ؟ ان عزرائيل خيره ان يرتد الى سيد قنديل وكافأه بمائة عام طوال . ان هذا بالذات ما يريده عزرائيل ، ان يعود حسن مفتاح الى دماريس ، ان يرتد الى سيد قنديل. ولكن حسن مفتاح يعود الى دماريس ويبقى حسن مفتاح . يبقى حسن مفتاح؟ أي ضمان لديه ؟ أليس جائزاً ان عزرائيل يدركه بين الحقول ويمسح على جبينه بكفه البغيض فيمسح من روحه الذكريات ؟ نعم . جائز . جائز جائز . ان هذا بالذات ما يريده عزرائيل . ولكنه يرجم بحيل الشيطان الماكر ويبطلها . كلا . ان الاختفاء في دماريس مقامرة كبرى . ولكنه سوف يركب القطار على كل حال . ايان . ايان . ايان يذهب . نعم . الى الاسكندرية . الى بنسيون رويال . الى السلسلة . كلا . كلا . كلا . ان نداء الماء قوي . لسوف يغرق مرة اخرى ان هو ذهب الى السلسلة . فان لم يغرق اغرق نفسه . ان نداء الماء قوي. أليس هذا ما يريده عزرائيل ؟ ان عزرائيل يريد ان يقتله . ان عزرائيل يتآمر على حياته ولن يتركه الا جثة هامدة . كلا . ان السفر الى الاسكندرية مجازفة كبرى . ولكنه سوف يركب القطار على كل حال . أين الفرار ؟ طنطا . بنها. اتياي البارود . كفر الزيات . دمنهور . ماذا يهم؟ في العاشرة . خارج القاهرة. المهم هو الخروج من شارع الملكة فريدة .

حمل حسن مفتاح حقيبته وخرج من غرفته على عجل . واندفع في الدهليز

حتى بلغ الباب وفتحه بيد ترتعش وهم بالخروج مضطرب القلب زائـغ البصر . ولكنه اصطدم بعملاق هائل الجثة سد عليه الطريق وقد امتدت يد العملاق الى الجرس الكهربائي . وازداد اضطراب حسن مفتاح ، وادركه دوار شديـــد ، وكاد ان يسقط على الأرض مغشياً عليه ولكنه تماسك . وتحقق مـــن الزائر الضخم فاذا به الصاغ ممدوح الشربيني . ووقف الصاغ ممدوح الشربيني متهلـــل الوجه باسطاً يده ، غير انه ما لبث ان انطفأ ازاء الوجوم العميق وامـــارات الهلع القديم التي قرأها على نور السلم في وجه حسن مفتاح. قـــال الصاغ ممدوح الشربيني :

— الحمد لله اني وجدتك يا استاذ مفتاح .

واسترد حسن مفتاح بعض حواسه الضائعة ،فنقل الحقيبة الى يده اليسرى ، وتناول اليد المبسوطة نحوه وأحس بدفئها الشديد فلم يسعه الا ان يبادلها دفئـاً بدفء . ولم يدرِ ماذا يقول ، فقد بلغ منه اليأس كل مأخذ . انالصاغ ممدوح الشربيني قد جاء ليلقي عليه القبض . وفي اللحظة الحاسمة كذلك . وهو يحمل أخطر الوثائق كذلك . وهو على وشك الفرار كذلك . وأراد حسن مفتاح ان ينتفع بالغبش المنتشر في الدهليز غير المضاء فانحرف قليلاً ووضع الحقيبة وراء ضلفة الباب بخفة لم تفت على الصاغ ممدوح الشربيني . ولما طال الصمت أكثر مما ينبغي عاد الصاغ ممدوح الشربيني يقول :

— أكنت تعتزم السفر يا استاذ مفتاح ؟

فارتبك حسن مفتاح وأجاب مضطرباً :

— نعم . أقصد لا . كنت خارجاً . هذا كل ما في الأمر .

وانتظر حسن مفتاح من الصاغ ممدوح الشربيني ان يقول شيئاً ، ولكنه لم يفعل فقال حسن مفتاح بخشونة :

— اجئت تفتش ام جئت تقبض عليّ ؟

– ما بالك هذا المساء ؟ الا تأذن لي بالدخول ؟

– تفضل :

وأغلق حسن مفتاح الباب الخارجي وسار بجوار الضابط الى المدخل ولكنه توقف قليلاً عند باب المطبخ وسأل :

– قهوة ؟ شاي ؟ بيرة ؟

– قهوة سادة اذا سمحت .

وقرع حسن مفتاح باب المطبخ فأطل منه رأس مدام ماريكا وألقى اليها حسن مفتاح بطلبه ثم سعى بالضابط الى المدخل حيث جلسا تحت النور القوي وجهاً لوجه . وقرأ الصاغ ممدوح الشربيني في وجه حسن مفتاح ، غرائب الامور . وأيقن انه كان يزمع أمراً عظيماً . وبعد لحظات اختفى مظهر الخوف من وجه حسن مفتاح ، ولم يبقى منه الا خفقان في جوانب صدره وألم في امعائه . وأراد حسن مفتاح ان يتكلف رباطة الجأش فقال مبتسماً أخف ابتسامة :

– لقد طالت غيبتك يا شربيني بك . كيف حال الحجاز ؟

فأجاب الصاغ ممدوح الشربيني وقد بدا عليه امتعاض شديد :

– أنا لم انتدب الى الحجاز .

– عجيب .

– نعم عجيب . ولكن الملازم أول ادهم حل محلي في البعثة .

– لا شك ان ذلك ساءك يا شربيني بك ، فقد فهمت منك انك تعلق الآمال الكبار على هذه البعثة .

وكانت هذه أول مرة يشرد فيها الصاغ ممدوح الشربيني منذ ان عرفه حسن

مفتاح . ولم يشأ حسن مفتاح احراجه فقال :

ـ ما سر غيبتك اذن ؟

ـ غيبتي ؟

ـ نعم . فما زارني منذ العام الماضي الا ضابط صغير السن دمث الطباع . يدعى سلامة ؟ سلامة ؟ سلام ؟ مسلّم ؟

ـ آه ، محمد سلامة . اعلم ذلك . فانا الذي اخترته لك . وانا الآن لا اخرج للتفتيش الا في الأحوال النادرة فقد رقيت الى رئيس قسم مكافحة الشيوعية منذ ثمانية أشهر . رقيت برتبتي . وابتسم حسن مفتاح ساهماً وأجاب :

ـ مبروك يا شربيني بك ، وشكراً على اختيارك . ان محمد سلامة شاب مهذب . أتحب ان تبدأ التفتيش فوراً ؟

ـ انا لم آتِ للتفتيش .

وعاد الانزعاج الى وجه حسن مفتاح . وشخص ببصره الى الأنف المحدوب العظيم البارز وسط وجه الصاغ ممدوح الشربيني .

ـ أمعك امر بالقبض ؟

ـ انا لم آتِ للقبض عليك .

وبدا الارتباك على حسن مفتاح وقرأ الضابط في كل عين من عينيه علامة استفهام واضحة ، وخيل اليه ان حسن مفتاح قد تغير كثيراً ، فهو يعرفه تام الهدوء كأنه يلبس قناعاً أبدياً ، وهو الآن يفضح وساوسه بكل اشارة يأتيها وبكل كلمة يفوه بها . قال متلطفاً :

ـ أمريض انت يا استاذ مفتاح ؟

– وعكة بسيطة يا شربيني بك .

– ان وجهك شاحب .

– كلا . انت مخطيء يا شربيني بك . ان وجهي ليس شاحباً . ما دليلك على ان وجهي شاحب ؟ انا لم اكن في يوم من الأيام اهدأ مني اليوم . ها قد جاءت القهوة . انظر . اتستطيع ان تميز ايهما سادة وأيهما بسكر ؟

– نعم ، اتعرف انت ؟

– نعم ، هذا فنجانك وهذا فنجاني . أحقاً ان وجهي شاحب يا شربيني بك ؟ لا بد اني مريض . نعم ، انا احس بألم في امعائي .

– اسمع يا استاذ مفتاح . اتعتقد حقاً انكم ستنتصرون ؟

– ماذا تقصد ؟ ننتصر ؟ على من ننتصر ؟ اهناك معركة ؟ نعم سننتصر . انت تقصد الشعب ، اليس كذلك ؟ نعم ، نعم ، نعم . سننتصر بالطبع سننتصر . سينتصر الشعب على اعدائه . وهل انت في ريب من ذلك ؟ ان انتصارنا ضرورة ديالكتية . ان انتصارنا جبر تاريخي . ان المستقبل للشيوعية . وكيف نهزم ؟ ان البروليتاريا لا تقهر . لقد نصاب بنكسة ولكنها نكسة مؤقتة . أتفهم يا شربيني بك ؟ جبر تاريخي . الانسانية تتقدم وتسحق اعداء الانسانية . الكل سائر الى الحرية . الى المساواة . الى الاخاء . وكيف نهزم ؟ ان الهزيمة لا تدخل في قاموس المؤمنين . ونحن مؤمنون يا شربيني بك ، لا بطائفة من الخرافات الاجتماعية ، ولا بشريعة الغاب ، ولكن بالسراج الذي لا ينطفيء ، بالروح القدس الذي يضيء في قلب الشعب . البروليتاريا هي الشعب ، والشعب فوق الجميع . الشعب هو الانسانية ، وكل ما عدا الانسانية باطل وغرور . الانسانية لا تفهم الهزيمة يا شربيني بك . يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم . جرب يا شربيني بك . ليجرب الطغاة . نحن الأمناء على مستقبل

البشر يا شربيني بك . كيف تسألني هذا السؤال يا شربيني بك . دعني اسألك : وكيف نهزم ؟ بل دعني أسألك : كيف لا ننتصر .

واهتز الصاغ ممدوح الشربيني لهذه الكلمات وسرت فيه حرارتها وغمره اعجاب عظيم بحسن مفتاح . اما حسن مفتاح فقد تململ في المقعد الكبير . فقد أحس بعد ان فرغ من كلامه انه ممثل يلعب دوراً . لقد لعب هذا الدور باتقان تام . ولو كان امامه الف ممدوح شربيني لصفقوا له تصفيقاً ، لهللوا بصوت واحد : « الشعب فوق الجميع » . لهتفوا بصوت واحد : « عاش مفتاح منقذ الشعب » « عاش مفتاح رسول الانسانية » « عاش مفتاح محرر العبيد » . ولكن حسن مفتاح أحس في قرارة نفسه بالقلق . انه ما احس من قبل انه يلعب دوراً . ترى ماذا حدث له . لقد كان في الماضي يقول كل ذلك باخلاص اعمى دون ان يتوقف لحظة واحدة ليفكر فيما يقول . لقد كانت كلماته من قبل اصواتاً جميلة خالية من المعنى فاذا بها الآن ذات مدلول . لقد بدأ الفكر . لقد انتهى الايمان. نعم . هو يفهم الآن ما حدث له . لقد بدأ يشك. ترى ماذا يريد ممدوح الشربيني منه ؟ ان حسن مفتاح يحس بالدم يصعد الى وجهه . ان حسن مفتاح يخجل من نفسه . أهذا حسن مفتاح الذي كان يوزع الايمان على ابناء الشعب ؟ واذا لم يثق هو بنفسه فمن ذا الذي يثق به ؟ كلا . كلا . انه لم يكن يمثل . انه يؤمن بكل كلمة قالها . وحملق حسن مفتاح في وجه ممدوح الشربيني وصاح بوحشية :

– أأنت في شك مما أقول ؟

ثم تذكر انه يخاطب ادارة الأمن العام ، فابتسم وأضاف :

– عفواً يا شربيني بك . لقد اخذتني الحماسة .

فضحك الصاغ ممدوح الشربيني وقال :

البشر يا شربيني بك . كيف تسألني هذا السؤال يا شربيني بك . دعني اسألك : وكيف نهزم ؟ بل دعني أسألك : كيف لا ننتصر .

واهتز الصاغ ممدوح الشربيني لهذه الكلمات وسرت فيه حرارتها وغمره اعجاب عظيم بحسن مفتاح . اما حسن مفتاح فقد تململ في المقعد الكبير . فقد أحس بعد ان فرغ من كلامه انه ممثل يلعب دوراً . لقد لعب هذا الدور باتقان تام . ولو كان امامه الف ممدوح شربيني لصفقوا له تصفيقاً ، هللوا بصوت واحد : « الشعب فوق الجميع » . هتفوا بصوت واحد : « عاش مفتاح منقذ الشعب » « عاش مفتاح رسول الانسانية » « عاش مفتاح محرر العبيد » . ولكن حسن مفتاح أحس في قرارة نفسه بالقلق . انه ما احس من قبل انه يلعب دوراً. ترى ماذا حدث له . لقد كان في الماضي يقول كل ذلك باخلاص اعمى دون ان يتوقف لحظة واحدة ليفكر فيما يقول . لقد كانت كلماته من قبل اصواتاً جميلة خالية من المعنى فاذا بها الآن ذات مدلول . لقد بدأ الفكر . لقد انتهى الايمان. نعم . هو يفهم الآن ما حدث له . لقد بدأ يشك. ترى ماذا يريد ممدوح الشربيني منه ؟ ان حسن مفتاح يحس بالدم يصعد الى وجهه . ان حسن مفتاح يخجل من نفسه . أهذا حسن مفتاح الذي كان يوزع الايمان على ابناء الشعب ؟ واذا لم يثق هو بنفسه فمن ذا الذي يثق به ؟ كلا . كلا . انه لم يكن يمثل . انه يؤمن بكل كلمة قالها . وحملق حسن مفتاح في وجه ممدوح الشربيني وصاح بوحشية :

– أأنت في شك مما أقول ؟

ثم تذكر انه يخاطب ادارة الأمن العام ، فابتسم وأضاف :

– عفواً يا شربيني بك . لقد اخذتني الحماسة .

فضحك الصاغ ممدوح الشربيني وقال :

– لا تعتذر يا استاذ مفتـــاح . ايدهشك ان تعرف اني مؤمن بكل كلمة تقولها ؟

– كلا . هذا لا يدهشني . فانت رجل مرتب التفكير . سأحتفظ بهـــذا السر يا شربيني بك .

– ولكن يدهشك اني أكافح الشيوعية رغم ايماني بها .

– كلا . هذا لا يدهشني . فأنت ضابط بالقلم السياسي كما اني زعيم شعبي . الفرق هو انك اسأت الاختيار .

وأحس حسن مفتاح انه اخطأ . انه يتحدث عن مبادئه كأنها مهنة . ترى ماذا اصابه ؟ ان حسن مفتاح محرر لا أجير . انه مجاهد لا مرتزق . ولكن من الخير ان يغير موضوع الحديث فلعل ممدوح الشربيني لم يفطن الى مغزى كلماته. وبدأ حسن مفتاح يقلق من جديد لما دفع الصاغ ممدوح الشربيني الى زيارتـه . انه لم يزره ليشرب فنجاناً من القهوة او ليلغو عن مبادئـه ومعتقداته . ترى ماذا يريد هذا الرجل ؟ ان صرامته الأولى قد غادرته . يا له من يوم مشئوم مليء بالمفاجآت . متى ينقضي اليوم ؟ان رؤية ممدوح الشربيني بوجه عام امر لا يسر. وفي هذا اليوم بالذات نذير بكوارث لا تحصى . ولكن في عينيه بعض الوداعة. ولكن هبه جاء ليسوقه الى المعتقل . أليس هذا بعض ما يريد ؟ ان عزرائيـل يطارده . انه يريد ان يهرب من عزرائيل . يختبيء . انه يريد ان يركب القطار أو يختبيء في بدرون مهجور بعمارة مهجورة بحي مهجور بمدينة مهجورة ، اذا أمكن . لم لا يختبيء في السجن ؟ ان يد عزرائيل لن تمتد اليه في السجن . واذا شاء عزرائيل ان يقتحم عليه زنزانته منعه الضباط والجاويشية ، وربما قبضوا عليه كذلك . سوف يرسل كلمة الى اللجنة المركزية يعلن لهم فيها اسم السجن الذي سيحتويه . وفي الفجر سوف تمشي الجماهير الكادحة الى السجن وتفتـــح ابوابه عنوة ، وتحرر محرر العبيد . ولكن ممدوح الشربيني يقول انه لم يـــأتِ

– ننتصر ؟ على من ننتصر؟

– اقصد في المعركة القادمة .

– أية معركة ؟

– انت تفهم ماذا أقصد .

– كلا . لست أفهم ماذا تقصد .

– انا هنا كصديق .

– لست افهم . لست أفهم .

– اقصد بعد غد .

– بعد غد ؟

– نعم بعد غد .

– ماذا سيحدث بعد غد ؟

– دعك من التجاهل يا استاذ مفتاح . انا هنا كصديق .

– وأنا لا أخفي شيئاً .

– بصراحة . هل احكمتم الخطة ؟

– أية خطة ؟

– بصراحه . أمعكم أسلحة كافية ؟

– عمَ تتحدث يا شربيني بك ؟

– أتحدث عن المؤامرة . لا تقل : أية مؤامرة ؟ انك تحسن السذاجة

يا استاذ مفتاح .

– المؤامرة ؟ ها ! ها ! ها ! المؤامرة ؟ ها ! ها ! ها !

– ليس في الأمر ما يضحك .

– كلا . يا شربيني بك . لقد قلنا لكم ألف مرة ان جاسوساً يتقاضى مئة جنيه خير من عشرة جواسيس يتقاضون عشرة جنيهات . ولكن اذا كان القلم السياسي يصر على استخدام الجواسيس الصفار فطبيعي ان يستقي مثل هـــذه الأنباء الكاذبة .

– انت تشك فيّ وانا اعذرك .

– انت تؤدي واجبك .

– انا جاد فيما أقول .

– عن المؤامرة ؟

– نعم .

– لقلب نظام الحكم ؟

– نعم .

– متى ؟

– بعد غد .

– ومن القائمون بها ؟

– الشيوعيون .

– الشيوعيون ؟ بعد غد ؟ هذه اخبار مسلية يا شربيني بك . يبدو انـــك

تعرف عن نشاط اللجنة المركزية أكثر مما يعرف سكرتير اللجنة المركزية .

– كلا يا حسن بك . ثق اني اقدر موقفك . واذا كنت تتحرج من الصراحة فاسمح لي ان أكون صريحاً .

– تفضل .

– نحن نعلم انكم حددتم فجر ١١ يوليو للاستيلاء على الحكم .

– والتفاصيل ؟

نحن نعلم ان معكم ثلاثة ألايات من المشاة ، وأورطة من مدافع الماكينة ، وانكم ستستولون أولاً على مراكز البوليس، وستنسفون مستودعات الذخيرة وتبدؤن الهجوم من بولاق . نحن نعلم انكم ستقيمون ثلاث محاكم شعبية ومعها مشانقها في وقت واحد : الأولى بميدان العتبة ، والثانية بميدان الاسماعيلية ، والثالثة بميدان باب الحديد ، وانكم ستشنقون ١٢٠٠ في اليوم الأول و ٦٠٠ في اليوم الثاني .

– جميل جميل . جميل .

– نحن نعلم انكم اذا انتصرتم في اليوم الأول انتصرتم على طول الخط .

– اذا كنتم تعلمون كل هذا فلماذا لا تلقون علينا القبض ؟

– سوف نلقي عليكم القبض .

– متى ؟ متى ؟

– فيما بعد . فيما بعد .

– وفيمَ التسويف ؟

– الواقع ان هذه المعلومات لم تصلنا الا منذ ساعة ، فقد جاءنا بها رجل لا نعرفه اطلاقاً . قال ان اسمه عزرا عبد الله : قزم ، اسود الشارب كثيفه ،

لئيم الفم ، ضيق العينين ، تجاوز الاربعين ، وقد رفض ان يتناول اجراً على ذلك زاعماً انه من انصار العهد الحاضر ومن محبي السلام ، وانه يكره ان يرى البلاد مسرحاً للمذابح والشوارع قنوات من الدماء. ولكنه تقدم الينا بطلب عجيب ، وهو ان نعفيك من القصاص لأن بينك وبينه حساباً يجب ان يصفيه بنفسه وقد وعدته بذلك . والحقيقة انه لم يكن في المكتب سوى الملازم سلامة وانا وقد طلبت من سلامة الا يثرثر حتى مع الضباط الى ان أعود واتخذ اللازم . عزرا عبد الله . اسم عجيب . ولكن اغرب من ذلك انه لم يترك عنوانه .

وحين فرغ الصاغ ممدوح الشربيني من كلامه كان حسن مفتاح قد استلقى على الكرسي الأسيوطي فيما يشبه الغيبوبة . ولكنه سمع كلام الضابط كلمة كلمة . وامتد الشحوب الى عنقه العاري . وسقط فكه سقوطاً مخيفاً. ومشى الألم من جديد في امعائه ، ولكنه ظل يجاهد حتى عاد الى الحياة . وتحقق ممدوح الشربيني من ان حسن مفتاح محطم الأعصاب ، فهو لم يره قط في مثل هذا الأعياء وهو لم يعهده قط جزعاً في أمثال هذه المواقف . وبدا عليه انه لم يفهم ما يجري في نفس حسن مفتاح ولكنه لم يشأ ان يزعجه بالأسئلة . وبعد ان استرد حسن مفتاح شيئاً من نضرته اعتدل في كرسيه ، وغمره الشعور باليأس . لا فرار من عزرائيل . لا بد ان عزرائيل قد علم بمراده فذهب الى ادارة الأمن العام ليفسد عليه كل شيء . لا شك ان عزرائيل ينزل به هذا العقاب جزاء على حنثه بعهده . ان الشياطين تعرف ما لا يعرف البشر . ان الشياطين أرواح تحل في كل مكان وتنتقل بسرعة البرق وتقرأ الغيوب . وأوشك حسن مفتاح ان يحدث ممدوح الشربيني عن حقيقة هذا القزم الأعرج الذي يطارده باصرار ، ولكنه عدل . وسمعه ممدوح الشربيني يغمغم قائلاً : «ما الفائدة». ما الفائدة . ولكنه لم يفه بشيء . ورأى ممدوح الشربيني اليأس التام مرتسماً على وجه حسن مفتاح ولكنه لم يفه بشيء . غير ان حسن مفتاح عاد أخيراً يقول في عناد :

ـ اذا كنت « تعلم » كل ذلك فلماذا جئت لحسن مفتاح ؟

ـ انا ما جئت لاستشيرك ، وانما جئت لأسألك عن قوتك الحقيقية .

ـ اسمع يا شربيني بك . يحسن ان نتحدث في موضوع آخر . لقد انتهت المداعبة . أليس كذلك ؟

ـ المداعبة ؟

ـ نعم المداعبة .

ـ انا لا اداعب يا استاذ مفتاح وانما اقول الحقيقه .

ـ لولا انك تمثل الحكومة لسألتك ان تغادر البيت فوراً .

ـ تستطيع ان تفعل ذلك ، فانا لا أحمل أمراً من النيابة .

ـ فيم مجيئك اذن ؟ طبعاً انت لم تزرني لتنصحني ان أكف عن اللعب بالنار ، اعني ان كنت تظن ان هناك مؤامرة .

ـ انا لا أظن ان هناك مؤامرة . انا اعلم ان هناك مؤامرة .

ـ هيا اقبض عليّ . اقبض عليّ فوراً . ولكنك لا تستطيع ان تقبض عليّ لأن الدليل يعوزك . نعم يعوزك الدليل . وانت رجل معقول تستمع الى تقرير ابله معتوه فتزنه ولا تأخذ به ، وانما تزور حسن مفتاح لتستقي الأنباء من مصادرها . انت هنا كصديق يا شربيني بك . أو تعتقد اني ابوح لك بشيء لو انه كانت هناك مؤامرة حقاً . انا لا افهم كيف تخطيء هذا الخطأ يا شربيني بك . اتريد ان تعرف رأيي في الموضوع ؟ ان الفجر الجديد في اعتقادك قريب ، وانت بحاجة الى كل دقيقة . لا تضيع وقتك معي وامض الى ادلتك أجمعها ثم عد اليّ وستجدني دائماً في انتظارك .

وحين فرغ حسن مفتاح من حديثه مد الصاغ ممدوح الشربيني يده الى جيبه

الداخلي بهدوء وأخرج منه عدداً عظيماً من اوراق الفولسكاب كلها مطوية أزواجاً . ووضعها على المائدة الصغيرة المستديرة قائلاً :

– انا لست بحاجة الى دليل . ان معي كل الادلة . تراها أمامك على المائدة .

– ما هذا ؟

– الأدلة .

– الأدلة ؟

– نعم الأدلة . ماذا تسمي هذا ؟

وأوشكت يد حسن مفتاح ان تمتد الى ألاوراق ولكنه ضبط شعوره وتكلف البرود . وانحنى الصاغ ممدوح الشربيني فوق المائدة وتناول الأوراق وبسطها بعناية قائلاً :

– تأمل . أليس هذا خطك ؟

– نعم . هو خطي .

– هذه كلها صور فوتوغرافية من ملفات اللجنة المركزية . أليس هذا امضاؤك ؟

– نعم ، هذا امضائي . كلا . كلا . كل هذه الأوراق مزورة . نحن لا نعرف شيئاً عن هذه الاوراق . من زور هذه التوقيعات ؟

– دعك من حديث التزوير . ماذا تسمي هذا ؟ خطاب من البكباشي سيد عرفة يقول انه يتصرف في ٥٤٣، حط حط ، ١٢٠٠ ابريق ، وانه سيقابلك بين باب الحديد وميدان توفيق يوم ١١ يوليو الساعة الثامنة صباحاً . ماذا تسمي

هذا ؟ صورة خطاب منك الى الجيار تقول فيه ان كل من ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ الى ١٥٠ من ق ٧ سيلتقون فيأحواش ٣ و ٤ و ٧ منالعنابر يوم ١١ يوليو الساعة الثامنة . أتريد ان استمر ؟ العريضة رقم ١٢ . هذه عريضة اتهام لملوم باشا بسراي لملوم بمغاغة : انه في يوم ٢٥ مايو من عام ١٩٣٢ وفي يوم ١٥ ديسمبر من عام ١٩٣٢ وفي يوم ١١ اغسطس من عام ١٩٣٧ قتل عمداً ومع سبق الاصرار الزميل يس احمد صناعته فلاح بزمام الفشن بحري والزميل جرجس عوض الله فلاح بالزمام المذكور والزميل عبد التواب عبد الغفار فلاح بآبا الوقف على التعاقب بأن استدعى المجني عليهم في سراي لملوم بحجة فض نزاع حول ماشية مسروقة وجرى بينه وبينهم الحديث التالي : « انت زعلان من أيه يا عم يس » « علشان خدوا البجرة بتاعتي يا سعادة الباشا . » « ربنا يعوضك يا عم يس » . « العوض على الله يا سعادة الباشا » . « ما تجول يا رب اديني بجرة يا عم يس ؟ » « يا رب اديني بجرة » . « يعني ربنا ما عطاكش بجرة يا عم يس ؟ » « لا ربنا ماعطانيش يا سعادة الباشا » . « طيب جول يا لملومباشا اديني بجرة». « يا لملوم باشا اديني بجرة » . « واد يا خميس هات بجرة لعم يس » . ثم خرج الزميل يس احمد بالبقرة الى فناء الدار وما ان بلغ الباب الخارجي حتى سقط قتيلاً بثلاثة أعيرة نارية خارجة من سراي لملوم اما البقرة فقد ردت الى مزاود السراي . الحديث مكرر مع المجني عليهما الثاني والثالث . شهود .. ثانياً : انه في أكثر من مناسبة في عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ أقام المتهم محاكم خاصة وسجناً خاصاً في داره وتسبب في جلد متي نخلة صراف أميري وحسن علي ومحروس أبو زيد أولاد الشيخ أبو زيد عمدة آبا الوقف ومريم تود سيوس وعلي علويه وطه السبع فلاحون وسمسار وفي حبس الشيخ أحمد أبو زيد عمدة آبا الوقف وسيد شعير وسيد الطحاوي وذو النون المرسي الجمل بحجة خلاف حول المحاصيل . شهود ... وانه في يوم ٣ و ٤ و ٥ يوليو من عام ١٩٣٥ قاوم قوات الحكومة بقوة السلاح على رأس ٧٥٠ رجلاً حماية لعبد الرحمن لملوم المطلوب في حادث تسميم ماشية . شهود ... وانه في يونيو من عام ١٩٣٣ استضاف عمد

الناحية، وأوهمهم انه يتحدث بالتليفون مع السراي الملكية، وأفهمهم ان الملك يطلب خمسمائة اردب قمحاً على الفور، واستولى منهم على القمح المذكور مجاناً، ولمنفعته الخاصة. شهود ... وانه في جميع الانتخابات بين ١٩٢٤ و ١٩٣٦ ادعى زوراً انه ملم بالقراءة والكتابة ليتسنى له دخول مجلس النواب. الاتهام يطلب اعدام الموم باشا شنقاً، وتسليم جثته للشعب للتصرف فيها.

العريضة رقم ٧ ....

وبعد ان فرغ الصاغ ممدوح الشربيني من التلاوة، نظر الى حسن مفتاح، فوجده جامداً في كرسيه كلوح من الخشب، لامع العينين كأنما عيناه من بلور، ورأى شحوبه كما كان. ولكنه رأى كذلك امارات الاحتقار حول فمه، وشيئاً من الشموخ في انفه. أما حسن مفتاح فقد ادرك ان فرصته الباقية محدودة ولم يبقَ أمامه الا ان ينقذ زملاءه واتباعه من البطش المنتظر، فصمم على الانكار على خط مستقيم. قال:

— نحن لا نعرف شيئاً عن هذه الأوراق.

— انها تحمل توقيعك.

— هذه التوقيعات مزيفة.

— هذه التوقيعات صحيحة.

— هذه صور. أين الاصول يا شربيني بك؟ نعم. أين الاصول؟ أرأيت قبل الآن أورقاً كهذه؟ ان هذه ليست اوراقاً. ان هذه اوراق شيطانية ياشربيني بك. من عمل الشياطين. اتفهم؟ أرأيت صحفاً مصورة بهذه الرقة؟ انا ما رأيت صحفاً مصورة بهذه الرقة. ان هذه ليست أوراقاً يا شربيني بك. انها ألواح سحرية. أهذا تصوير يا شربيني بك؟ انظر جيداً. هل رأيت مداداً

كهذا ؟ انه بلون الدم . انه دم . ان المستندات المصورة لا تكون بلون الدم . انكر ما أقول يا شربيني بك . تأمل الكلمة الثالثة . تأمل جيداً . ألا ترى نقط الدم التي سالت من حروفها ؟ ان هذه ليست أوراقاً يا شربيني بك . ان الاوراق المصورة ليست على هذه الرقة . ألا ترى ؟ انها رقيقة كنسيج العنكبوت ، ومع ذلك فهي صلبة مشدودة تُطوى بصعوبة . أي مصنع في الأرض اخرج هذه الاوراق ؟ ان في الجحيم مصانع ورق ومصانع سيارات ومصانع ثلاجات ومصانع تصنع البشر كذلك . ان في الجحيم كل ما شئت من المصانع يا شربيني بك . ألم تسمع بذلك من قبل ؟ كيف تحمل هذه الأوراق الشيطانية يا شربيني بك . أتسمح لي أن أمسكها ؟ هذه الورقة الأولى . انظر جيداً اليها . انها قوية . انها لا تتمزق . جرب يا شربيني بك . أرأيت ورقاً لا يتمزق ؟ انها هشة كنسيج العنكبوت ومع ذلك فهي لا تتمزق . انها قوية في صلابة الفولاذ ومع ذلك فهي تُطوى . كلا يا شربيني بك . ان ما تمسك الآن ليس ورقاً وانما أدوات جهنمية صنعها حداد في قاع صقر . اقذف بها من النافذة فهي تجلب الدمار . ثم هذا المداد الدموي . انه يختفي الآن . انه يظهر . انه يختفي . انه يظهر . انظر اليه بامعان . انه ليس ثابتاً . انه يظهر ويختفي تحت البصر كلما رمشت العيون . انظر اليه بامعان ولا ترمش . انه يختفي الآن . انه يظهر . هل رأيت يا شربيني بك ؟ كلا . كلا . ان هذه صفحات من الكتاب الجديد الذي لا يصدأ أبد الآبدين . خذه الى النيابة تسخر منك النيابة . اتحب أن تجرب ؟ ان في استطاعتي ان أطمس أوراقك هذه وأردها بيضاء من غير سوء . أتحب أن تجرب يا عزرائيل؟ . اني قادم يا عزرائيل . أرأيت ؟ أين الكتابة الآن ؟ أين الكتابة ؟ أجب أين الكتابة؟ ولكني لن اسلبك مستنداتك يا شربيني بك . مستندات . مستندات . ها ! ها ! ها ! مستندات . انت تحمل صحائف بيضاء يا شربيني بك. ولكني سأرد اليك مستنداتك. يا عزرائيل عليك لعنة حسن مفتاح . اتصدق الآن ؟ أحمل هذه الوثائق الآن لتغير مجرى

التاريخ . ولكني سأجعلك أضحوكة عام ١٩٤٦ . ستكتب صحف اليمين بالبنط الصغير نبأ جنون ضابط بالبوليس السياسي ، اما صحف اليسار فسوف تكتب بالبنط الأكبر في الصفحة الأولى : « ممدوح الشربيني في مستشفى المجاذيب » . كلا ، يا شربيني بك . انت رجل عاقل . أقذف بهـذه الأوراق من النافذة . احرقها تتصاعد منها انتن البخور . أتعرف من يكون القزم الأعرج الذي زارك هذا المساء يا شربيني بك ؟ انه عزرائيل . لقد تحدثت ربع ساعة مع عزرائيل . أنكر يا شربيني بك . أنكر . ان القزم الأعرج كان يلبس حول رقبته رباطـــاً كثير الألوان فيه رسم مشنقة وعظام متقاطعة وجماجم متناثرة . ان القزم الاعرج كان يحمل عصاً من الخرتيت . كذّب ما أقول . أنكر ، يا شربيني بك . كذّب ما اقول .

ولكن الصاغ ممدوح الشربيني لم يحول بصره عن حسن مفتاح ، وأيقن انـــه مخبول . وبدا عليه الارتباك ، واراد ان يقول شيئاً فلم يجد ما يقول . ان حسن مفتاح مخبول . ما نفع الكلام مع رجل مخبول ؟ لسوف يجمع اوراقه . لسوف ينهض . لسوف ينصرف . ولكن ما العمل ؟ ان حسن مفتاح مخبول . أيقصد الى اللجنة المركزية ؟ انه جاء في مهمة خاصة . خطيرة . ولا بد من اتمامها . ثم ان الوقت قد أزف . لم يبقَ الا ساعات . ما الساعة الآن ؟ انها التاسعة والنصف. لم يبق الا ثلاثون ساعة أو نحوها حتى يطلع الفجر الجديد . ولكن الفجر الجديد لن يطلع . ان الملازم سلامة ينتظره بالخارج في قهوة قريبة . لا بد ان الملل قد قتله . لم يبقَ الا ان يقصد الى اللجنة المركزية ولعله واجد بـين اعضائها عضواً عاقلا يتحدث اليه. ماذا يعمل بالملازم سلامة ؟ ان الملازم سلامة هو الوحيد الذي يعرف السر. لقد كان يجب ان يتركه للجنة المركزية تتصرف فيه بما ترى. ولكن حسن مفتاح مخبول . أمخبول هو حقاً ؟ لعله يدعى الخبل . انه لم يكن مخبولاً منذ دقائق. انه كان يجادل جدال العقلاء منذ دقائق . متى أصابه الخبل ؟ فجأة؟ حين رأى الوثائق ، وأيقن أنه هالك ؟ لعله يدعيّ الخبل . نعم. لعله . ولكنـــه

على كل حال مضعضع الأعصاب طول الوقت . انه لم يرَ حسن مفتاح في مثل هذا الضعف من قبل . انه لم يرَ حسن مفتاح في مثل هذا الشحوب من قبل . انها كثرة العمل . انها اقتراب الساعة . ولكن ، من يدري ؟ لعله رأى الشيطان . ان الشياطين كائنات موجودة ، وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك ، فهي تعوي كلما انتصف الليل حول الاهرام . وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك. انها تسدعليه الطريق الصغير عندفيلا الشربيني، وتنبح في الظلام كالكلاب الجائعة كل ليلة ، ولولا انوار سيارته لما استطاع أن يصل الى داره كل ليلة . ممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك . ألم يصدم بسيارته عدداً عظيماً منهافقطع ذيولها وتركها جريحة تئن الى مطلع الفجر عند مدخل الطريق الصغير المجاور قرب محطة ترام استوديو مصر ؟ ولكن حماته كانت تنكر انها شياطين ، وكانت تزعم انها جان وكانت تحاضره طويلاً في الفرق بين الشياطين والجان . أما اصحابه في المكتب فقد زعموا انها ارواح الملايين الذين سُخّروا عشرين عاماً في بناء الاهرام . شياطين جان أرواح عفاريت ما الفرق ؟ قد يكون هناك فرق ولكنها جميعاً كائنات مزعجة ، وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك . ألم تلبس الشياطين خمس نساء في أسرته ؟ إن بيوت اقربائه لم تخل سنة من الزوار . ألم توشك زوجته ان يلبسها عفريت في الصيف الماضي ؟ لقد أرادت ان تقيم الزار في فيلا الشربيني ولكنه عرف كيف يعالج الموقف . انها كانت متعبة حقاً . وقد أحسن صنعاً حين أعطاها مائة جنيه لتقضي الصيف في الاسكندريه. لماذا لا يكتب أحد مقالاً في هذا الموضوع ؟ أن العفاريت تخرج اذا ذهبت الزوجات الى المصايف . ان هذا يوفر النفقات ويكتم الفضيحة ويضع حداً لفضول الجيران . ثم أن بعض الناس يسخرون من الزوار وأصحاب الزار . نعم . لا شك في وجود الشياطين . وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك . ثم ان هناك حماته . وحماته لم يلبسها شيطان واحد وانما لبستها شياطين كثيرة . بعضها حمراء وبعضها صفراء وكلها عنيدة وقديمة . كلا . ان حماته هي الشيطان ذاته ، فكيف تلبسها الشياطين . انه كثيراً ما نظر الى عينيها المغوليتين ووجهها

الطويل وقرر ذلك. ثم ان هذا القزم الاعرج الغريب ذا الشارب الأسود الكثيف والفم اللئيم والعينين الضيقتين. انه لا يفهم . انه جاء من المجهول وذهب الى المجهول عزرا عبد الله . ما أغرب هذا الأسم . انه ما سمع بهذا الاسم من قبل . ولكنه يعرف يهودياً اسمه عزرا ويسمع بآخر اسمه عزرا كان نجاراً قبطياً في الجيزة . جائز ان يكون هذا اسم الرجل . ولكن ماذا دفعه الى الشهادة ؟ انه لم يفهم . عزرا عبدالله رفض شيكاً بمائة جنيه تحت الحساب . لعـــله استخف بالأجر . مؤامرة لقلب نظام الحكم تساوي عشرة آلاف جنيه . اكـــثر . ان الحكومة تعطي المرشد الى كل قاتل سياسي عشرة آلاف جنيه . ولكنه لم يساوم . ثم انه لم يترك عنواناً . غريب . نعم ، انه قال أنه يعرف طريقه اليهم كلما احتاجوا اليه . ولكن ماذا دفعه الى الشهادة ؟ اذا لم يكن يطلب مـــالاً فماذا دفعه الى الشهادة؟ ان ممدوح الشربيني لم يرَ رجلاً يأتي بعمل إلا من أجل المال الا الشيوعيين. ولكن من يدري ؟ لعل الشيوعيين يطلبون السلطة أو الشهرة أو التماثيل أو حكم التاريخ . هناك أمور كثيرة لا يفهمها ممدوح الشربيني . أنه يعرف أن الناس لا يضحون بلا مقابل . وهؤلاء الشيوعيين لماذا يضحـون ؟ أن ممدوح الشربيني لا يفهم هذه العقلية. أن أكثر من يعرف من الشيوعيين رجال معقولون. حتى البنات بينهم كلهن مثقفات وكلهن رشيدات . أنه لا يفهم كيف يرضى رجل معقول أن يجازف بعنقه أو يقضي حياته بين جدران السجون مقابل تمثال أو صفحة في كتاب التاريخ. لا بد أن بهم خبلاً. هو مثلاً شيوعي، ولكنه يقبض على الشيوعيين مقابل وظيفته . هو مثلاً شيوعي ولكنه لا يفكر أن يضحي بمرتب شهر ليرى العدالة تتحقق على وجه الأرض . حتى الآن . انه جاء حقاً لينقذ حسن مفتـاح واللجنة المركزية من حبل المشنقة أو من سجن مدى الحياة ولكنه يعرف لماذا يفعل ذلك . أولاً لأنه يريد أن ينتقم من الحكومة التي فجعته في أحلامه وقضت على مستقبله وثانياً لأنه يرى كفة الشيوعيين راجحة ، ولا شك أن العهـــد الجديد سيحتاج الى خبرته ، وثالثاً لأنه شيوعي . نعم انه يؤمن أن النظام القائم خرب حقاً ولا بد من إزالته واعادة تعميره . على كل حال هناك أمور تحير العقل، منها

حسن مفتاح ، منها الشيوعيون . منها الشهداء . لماذا يستشهد الشهداء ؟ ترى فيم يتأمل حسن مفتاح ؟ ان بصره لا يتحول عن مصيص السقف . انائم هو ؟ أنه كالنائم تحت قوة سحرية . أن ممدوح الشربيني لا يرى شيئاً في مصيص السقف . لعل حسن مفتاح يرى اشياء لا يراها هو . ولكن حسن مفتاح مجنون ، وأجدر بممدوح الشربيني أن ينصرف عنه . أن القزم الأعرج غريب مـا في ذلك شك . ولكن كل ما قاله حسن مفتاح عن الأوراق هراء تام . أين هو المداد الدموي ؟ انه لا يرى مداداً دموياً . ان المداد الذي يراه أحمر حقاً وغريب حقـاً ولكنه ليس دموياً . ثم إنه لا يظهر ولا يختفي كما زعم حسن مفتاح . ثم أنه ليس مداداً على الاطلاق لأن الاوراق مصورة . ولكن الاوراق غريبة كما قال حسن مفتاح. من قال انها مستحيلة ؟ لا بد انها اختراع جديد . ثم كيف تصنع الاوراق في الجحيم ؟ ان هذا هراء . ان في الجحيم مصانع سيارات ومصانع دراجـــات ومصانع ثلاجات . ما هـــذا الهراء ؟ أولى بممـدوح الشربيني ان ينصرف عن هذا المخبول . ولكنه سمعه يقول : « يا عزرائيل ، اني قادم يا عزرائيل . » عزرا ؟ عزرائيل ؟ عزرا ؟ عبد الله ؟ ألسنا جميعاً عبيد الله ان عزرا عبد الله هو عزرائيل . ان حسن مفتاح ليس مخبولاً وانما يرى ما لا يراه غـــيره . ان القزم الاعرج قال ان أسمه عزرا . ان حسن مفتاح نادى عزرائيل . اليس هذا توافقاً غريباً ؟ ان عزرا عبدالله لا يمكن ان يكون اسم رجل . لا بد ان يكون القزم الاعرج عزرائيل . ولكن كيف عرف حسن مفتاح ؟ لا بد ان القزم الأعرج قد زاره . كلا . انه لا يذكر الرباط الكثير الألوان . مشنقة ؟ عظـام متقاطعة ؟ جماجم منشورة ؟ انه لا يذكر، نعم . انه لا يذكر الآن . انه كان يحمل عصاً من الخرتيت. ولكن كيف عرف حسن مفتاح ؟ ان في الأمر ما يحير . كيف؟ كيف؟ كيف ؟ كلا . كلا . كلا. محال . محال . محال . انــه يتحدث الى مجنون ولو طال مقامه في هذه الدار لأصيب كذلك بالجنون . ان عزرا عبد الله لا بد أن يكون رجلا . رجلا حقيقياً . من لحم ودم . لا بد انه واحد منهم قرر أن يخون اللجنة المركزية . ليس غريباً ان يخرج منهم خائن . وهو ممدوح الشربيني، أليس

يخون الحكومة ؟ ألم يزر حسن مفتاح ليسلمه الوثائق ؟ نعم ، لا بد أنه واحد منهم وقد قرر ان يخون اللجنة المركزية . ربما بدافع الانتقام . ربما . من يدري ؟ وهو ، ممدوح الشربيني ، أليس يخون الحكومة بدافع الانتقام ؟ ألم يقل عزرا عبد الله أن بينه وبين حسن مفتاح حساباً يجب أن يصفيه بنفسه ؟ انه يفهم الآن . ان حسن مفتاح ماكر خبيث . انه يصطنع الجنون . انه يلعب به. ولكنه لا يعرف الغرض من زيارته . ولو عرف لفرح به . لعانقه بدل هذا العناد . ما أعظم هذا الرجل . أنه لا يتراجع حتى أمام الوثائق . أنه لا يتراجع حتى وهو مريض . ترى ماذا يغريه بالسقف . ترى ماذا يغريه بالصمت ؟ لا بد من ايقاظه . انه يحلم . الساعة العاشرة . كنيسة سان جوزيف تدق الساعة العاشرة . . الملازم سلامة ينتظر . لابد من الأنصراف . لا بد من ايقاظه :

ـ يا استاذ مفتاح .

ـ نعم يا شربيني .

ـ انتبه جيداً .

ـ ماذا تريد ؟

وغض حسن مفتاح بصره الى وجه ممدوح الشربيني ، ونظر اليه مستفهماً . قال ممدوح الشربيني :

ـ أأنت معي تماماً ؟

ـ نعم ، تكلم .

ـ انا لا أفهم ماذا أصابك ، ولكن الوقت ضيق ولا بد لي من الأنصراف . أتعرف انك حدثتني منذ لحظة عن الشياطين ؟

ـ نعم اذكر ذلك .

ـ اصغ اليّ . انا لا أفهم ماذا أصابك . يخيل الي انك مجنون . يخيل اليّ انك تمثل دوراً . أنا لا أفهم ماذا أصابك . ولكن أصغ اليّ جيداً . لقد جئت لأحذرك . جئت لأخبرك ان الحزب الشيوعي في خطر عظيم . أن هذه الوثائق تكفي لأرسال ثلثمائة رجل الى المشنقة أو الى السجن المؤبد . أتفهم ما أقول ؟ وسواء أكان القزم الأعرج عزرا عبد الله أو ... أو عزرائيل فهذا لا يمنع ان الوثائق صحيحة .

ـ ولم لا تقوم بواجبك ؟

ـ لم لا أقوم بواجبي ؟ واجبي ؟ صه . انا أعرف واجبي . أنا هنا لأسلمك الوثائق . أتفهم ما أقول . انها المستند الوحيد ضدكم . دمرها . أحرقها . أتفهم ما أقول ؟ هيا أنهض ، وأغسل رأسك بالماء البارد لتصحو تماماً ، وطف باعضاء اللجنة المركزية واشرح لهم الأمر ليحتاطو له . وعلى كل فلا بد من القبض عليكم . ولكن لا خوف من ذلك اذا أحرقت الوثائق . انها كل ما معنا لادانتكم . نعم . لا بد من القبض عليكم . لا حيلة لي في ذلك . وسأقبض على ثلثمائة منكم قبل فجر ١١ يوليو ولكن على كره مني . لا حيلة لي في ذلك . لا تنسَ اني رئيس قسم مكافحة الشيوعية . لا تنسَ اني مأجور للمحافظة على سلامة الدولة . فسواء أكان القزم الأعرج عزرا عبد الله ام عزرائيل فقد بلّغ عن المؤامرة أمام الملازم سلامة وناولني الوثائق أمام الملازم سلامة . أن لم اقبض عليكم قبض عليّ . سوف أدّعي طبعاً أن الوثائق سرقت من درج مكتبي ، ولكني لا أستطيع أن أنكر البلاغ الشفوي . هناك أمر آخر . انتبه جيداً يا حسن مفتاح . اذا أردت أن يسير كل شيء طبقاً للخطة الموضوعة فأمامك الملازم سلامة . تخلص منه ، أترككم احراراً . أنه الشاهد الوحيد على ما كان ، واذا اختفى الشاهد الوحيد نسي ممدوح الشربيني كل ما حدث منذ ساعتين . لا تسلني كيف التخلص من الملازم سلامة فهذا ليس شأني . كل ما

أقوله هو : اذا اختفى الملازم سلامة الى الأبد اختفى عزرا عبد الله الى الأبد . ولكن الوقت ضيق . اليك الاوراق . لا تضعها في جيبك . احرقها امامي . سأمهلكم أربعاً وعشرين ساعة . سوف أسكت الملازم سلامة أربعاً وعشرين ساعة . فأن لم يختف الملازم سلامة أعددت العدة للقبض عليكم . اذا لم يختف الملازم سلامة أحرقوا كل مـا يدين . لا تحاولوا الهرب . أحرقوا كل ما يدين . اليك الاوراق. هيّا ، أحرقها . هيّا الى الحمّام نحرقها معاً .

ــ كلا . كلا . لن ادخل الحمام . هنا . هنا على الأرض .

وعجب الصاغ ممدوح الشربيني لهذا الاعتراض العصبي المفاجىء ، ولكنه لم يعلق عليه بشيء وانحنى الرجلان ورفعا جانباً من البساط فأنكشف ما تحته من بلاط ملون بعضه مربعات بيضاء وبعضه مربعات سوداء . وتأكد الضابط من سلامة عقل حسن مفتاح حين رأى اهتمامه ولهفته . وذهبا معاً يتأملان الأوراق وهي تحترق بسرعة نادرة كأنها صنعت من المغنسيوم . وفي لحظات كان المدخل مشحوناً بالدخان الأبيض الكثيف وحين نهضا حملق حسن مفتاح طويلاً في وجه ممدوح الشربيني، وأراد أن يشكره بعينيه ولكنه أستفهم بعينيه كذلك . وقرأ ممدوح الشربيني الحيرة في وجه حسن مفتاح ، فقال مبتسماً :

ــ اتريد ان تعرف لماذا ؟ لن أخفي عليـــك شيئاً يا استاذ مفتاح . المسألة بسيطة . أتذكر بعثة الحجاز ؟ نعم ، أنت تذكرها فقد حدثتك عنها منذعامين يا استاذ مفتاح . أتذكر كيف كنت أعلق عليها أكبر الآمال ؟ لقد سرقها مني وزير الداخلية وأعطاها لأحد أقربائه بلا مسوّغ . بلا مسوّغ يا أستاذ مفتاح . لقد كبدتني الف جنيه . بلا مسوّغ . بلا مسوّغ يا استاذ مفتاح . لقـــد كانت البعثة في جيبي فبعت عقاراً وأسهماً بالخسارة لأستثمر المال في الحجاز . ولكن هذا لا يهم . كل هذا لا يهم يا استاذ مفتاح . انا رجل لا يعرف الأحلام يا استاذ

مفتاح . انا رجل لا يعرف الأحلام يا استاذ مفتاح ، وبعثة الحجاز كانت الحلم الوحيد في حياتي . لقد فجعت في هذا الحلم فجيعتي في الحياة . الف جنيه كبدني هذا الحلم . كذلك كبدني هذا الحلم شرفي وديني . انت تعرف جيداً يا استاذ مفتاح اني رجل شريف ، رجل متدين ، ولكني لم ابح لأحد قط بما حدث . أتذكر يوم قبضنا على روزنشتاين والدكتورة سميرة خلوصي والميكانيكي زعيتر ؟ في صباح ذلك اليوم ، استدعاني وزير الداخلية وطلب إلي ان أشهد زوراً بأنهم كانوا يحملون منشورات معادية للنظام الملكي ، وحين اعتذرت عن ذلك لوّح امامي ببعثة الحجاز قائلاً ان الدولة تقدر خدمات المخلصين من رجالها ، قائلاً ان كفاياتي المتعددة ينبغي ان تستثمر في الخارج ، قائلاً ان مصر لن ترسل الى الحجاز الا رجلاً في مثل تفانيّ ونشاطي ، ثم ودعني الى الباب بأدب لا مثيل له . وأين بعثة الحجاز ؟ طارت . بعد ذلك بشهر نسي وزير الداخلية كفاياتي ونشاطي واخلاصي وتفانيّ وسائر الصفات التي اسبغها على يوم حادث قهوة وستمنستر . انا ممدوح الشربيني ، الرجل المتدين الذي يؤمن بالله وبرسوله وبملائكته وباليوم الآخر ، اشهد شهادة الزور . ان اكثر زملائي يشهدون شهادة الزور كأنهم يشربون جرعة من الماء المثلج في حر أغسطس ، فلا تقف الكلمات في حلوقهم . العادة يا استاذ مفتاح . العادة . اما أنا فقد أحتقرت نفسي منذ ذلك اليوم . وبعد ان هدأت أعصابي وفكرت ملياً احتقرت وزير الداخلية ، وأنا الآن أحتقر النظام بأكمله ، النظام الذي لا يعيش الا في جو من التزييف والتزوير والايقاع بالابرياء ، النظام الذي لا يقترن الا بالمحسوبية والرشى والنهب الصارخ . ثم هناك مستقبلي يا أستاذ مفتاح . اتعلم كم يتقاضى الصاغ ممدوح الشربيني بعد عشرين عاماً قضاها في خدمة هذا النظام ؟ اثنان وثلاثون جنيهاً يدخل فيها البدل وعلاوة الزوجة . ماذا بقي الآن من حياتي ؟ أتفهم الآن لم انا ثائر ؟ نعم ، انا ثائر . سوف آتيكم بجميع ملفات القلم السياسي ، نحرقها ونبصق على رمادها . نعم ، أنا ثائر . ولو اني تحققت الآن من انتصاركم بعد غد لظاهرتكم علانية ، لقدت حملة من رجال البوليس وهاجمت وزارة الداخلية واستوليت عليها في

ساعة واحدة. لا تنس اني ضابط يا أستاذ مفتاح رغم ملابسي الملكية. والضابط بعد غد يساوي خمسمائة من الرعاع الذين تسمونهم بروليتاريا . ولكني أشك في انتصاركم يا استاذ مفتاح . أشك . أشك . على كل حال انا مرتاح الضمير . أمام الله انا مرتاح الضمير . أمامكم أنا مرتاح الضمير . لا تنسوا ممدوح الشربيني ، صاغ خبرة عشر سنوات في مكافحة البغايا وتجار الحشيش والشيوعيين وكل حزب من أحزاب المعارضة، حامل نوط الجدارة لاعتقال بلطجي شرير دوّخ الحكومة سبع سنوات ، وأخيراً خادمكم المطيع ، خادم البروليتاريا . المهم . مع السلامة يا أستاذ مفتاح ؟ البروليتاريا . البروليتاريا . المهم . مع السلامة يا استاذ مفتاح . لا تنس ان الملازم سلامة على قيد الحياة .

ونظر الصاغ ممدوح الشربيني الى ساعته وتمتم قائلاً : « العاشرة والنصف » . وانتظر قليلاً متوقعاً من حسن مفتاح أن يقول شيئاً ، ولكن حسن مفتاح؟ تدبر الأمر ولم يجب . وأحب حسن مفتاج ان يشكر ممدوج الشربيني بصفة غامضة ولكنه آثر الصمت خشية ان يؤخذ الشكر عليه . ومد ممدوح الشربيني يده مصافحاً فضغط عليها حسن مفتاح بقوة عبّرت عما بروحه من الامتنان . وسعى بممدوح الشربيني في الدهليز الضيق حتى بلغ به الباب ففتحه له ، وصافحه مرة أخرى على نور السلم . وعلى نور السلم مال ممدوح الشربيني على حسن مفتاح وأسر في اذنه عابساً :

لا تنس ان الملازم سلامة على قيد الحياة . لن أخفي عليك شيئاً يا استاذ مفتاح . ان الملازم سلامة زميلي منذ عامين ومرؤوسي منذ عام وجاري منذ ستة أشهر ، ولكن اختفاءه يحل كثيراً من مشاكلي الشخصية . لن أخفي عليك شيئاً يا استاذ مفتاح . انا مشتبه في ان الملازم سلامة على اتصال بزوجتي . مشتبه لا أكثر . مشتبه جداً . أقول لا تنس ان الملازم سلامة على قيد الحياة .

وانصرف الصاغ ممدوح الشربيني على عجل ، وهو ينظر من جديد الى

ساعته . واغلق حسن مفتاح بابه ووقف في الدهليز لحظات يفكر . ثم التقط الحقيبة الملقاة وراء الباب وعاد بها الى المدخل . وفي المدخل جلس على الكرسى الاسيوطي العظيم يدخن ويفكر .

انه ترك ممدوح الشربيني يتحدث طـول الوقت ، وخيراً فعل . انه اخـذ ولم يعط ، وخيراً فعل . ان رجال القلم السياسي ينصبون الفخـاخ باستمرار ، ولعل هذا فخ جديد من فخاخهم . ولكن حسن مفتاح لم يقل حتى كلمة شكر ، فلن يؤخذ عليه شيء . وكيف يشكر ؟ لئن شكر البوليس عاد البوليس يجادله . « علام تشكرنا يا استاذ مفتاح . انت لا تشكرنا على ازعاجك طبعـاً . انت تشكرنا على انقاذك من حبل المشنقة . ولكننا نقبـل منك الشكر . ألم ننقذك من حبل المشنقة؟ ما قيمة هده الاوراق المحروقة ؟ لا بد ان لها قيمة . لا تشكرنا يا استاذ مفتاح . انك تعترف ونحن نشكرك . لا تشكرنا يا استاذ مفتاح . » ولكن حسن مفتاح رغم ذلك كان شديد الايمان باخلاص ممـدوح الشربيني ، فذهب يقلّب الأمر على جميع وجوهه ، وكلما سلك سبيلاً وجده مسدوداً . وكف عن التفكير من فرط يأسه . وبدأ يحس بالجوع . ولكنه لم يتحرك من مكانه . ان الثورة في خطر . لا بد أن يقصد الى اللجنة المركزية ويعلن لهـا ان الثورة في خطر . ان الاعضاء مجتمعون منذ أسبوع في بدرون بشارع الفلكي ، وهم ينتظرونه منذ ساعتين ولكنهم فيما يشبه الاجتماع الدائم الذي لن يرفض قبل فجر ١١ يوليو ، بل أن أكثرهم ينام في البدرون ، لا بد انهم بحاجة اليه . ولكن كيف يعلن لهم ان الثورة في خطر ، ايحدثهم عن عزرائيل ، كلا . انهم سيظنون به الظنون . نعم . سوف يحدثهم عن ممدوح الشربيني وقزمه الأعرج دون تعليق ويترك لهم حرية التفسير . نعم . هذا هو الحل الأمثل . لا بد من تصفية الملازم سلامة . خسارة . ان الملازم سلامة شاب وسيم ودمث الأخلاق . ولكن

لا بد مما ليس منه بد . اليس جائزاً ان ممدوح الشربيني قد اختلق كل هـذه الحـكاية ليتخلص من الملازم سلامة ؟ ان الملازم سلامة يفسد عليه زوجته . هكذا يقول ممدوح الشربيني . اذا كان الامر كذلك ، فلماذا لا يتولى ممدوح الشربيني تصفيته بنفسه . ان القتل ليس بعيداً عنه . ألم يقتل الطلبة في المظاهرات بمسدسه لا برجاله ؟ ولكن هذا أمر آخر . ان قتلهم اداء للواجب . الواجب . الواجب . ماذا يفهم ممدوح الشربيني عن الواجب . انـه يقتل الاحرار اداء للواجب ، ولا يقتل عشيق زوجته اداء للواجب ، ان للبشر منطقاً يحير العقل . الواجب يعادل اثنين وثلاثين جنيهاً في الشهر . انه يقتل رجالاً لانـــه يتقاضى اثنين وثلاثين جنيهاً في الشهر ، ولا يقتل رجلاً لأنه أفسد زوجته . ولكن منطق البشر لا يحير العقل . كل هذا طبيعي . انه يقتل لسبب سخيف فيكافأ بمدالية ويقتل بسبب وجيه فيجازى بجز عنقه . أن ممدوح الشربيني خائف على عنقه . ان ممدوح الشربيني معذور . لعله الآن يتحسس عنقه . ولكن حسن مفتاح يتحسس عنقه كذلك . ان كل من في القاهرة يتحسسون أعناقهم ، حتى جلاد الدولة يتحسس عنقه . ان ممدوح الشربيني معذور . ولكن ما صلة هـــذا بالسياسة . أن اللجنة المركزية لن تغتال رجلاً لتحل مشاكل ممدوح الشربيني . ولكن هب روايته صحيحه بحذافيرها ، فلا مفر من تصفية الملازم سلامة . لابد من اطلاعهم فوراً على الأمر . فوراً . ولكن البدرون ليس به تليفون . سيروي لهم ما قاله الضابط دون تعليـــق . ولكن اليس ينبغي تصفية الصاغ ممدوح الشربيني كذلك ؟ انه يعرف عنهم أكثر مما ينبغي . ما الفرق بينه وبين الملازم سلامة ؟ هبه غير رأيه أو طمع في منصب خطير أو ثرثر عفواً . النتيجة واحدة . نعم . لا بد من الحزم . التاريخ لا يصنعه الاطفال . سوف ينصح اللجنة المركزية باغتيال الصاغ والملازم جميعاً . ولكن ما جدوى ذلك ؟ ان الاوراق التي احرقها مصنوعة في الجحيم . والمصنع الذي صنعها يستطيع ان يصنع أمثالهـــا . ان عزرائيل يستطيع في ثانية واحدة ان يضع نسخة من هذه الأوراق على كل مكتب

في القلم السياسي ، على كل مكتب في ادارة الامن العـــام ، على كل مكتب في وزارة الداخلية ، لا بـد من تصفية القلم السياسي بأكمله . لا أمل . لا أمل . على كل مكتب في الحكومة المصرية اذا أحب . أما من سبيل الى اغتيال عزرائيل ؟ ولكن جسده لا ينفذ فيه رصاص . لا تمزقه سموم . لا يخنقه غاز . لا يدمره ماء . لا يتلفه حريق . انه لن ينصـح بقتل أحد . لو ان قتـــل الضابطين ينفع لقتلهما بيده . ولكنه لا ينفع . ما العمل؟لا عمل . ان ممدوح الشربيني حسب حساب الملازم سلامة ولكنه لم يحسب حساب عزرائيل . لا أمل . لا أمل . ان ممدوح الشربيني لا يفهم كيف يدخل عزرائيل مكاتب الضباط في بدلة سوداء متوكئاً على عصا الخرتيت . ان ممدوح الشربيني ظـنّ لحظة انه مجنون . ولكن ممدوح الشربيني معذور . نعم ، معذور . ان حسن مفتاح لو روى الحقيقة لطفل يلعب بدمية لظن الطفل انه مجنون . إن حسن مفتاح يظن أحياناً في نفسه الجنون . لماتحدث غرائب الامور له ولا تحدث لسواه؟ لن يصدقه من أهل الأرض كلهم الا مونا ربيع . مونا ربيع وحدها . ولكن الا يكفيه ذلك؟ ماذا يهمه ما يرى الناس ما دامت مونا ربيع تصدقه ؟ نعم . لن يقصد الى اللجنة المركزية وانما سيقصد مونا ربيع . فان لم تصدقه مونا ربيع ! مــاذا يحدث ان لم تصدقه مونا ربيـــع ؟ يبدو ان كل سبله قد سدت . انه كان يطمع أن يتزوجها بعد أن تقام كوميسارية الشعب وتستتب . ماذا يحدث أن لم تصدقه مونا ربيـع ؟ سوف تظن ما يظنه الآخرون . ان مونا ربيـع لن تتزوج مجنوناً ولو كان على رأس كوميسارية الشعب . ولكنه لن يرى كوميسارية الشعب تقام . انـــه استرسل في الأحلام اكثر مما ينبغي . أنه نسي موعده مع عزرائيل . ان حكاية الهرب من عزرائيل حكاية سخيفة . كيف الفرار من عزرائيل ؟ ان لعزرائيل يداً طولى تدركه ولو أختفى في أعمق الفجاج ، تدركه ولو اختبأ في فيافي التبت أو استخفى في رياش الديكة أو في جلود الجرذان ، تدركه ولو انتقل الى كوكب آخر . ما كان أسخفه حين جمع أشياءه في الحقيبة . ان الفزع ضيع صوابه . ثم ان عزرائيل كان شهماً فوثق به . كلا . هو لن يفر من لقاء عزرائيل . كلا .

لن يقص على مونا ربيع شيئاً مما كان . انها تحبه . انها تحملق فيه كما تحملق في أبطال الأساطير . انها توشك أن تتعبد له كأنه اله بعيد . لسوف يختفي على كل حال، وخير له أن يختفي في صمت من أن يختفي مجنوناً. لن تقول مونا ربيع : « لقد مات حبيبي مجنوناً . » ان الآلهة لا تصاب بالجنون . سوف يقال أنهارت اعصابه . سوف يقال أفرط في العمل . سوف يقال فر من المعركة . ولكن لن يقال مجنون . سوف يقال . ولكن الحقيقة لن يعرفها أحد . أنه يعرف بابطال فروا من المعركة . سوف يقال . ولكن لن يقال مجنون . كلا . لن يقص على مونا ربيع شيئاً مما كان . لسوف يختفي على كل حال . فان لم يف بموعد عزرائيل ، جاءه عزرائيل واخذه أخذ عزيز مقتدر . ولكن ما العمل؟ ان اللجنة المركزية تنتظره . يا للسخرية . السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي رجل ملعون . انه لا يملك ما يقوله للجنة المركزية . بأي حق يشغل مركزه الآن ؟ انه لا يملك نفعاً للجنة المركزية . انه قادم على رحلة طويلة مع عزرائيل . انه رجل ملعون . ثم أن موعد عزرائيل قريب . لا بد ان يستقيل . ماذا يقول في كتاب الاستقالة ؟ لن يقول شيئاً . سوف يقول لأسباب صحية . كلا . لأسباب خاصة . ولكنه لا يستطيع أن يواجه اللجنة المركزية . سوف يرسل كتاب الاستقالة عن طريق مونا ربيع . لا بد ان تجد اللجنة المركزية بديلاً له قبل الفجر الجديد . ولكن الفجر الجديد لن يطلع . لسوف يساقون جميعاً الى السجن . الى أجل . إلا اذا احرقوا الوثائق . الكارثة اذا لم يحرقوا الوثائق . أو يخفوها . انه مل التفكير . أن الليل أوشك ان ينتصف . ترى اين مونا ربيع الآن ؟ لعلها في اللجنة المركزية . ولكنه سيجرب المتروبوليتان هوتيل اولاً . ولكنه لن يقول لمونا ربيع شيئاً مما كان . سيقول انه مسافر في رحلة طويلة . سيقول أن امامه موعداً هاماً ولا بد من الوفاء . كلا . لن يقول شيئاً من ذلك . سوف تسأل الأسئلة. سوف تظن الظنون . سيقول انه يستقيل وكفى . وكلما سألت فسوف يقبلها حتى تنصرف عن السؤال . فان الحت في السؤال الح

في الرفض . سوف يقبلها كثيراً . كثيراً . اكثر من العادة . ولكنه لن يحدثها عن موعده . كثيراً . أكثر من العادة . سوف تفهم كل شيء فيما بعد .

ومد حسن مفتاح يده الى التليفون بعسر شديد . وحين أوشك ان يمسك بالسماعة رن جرس التليفون ، وانكمشت يد حسن مفتاح بسرعة كأنها مست عقرباً . وتردد طويلاً في التقاط السماعة ، ولكنه تناولها اخيراً . وحين سمع صوت المتحدث هدأت نفسه . قال :

– مونا . اين انت الآن ؟

قالت :

– بجوار اللجنة .

قـال :

– اكل شيء على ما يرام ؟

قالت :

– نعم . صفوان تسلم ربع مليون نسخة من الأعلان الصغير وعشرة آلاف من الاعلان الكبير . والجيار وزع المواسير الطويلة حسب الكشف ، ولكن المواسير القصيرة والإدشاش لا تزال في مصر الجديدة . متى ستحضر ؟

قـال :

– اعتذري للزملاء نيابة عني .

قالت :

– انتظرك ؟

قال مضطرباً :

— اسمعي يا مونا . أعتذري للجماعة عن ساعتين . لا بد ان اراك بمفردك . بمفردك . بعد ربــع ساعه في المتروبوليتان . قولي أن حسن مفتاح سيقبل نحو الثانية صباحاً . قبل الثانية صباحاً. سليهم أن ينتظروني جميعاً . جميعاً . لأمر خطير . أعتذري لهم بما فيه الكفاية . لا بد ان اراك . لا بد ان اراك .

١١

حين اجتاز حسن مفتاح الممشى الطويل المفروش بالطابق الثالث من فندق متروبوليتان رأى باب مونا ربيع شبه مقفل والنور يتسرب من المسافة القليلة المفتوحة . وحين دفع الباب وجد مونا ربيع واقفة أمام المرآة في روب من الحرير الأحمر تتعطر وتصلح من شعرها ، فاغلق الباب بخفة متناهية ، ووقف ينتظرها حتى فرغت . وأحست مونا ربيع بوجود حسن مفتاح في غرفتها وان لم تره يدفع الباب او تلمح خياله في المرآة . وبعد ان أصلحت من شأنها نهضت بخفة وسعت اليه وقد استولت عليها أفراح عصبية وعانقته عناقاً طويلاً حاراً فيه قبلات عديدة . وعجب حسن مفتاح لهذا الفيض المفاجيء من العواطف الجامحة . وتبلبلت أفكاره فلم يدر كيف يبتديء . وفيما كان رأسها ملقى على كتفه اجال بصره في الغرفة فتجددت في عينيه ألوانها . ورأى فيها معاني لم يرها من قبل دائماً . وجاءت نسمات الليل من النافذة المفتوحة فعبثت بالستائر الحمراء الثقيلة واكدت في نفسه هذه المعاني وشم اريجاً في جو الغرفة مشى في قلبه بالحياة ورده عشرة أعوام الى الوراء ، فنسى كثيراً من متاعبه وانصرفت عيناه الى السرير بصورة عريزية وشخصتا اليه زمناً وثبتا على اطلسه الأحمر الخفيف ، وثبتا على تماثيل كيوبيد البرونزية الدقيقة القائمة في اركانه. ولكنه ادرك ما تفعله عيناه فأستحى وغض من بصره . وتحرك فيه الربيع المتأخر الدفين تحت الأهوال الشداد وعظائم الامور فطفق يقبل مونا ربيع حتى أمسكه لهب . وتدبر لحظة كل ما كان وفكر في الاختفاء في غرفة مونا ربيع حيث

الحب يصرع الشياطين والاريج القوي يطرد الارواح الشريرة . ولكنه عدل عن افكاره وعاد يتأمل البنت الملتصقة به . ولم يعد لديه شك في ان مونا ربيع تريد ان تحبه الليلة . وتعقد عليه الأمر أكثر من ذي قبل . اما عقله فقد كان كاللوحة الصدئة ذات النقوش القديمة ، فقد كان مكدوداً كما كان حائراً . وفي وسط هذا الغبش العقلي عجز عن التفكير الجـــدي ثم يئس من التفكير الجدي . فاستسلم للألوان الجميلة التي نهبت بصره نهباً تحت النور الكبير . واستسلم للعطر المنتشر في الغرفة وللهواء المعطر بروائح لا يعرف لها أحد مصدراً ، وقنع بمدركات الحواس وحدها . انه كان يسعي لهذه اللحظة منذ ان عرف مونا ربيع ، فكــانت هي ابداً تقيم بينهما ملايين الغلائل التي تشف عن كل ما وراءها ، ولكنها رغم ذلك تحول دونه . ها قد سقطت آخر غلالة أو كادت ان تسقط . وهو لا فضل له في ذلك ، وهو على أهبة السفر . ان كل شيء يحدث دفعة واحدة . لماذا يحدث كل شيء دفعة واحدة ؟ لماذا انتظرت مونا ربيع حتى هذه اللحظة ؟ في اللحظــة الأخيرة ؟ لماذا في اللحظة الأخيرة ؟ ان لمونا ربيع منطقاً يحير العقـل . ولكن مونا ربيع لا تعرف ان هذه اللحظة الأخيرة . أليس هذا أدعى للعجب ؟ انهما جاء ليحب بل جاء ليقول الوداع . ترى لم تستسلم مونا ربيـــع الآن ؟ ان وراء نظرتها السطحية انهاك شهور متراكمة . انها لم تنم الا ساعات قليله طوال الاسبوع الماضي ، ومع ذلك فهي تبتسم . انها أفرطت في الشراب في الاسبوع الماضي ، ولكن جميع اعضاء اللجنة المركزية قد أفرطوا في الشراب في الاسبوع الماضي، ولعلهم الآن يغنون ويرقصون حول الملفات في بدرون شارع الفلكي . ولكن، حسن مفتاح في حيرة من أمره . انه ما رأى مونا ربيع مقبلة عليه هذا الاقبال من قبل . انه سعى لهذه اللحظة منذ ان عرف مونا ربيع . اللحظة موجودة . ترى اينتفع من اللحظة ؟ ولكنه ما جاء ليحب وانما ليقول الوداع . كلا . انهما جاء ليقول الوداع ، وانما جاء ليحذر اللجنــة المركزية . يجب ألا ينسى . واذا كانت عيناه تنصرفان بانتظام الى أطلس السرير والى تماثيل كيوبيـد فينبغي ان يضع حداً لذلك . وبعد ان يضع لذلك حداً يستطيع أن يرفع الحد . يستطيع

ان يرفع كل الحدود . أما الآن فينبغي ان يضع الحد . فليضع حداً للقبلات أولاً ، وبعد ذلك يستطيع ان يتدبر ما سيقول . كيف يبدأ ؟ كيف يبدأ ؟ ولكن حسن مفتاح لم يبدأ ، فقد دفعته مونا ربيع بخفة قائلة :

– والآن يا حبيبي .

– أكل شيء على ما يرام ؟

– نعم ، كل شيء .

– وأنت ؟

– على ما يرام .

– هل أجلس على حرف السرير ؟

– اذا شئت .

– اجلسي أمامي .

– هكذا ؟

– كلا . هكذا . ألا تحبين الهواء ؟

– نعم ، احبه .

– والآن . الآن . نقطة نقطة . أولاً : لماذا لم تسافري ؟

– اتنتظر مني أن أهرب ؟

– كلا ، ولكنك خدمت بما فيه الكفاية .

– كذلك صفوان والجيار وسعدية والباقون .

– نعم ، نعم . ولكن الحوادث القادمة لا قبل للنساء بها .

– ولمَ لم تشتر تذكرة لسعدية الطويل ؟

ـ هذا موضوع آخر .

ـ كلا . بل هو ذات الموضوع .

ـ ولمَ اشتري تذكرة لسعدية الطويل ؟

ـ لأن الحوادث القادمة لا قبل للنساء بها .

ـ ولكني لا أحب سعدية الطويل .

ـ أأنت تشتغل بالسياسة أم تشتغل بالحب ؟

ـ الآن . الآن . أنا لا أستطيع أن افصل . كل ما أعرفه هو أن القاهرة الآن ملغمة بالبارود ، وبعد أربع وعشرين ساعة سوف ينفجر كل شيء . كل ما أعرفه هو أننا جميعاً في خطر . خطر أكبر . ثم الوحشية . الوحشية . أنت لا تفهمين ما الثورة . انت ملاك . نعم الوحشية . برك الدماء . القتلى بالآلاف . برك الدماء . الرصاص الطائش . المشانق في الشوارع .

ـ أنت مجنون اذا انتظرت مني أن أهرب .

ـ أنا لا أنصحك بالهرب .

ـ بمَ تنصح اذن ؟

ـ بالاعتكاف . اعتكفي اسبوعاً واحداً . سوف ينجلي كل شيء بعداسبوع ، واللجنة لن تستغني عن خدماتك حين يبدأ التعمير . نعم . حين يبدأ التعمير .

ـ يا للعار . وكيف أرفع رأسي بعد ذلك .

انت متعبة . أي عار في التعب . ان من حقك أن تتعبي .

ـ انت آخر من أنتظر منه هذا الكلام .

ـ مونا .

ـ لا تجادل .

ـ مونا .

ـ نعم .

ـ ماذا يكون حالي لو حدث لكِ شيء ؟

ـ وماذا يكون حالي لو حدث لك شيء ؟

ـ نحن رجال . نحن معرضون . هذا جزء من عملنا .

ـ أفق يا حسن . ان الحب يعميك .

ـ أمعك التذكرة ؟ ربما استطعنا مدها .

ـ كلا ، معي ثمنها ، فقد رددتها أمس .

ـ وماذا يكون الحال لو فشلت الثورة ؟

ـ لو فشلت الثورة ؟ أقول عشنا معاً ونموت معاً. لو فشلت الثورة؟ أتحسب اني لم أفكر في ذلك ؟ نعم . أقول عشنا معاً ونموت معاً . وأية حياة لي من بعدك ؟ لن تموت وحدك يا حبيبي . لو فشلت الثورة . نحن شركاء يا حبيبي. انهم يطلبون رأسك يا حبيبي . آه . لو فشلت الثورة . ماذا يحدث لو أعفوني من المشنقة ؟ ولكني سأنتحر. نعم، سأنتحر، سأنتحر لو مسك سوء. فان سلمت عشت ولو في السجون لاكافح معك من جديد . نحن شركاء يا حبيبي . ولكن الثورة لن تفشل . كيف تتحدث عن الفشل ؟ ماذا اصابك ؟ أخائف أنت ؟ ان الثورة لن تفشل . لا . لا . لن تفشل . لن تفشل .

ـ مونا .

ـ نعم يا حبيبي .

– ان الثورة قد تفشل .

– . لا . لا . لا . أنت خائف يا حسن . يا للعار . ماذا يقال ؟ حسن مفتاح يضعف . حسن مفتاح يشحب لونـــه ؟ ولكنك متعب يا حسن . قـــل انك متعب .

– اصغي إليّ جيداً يا مونا .

– اذا ...

– لقد جدّت امور يا مونا . ان البوليس يعـلم بالمؤامرة وسوف يقبض على ثلثمائة شيوعي قبل فجر الغد . ان ممدوح الشربيني زارني هذا المساء وروى لي كل شيء . قال ان رجلاً ما تقدم اليه بتقرير شفوي عن المؤامرة وسلمـه نسخة مصورة لأكثر ما معنا من الوثائق . وقد سلمني ممدوح الشربيني كل مـا وصله من أوراق تدييننا واشتركنا سوياً في احراقها . نعم . ان النسخ كانت صحيحة ، لا شك في ذلك . لقد امتحنتها بنفسي يا مونا .

– من يكون الخائن ؟ من يكون الخائن ؟

– انا اعرف من يكون .

– من هو ؟

– أرجو أن تعفيني من الاجابة يا مونا ، ولكنه ليس واحداً منا ، وفي هذا بعض العزاء .

– ولكن كيف ... كيف توصل ؟

– أنا أعرف كذلك كيف توصـــل ، ولكني أطلب عفوك مرة اخرى ، سوف تعرفون كل شيء . سوف يعرف الناس كل شيء ، كل شيء في حينـــه .

بالتفصيل . بالتفصيل . بالتفصيل يا مونا . سأدون كل شيء غداً بالتفصيل .

– وماذا دفع ممدوح الشربيني الى هذا العمل الجنوني ؟

– انه ناقم على الحكومة . انه ساخط . ساخط . ان ممدوح الشربيني رجل ، والرجال حين يسخطون يثورون . المهم الآن هو هذه الملفات يا مونا . أتعرفين بيت سمير حجازي ؟

– ومن يكون سمير حجازي ؟

– ابن عمتي الذي يغازل عنايات ممدوح ويدعي الاهتمام بمحاضراتنا ليحاول الاتصال بها .

– نعم ، اذكر سمير حجازي ، ولكن سعدية الطويل هي التي تعرف العنوان .

– انه في الزمالك ٣١٥ شارع الجبلاية . اجمعوا كل الملفات . اخفوها في بيت سمير حجازي . ان مفتاح البيت معي . خذيه يا مونا . ان سمير حجازي في الاسكندرية ولن يعود الا بعد اسبوع . ان في البيت تليفوناً وهذا يسهل الامور كثيراً . انتدبوا رجلاً قوياً مسلحاً يسهر على الملفات ولا يغادر التليفون . انتدبوا رجلين يتناوبان الحراسة ، واذا هوجم البيت فلتحرق الملفات . انها كل ما معهم لادانتنا . لقد فرغت من القوائم السوداء وسوف تجدينها في آخر هذا الملف . انقلوا الملفات قبل الصباح . اياكم ان تنتقل ورقة واحدة خارج البيت . انتدبوا واحداً منكم ... انتدبوا نور الدين ليقرأ كل شيء بالتليفون اذا لزم الأمر .

– ونحن ، انختفي كذلك ؟

– ان اختفاء كم دفعة واحدة يقوي الشبهة . تذكروا ان النيابة لا تملك دليلاً واحداً ضدكم . تذكروا ان اعتقالكم لن يطول .

ـ كلا . كلا . لن نستسلم بهذه السهولة . لسوف نقاوم لسوف نسير في الخطة كما رسمناها . لسوف نختفي وليبحث عنا ممدوح الشربيني ما شاء ان يبحث . لسوف ندير الثورة في الشوارع ، من السراديب ، من المنـــازل المهجورة ، من المقابر . كلا . كلا . لن نستسلم بهذه السهولة . أنا أطلب عرض هـذه المسألة للمناقشة .

ـ العقل . العقل . نحن لن نستسلم ، نحن قد استسلمنا . نحن هزمنا . نحن هزمنا قبل ان تبدأ المعركة . تذكروا ان عدتنا الأولى هي الصدمة المفاجئة . تذكروا ان عدتنا الثانية هي طوابير الجيش . ماذا تملك البروليتـاريا بغير الجيش . سيروا في الخطة الموضوعة وتحملوا التبعة . أما أنا فأنفض يدي . نعم أنفض يدي . ان حسن مفتاح يدير الثورة ولا يدير مذبحة . ثم الفشل . فكروا في الفشل . أنا لا أقصد اعدام الزعماء وتشتيت المجاهدين . ولكن الفشل يؤخر الحركة ربع قرن . لن ترفع البروليتاريا رأسها الا بعد ربع قرن . ان الشعب جبان يا مونا . سوف يختبيء الشعب في جحوره كالفيران الخـائفة . سوف تنشط الجماعات المهادنة . سوف يكثر المهادنون الانتهازيون ويحدثون في جبهتنا صدعاً . سوف تنهار عضوية الحزب . لا تطلبوا المحال . لا تهاجموا الطواجين . كلا . كلا . ان الخطأ أفظع من الخيانة . ان الثورة الفاشلة جريمة . سيروا في الخطة وتحملوا التبعة . أنا أنفض يدي . اختفوا اذا شئتم . أما أنا فبـاق في الملكة فريدة . هناك امور تحدث بين السماء والأرض لا تعرفون عنها شيئـاً . ماذا أقول ؟ ماذا أقول ؟ أأقول ان السماء غاضبة عليكم ؟ ماذا تقولون لو قلت ذلك ؟ أأقول أن بينكم رجلاً نجساً يجلب عليكم اللعنة ؟ ماذا تقولون لو قلت ذلك ؟ أتقولون أن حسن مفتاح يهذي ؟ ولكن هناك اموراً تحدث بين السماء والأرض لا تعرفون عنها شيئاً . أما أنا فقد رأيتها بعيني وسمعتها بأذني . ان بينكم رجلاً ملعوناً . ولا ترضى السماء عنكم قبل أن يخرج من صفوفكم. انبذوه. انبذوه ترحمكم السماء .

– عمن تتحدث ؟

– أنا هو . أنا الرجل الملعون . انبذوني . اللعنة يا مونا . أتعرفين ما اللعنة يا مونا ؟ ان بينكم رجلاً مطارداً . أأقول ان الشياطين تطاردني ؟ كلا . كلا. أنتم لا تؤمنون بالشياطين . أنا لا أؤمن بالشياطين ، ولكني ملعون . أينما ذهبت جررت اللعنة . انبذوني قبل أن يفوت الأوان . لن أبوح بأكثر من هذا . أنا لست مجنوناً . أنا لست متعباً . أنا لست خائفاً . ان حسن مفتاح لا يخاف . الخوف ؟ ها . ها . ها . ان الخوف من شيم البشر. أما أنا فقد فقدت انسانيتي . منذ . . . منذ . . . منذ ليلة المونسنيير . أتعرفين لم أخلفت موعدك ؟ لقد حدثت أشياء . لقد حدثت أشياء غير مألوفة . أنت تصدقيني يا مونا ؟

– نعم .

– نعم . انت تصدقيني يا مونا . لهذا سألتك ان . . . هات يدك أقبلها . يا للراحة . قبلة أخرى . ان يدك تشفي المرضى . امسحي بيدك على جبيني ، لعل اللعنة تخرج ، نعم ، هكذا . بأصابعك يا مونا . تخللي شعري بأصابعك يا مونا ، نعم . هكذا . انت تصدقيني يا مونا . لهذا سألتك المجيء . أتحسبين اني استطيع أن أواجه اللجنة المركزية بكل هذا الحديث ؟ كلا . كلا . انهم لن يصدقوا ، انهم لن يفهموا . لسوف يقولون مسه خبل ، ولكني لا أكترث. يكفي أن مونا تصدق ، يكفي ان مونا تفهم ، البشرية ، ماذا تفهم البشرية ؟ ولكن هذا عجيب . اني أتحول . اني أتحول . كيف حدث هذا يا مونا ؟ لقد حدثت المعجزة . لقد سقط عن البشرية مدلولها . لم يعد في العالم كله الا مونا ربيع ، ترى كيف حدث هذا ؟ أنا لم أكن أفهم الا المجردات ، أنا لم أكن أتحدث الا عن الجماهير ، أنا لم أفكر الا في التاريخ . الانسانية . الشعب ، تيار الحياة . كل هذه أمست عندي كلمات جوفاء . ان في العالم الفا مليون ولكني لم أعد أكترث الا بشخص واحد هو مونا ربيع ، كيف ارتددت الى

هذه الفردية المطلقة ؟ ان هذه معجزة يا مونا . كيف حدثت المعجزة ؟ أنا الآن طفل . الطفولة اليانعة يا مونا . وأنت الأم ، الأمومة الشاملة يا مونا ، والجزء يعود الى الكل . الطفل لا يعرف الا ثدي أمه ، يتحسسه بيـــده الصغرى ، ينهشه بيدهالصغرى. يقبل عليه بفمه الأصغر ،الكون عنده تركز في شبر من اللحم ، كلا . هذهليست معجزة . هذه سنة قديمة . انت الأم يا مونا . أنا الطفل يا مونا . انت منبع الحياة ، اريد أن أعود الى المنبع ، انت الكل يا مونا ، أنا الجزء يا مونا أريد أن أعيش في الكل ، أنا اتحدث كالمجانين ، ولكني لست مجنوناً ، لو سمع نعيم هذا الكلام لقال : « ان زعيمنا يشكو مركب أوديب » ، لو سمع صفوان هذا الكلام لقال : « ان زعيمنا انحرف الى الوجودية المتعفنة » ، لو سمع الجيار هذا الكلام لقال : « ان زعيمنا خائف ، ان زعيمنا يفر من المعركة » ، ولكن اللجنة المركزية لا تفهم كل شيء ، انت وحدك تفهمين ، انت وحدك ، وحدك . يا جايا . قبلي ولدك بروميثيوس . ان الهواء معطر . ان صدرك اثقلته الفاكهة ومن جسدك تنبع الحياة . أنا لا أهذي يا مونا . أمجنون أنا ؟

وسكت حسن مفتاح وانتظر . ولم تجب مونا ربيع فوراً فقد كانت تمزقها احساسات شتى كلها متضاربة ، منها الدهشة ومنها الحنان ومنها اليأس ومنهـا الغضب ومنها دوافع الجنس . وأوشكت أن تقول : « نعـــم . أنت مجنون » ولكنها ضبطت لسانها ، فقد أحست في قرارة نفسها ان هناك بعض الصدق فيما يقول . ولم تكن تدري ما الحق وما الضلال ، ولكنها كانت تعـــلم أن حسن مفتاح ليس رجلاً كسائر الرجال وانما هو مخلوق غريب في حياته ألغاز لا تُفهم وفي طينته عناصر لا تدخل في تركيب البشر . كانت تعلم ذلك منذ قبلها تحت النور القوي في مدخل داره بشارع الملكة فريدة . وحين سمعت كل ما قـــال اضطربت نفسها ولكن هاتفاً عميقاً أوحى اليها بأنها تفهم ما يقول . وحاولت أن تفهم فلم تفهم ولكنها أحست بأنها تفهم . وساءها من كل ذلك أن يبدأ حسن مفتاح في التصدع الى عناصره الغريبة الأولى في هـــذا الوقت العصيب

بالذات . وكان أول ما فعلت ان انصرفت الى قراءة عينيه كما كانت تفعل في القديم فرأت حدقتيه قد أتسعتا وشردتا وخيل اليها انهما ترى ما وراءهما بوضوح . ورأت الحزن العميق النابع من الأغوار . وتذكرت مرة أخرى عيون الكلاب المسحورة في « ألف ليلة وليلة » . وكادت ان تبكي . وبدا لها أن تسأله عن حقيقته لتعرف سره الأكبر ، ولكنها أكتفت بأن أجابت :

— لا تخف . فأنت بكامل عقلك .

وزحف حسن مفتاح على حافة السرير حتى خرج عنها وانحنت ركبتاه رويداً رويداً فاذا به راكع عند قدمي مونا ربيع واذا رأسه ملقى على حجرها واذا هو في بحران ، واذا به يحدث نفسه قائلاً : « الغفران . الغفران . » ومونا ربيع صامتة احشاؤها تتمزق . ولكن صلاته لم تطل ، فقد نهض بهدوء وعاد الى مكانه من السرير وأدمن النظر الى أرض الغرفة كأنه لا يقوى على مواجهة مونا ربيع . وبدا عليه انه يجاهد قوة خفية تدفعه الى افشاء سره . وأخيراً قال :

— ولكن الأمل لم يضع تماماً . اسمعي يا مونا وتذكري كل كلمة أقولها . لا أحد يعرف بالمؤامرة الا ممدوح الشربيني والملازم سلامة . لا أحد . هكذا قال ممدوح الشربيني ، لا أحد حتى هذه اللحظة . ممدوح الشربيني قال ان الملازم سلامة وحده كان في مكتبه حين دخل الشاهد وأدلى بتقريره وسلم الأوراق . ممدوح الشربيني قال انه كان يحب أن يقاتل في صفوفنا لولا خوفه من العواقب . نعم . ممدوح الشربيني قال انه لا يملك السكوت علينا ما دام الملازم سلامة على قيد الحياة . قال انه سيقبض علينا بنفسه ، قبل فجر الغد ، ما دام الملازم سلامة على قيد الحياة. قال اذا اختفى الملازم سلامة نسي ممدوح الشربيني كل ما يعرفه عن المؤامرة . انه يمهلنا حتى التاسعة مساء ، فاذا لم ننتفع بهذه المهلة أدى هو واجبه . نعم ، انه ينصح بقتل الملازم سلامة لأنه يعرف أكثر مما ينبغي أما أنا فانصح بقتل الصاغ ممدوح الشربيني كذلك. ان ممدوح الشربيني يعرف أكثر مما ينبغي كذلك . أمامكم نهار كامل وبضع ساعات . واذا اقيمت

كوميسارية الشعب فلا تنسوا ممدوح الشربيني . انعموا على اسمه بلقب مجاهد من الطبقة الثالثة . ولكن لا تذكروا ان الملازم سلامة يفسد زوجة ممدوح الشربيني . كلا . كلا . انعموا على اسمه بلقب شهيد من الطبقة الثالثة . ان ممدوح الشربيني شهيد من شهداء النظام الحالي : مسكين ممدوح الشربيني . انه سقط بين الحاضر والمستقبل فخسر الحاضر وخسر المستقبل . أزيلوا سلامة والشربيني . وجربوا . نعم ، في امكانكم أن تجربوا . من يدري ؟ لعلكم تنتصرون . فاذا لم تنجحوا في اغتيالهما فالبثوا كل في مكانه . لسوف تطوف بكم عربات البوليس . ولكن لا تخافوا . ان اعتقالكم لن يطول . لقد أحرقت النسخ المصورة بيدي ، وليس لديهم ما يدينكم . ازيلوا سلامة والشربيني . ومع ذلك فلا ضمان للنتيجة . أنا لا أضمن لكم شيئاً . ان الأمر أكبر من سلامة . أكبر من الشربيني . ان القوى الخفية تحاربكم يا مونا . انكم لا تقاتلون الطغاة وحدهم . انكم تقاتلون مخلوقات ممسوخة تسكن الجحيم ليلاً وتتجول نهاراً على ظهر الأرض وتكيد للبشر كيداً عظيماً . أنا أعلم ذلك . ولكن حذار ان تسيروا في الخطة اذا أفلت سلامة أو الشربيني . ومع ذلك فأنا لا أضمن لكم شيئاً . ان السماء غاضبة عليكم . ان السماء ترسل الرسل وتفشي الأسرار ، ولعل سركم الآن على كل لسان في المدينة . ان القوى الخفية تحاربكم . من يدري ؟ لعلها تحاربكم من أجلي . من يدري ؟ من يدري ؟ نعم . انها تحاربكم من أجلي . ان القوى الخفية تطاردني يا مونا . أنت تفهمين ما أقول . أنت تفهمين أليس كذلك ؟ أنا رجل مطارد . أنا رجل ملعون . أنا أجر عليكم اللعنة ، ومن الخير ان اتنحى . ضعوا رامزاً في مكاني . نعم . من الخير ان أتنحى . هذا كل ما أملكه الآن . أن أتنحى . من يدري ؟ لعل ظلي الملعون ينقشع عنكم . لعل السماء تعفيكم من القصاص . هذا كل ما أملكه لكم . سوف أسلم نفسي . لقد وعدت بتسليم نفسي .

– كيف تسلم نفسك للبوليس ؟ ماذا دهاك ؟ ماذا دهاك ؟

ـ البوليس ؟ البوليس ؟ كلا . لن اسلم نفسي للبوليس . لسوف اتنحى . لقد وعدت بأن اتنحى . لا تنتظروني . ربما طال غيابي . نعم . ان غيابي سيطول . لا تزعجوني . سألزم داري طول اليوم فلا تزعجوني . كلا . ان السماء لا تعاديكم . ان السماء تطاردكم من اجلي . ان السماء تطاردني وحدي . انتم ابرياء . كيف تعاديكم السماء ؟ ماذا جنيتم ؟ ان السماء لا تأخذ بالنوايا . السماء تأخذ بالأعمال . انتم ابرياء . ماذا تعرفون عن القتلة ؟ ماذا تعرفين عن القتل يا مونا ؟ انت لم تقتلي بعوضة . أما أنا فقد قتلت . قتلت رجلاً . رجلاً قوياً . لهذا تطاردني السماء ولا بد من الوفاء أنا قاتل . أنا ملعون. ولكنكم في أمان الى ١١ يوليو . وبعد ١١ يوليو سوف يبدأ القصاص. بعد الجريمة يكون العقاب . القاتل يقتل ولو بعد حين . سوف تقتلون . جميعاً . ان في الجحيم مطبخاً فيه قدر عظيم ، وفي ذلك القدر تسبك الذنوب على نار زرقاء لهبها أخضر ، تسبك الذنوب ، بطيئاً بطيئاً ، حتى تنضج . وعندئذ يأتي العقاب . وتوفد جهنم رسلها الى الأرض . لقد رأيتهم . بعيني . رأيت واحداً منهم . وحين توفد جهنم رسلها للأرض تأخذ الرسل بالخناق وتزهق الانفاس . انه شيء يشبه المشانق . ستقولون يومئذ : لقد قتلنا من أجل الشعب . أنا كذلك قتلت من أجل الشعب . لكن السماء لن تقبل هذا الدفاع . ولكنكم الآن في أمان لأني سأتنحى . ان السماء تطلبني وحدي . لقد وعدت أن اسلم نفسي . سيعرف الناس كم جاهدت لأنجو . وسيبكون . جاهدت من أجلكم . من أجلكم وحدكم . من أجل الشعب . ولكن لا مفر من القصاص . لقد ورد ذلك في الميثاق الأعظم . نعم ، لا مفر من القصاص . ولكني رغم ذلك لا أضمن لكم شيئاً . ان للسماء منطقاً يحير العقل . سوف أمضي بلعنتي بعيداً عنكم . هذا كل ما أملكه لكم . فاذا غضبت عليكم السماء فلن يقيكم من غضبها شيء ، ولو قتلتم كل ممدوح شربيني . سوف أعتكف طول النهار فلا تزعجوني . رامز وكيلي فلا تزعجوني . سوف أكتب وأحرر وأقرأ قليلا .

سوف اصلي كثيرا من أجلكم . سوف أناجي القوى الخفية . سوف الاعبهـــا واجادلها واخاصمها لالهيها عنكم . ثم أنصرف عند الغروب الى الموعد العظيم . وانت يا مونا . لن أراك مرة اخرى ... ليتني كنت مؤمناً ، اذن لقتلتـــك لتحلق روحانا معاً ، وتسكنا عشاً واحداً بين وارف النخيل عنـــد الكوثر الخمري . لقد كان ينبغي ان أثبت بينكم لتجلسي الى جواري في قلوب النـاس وفي كتب التاريخ وفي كوميسارية الشعب وفي كل مكان . أين أحـلامي ؟ أين أحلامي؟ أواه يا مونا . أين أحلامي ؟ لكم همت كالشعراء المجانين في فراديس لا يرقى اليها الكوكب الأرضي . ولكني لن أراك مرة اخرى . لسوف أنصرف مع الغروب . كل شي ينقسم ثم يفني . العقارب تتوالد [illegible] يتوالد . أنجس الكائنات تتوالد [illegible] الجامدة تتوالد أما أنا فسوف امضِ قبل ان انقسم. انا ذرة من غبار جاءت بها الريح وطارت بها الريـح . أنا شجرة الصبار . آه من الجدب . آه من الجفاف . لقد يبست الياقي . لقد يبست روحي . لقد يبست في أوراق الحياة . اعطني ولدي يا مونا . أين ولدي يا مونـــا ؟ الفلاحون البله والصيادون البله والنساجون البله كلهم يخصب وكلهـــم يدوم . أما أنـــا فقائم بين الرمال المطلقة كشجرة صبار عتيدة لا أب لها ولا زوج ولا ولد . لا جذر ولا فرع ولا ثمر ولا أنيس . آه من العزلة الشاملة . آه من الوحشة الكاملة. آه من الصمت العظيم . لا تبكي يا مونا . لقد كانت لك ماجدة . وما زالت لك ذكراها . ان بكيت أنت فماذا أنا فاعل ؟ اعطني ولداً ثم اقتليـه . اعطني ولداً ثم اقتليني . اعطني ولداً ثم احبسيني بين الأبالسة الحمر في أطباق الجحيم . اعطني ولداً . ولكني أهذي لقد فات الأوان . الى الخراب الأكـبر يا حسن مفتاح . الى الفراغ الحزين . سوف اختفي مع الغروب . وحين تهبط الشمس في العين الحمئة سوف أهبط أنا الى البلقع الأعظم . أنا لا الومك يا مونا . ان حسن مفتاح يحدث مرة واحدة . ان حسن مفتاح لا يتكرر . ان حسن مفتـــاح لا ينبغي أن يتكرر . انك تفهمين سري دون أن تعرفيه . لقد أدركت ذلك يوم

ارتعشت بين ذراعي تحت النور القوي في مدخل داري . عندئذ أدركت انك تفهمين سري وان لم تعرفيه . انت وحدك فهمت سري يا مونا . بقوة الحب يا مونا . ولكنني كابرت ولكنني قاومت ولكنني طالبت باحلام ليست من نصيبي . كلا . كلا . حسناً فعلت يا مونا . ان حسن مفتاح لا يتكرر . وكيف يتكرر حسن مفتاح ؟ انه ليس مادة فيتكرر . انه ليس روحاً فيتكرر . انه .. انه ... جسد بلا روح • انه روح بلا جسد • أفهمت السر الخطير يا مونا ؟ انا روح تسكن جسداً • أنا جسد تسكنه روح • أنا العنقاء • أفهمت الآن يا مونا ؟ كلا • انك لا تفهمين . كلا . ان هذه ألغاز لا تُفهم. لا أحد يفهم ما أكون . لا أحد . حتى أنا لا أفهم من أنا . ولكنني لم أهبط من كوكب ذري ولم أهبط من كوكب فحمي فأنا من هذا العالم . وقد كنت من قبل وحدة لا تتجزأ . كان ذلك قبل ليلة الونسنيير . ولكن حسن مفتاح تجزأ في الصباح فجأة • بلا سبب . بلا ذنب • بلا انذار • تجزأ . في الصباح . عندالسلسلة نعم يا مونا غرقت عند السلسلة . تجزأت يوم تواعدنا على اللقاء. تجزأت فغاص جسدي في الماء وطارت روحي في الهواء . لهذا اخلفت موعدك يا مونا . أفهمت الآن ؟ ولكنني انتظرتك طول النهار وقبعت في الزمهرير المظلم بركن الغرفة حتى الأصيل . حتى أقبلت . ثم زحفت اليك على متن الهواء باحتراس مخافة ان تزعجك جلبتي . ودنوت من خدك وقبلتك . ألم تحسي بريح باردة تلثم خدك يا مونا ؟ نعم . لقد أحسست . لكم بكيت في الزمهرير المظلم يا مونا. وقد كان ينبغي أن أعيش. نعم. كان لا بد ان اعيش لأتم ما بدأت. نعم، من أجل الشعب كان ينبغي ان اعيش. لم اكن مختاراً كان لابد ان أقتل. أجل. لم أكن مختاراً. لقد كان ابن عمي سيدقنديل يشبهني تماماً فتربصت به بين الحقول وقذفت به في الماء الآسن العميق وكتمت انفاسه حتى خرجت روحه. وحين خرجت روحه تسللت في جسده روحي . أتسمعين عن التناسخ يا مونا ؟ هذا هو التناسخ يا مونا. نعم . لم اكن مختاراً . كان لا بد ان يموت سيد قنديل ليعيش حسن مفتاح . ولكنني

ما قتلت انتقاماً لك وانما قتلت من اجل الشعب . انظري الى عيني . نعـم . انت وحدك ترينه يا مونا . بقوة الحب يا مونا . اما الباقون . انهم ما عرفوا حسن مفتاح القديم ليعرفوا حسن مفتاح الجديد . انظري الى عيني يا مونا .ان ما ترينه حقيقة لا خداعاً . ان فيهما بصيصاً من سيد قنديل . كل شيء ينطفيء الا العيون يا مونا . انها مرايا الأرواح يا مونا . وقد خرجت روح سيد قنديل وتركت خيالها في قرارة عينيه . انه خيال حزين يا مونا . ولكن هكذا عيون الفلاحين . حزنهم قديم . من عهد مصرائيم. نعم . ان ما ترينه حقيقة لا خداعاً. والآن حان وقت القصاص . لقد زارني رسول من السماء . لا شك انه من السماء. قال إنه عزرائيل . لا شك انه عزرائيل . جاء يطالبني بجثة سيد قنديـل . ان للسماء منطقاً يحير العقل . طلبت منه ان يمهلني فأبى . لـــكم جادلت . لكم قاومت . لكم راوغت . ولكنه كان كالصخرة الصماء . ولكني لم أطلب الرحمة يا مونا . ان حسن مفتاح لا يطلب الرحمة يا مونا . أفهمت الآن يا مونا ؟نعم . انت تفهمين كل شيء . هذه هي اللعنة يا مونا . ولكن عزرائيل كان شهمـــاً كريماً فأمهلني من الغروب الى الغروب . لقد قال ان الأبطال يسعون اليــه ولا يسعى هو اليهم . لقد قال انه يكرم الأبطال . لقد ضرب لي موعداً في وادي الخفافيش الحمر . ولسوف أفي . ترى ماذا هو فاعل بي ؟ أرجو الا يعذبني عذاباً أليماً . ترى أين هو ساع بي ؟ ارجو الا يخرجني من مدارك يا مونا . هذه هي اللعنة . انت تفهمين الآن . انت تفهمين لم طلبتك على انفراد . انت تفهمين لم لا أواجه الجماعة . انت وحدك تفهمين هذه الاحاجي التي يلغز بها الزمان في آذان الأصفيـــاء . تفهمين من أين جئت والى أين ذهبت . ولسوف تدافعين عني . أليس كذلك يا مونا ؟ سوف تدافعين عني . كلما قيـــل مجنون دافعت عني يا مونا . كفى ما أتعذب . ولكنهم اغبياء . كلا . انهم بسطاء . انهم مساكين . اما نحن فقد انتهكت أمامنا الحجب وتعرى صدر السماء . اتعلمين ان الرسول الذي زارني هو الرسول الذي زار ممدوح الشربيني ؟ انه قزم وأعرج ولئـيم . وحين ترين قزماً اعرج لئيماً فاعلمي انه عزرائيل . انت تفهمين كـل شيء .

تفهمين كل ما قلته عن الثورة . تفهمين اني لم اتخلف . وحين يقال جبان سوف تدافعين عني . تفهمين اني لم انصحكم بالحذر . ان السماء تمكر بكم . ولكنك احسنت عملاً يا مونا . ان مثلي ينبغي ان يحبس في قمقم مختوم . كما تحبس الجان يا مونا . نعم ، لقد احسنت عملا يا مونا . ما انت مزرعة للشياطين . ان مثلي جذع شامخ عملاق ولكنه اجوف ويابس وقديم . أبقي شيء ؟ كلا . لم يبقَ شيء. لقد فرغت . بقي ان انصرف . ماذا ستقولين لهم ؟ لا تبوحي لهم بشيء . انهم لن يفهموا . هذه اسرار بيننا يا مونا . قد كنت اوثر ان اتناول معهم العشاء الأخير ولكنهم لن يفهموا . سوف أرسل اليك غداً رغيفاً لتوزعيه على أعضاء اللجنة المركزية في المساء . وليكن هذا عشائي الأخير مع احبائي . فنكتف بالرمز . الرمز سلب الحياة . ولكنهم لن يفهموا . قولي ، قولي ان البوليس يعلم بأمرنا . قولي ان حسن مفتاح مريض . قولي انه يوصي برامز خليفة له . غير هذا لا تقولي شيئاً . ولا تنسي جمع الأوراق. غداً ترين العجب العجاب يا مونا . لو بدا الدم يجري في الشوارع فيا لهول ما ترين . في كل ساعة تسقط غشاوة . لسوف ترين خدام الشعب يتحاسدون في خدمة الشعب . لسوف ترين خدام الشعب يتباغضون ويتناحرون ويذبح بعضهم بعضا . وفي المخادع تكثر الوساوس وفي الأحلام تزحف الأماني كأنها الأفاعي وتعض اصحابها فتوقظهم على الحقد المميت . وفي النوادي تكثر الدسائس وعلى المنابر تكال التهم بغير حساب وفي السرائر لن يجول الا خاطر واحد : « اما عنقه واما عنقي » . كل هذا لأن حسن مفتاح قد توارى ، فحسن مفتاح وحده يعرف كيف يضع كلاً في مكانه . أقول ان خليفتي رامز . سوف اكتب هذا لتقرئيه عليهم . وحين تقرئيه عليهم ضعي مسدسك على المائدة ليبصره الجميع . ولا تنسي ان تحشيه بالرصاص . فاذا تململ متململ فلا تمهلوه ، ولو كان الجيار . ان الجيار اكفؤكم جميعاً ولكنه يذكر نفسه كلما ذكر الشعب ولا يذكر الشعب الا ليذكر نفسه. أما انا فأقول لكم ان مؤمناً واحداً يغني عن جيش من العباقرة. لقد سمعتم انه قيل للزعماء الاخاء الاخاء، أما انا فأقول لكم: اقتلوا بعضكم بعضاً حتى

لا يبقى على وجه الأرض الا اصفاكم نفساً وأصلبكم عوداً . لقد سمعتم انه قيل للزعماء : الاتحاد قوة . اما انا فأقول لكم ان الخصام في سبيل الحق خير من الشركة على ضلال . لقد سمعتم انه قيل للزعماء : ان الرحمة فوق العدل ، أما أنا فأقول لكم ان من رحم خائناً فهو أخون منه وان من ظلم ليرحم فقد فرطوفرطوفرط. لقد سمعتم انه قيل للزعماء: أيتها الحرية، كم من جرائم ارتكبت باسمك ، أما أنا فأقول لكم ان ما سال من دم منذ هابيل لم يغسل الاستعباد من وجه الأرض . لقد سمعتم انه قيل للزعماء ان الغاية تبرر الوسيلة . أما أنا فأقول لكم : في الشعب تلتقي الوسائل والغايات ، ومن اتخذ الشعب غايته استغنى عن معاجم الاخلاق . قد سمعتم انه قيل للزعماء : الأعصاب نصف المعركة . أما أنا فأقول لكم : والحق نصفها الآخر . قد سمعتم انه قيل للزعماء ما استحق ان يولد من عاش لنفسه فقط . أما أنا فأقول لكم : ما استحق ان يولد من عاش لنفسه . قد سمعتم انه قيل للزعماء : يحيا اصدقاء الشعب ، ، أما أنا فأقول لكم: الموت لأعداء الشعب. قد سمعتم انه قيل للزعماء: عاش فلان زعيم الشعب، اما انا فأقول لكم من هتف لغير الشعب فقد كفر بالشعب واستوجب غضب الأجيال والآن لم يبق الا ان اباركم باسم الثالوث المقدس ماركس وانجلز ولينين ، فامضوا في الخطة ، وانشروا الذعر في الوادي حتى تتحطم السلاسل عن العبيد وتسكن السعادة فؤاد البشرية . طوبى لكم اذا عذبوكم من أجل الشعب . تذكروا ان اليأس من اختراع الأعداء ، وكلما دب اليأس الى قلوبكم فارسموا علامة المشنقة . فالمشنقة رمز الخلاص . المشنقة رمز الفداء . المشنقة باب الحياة الأبدية . المشنقة تمسح خطايا الاشرار . المشنقة تمسح خطايا الابرار . بالمشنقة تمسحون عن الشعب خطاياه . بالمشنقة تتجدد الحياة . فليحمل كل مشنقته على ظهره ولتسيروا على الطريق العالي . طريق العذاب. أمامكم انا في الحياة وفي الممات . فطوبى للمشنوقين من أجل الشعب . هذه لعنة قابيل : ان يقتل الأخ أخاه . يا الهي ! متى ترتفع اللعنة . متى ؟ متى ؟ متى ؟ متى يجري الكوثر مكان جداول الدماء والدموع ؟ لا . لا . كلكم أبرياء . أنا وحدي هو الملعون .

انبذوني . انبذوني . انبذوني .

وسكت حسن مفتاح ورسم علامة المشنقة فرسمت مونا ربيع علامة المشنقة. وبعد ان فرغ حسن مفتاح من حديثه رفع بصره الى مونا ربيع فوجدها شاخصة اليه . ووجدها تبكي . وكانت دموعها صامتة فلم يعلم انها كانت تبكي . وكان العرق ينهمر على جبينه بلا انقطاع ، ويبلل خديه ولحيته ويسيل على عنقه الواضح تحت قميصه المفتوح . وكان وجهه شاحباً شحوباً مخيفاً . وكان يلهث كأنه يحمل مشنقته طول الوقت ويصعد بها الى طريق العذاب . ورأت مونا ربيع قطرات من الدم تلطخ فمه ولكنه لم يسعل قط ، وحول شعره الناعم الجميل أبصرت غضوناً اليمة كأنما حفرها اكليل خفي من الشوك . ونهضت مونا ربيع في صمت وعادت بمنديل كبير من الحرير الأحمر وجففت به عرق حسن مفتاح . ومسحت الدم العالق في فمه ، ثم ربطت المنديل الكبير الأحمر حول عنقه العاري . ونهض حسن مفتاح قائلاً « الوداع يا مونا . الوداع يا أحبائي . » وسار خطوة يطلب الباب ، ولكنه ترنح من فرط الأعياء . وأمسكت مونا ربيع بتلابيبه وصاحت به : « لا تتركني يا معلم . لا تتركني يا معلم . » ولكن حسن مفتاح سار خطوة ثالثة يطلب الباب ثم ترنح من جديد وسقط عند قدمي مونا ربيع وانطرح على ظهره ، والزبد في ركن فمه . أما عيناه فقد جحظتا وتعلقتا بسقف الغرفة كأنهما تريان فيه شيئاً . وكان يبتسم كأنه يرى حبلاً يتدلى من السقف . وأوشكت مونا ربيع أن تولول ولكنها كظمت عويلها وفركت يديها بدلاً عن ذلك . وأرادت أن تحمله الى السرير ولكنها عدلت يأساً . واندفعت الى اليمين والى اليسار كأنها تبحث عن شيء ، وأخيراً وجدت ما تبحث عنه . رأت زجاجة البراندي على المائدة الصغيرة بجوار الحوض فسعت اليها وأفرغتها في اناء ضحل ، وحملت كوباً من الباغة الحمراء وفوطة مربعاتها حمراء الى حيث حسن مفتاح . وسقته من الكوب الأحمر ومسحت جبينه بالفوطة الحمراء . وحلت المنديل الأحمر المعقود حول عنقه فتعرى صدره الأعلى مرة اخرى وبدا عليه شعر غزير ووشم قديم . ولم تكن مونا ربيع قد

رأت الشعر أو الوشم من قبل . ومالت على صدره فقبلته ثم انصرفت الى فمه مرة اخرى تسقيه البراندي وتمسح جبينه حتى دبت فيه الحياة . وانصرفت مونا ربيع الى قدمي حسن مفتاح وخلعت نعليه ، وغسلت قدميه بالبراندى ، ولما عادت اليه الحياة تماماً تنقلت عيناه في أرجاء الغرفة فأدرك لوهلته كل ما كان . ونهض . وجففت مونا ربيع قدميه في صمت بالفوطة الحمراء . ولم يقل شيئاً من فرط الخجل . وجاء بحذائه الى حافة السرير واخذ مكانه من الفراش . وجثت مونا ربيع عند موطيء قدميه وألبسته الجورب الأحمر ، فتركها تلبسه الجورب الأحمر . ودفعت رأسه الى الوراء على الوسادة ، ومددت جسده على الأطلس الأحمر فأحس بالسعادة . ونامت مونا ربيع الى جواره وأطفأت النور .

وفي الظلام دخل الهواء من النافذة منعشاً اكثر من ذي قبل معطراً اكثر من ذي قبل ، ولكن أحداً لم يعلم مصدر العطور . ورفرف في الغرفة جناحان عظيمان قويان كالجناحين الذين رفرفا على وجه المياه قبل الخليقة . وكان حسن مفتاح مغمض العينين ، وكانت مونا ربيع مغمضة العينين ، فلم يريا الروح القدس حين دخل من النافذة مع الهواء ، ولكنهما كانا متعانقين . ورفرف في الغرفة الجناحان العظيمان القويان فسبح كل ما في الغرفة . سبحت المرآة الكبيرة المنطفئة ولاح فيها ما يشبه البصيص . وسبحت الأرض الخشبية الغامضة رغم طنافسها السميكة الحمراء . وسبح الفراش الكبير رغم انه ثقيل وصموت . ورفرف الجناحان العظيمان القويان كما رفرفا قبل بدء الخليقة . وأحس كل ما في الغرفة ببدء الخليقة . وحدثت المعجزة . واكتملت الدائرة . وولدت الياء الألف . وحين بدت تباشير الفجر رفرف الجناحان العظيمان القويان وخرجا من النافذة . وحين خرج الروح القدس من النافذة انتهت الصلاة ولم يسبح في الغرفة شيء . لم تسبح المرآة الكبيرة المنطفئة لا ولا الأرض الخشبية الغامضة ذات الطنافس السميكة الحمراء . لا ولا الفراش الثقيل . وعم الصمت المكان . ولكن الهواء

المنعش المعطر ظل منعشاً ومعطراً . اما العطور فلم يعلم مصدرها أحـد . وكان الصمت مطلقاً حتى كسرته من الخارج زقزقة العصافير التي لم تنس رغم حياتها المدنية افراح الفجر . وحين انتشر الفجر فتح حسن مفتاح عينيه فوجد انـه يعانق مونا ربيع فتذكر كل ما كان وخشي ان يصير الفجر صباحاً فنهض من الفراش . وأحس بنشاط عجيب لم يحسه في حياته وتجدد كل ما فيه فخيل اليه انه ولد ولادة ثانية . خيل اليه ان الصدأ القديم المتراكم على حواسه قـد زال ، فعيناه تبصران ما لا تبصر العيون ، واذناه تسمعان ما لا تسمع الآذان ، وشم ريحاناً من غير ريحان الأرض ، وذاق نبيذاً حلواً مـن الخمر الموعود ، ولبست ملامسه غلافاً من حرير . كذلك كانت على عقله غيمـة ثقيلة سوداء انقشعت فانطلق خياله في سموات زرقتها أبدية ولا يشوبها كدر . وسمع العصافير تزقزق في قلبه . وعرف الصفاء . وتذكر كل ما كان فـلم يعجب . وابتسم . وخشي حسن مفتاح ان يصير الفجر صباحاً فمال الى مونا ربيع وقبل شفتيها قبلة كأنهـا لم تكن . وسعى الى الباب دون ان يلتفت الى الوراء مرة واحدة . وكان يعلم ان المعجزة قد حدثت وان الدائرة قد اكتملت وان الياء ولدت الألف وان الأب صار الابن ، ولهذا لم يلتفت الى الوراء مرة واحدة . وترك حسن مفتاح مونـا ربيع راقدة على السرير مشرقة كأنها الأرض قد اخصبت . وحين بلغ حسن مفتاح الطابق الأرضي لم ينسَ ان يأمر الخادم بايقاظ مونا ربيع .

١٢

ولزم حسن مفتاح داره طول النهار يقرأ قليلاً ويكتب كثيراً . ولم يبرح مكانه المعتاد في المدخل على الكرسي الأسيوطي الضخم أمام المائدة الصغيرة المستديرة . ولم يحدث قط ما يزعجه خلا التليفون الذي تواتر دقه بين التاسعة والعاشرة ، ومدام ماريكا التي كانت تسرع الى التليفون كل مرة لتقول ان حسن مفتاح ليس بالدار . وأخيراً رفع حسن مفتاح السماعة ووضعها جانباً ، ومضى في الكتابة . وكان يكتب بسرعة عظيمة ولا يتردد ولا يراجع نفسه ولا يراجع ما كتب ولا يبحث عن شيء ولا يعيد الصياغة . وكلما فرغ من صحيفة وضعها جانباً حتى كان له من الأوراق كوم عظيم . ولم يأكل زاداً ، ولم يتناول شراباً ، ولم يدخن ، واكتمل استقلاله عن العالم الخارجي .

وكانت نفسه صافية كما كانت قبل ان يولد . حتى هواء يوليو الساخن داعب حواسه كأنه الأوقيانوس السحري الدافيء داخل الرحم. ودامت بشاشته كأن في قلبه أطياراً تغرد للخضرة الدائمة في جنان لم تدنسها اقدام البشر . وبعد ان استنفد أوراقه وضع الاوراق داخل غلاف هائل وأحكم اغلاق الغلاف، ودوّن عليه بالفرنسية « مونا مفتاح » وسلمه الى مدام ماريكا مع ارشاداته . فلما كانت الساعة الثالثة جاءته مدام ماريكا بقائمة الحساب وتصافيا . وبعد ان تصافيا استلقى حسن مفتاح على الكرسي الأسيوطي ووضع قدميه على المائدة الصغيرة المستديرة وأغمض عينيه واسترسل في التأمل . وكانت يقظته تامة فاستعرض احداث حياته منذ مولده كأنه يقلب كتاباً كاملاً لم تتمزق أوراقه الأولى .

ووقف طويلاً عند الباب الأول ووقف طويلاً عند الباب الأخير . فتذكر انه رأى يوم مولده الفيران تمشي هادئة وتتناغى على أرض الحصير أمام القط الأدهم الشرير وسمع امه تصيح : « تبارك . تبارك . تبارك » . وسمع أباه يصيح : « أعوذ بالشيطان الرجيم » وسمع اللغط يسري في القرية من بيت الخواجة عبد الملاك أبو عازر في الشمال الى بيت العمدة في الجنوب . وفي الصفحة الأخيرة قرأ ان العبيد سوف يخرجون من أوجارهم ويرفعون امام السادةهاماتهم وانالهتاف سوف يسري في المدينة من صحراء هليربوليس الى صحراء الاهرام .

فلما كانت الساعة الخامسة دخلت مدام ماريكا على حسن مفتاح مصافحة مودعة قائلة انها سوف تقضي الليلة في دار اختها . فصافحها حسن مفتاح وودعها قائلاً ان غيبته قد تطول .

فلما كانت الساعة السادسة نهض حسن مفتاح من تأملاته وذكرياته ونظر الى ساعته وفتح باب غرفته ليستقبل من النافذة ضوء الشمس الغاربة ،ولكن ضوء الشمس كان لا يزال منشوراً على أعلا الجدار. وعاد الى مكانه علىالكرسي الأسيوطي وجلس فيه معتدلاً خاشعاً يصلي . ثم نظر الى الحائط فاذا الشمس قد انكمشت ولم يبقَ من ضوئها الا القليل . ونظر الى ساعته فأدرك ان الغروب وشيك . فنهض وسعى الى النتيجة المعلقة يتأملها ودخل الحمّام وخلع ملابسه ونام في الحوض وغسل نفسه تغسيلا .

وغربت الشمس . وحين غربت الشمس ارتفعت في الحمّام أصوات هادئة وعميقة بعضها كالحديث وبعضها كالمناجيات . ثم ساد الصمت المكان . وكان الصمت كلياً . ثم اصطلحت مع الصمت الظلمة ، وكانت الظلمة كلية كذلك . وجثم على الدار ظلام صامت ، كالظلام الذي جثم على الكون قبل الخليقة .

ولم يكسر الصمت صوت أو الظلمة نور الا بعد ان انتصف الليل . فقد كثرت الاقدام الثقيلة على السلم ، وتتالى رنين الجرس . وكانت الاقدام اقدام الشرطة . فلما تتالى رنين الجرس بلا أثر ارتفع اللغط في الخارج ثم تلاشى اللغط

وارتفعت اصوات المطارق وأسياخ الحديد حتى انكسر باب الدار . واقتحم الدار ضابطان أحدهما الصاغ ممدوح الشربيني، والآخر الملازم سلامة . وانار الأول المدخل وشهر الثاني مسدسه ومن ورائهما وقف رجال الأمن وقد صوّبوا بنادقهم الى اثاث الدار . وصاح وكيل النيابة قائلاً : «يا حسن مفتاح» فلم يجبه مجيب ، بل تجاوب نداؤه في الدار الخاوية . وجال الرجال بين الغرف في غير احتشاد ، وركل الرجال الأثاث بالاقدام ومزقوا بالسونكي كل ما يتمزق . وحين تم التفتيش تجمهر الرجال حول الحمام . وكان الباب مغلقاً فتحامل عليه الضابطان حتى اطاع . وامتدت يد الصاغ ممدوح الشربيني الى النور فأنارته ودخل الملازم سلامة شاهراً مسدسه ومن ورائهما وقف وكيل النيابة . ورأى الرجال الثلاثة جثة حسن مفتاح معلقة في حبل يتدلى من انبوبة الحمام ، وقد احاطت به مئات الخفافيش المنقوشة على القوالب الصينية اللامعة في الجدران الأربعة ، كلها حمراء وكلها تهم بالطيران . وغير ذلك لم يروا شيئاً . وقرأ اثنان منهم الفاتحة ورسم الثالث علامة الصليب ، ولكن حسن مفتاح وحده رسم في الهواء الرطيب علامة المشنقة .

القاهرة اكتوبر ١٩٤٦ - باريس سبتمبر ١٩٤٧



● **عن المؤلف :**

● ولد فى **٥** يناير **١٩١٥** بقرية شارونة بمصر (محافظة المنيا) .

● تعلم فى جامعة القاهرة وجامعة كامبريدج وجامعة برنستون .

● كان استاذ الأدب الانجليزي بجامعة القاهرة حتى **١٩٥٤** ثم تفرغ للأدب وظل المستشار الثقافي لمؤسسة الأهرام بين ١٩٦٢ و١٩٨١ .

● **أهم مؤلفاته :**

بلوتر لاند (ديوان شعر)
برومثيوس طليقاً
فى الأدب الانجليزى الحديث
الاشتراكية والأدب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٠/٧٩١٥

I S B N 977 - 01 - 2573 - 3